

تاريخ التحليل

في

الإنجليزية

تأليف

دكتور محمد عبد الحميد عيسى

استاذ التاريخ الاسلامي

رئيس قسم التاريخ

كلية التربية - جامعة عين شمس

الإهداء

الى اخلى ما فى حياتى

..... وطنى

..... واهلى

..... واساندى

المقدمة

ترددت كثيرا قبل اخياري هذا الموضوع هدفا لرسالتى ولدراساتى العليا ، وذلك بسبب الصعوبات الكامنة فى هذا المجال ، كما أئنى لم أكن متاكدا من قدرتى على الوفاء بمتطلباته .

لكن من ناحية أخرى ، فإن النظام التعليمى لأمة من الأمم إنما هو الأساس الذى تبنى عليه حضارتها ، ويساعد بفعالية فى تطورها وارتقائها وبقائها . والاهتمام بالتعليم والعلم ، وفتح الباب لاستقبال التيارات الثقافية ، والتأثر بها والتأثير فيها ، دون الدوبان فى تيارها ، وعدم ضياع الشخصية الأصلية ، يساعد على الارتفاع بالمستوى الثقافى ، وعلى العكس من ذلك فإن التعصب والانغلاق على أفكار معينة ، وعدم الأخذ والعطاء يؤدى الى الركود الفكرى ، وعدم الابداع ، وما الى ذلك من عوامل ، تؤدى فى النهاية الى الانحيار والفناء .

إن الأهمية العظمى الكامنة فى دراسة تاريخ التعليم ، والتى لا تقل عن أهمية دراسة أى جانب من الدراسات الانسانية ، هى التى ألحت على ودفعتنى الى دراسته .

أما بالنسبة للسُر فى اختيار تاريخ التعليم فى الأندلس بالذات ، فدوافعى اليه ترجع الى عدة أسباب منها :

— توفيقى فى الحصول على ترشيح الدولة المصرية لى للدراسة فى أسبانيا على منحة من منح التبادل الثقافى المقدمة من الحكومة الأسبانية الى مصر .

— أن هذا الموضوع لم يتطرق اليه أى باحث على الإطلاق ، لذا
تاريخ التعليم

ما استثنينا مجموعة المحاضرات التي ألقاها المستشرق الإسباني الكبير
هوليان ريبيرا في عام ١٨٩٣ بجامعة سرقسطة .

— أن دراساتي خلال المرحلة الجامعية ، في كلية التربية بالقاهرة ،
توّهلتني للتصدى لمثل هذا الموضوع التاريخي ، والتربوي في نفس
الوقت .

وقد واجهت من الصعوبات في هذه الدراسة ، ما لم يخطر لي على
بال أبداً ، رغم علمي مقدما ببعض مشاكلها .

فالدراسات الاجتماعية عموماً ، لم تجد الاهتمام الكافي ، الذي هي
جديرة به ، وقليلة جداً الكتب والمصادر ، التي يمكن أن تلقى ضوءاً — ولو
بسيطاً — على حياة الرجل العادي ، وقليل جداً ، أن لم يكن نادراً ،
أن تجد مصدراً أو مؤرخاً ، يصور لك حقيقة العلاقة الشخصية
أو الاقتصادية بين الناس .

وبالنسبة لموضوع تاريخ التعليم ، فإن ما خلفه المؤرخون قليل جداً ،
ضاع معظمه ، ولم يصل إلينا منه إلا شذرات قليلة متفرقة ولا ينطبق
هذا على أسبانيا الإسلامية فحسب ، وإنما هو يشمل العالم الإسلامي
بأكمله ، فكما قلت : المؤلفات في هذا المجال قليلة جداً ، ويقتل من أهمية
أكثرها ، أنها نقلت عن بعضها ، أو تناولت نفس الموضوعات ، وغلبت
على هذه الكتب الاهتمامات الخلقية ، وما يجب أن يتحلى به المصالح
والتلميذ ، وواجبات كل منهما ، ومسألة شرعية الأجر ، من الناحية
الدينية .

فإذا انتقلنا إلى الأندلس ، فالمشكلة أصعب وأعقد ، فعلى الرغم
من انتاجهم الغزير في كافة المجالات ، وعلى الرغم من أن كثيراً من
كتاباتهم كانت بهدف تعليمي ، إلا أن مؤلفاتهم في مجال التعليم ، لم تتمتع
الكتب التالية :

١ - الباب في معرفة العلم والآداب ، لابن عبد ربه ، المتوفى ٣٣٨ هـ / ٩٣٩ - ٩٤٠ م (١) .

٢ - آداب المعلمين - خمسة أجزاء لأبى عمر أحمد بن محمد ابن عفيف بن عبد الله ، المتوفى ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م (٢) .

٣ - جامع بيان العلم وفضله - جزءان ، لابن عبد البر الأندلسي ، المتوفى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م (٣) .

٤ - آداب العلم ، لابن عبد البر (٤) . (ومن المحتمل أنه نفس الكتاب السابق) .

ولم يصل إلينا من هذه الكتب الا كتاب جامع بيان العلم وفضله ، ويتناول أهمية دراسة العلوم الدينية ، والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها العلماء والدارسون . والى جانب هذا الكتاب ، وصلتنا بعض الاشارات التربوية التي كتبها ابن خزم الأندلسي ، المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، وابن العربي المتوفى ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وابن الخطيب ، المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

أما علماء شمال أفريقية ، أقرب المناطق الجغرافية الى الأندلس فقد كانوا أكثر انتاجاً من الأندلسيين في هذا المجال ، فقد خلفوا مجموعة من المؤلفات التربوية الجيدة ، وأهمها كتاب آداب المعلمين لابن سحنون المتوفى ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م - أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين للقايسى

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، عن أسامي الكتب والفنون ، ص ١٥٤٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٣٩ (طبعة القاهرة) .

البغدادي : ايضاح المكنون - ج ١ ، ص ٤ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم - طبع عدة مرات .

حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٢٧٩ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ٤٣ .

المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م - وكتاب الامام في معرفة أصول الرواية
وتقيد السماع للقاضي عياض اليعصبى ، المتوفى ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ،
وخصص ابن خلدون ، المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، فصلا كبيرا في مقدمته
للعلم والتعليم ، وكتاب جامع جوامع الاختصار والتبيين للمغراوى ،
المتوفى ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م .

وفي القرن الحالى بدأ اهتمام واضح بدراسة الحياة التعليمية
والتربوية فى الاسلام ، حيث قام عدد محدود من الباحثين العرب
والأجانب بالدراسة فى هذا المصمار ، كما تم تحقيق مجموعة من
المخطوطات ، التى عاشت حبيسة المكتبات والصاديق ، خلال مئات
السنين .

قام الدكتور أحمد شلبى بتقديم رسالة دكتوراه فى جامعة
كمبريدج ، صدرت فى كتاب لأول مرة . فى عام ١٩٥١ م ، بعنوان (تاريخ
التربية الاسلامية) ، وعلى الرغم من هذا العنوان الواسع ، فان تصفح
الكتاب ، يبين أن الدكتور شلبى قد قصره تماما على المشرق الاسلامى ،
وبالذات على كل من بغداد والقاهرة ، وأنه لم يشر الى الأندلس الا فى
فقرات مبعثرة .

وقدم الدكتور أسعد طلس رسالة دكتوراه فى السوربون ، ثم
طبعت أيضا بعنوان (تاريخ التعليم فى الاسلام) ، تضمنت بعض
الاشارات الى التعليم فى الأندلس ، ولكنها ظلت أيضا كسابقتها مركزة
على المشرق الاسلامى فقط .

كذلك فان الرسالة التى تقدمها الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ،
قد ركزت على النواحي التربوية التى نادى بها القابسى ، وقارن ذلك
بآراء التربويين المشاركة ، دون أن تتعرض للنواحي التاريخية .

أما بالنسبة للتعليم فى أسبانيا الاسلامية ، فلم يتعرض له أحد فى

رسالة عملية حتى الآن ، وكل ما هناك في هذا المجال ، كما أشرت سابقا ، مجموعة المحاضرات التي ألقاها خوليان ريبيرا في عام ١٨٩٣ ، وبعد ذلك هناك عدة مقالات يوالى إصدارها من حين لآخر ، الأستاذ (جورج مقدسى) ، ويشار إليها في شأيا هذه الدراسة ، كما ان الزميل كريم عجيل حسن (من العراق) قد قدم رسالة ماجستير عن الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية نشرت عام ١٩٧٥ م في بغداد .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتها في الدراسة :

— عدم وجود مراجع وأبحاث في هذا المجال يمكن الاعتماد عليها : وخاصة أنني أردت تناول الموضوع من زواياه التاريخية . وليس من الناحية التربوية ، ولقد اضطررتي ذلك إلى البحث في مجموعات كاملة من المؤلفات . أي أنه لم يكن من الممكن أن الرجوع إلى كتاب معين ، وكان لابد من الرجوع إلى مجموعات من الكتب . وأهم هذه المجموعات ، سلسلة كتب التراجم الأندلسية .

ومن حسن الحظ أن الأندلسيين أولوا هذا العلم اهتماما كبيرا . وخلفوا لنا سلسلة متواصلة من تراجم علمائهم ، أشرت إليها عند حديثي عن العلوم الاجتماعية في الفصل الثاني : مجموعة الكتب التاريخية والجغرافية — كتب الأدب . بصورة عامة — ما أمكن رؤيته من الإنتاج الأندلسي ، أو ما كتب عن الأندلس في كافة المجالات .

— التناقض الشديد في بعض القضايا ، أو الغموض الشديد في بعضها الآخر : مما جعل تكوين رأي حول بعض الأمور مسألة صعبة جدا . وأشد هذه النواحي غموضا قضية تدخل الدولة في التعليم ، وظهور المدارس في الأندلس ، والمرتببات .

— اتساع موضوع الدراسة ، وتشعب الموضوعات المتصلة به ، فالدراسة هنا تلمس كل نواحي الحياة الأدبية والعلمية التي عاشتها الأندلس ، كما أنها ترتبط بكل ما كتب عن هذه الفترة التاريخية ، فكافة

مجالات الأدب واللغة والنحو والفن والفلسفة والجغرافيا والتاريخ
والرحلات والاجتماع والطب والهندسة والزراعة والفلك والرياضيات
والعلوم الدينية بكاملها . وإذا أردت الإشارة إلى كافة الكتب
أو المقالات الصادرة عن أحد هذه المواد ، أو على الأقل أهمها ، فإن
دراستي هذه ستتحوّل إلى سفر ضخم جداً من الأسماء والمؤلفات ،
ولذلك كنت أجدر لزاماً على الاختصار ما أمكن والإشارة إلى كتاب واحد
فقط في بعض الأحيان .

وهدفى من هذه الدراسة ، أن أقدم صورة عن التعليم في
أسبانيا الإسلامية ، أى كيف كان يتم تشكيل الفرد وتنشيطه ، ابتداء من
سنى حياته الأولى ، حتى يصل إلى أقصى ما يطمح إليه من تعلم — مبيتاً
النواحي التالية :

- متى يبدأ هذا التعليم ومتى ينتهى ؟
- الأماكن التى يمارس فيها خلال كل مرحلة من مراحل الحياة
- تعليم الخاصة ، مثل أبناء الأمراء والوزراء والقادة ، وتعليم
النساء .
- المعلمون : مستواهم الثقافى والاقتصادى والاجتماعى ... الخ
- الدولة ودورها فى التعليم .

ووضعت خطتى لنتناول هذه الدراسة على أساس أن أبدأ مع بداية
الحياة التعليمية للأطفال ، وأن أطور الدراسة مع تطوّر سن ومراحل
تعليم الطفل فأدرس أولاً المرحلة التعليمية الأولى ، وأتناولها من كافة
جوانبها :

المكان ، السن ، برنامج الدراسة ، الوقت ، المعلم ، أجر المعلم ،
تعليم البنات ... الخ .

ثم أنتقل الى دراسة المرحلة التعليمية الثانية ، مبدئيا خواصها وأهميتها ، ومتابعا أياها من نفس الزوايا التي تناولت بها المرحلة الأولى .

أما في المرحلة التعليمية الثالثة ، فانني ركزت على أمدارس في الأندلس ، وعلى الرحلة بنوعها الداخلي والخارجي .

ولقد كان من حسن حظي العثور على مخطوطة صغيرة بمكتبة الأوسكوريال تتضمن بعض اجازات من معلمين شرقيين لطلبة من الأندلس وشمال أفريقيا ، قمت بقراءتها ونشرها ضمن الفصل الخاص بالاجازة .

وتناولت في فصل خاص ، كيفية تعليم أبناء الخاصة ، وبالذات من كانوا يعدون لمناصب معينة ، مبينا في ذات الوقت الاهتمام الذي بذله الأغنياء في سبيل التعليم .

أما عن دور الدولة في التعليم ، فقد خصصت له فصلين طويلين ، أحدهما استعرضت فيه جهود حكام الأندلس ، في صالح التعليم والفقهاء والمعلمين والطلبة ، أما الآخر فقد جعلته لبعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم ، موضحا فيه بعض نقاط تدخل الدولة الفعلي ، سواء في البرنامج التعليمي أو دفع المرتبات أو بناء المؤسسات التعليمية .

ان الأهمية الكبرى لهذه الدراسة تكمن في اطلاعنا على الأسلوب الذي اتبعه الأندلسيون في تربية أبنائهم ، كما أنها تبين لنا مقدار الاهتمام الذي بذلوه دولة وشعبا في هذا المجال الحيوي علاوة على اطلاعنا على صفحة ناجحة من تاريخ أمتنا الاسلامية في العمود الوسطي .

ان أكبر المشاكل التي نعالجها في عالمنا الاسلامي المعاصر ، هي

فقداننا لنظام تربوى سليم نتبعه فى مراحل تعليمنا المختلفة ، وان
مأساتنا الحقيقية تكمن فى أننا حقل تجارب لنظريات تربوية شرقية
وغربية لا تتفق مع تاريخنا وعقائدنا وطبيعة تكويننا وكان من نتيجتها
ما نعانى اليوم من انفصام فى الشخصية ، وضعف فى المستوى .

ان دراستى لأحمد عمدة الازدهار والرشى فى فترة من فترات
الإسلام الزاهية ، ليست توقفا عند الماضى ، ولا هى دعوة للعودة
للوراء ، بقدر ما هى محاولة للتعرف على أساس ثابت يمكن أن نركن
اليه فى بناء أمتنا الحديثة .

ولعل هذه الدراسة تفيد فى التعرف على ما يجب الأخذ به : وما
يجب أن نبتعد عنه ، حتى نتمكن من بناء نظام تربوى سليم ، لتربية
أجيالنا القادمة .

وأعترف أن الموضوع جاد وخطير ويحتاج الى جهود جماعية ،
وأنى رغم كل ما بذلت أرى فيما قمت به ، أوجه نقص كثيرة ، ونقاط
تحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث ، ورغم ذلك فأننى أشعر بالرضى ،
لأننى بذلت كل ما أمكننى ، وفتحت الباب أمام غيرى لاستكمال النقص
ولازيد من التعمق والبحث .

وثمة كلمة أخيرة ، تجب الإشارة اليها فى نهاية هذا التقديم :متزعة
أعوام كان التفكير فى مجرد كتابة هذه المقدمة لا يعدو أن يكون حلما من
أحلام اليقظة وكان اليأس مخيما على أفكارى تماما ، وذلك بسبب
مشكلة المعادلات ، التى استغرق حلها ثلاث سنوات كاملة ، ومن هنا أذكر
بكل العرفان جهود الأستاذين الدكتور بدرو مارتينيث مونتانيث عميد
كلية الآداب ، بجامعة الأنونوما حينذاك ، ورئيس هذه الجامعة حاليا
والدكتور لويس سواريث فرنانديث ، أستاذ ورئيس قسم تاريخ

العصور القديمة والوسطى بكلية الآداب ، في سبيل حل هذه المشكلة الإدارية ، ومساعدتي على البدء في دراساتي العليا بالكلية في عام ١٩٧٧ •

أما في المجال العلمي فانني أركز نسكرى على ما قام به الدكتور
غويس سواريث المشرف على هذا العمل ، أشكر له موافقته على اختيار
الموضوع وتحمسه له ، والساعات الطويلة التي قضها ممي نقاشا وبحثا
ومراجعة وأعترف أنه كان المشجع في لحظات اليأس ، والحافز في أوقات
الركود وأنه لولا جهوده ومنابعته ، لتأخر هذا العمل ، ربما لعدة سنوات •

ويدين هذا العمل بالفضل الى كثير من العلماء والباحثين من العرب
والأسبان ، فلقد ساهم فيه بأبداء الآراء والاقتراحات مجموعة كبيرة
من علماء الدراسات العربية الأسبان من العاملين في الجامعات الأسبانية
والمعهد الأسباني العربي للثقافة بمدريد ، ومن المتخصصين في الدراسات
الأندلسية من كافة البلاد العربية وخاصة الدكتور السيد عبد العزيز
سالم ، مدير المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ، والذي
أعطاني من وقته وجهده الكثير في سبيل اعداد هذا البحث ، ولهؤلاء
جميعا أدين بالكثير من التوجيهات والنصائح •

كما أوجه شكري الخاص الى مكتبتي عظيمتين في مدريد ، برجع اليهما
الفضل في امدادى بكل المراجع التي استخدمتها في هذا البحث - أقصد
مكتبة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، ومكتبة المعهد الأسباني
انعربى للثقافة ، فاليهما والى القائمين بالأمر فيهما عرفاني وامتناني •

والى أصدقائي وزملائي الأسبان ، الذين نقبلوني جاهلا بلغتهم ،
ويبلدهم ، فعلموني ، وساعدوني في اجتياز كل الصعوبات التي واجهتها ،
أشكرهم من أعماقي ، وخاصة الذين ساعدوني في رسالتي هذه ، وحسنوا
من مستوى ترجمتها الى الأسبانية •

وأعترف بالفضل الكبير لصديقي الباحث الأسباني لويس مولينا
والزميلة الدكتورة مانويلا مارين ، الباحثة بالمعهد الأسباني العربي .

والى زوجتى العزيزة ، يرجع فضل كتابة هذه الرسالة على الآلة
الكتابة العربية ، وسهرها الليالى الطويلة ، فى فك رموز خطى الذى لا
يقراً ، ونقلها نقلاً صحيحاً ومنظماً على الآلة الكتابة ، فلها منى الشكر
والقدير .

وأشكر بصفة خاصة الأستاذين المودينا بيريل وأمبارو فارغاس اللتين
تولتا كتابة الرسالة باللغة الأسبانية سواء عند عمل المسودات لعرضها
على الأستاذ أو عند كتابتها للمرة الأخيرة .

وأحمد الله سبحانه على هذا التوفيق

مخبر عبد الحميد قيسى

مدريد : أول فبراير ١٩٨٠ م .

تهديد :

المسرح الجغرافي

شبه الجزيرة الأيبيرية :

هى واحدة من ثلاث شبه جزر تضرب فى البحر المتوسط ، بارزة عن جسم القارة الأوربية ، وأقصد بها كلا من شبه جزيرة البلاد اليونانية ، والبلاد الإيطالية ، والثالثة هى موضوع هذه الدراسة ، وتتشابه هذه مع زميلتيها فى تلك الخاصة ، لكنها تختلف عنهما بخواص ذاتية مستقلة تجعل منها وحدة جغرافية ذاتية ، وتنبع هذه الخواص من موقعها الفريد فى البحر المتوسط ومن هيئتها الخاصة .

وتشكل شبه الجزيرة الأيبيرية وحدة جغرافية متكاملة وواضحة ، تخطى أنها لتختلف عن كثير من البيئات المجاورة لها من الشمال أو الجنوب سواء من ناحية التضاريس أو من بعض تفصيلات المناخ السائد فيها .

وتقع هذه المنطقة فى أقصى الطرف الغربى لحوض البحر المتوسط ، وتحيط المياه بحوافها فى ٣ محيطها الكلى ، والباقى فقط هو الذى يربطها بجسم القارة الأوروبية ، حيث تقع سلسلة الجبال الشاهقة الفاصلة بينها وبين فرنسا .

ولا يتخذ سطح شبه الجزيرة لونا متجانسا ، بل على العكس من ذلك فإنه ينقسم الى عدد من الأقاليم الطبيعية المتباينة عن بعضها ، تتخللها مجموعة كبيرة من الجبال والمرتفعات والأودية والمنخفضات ، مما كان له أثره الكبير فى مسار تاريخ هذه المنطقة ، ووضع مسألة الوحدة الذاتية والعضوية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ويعبر عن ذلك أحد

الكتاب الأسبان ، قائلا « اننا في الوقت الذي نلاحظ فيه بسهولة ، الوحدة العضوية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، نلمح أيضا سلاسل الجبال المتعددة ، والضاربة في أنحاء كثيرة منها ، والمختزنة لها من طرف آخر ، مما يدفعنا الى التفكير في مسألة التمزق والتشتت الذي مارسه هذه السلاسل الجبلية داخل شبه الجزيرة على مدى القرون والأجيال » (١) .

وتقع شبه الجزيرة الأيبيرية بين خطى طول ٣٦ و ٤٤ شمالا ، وبين خطى طول ٣ شرق جرينتش ، و ٩ غرب أي أنها تتسع في المنطقة المعتدلة الشمالية ويحيط بها المحيط الأطلنطي من الغرب ، ويحدها من الشمال البحر الكانتابري وجبال البرتات ، والبحر المتوسط من الشرق والجنوب الى أن يتحول بالمحيط .

وتمتد شبه الجزيرة من الشمال الى الجنوب ٨٦٨ كم ، ومن الشرق الى الغرب ١٠٩٢ كم ، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٦٦٠ مترا (٢) .

والمساحة الاجمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية ٥٨١٦٦٦ كم^٢ ، تحتل منها البرتغال ، التي تقع في غرب أسبانيا ، ٨٨٧٤٠ كم^٢ فقط ، وتشغل أسبانيا باقى المساحة ، وهناك بعض الجزر الخارجة عن هيكل شبه الجزيرة ، وهى جزر البليار ، وأرخبيل الكنارى ومساحتها الكلية ١٢٢٨٦ كم^٢ (٣) . وأشير الى هذه الجزر هنا ، لأن المسلمين أقاموا في جزر البليار ، كما عرفوا الكنارى وأسماها (جزر الخالدات) .

ويتباين المناخ في شبه الجزيرة الأيبيرية حسب الموقع الجغرافى لكل اقليم ، وان سادته بصفة عامة السمات السائدة في منطقة البحر المتوسط . وقد يغطى هذا المناخ أيضا المناطق بالقرب من المحيط

(1) Saldevila; F. : Historia de España; 111.1

(2) Garangex, Ernesto : Nueva Geografia Universal;

111. 345.

(3) Sopena : Geografia de España: 1. 24.

Vila; Valentf : La Peninsula Iberica. p. 21.

الأطلنطي ، أما الأقاليم الشمالية فينتسب إلى مناخ وسط أوروبا •
ويعطى ذلك كله أجمية خاصة لشبه الجزيرة ، كما أنه يتمييز في تنوع
نباتاتها ، وطيائع الإنسان فيها ، وبالتالي تنوع الانتاج •

والأندلس ليس تعبيراً جغرافياً ثابتاً ، بل هي كلمة تعني مناطق أسبانيا
الإسلامية ، سواء اتسعت هذه المناطق لتشمل كل شبه الجزيرة الأيبيرية
تقريباً في الأعوام الأولى من الفتح ، أو اقتضرت على مجرد مدينة غرناطة
في عام ١٤٩٢ م •

نفى أعوام الفتح الأولى ، كانت كلمة الأندلس تعني شبه الجزيرة
للأيبيرية تقريباً ما عدا الجزء الشمالي الغربي ، ثم بدأت الممالك الأسبانية
المسيحية في التشكل وبدأت حرب الاسترداد ، وبالتالي النمو المستمر ،
ذلك النمو الذي كان يعنى في الوقت نفسه تنبؤ الأرض الإسلامية ،
أو تناقص المساحة التي تتضمنها كلمة الأندلس • وهكذا عند سقوط
الخلافة القرطبية كان الخط الفاصل بين أسبانيا الإسلامية وأسبانيا
المسيحية يمتد من جنوب برشلونة في خط متعرج في اتجاه الغرب حتى
يلتقى مع المحيط الأطلنطي عند أعلى البرتغال الحالية تقريباً •

أما على عهد المرابطين والموحدين فإن الأندلس كانت تديناخت
كثيراً ، وانحصر الخط الفاصل إلى الجنوب كثيراً ، وخاصة في إقليم
الوسط وأصبح لغاؤه مع المحيط ، يقترب من جنوب البرتغال الحالي •

ثم سقطت الدولة الموحدية ، وزدادت حدة الاسترداد بشدة ،
واقتضرت الأندلس على مملكة غرناطة ، التي تأكلت قليلاً ، حتى سقطت
المدينة في نهاية الأمر •

وقد اكتفيت هنا بهذا العرض الجغرافي ، الذي يحدد أن كلمة الأندلس ،
أو تعبير أسبانيا الإسلامية ليس قاصرا على ما يعرف اليوم بـ (أندلسيا)
وإنما هو كان يشمل كل المناطق التي خضعت للمسلمين ، أو بمعنى أدق ،
المناطق التي صلت لسكنى المسلمين مسكنا دائما ، بصرف النظر عن
خطوط الحدود العسكرية . أما الاستعراض التاريخي لهذه الفترة ، فإننى
سأتناوله فى الفصل الخاص بالدولة والتعليم .

المسبب الأول

الدولة والتعليم في الأندلس



الفصل الأول

منذ الفتح الى نهاية الدولة الأموية

(١) بقسوة :

ان العلاقة بين الدولة والعملية التعليمية ، تنبع من الدين الاسلامي ذاته ، حيث أن ذلك الدين ليس فقط شعائر يؤديها العبد نحو خالقه ، بقدر ما هو نموذج حياة متكامل يتناول كل ما يتعلق بالإنسان نحو ربه ونحو نفسه ، ونحو الناس ، ويحدد كافة الحقوق والواجبات ، التي يجب على المؤمن اتباعها .

ومن هنا ، أفقصد أنه انطلاقاً من تلك القاعدة ، قاعدة أن يدرك الناس قواعد دينهم ، وبالتالي أسس حياتهم ، ومنطلقهم الى تكوين شخصيتهم داخل المجتمع . ومن ثم صياغة هذا المجتمع على أسس تتلاءم وقواعد دينهم ، كان لابد من التعليم ، ولابد من التربية المتكاملة للناس وتعريفهم بهذه الأسس والقواعد التي يجب عليهم الانطلاق منها الى كافة باقى مظاهر حياتهم الأخرى . اذا فالعلاقة بين الدين الاسلامي والتعليم هي علاقة عضوية ، علاقة يمكن أن نقودنا الى القول ، بأن الدين في حد ذاته ليس الا عملية تآممية ، بدأ بأمر الله لنبه على الله عليه وسلم أن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) (١) ، ثم استمر بعد ذلك يتولاه ، عن طريق الوحي ، بتعليمه وتوجيهه ، حتى أكمل تعليمه ، أو ان شئت أكمل له دينه . حين قال :

(١) القرآن الكريم : سورة العلق رقم ٩٦

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً) (٢) ومن هنا يمكن لنا تفهيم قول الصوفي المرسى الكبير ، الشيخ محبى الدين بن عربى (توفى ٥٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) حين يقول :

(اعلم أن العلم على الحقيقة هو الله ... أول أستاذ فى العالم ، العقل الأول ... فلم آدم الأسماء كلها المتوجية عن إيجاد العالم العنصرى ، وعندما عجزت الملائكة عن معرفة الأسماء علمها لهم آدم ، فصار أستاذا لهم ، وورث آدم فى العلم الأنبياء فصاروا أستاذة البشرية ، وورث الأنبياء الأولياء ، والله يعلم الأنبياء والأولياء ، بالوحي الالهى ، أو عن طريق الملائكة ، وهؤلاء يعلمون تلاميذهم مباشرة أو عن طريق الأحياء والتأثير النفسى » (٣) .

تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تعليمه من ربه ، والتكليف بأن يقولى تعليم الناس ذلك ، فقام بذلك ، بادئا بأصحابه وأقربائه المقربين أمرا إياهم نقل ذلك الى الناس ، وأن يقوم هؤلاء بتعليم غيرهم ، قائلا صلى الله عليه وسلم :

« ما من شئ أعظم عند الله من رجل تعلم علما ، فعلمه للناس » (٤) وهو القائل أيضا : « خير الناس ، وخير من يمشى على حديد الأرض المعلوم » .

ولم يقنع رسول الله بامر أصحابه بالقيام بالتعليم ، بل انه اهتم اهتماما كبيرا بهذا ، وله عليه الصلاة والسلام من الأحاديث والأقوال

(٢) القرآن الكريم : سورة المائدة رتم ٤ الآية ٣ .

(٣) ابن عربى : الشيخ محبى الدين ، الفتوحات المكية ، ج ٢ ،

ص ٢٣٦ ، ٢٤٠ .

(٤) ابن خير الاشبيلي : فهرست ابن خير ، ص ١١ .

الحائنة على ذلك ، مما ذكر بعضه في فصل آخر . ولما يُرغب الاطلاع على ذلك بتوسع ، فعليه مراجعة بعض الكتب الآتية : «أخلاق العلماء» للأجري (٣٦٠هـ - ٩٧١م)^(٥) ، و«فتح المجيد» لعبد الرحمن آل الشيخ (١٢٥٨ -) (٦) . و « جامع بيان العلم » لابن عبد البر (٤٦٣هـ - ١٠٧٠م) (٧) . و « تذكرة السامع والمتكلم » لابن جماعة (٥٧٣٣ - ١٢٣٣م)^(٨) ، و « الأحياء » للقرطبي (١١١١ - ٥٥٠٥م)^(٩) .

ولست بمستطيع أن أجمع ، ولو قليلا مما كتب في هذا المجال . لسمعته وكثرته ولكن ذلك هو الذي دفع بالتعليم دفعا لكي ينتشر في كل مكان . وصل إليه الاسلام ، وجعل « العالم يشب على قدميه وثبا في كل موضع وطائه قدم الفتى العربي »^(١٠) .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو المعلم الأول في الاسلام . وكان هو أيضا الحاكم الأول ، وحيث أن الرسول هو المثل الأعلى ، كان على من يأتي بعده أن يتولى نفس المهام التي كان عليه توليها ، ولذلك فالخليفة هو الحاكم السياسي . وهو في ذات الوقت الامام الروحي . ومسئوليتهم عن تعليم شعوبهم ، تابعة من كون امامهم الأول ، الرسول ، كان هو المعلم الأول . والمسئولية أيضا في هذا المجال ، هي مسئولية كل

(٥) الاجري : أبو بكر بن الحسين ، اخلاق العلماء - القاهرة ، ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م .
(٦) آل الشيخ : عبد الرحمن بن حسن ، فتح المجيد ، وشرح كتاب التوحيد - الرياض .
(٧) ابن عبد البر : أبو عمر يوسف ، جامع بيان العلم وفضله - القاهرة .

(٨) ابن جماعة : بدر الدين ابراهيم بن جماعة ، تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والمتعلم ، حيدر آباد ، ١٢٥٢ هـ .

(٩) القرطبي : أبو حامد ، احياء علوم الدين ، ج ١ ، بيروت .

(١٠) سليم طه : التعريب وكبار العرب في الاسلام ، ص ٢٣٩ ،

مجلة سورن ، ج ١ و ٢ : المجلد ٢٣ عام ١٩٧٦ .

من تولى الحكم سواء كان خليفة أو أميراً أو مجرد حاكم في منطقة ما . تلك هي القاعدة ، ولكن الخلاف هنا في ممارسة هذه المسؤولية ، وإن كانت الممارسة قد تباينت من فترة إلى أخرى ، ومن إقليم إلى آخر .

وإذا ما كانت الأحداث السياسية أو غيرها ، قد حجب مسؤولية الحاكم عن العملية التعليمية ، أو أن الحكام في فترة من الفترات أهملوا هذا الواجب الديني ، فإن ذلك لا يعنى انتفاء المسؤولية أو عدم وجودها .

وإذا كان الرسول قد مارس التعليم ، بمعنى تعليم الاسلام للناس ، إلا أنه أعطى لهذا المعنى بعداً آخر تتجلى فيه مسؤولية الحاكم تجاه تعليم شعبه ، أقصد بذلك أن الرسول عليه السلام قد جعل تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فداء لأسرى معركة بدر (١) .

وفي البلاد المعبد الحديثة بالاسلام ، تتجلى مسؤولية الحاكم في هذا المجال فعليه مسؤولية تعليم الناس قواعد الدين الجديد ، ولا يقتصر الأمر على الحاكم فقط ، وإنما يتعداه إلى كل مسلم عالم ، إلى كل انسان يمكن له أن يعلم ، فـ « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » (٢) . ولعل ذلك يعطينا تفسيراً لتلك العملية المعقدة التي تنقلنا إليها كتب التراجم والتي تصور لنا حلقات التعليم ، ومجالس المناظرة ، وجلسات المعلمين وكأئنا خلايا نحل ، لا ينفخ الطلبة من حولها . ونحرص الناس ، من كافة الطبقات على أن يكون معلماً أو متعلماً وعلى

(١) الداودي : كتاب الاموال ، المخطوط رقم ١١٦٥ . الأوسكوريال ، الورقة ٣١ .

محمد عبد الحميد ، تدخل الدولة في نظام التعليم بالاندلس (محاضرة لم تشر) ، وانظر التطبيق على هذه المحاضرة بجملة « افريكا » بقلم الأستاذ ماريانو أرويباس ، ص ٩١ ، العدد ٤٣٥ لسنة ١٩٧٨ م .
(٢) مسلم : صحيح مسلم ، الامارة ٢٣ ، غوسثيل ، هداية الرجراجي ، رسالة دكتوراه ١٩٧٤ ، ص ٢٢ .

أن يقول لغيره ما يعلمه وما سمعه ، وأن يسمع من ذلك أيضا ما يعلمه وما يسمعه ، امتثالا لأمره صلى الله عليه وسلم في وصية له لابن عمه على بن أبي طالب ، حيث يقول : « يا على ، كن عالما ، أو متعلما ، أو مستمعا ، ولا تكن الرابع خنتك » (١٢) .

وقد اصطبغت العملية التعليمية في هذه الفترة المبكرة ، بالطابع الديني ، أي أنها أهتمت بالعلوم الدينية ، وتعليم الناس الدين الجديد . هذه هي القاعدة العامة — على ما أرى — في كافة بلاد الممالك الإسلامية والتي حكمت أيضا المنهج والمحتوى التعليمي الذي يجب أن يسود هذه الفترة المبكرة جدا ، من تاريخ التعليم في الإسلام .

ولكن الأمر لم يستمر على ذلك مدة طويلة ، لأن الإسلام ، انتشر بصورة سريعة جدا في مناطق ذات حضارة قديمة ، فقد تمكن من افتتاح بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا غربا ، وبلاد العراق وفارس ومنطقة وسط آسيا حتى حدود الصين شرقا . نعم انتشر الإسلام بسرعة غريبة ، وفي فترة لا تزيد على قرن واحد من الزمان على مساحة واسعة جدا من الأرض ، معمورة السكان ، قديمة الحضارة ، ولها صلة واسعة بالعلم والتعليم من قبل الإسلام ، بل لها علومها الخاصة بها التي كان لابد وأن تتفاعل مع العلوم الجديدة ، وتؤثر فيها أيضا . لأن العرب قد أقبلوا على ترجمة هذه العلوم إلى اللغة العربية ، مما جعل المنهج التعليمي يمتد ليشتمل على علوم عقلية وفكرية وفلسفية مختلفة .

(١٢) من وصايا النبي لابن عمه على بن أبي طالب ، المخطوطة رقم ١٨٧٤ ، مكتبة الأوسكوريال — وجه الورقة رقم ٣ ، وانظر أيضا الترجمة التي نشرها ليزيد الوصايا الدكتور براوليو خوسيتيل بمجلة « مدينة الله » الأوسكوريال ، المجلد (١) المجلد ١٩٢ عام ١٩٧٩ ، والبسيوي : مختصر البسيوي ، ص ٧ .

إن ظاهرة السرعة التي تمت بها الفتح الإسلامي خارج شبه الجزيرة قد حيرت كثيرا من المطلقين والمؤرخين حيث أجمعوا تقريبا على أرجاعها إلى العامل الاقتصادي أو لعامل المنفعة أو لأية عوامل أخرى^(١) . ولكن أحدا من غير المسلمين لم يعط اهتماما إلى الجانب الروحي في عملية التوسع الإسلامي . لقد سبق لي القول بالتكليف الديني لعملية التبليغ ، وتعليم الآخرين الدين الجديد ، وهو عامل حاسم وعام دون أعمال للعوامل الأخرى السياسية والاقتصادية . ويلاحظ الدكتور « محمد غلاب » المرحلتين الفكرتين اللتين سيطرتا السيطرة اليوما بقوله :

« يعرف جميع المنصفين أن الأمة العربية وثبتت إلى الأبد بعد الإسلام وتبين ماكتسبت ، أحداها على أثر إشباع القرآن في حياتها »

(١٤) انظر في ذلك — على سبيل المثال — بعض الأعمال التاريخية

مثل : — لويس مواريت غوتفريد ، « مجلد التاريخ العربي » في الصور الوسطى ، ط ٢ مدريد ١٩٧٢ .

Suarez Hernandez, Manual de Historia Universal
Tomo III, Edad Media.

— وانظر أيضا في هذا المجال المؤرخ الإسباني « رافائيل التاجا » في كتابه :

Alfonso, Historia de España y de la Civilización
Española, Madrid, 1913.

— انظر مقارن : المنبجالي المعصور الوسطى .
Kitt, Emilio, La España Medieval.

— كذلك يرى : « المسلمون الأسبانيون »
Juan Vicens, Los Musulmanes Españoles.

— كذلك يرى : « التاريخ المعصور الوسطى »
Jacques Tassin, Historia de La Edad Media.

— انظر الدكتور بيليمفروس : « مجلد عام التاريخ الأسباني »
Bellmefros y Bouché, Síntesis de Historia de España.

النظر في التكوين العام ، وفي النفس الانسانية ، وفي الأسباب والمسببات فتأثرها بعد فلسفة ، وهنداء بعد حكمة ، فهاضوا ينتجعونها ويقتلعون اليها في شوق وشغف فتأثروا منها بحفا وانع . هذه هي انوية الأولى . أما الثانية فقد كانت بعد نقل الحكمة والعلوم الأجنبية الى العربية (١٥) . ثم بعد ذلك ينتقل الى تفصيل أنواع الدراسات المبثقة عن القرآن . وعن العلوم الأخرى . وليس ذلك مجالنا الآن . فلنعد الى أسبانيا ، لنرى كيف انطبق ذلك عليها في الناحية التعليمية ، وماذا تفردت به داخل هذا الإطار العام .

(ب) التعليم في عصر الولاة (١٢٨/٩٥ هـ - ٧٥٦/٧١٤ م) :

ويبدأ عصر الولاة في أسبانيا الإسلامية : بعد الفتح الإسلامي ، ويعود القائلون (موسى بن نصير وطارق بن زياد) الى دمشق ، ونعين الأمير عبد العزيز بن نصير ، واليا على الأندلس في عام ٧١٤ م . الذي تولى الأمير عبد الرحمن بن دعلوبة ، الجعوف بمداخل مقليل . الحكم في غرناطة عام ١٣٨ هـ - ٧٥٦ م .

وتتميز هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام في أسبانيا ، بالصراع الدموي بين القبائل العربية ، وبين العرب والبربر ، غالبة على أنها فترة تثبيت الاسلام في أسبانيا ، وعلى الرغم من ذلك نأفأ يمكن أن نقدر بعض ملامح الحركة التعليمية فيها .

يتفق المؤرخون على أن انجيوش الإسلامية التي توجت لفتح شمال أفريقيا وبعد ذلك توجت لفتح الأندلس كانت مصحوبة بمجموعات من الدخابة والتابعين ، وخاصة التي فتحت شمال أفريقيا ، أما تلك السببش التي دخلت الأندلس ، فمنها من كان له كثر جداً أن يكون

(١٥) محمد باقر ، التاريخ الإسلامي ، ص ٨٦ .

قد رافقها أحد من الصحابة ، أما التابعون ، فلا شك في عبور بعضهم —
يحدددهم لنا المؤرخون بأعداد مختلفة ، ولا يتفقون على رقم معين في
هذا المجال ومنهم :

• محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري

• حنش بن عبد الله الحنعاني

• عبد الرحمن بن عبد الله الخافقي

• زيد بن قاشد السككي المصري

• موسى بن نصير (١١)

كما أن هناك عددا آخر من التابعين قد دخلوا إلى الأندلس .

ووردت أسماؤهم في مدونات أخرى ، حيث يذكر « أن موسى بن
تصير قد سار إلى الأندلس في عشرة آلاف فارس ، وكان معه من
التابعين — رضى الله عنهم — حنش بن عبد الله الحنعاني ، وأبو
عبد الرحمن بن عبد الله الجبلي وعبد الرحمن بن شيماسة المصري ،
وأبو النضر جيان بن أبي جبلة في عشرين رجلا منهم » . ويؤيد ذلك
الحميدى بملاحظة يقول فيها ، أن عبد الملك بن حبيب (١٧٩ — ٢٣٨هـ /
٧٩٦ — ٨٥٣م) — يؤيد ذلك العدد بقوله « ودخل الأندلس من التابعين
سوى من لا يعرف — نحو من عشرين رجلا ، بؤلاء وغيرهم ، أتى
موسى بن نصير » (١٢) .

(١٦) ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(١٧) الحميدى : جذوة المتنبس ، ص ٧ .

ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج ٦ ، ص ٨١ و ١٩٥ .

ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٤٩ .

المراكشي : عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٨ .
مجبور المؤلف : وصف جفرانية الأندلس . المخطوطة رقم ٣٦ بالمتحف
المصري للدراسات الإسلامية بمطرد .

الأوسي : حكيت على ، فصول في الأدب الأندلسي ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

مؤنس : حسين . نجر الأندلس ، التعليقات ، ص ٩١ .

وملاحظة ابن حبيب « سوى من لا يعرف » ، تبين أن هناك غيرهم آخرين قد دخلوا الى الأندلس . وربما دخل الأندلس بعد الفتح مجموعة أخرى من التابعين .

ولقد كانت المهمة الرئيسية لهؤلاء التابعين هي تعليم الناس الدين الاسلامي واللغة العربية . ومن هنا يمكن القول بأن التعليم قد بدأ في الأندلس مع الفتح مباشرة ، وان اتسم بطابع القلة والبساطة وتركز في تعليم اللغة العربية والدين الاسلامي للسكان الجدد .

ويصف الدكتور (هيك) هذه الفترة بأنها كانت شديدة التواضع وأن حلقات التعليم فيها « لم تتجاوز حلقات في بعض المساجد ، التي كانت قليلة جدا حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين بطبيعة الحال » (١٨) .

ولقد بينت في رسالتي الصغرى — بنوع من التفصيل — كيف أننا نجد بعض بدايات التعليم الأولى ، وبعض الاشارات الى ظهور المكاتب ، مبينا أن الفترة الزمنية لظهور المكاتب في الأندلس ننجاور السنوات العشر الأولى من تاريخ الفتح (١٩) .

ولم تقتصر علاقة الدولة بالتعليم في هذه الفترة ، على قيام هذه المجموعة من القادة الدينيين بالتعليم فحسب ، بل أننا نجد بدايات الاهتمام من الأمراء بالتعليم ، متمثلا في الزيارة التي قام بها الصميل ، لمعلم يعلم الأطفال ، ومناقشته اياه في آية قرآنية ، كان المعلم يقرأها للأطفال (٢٠) . وسأشير الى هذه القصة ، ضمن حديثي عن بعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم ، في نهاية هذا الباب .

(١٨) هيك : احمد عبد المقصود ، الأدب الأندلسي ، ص ٦٥ .
 (١٩) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس منذ الفتح حتى الخلافة ، ص ٤٥ — ٤٩ .
 (٢٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبد الله الطباع ، ص ٦٣ ، طبعة كوديرا ، ص ٤٠ .

ولقد شهدت هذه الفترة ، تقدم دعات جديدة من العرب بعضهم جاء نتيجة صدى فتح الأندلس في العالم الاسلامي ، وبعضهم جاء ضمن القوات التي كان يسلها حكام دمشق الى أسبانيا ، وبعضهم جاء يدفعه الحماس الديني للقيام بعملية تعليم اللغة ونشر الدين .

ولقد ساعد على ذلك أن بلاد الأندلس قد لقبت قبولا كبيرا من العرب ، حتى أنهم شبهوها ببلادهم الأصلية ، والبلاد المجاورة لهم .
ولقد نقل المقرئ وحسب البكري (٤٣٣ / ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ / ١٠٤١ م)
ثلاثا :

« الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها ، استوائها ، غندية في عداها وزكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، غندية في منافع سواحلها » (٣) .

ولقد شهدت أرض الأندلس في هذه الفترة في المجال التشريعي انتشار مذهب « الأوزاعي » (عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، ولد عام ٨ من الهجرة ٧٠٧ ميلادية ، وقضى معظم حياته في سوريا ، وتوفي في عام ١٥٧ هجرية ٧٧٧ ميلادية ودفن في بيروت) ، الذي ساد وانتشر وسيطر على الحياة التعليمية فيها .

ويرجع الدكتور محمود على مكي أسباب احتلال هذا المذهب مكانا مؤثرا في الحياة التعليمية الأسبانية الى « أنه خلال الفترات الأولى من حياة أسبانيا الاسلامية ، فان هذا البلد تابع بأمانة ، للتقاليد والعادات الشامية في كل مظاهر الحياة » (٣) .

(٢١) القرئ : ازهار الرياض في اخبار التاضى عياض - ج ١ ، ص ٦٠ ، ويمكن الاطلاع على ترجمة البكري في كتاب تاريخ الجغرافية الجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، ص ١٠٨ - ١٢٨ .
(٢٢) محمود على مكي : التيارات الثقافية المشرقية واثرها في أسبانيا الاسلامية ، ص ١٢٨ .

Makky, Mahmud: Ensayo Sobre Las Aportaciones
Orientales En La España Musulmana
y su Influencia en la formacion de la cultura.

ويدل على انتشار المذهب الأوزاعي ، بذاية بعض الرحلات من الطلبة الأندلسيين الى بلاد الشام ، واستمرار تدفق العلماء من المشرق الى الأندلس ، هذا ولقد أشار الدكتور محمود مكي تفصيليا ضمن رسالته للدكتوراه ، التي قدمها لجامعة مدريد ، والمتشورة بالمعهد المصري للدراسات الاسلامية بمadrid ، الى التيارات الثقافية المشرقية وتأثيرها في تكوين الثقافة الأندلسية ، ومن المستحسن ايراد بعض الأسماء التي أوردتها كتب التراجم في هذا المجال تاركا لمن يرغب الاستزادة ، قراءة رسالة الدكتور محمود على مكي - يقول الحميدى عن مصححة بن سلام (توفي ١٩٢ / ٨٠٩م) « أندلسي فقيه ، من أصحاب الأوزاعي ، وهو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي » (٣٣) .

هذا ولقد عاش هذا المذهب بعد ذلك في الأندلس فترة طويلة رغم سيادة المذهب المالكي على عهد الامارة ، حيث نجد « زهير بن مالك البليوى (٢٥٠ هـ / ٨٦٤م) من أهل قرطبة كان فقيها على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بنى أمية » (٣٤) .

أما عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق ، فكان يغلب عليه « مذهب الأوزاعي وكان الأغلب عليه الفقه ولم يكن ممن أهل الحديث » (٣٥) .

كما أنه لا شك أن هذه الفترة قد شهدت جهودا كبيرة في نقل علوم اللغة العربية والدين الاسلامي الى أسبانيا ، مما أمكن له أن يترك آثاره على الفترات الزمنية اللاحقة ، والتي شهدت نهضة ثقافية

(٢٢) الحميدى : جنة المنتهى ، ص ٢٢٧ .
 (٢٤) ابن النضرى : طباء الأندلس ، ص ١٨١ ، والحميدى ، ص ٢٠٥ .
 (٢٥) ابن النضرى : طباء الأندلس ، ص ٢٢٥ ، والحميدى : ص ٢٢٢ .

عامّة خلال عصر الامارة ، ومما يفسر لنا وجود عدد كبير من انتقباء
 العلماء على عصر عبد الرحمن الأول وخلفائه (٢٣) .

ويمكن القول باختصار أن التعليم في هذه الفترة ، قد اتجه أول
 ما اتجه الى تعليم الكبار ، حيث بدأ بهم ، يعلمهم اللغة العربية والدين
 وبعد ذلك بدأ ظهور المكاتب لتعليم الأطفال .

(هـ) عصر الامارة (١٢٨ - ٢١٦ هـ ، ٧٥٦ - ٩٢٩ م) :

اضطربت الأمور في الدولة الأموية وسقطت في عام ١٣٣ هـ /
 ٧٥٠ م ، وقامت مقامها دولة جديدة هي الدولة العباسية . وحيث أن
 الصراع بين الأسترتين الأموية والهاشمية صراع قديم ، فان تولى
 احدهما السلطة كان يعنى بالنسبة للآخرى المطاردة والجرمان .

ولقد كان وصول الأمويين الى السلطة ، بعد مقتل على بن أبي طالب
 يعنى حرمان أسرة بنى هاشم ، وخاصة أبناء على بن أبي طالب ، من حق
 كانوا يطالبون به باستمرار ، وطاردهم الأمويون بكل العنف والقسوة
 مما تسبب في اتحاد كلمة الأسرة الهاشمية في العمل على القضاء على
 الأمويين وساعدهم على ذلك جمهور كبير وخاصة موالى الفرس حتى
 تمكنوا من إسقاط الدولة الأموية ثم انفرد العباسيون بالحكم دون
 العلويين ، وتولوا مهمة القضاء الجرم على الأسرة الأموية . تسام
 العباسيون بتلك المهمة بكل جد ونشاط ، وحاولوا بكل الوسائل التخلص
 تماما من الأسرة الأموية ، مما تسبب في هربهم وتشتتهم واختائهم
 في كل مكان .

وانصب الاضطهاد أيضا على أنصار الدولة الأموية ، وظل كل

(٢٦) انظر بعض التفاصيل عن الحياة الاجتماعية والثقافية في كتاب
 « الدكتور حسين مؤنس عن نجر الاندلس » .

من كان يعمل في خدمتها ، مما تسبب أينما في هروب واختفاء عناصر كثيرة من هؤلاء .

ومن الذين تمكنوا من الهرب ، الأمير عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل أو بعبد الرحمن الأول (١١٣/١٧٣هـ - ٧٣٣/٧٨٨م) ذلك الأمير الذي تمكن بسيدته وصبره ، وحسن تدبيره أن يحصل إلى الحكم في قرطبة وأن يؤسس لبنى أمية دولة في الأندلس ، تعيل على أن تضم بقايا من نجا من الموت من الأمويين .

وليس هنا مجال الاستطراد في سرد الأحداث التاريخية التي أدت وتلت سقوط الدولة الأموية في المشرق ، ولا كيفية إعادة ارساء قواعد دولة أموية جديدة في الأندلس ، لأن ذلك الموضوع عالجته كثير من كتب التاريخ وكتب فيه المؤرخون سواء من العرب أو من غير العرب . وما يهمني في هذا المجال إبراز نقطة اعتبرها هامة ، وكان لها تأثيرها على المستقبل الثقافي والعقلى في الأندلس فيما بعد .

يجمع كثير من المؤرخين على أن الدولة الأموية كانت دولة عربية أى أن عمادها كانوا العرب بينما الدولة العباسية كانت دولة اسلامية . أى أن عمادها كانوا المسلمين . وحيث أن أنصار الدولة الأولى كانوا نتيجة لذلك من العناصر العربية الحرفة ، فان مطاردة العباسيين انصبحت على جانب كبير من العرب - صنائع وموالي الأمويين ، مما جعلهم يهربون إلى مكان لا تحمل اليهم فيه يد العباسيين .

ان نجاح عبد الرحمن الداخل في الوصول إلى الأندلس . وتأسيس دولة هناك ، فتح الباب على مصراعيه أمام هؤلاء الفارين . لكي يجدوا عنده الملجأ والأمان . وساعد ذلك على هجرة المزيد من المشرقيين ، بكل ما يبعثونه من علوم ومن حياة اجتماعية ومستوى ثقافي.

الى الأندلس مما قدم زادا جديدا للثقافة وللحياة التعليمية على أرض الأندلس ، ويشاركني في ذلك بعض الكتاب حيث يقول أحدهم :

« وليس من شك في أن شعلة الثقافة الأندلسية قد ذكت عند قدوم كثير من الأمويين وأتباعهم الذين كانوا على قدر كبير من الثقافة . وليس من شك أيضا في أن وفودهم على الأندلس ، وطأ للثقافة سبيل الانتشار والذيع » (٢٧) ، ويقول آخر « أن من نتائج سياسة عبد الرحمن الداخل ، أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تنبثق على بلاد الأندلس لدعم الدولة الناشئة وتعزيزها ، وكون الروائيون ما يمكن أن نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص » (٢٨) .

لقد شهد حكم عبد الرحمن الداخل الكثير من المشاكل السياسية ، وتميز بالحروب الكثيرة من أجل تثبيت سلطان بني أمية في الأندلس ، ولكنه لم ينس في غمار ذلك كله ، أن يرتفع بمستوى شعبه وعاصمته الى درجة كبيرة ، فعمل على تأسيس المساجد والمباني ، وانشاء عدد من الخواص ، وإن كان أهم ما قام به هو انشاء عدد كبير من المساجد وخاصة بدء بناء مسجد قرطبة الجامع ، الذي سيصبح فيما بعد أكبر منار للعلوم في الغرب الاسلامي على الاطلاق . ومع التسليم بأن كل مسجد كان مركزا ومكانا للتعليم ، ومكانا لتدريس القرآن والسنة النبوية ، يمكننا أن نحكم على الحركة التعليمية على عهد عبد الرحمن الداخل بأنها حركة نشطة وحية . قال بعض من أرخ للأندلس :

« انتهت مساجد قرطبة على أيام عبد الرحمن الداخل الى أربعمائة

(٢٧) الريسوني : الأدب السوي في الأندلس ، ص ١٠٦ .
 محمد عبد الحميد حبيبي : تاريخ التعليم في الأندلس — ماجستير (لم تنشر) ، ص ٢٩ .
 (٢٨) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ١٦ .

وتسعين مسجدا ، ثم زادت بعد ذلك كثيرا » (٢٦) .

ولقد اهتم عبد الرحمن بالقادمين الى الأندلس ، وجعل ديوانا خاصا لهم حيث يقض علينا صاحب كتاب (أخبار مجموعة) أنه :
« كتب الى عبد الرحمن بن معاوية بعض من وفد عليه من قریش ، يستنرد نبيما يجريه عليه » (٢٧) .

اهتم الأمير عبد الرحمن كثيرا بالعلماء وعلماء الدين ، وتقدمت الدراسات على عهده تقدما كبيرا ، وزادت الرحلات الى المشرق من الذين أتموا تعليمهم الأولى في الأندلس وظهت في مجالس التعليم في القيروان والاسكندرية والفسطاط ، ودمشق وبغداد ، ومكة والمدينة ، أسماء طلبة من الأندلس ، خرجوا أساسا للعلم ولأداء فريضة الحج ، فاجذبهم المجالس العلمية في المدن التي مروا بها ، فجلسوا يتعلمون ، يكتبون الكتب ، ويحملونها معهم أثناء عودتهم مع ما يمكنهم الحصول عليه من الكتب المكتوبة في البلاد التي مروا بها .

ويمكن القول بأن عدد الطلبة الذين تعلموا على عهد عبد الرحمن الداخل كان كبيرا جدا ، لأن هؤلاء استطاعوا أن ينتحكموا في الدولة تماما على عهد الأمير هشام (١٧٣هـ - ١٨٠هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) وأن يثوروا في سنة ٢٠٢هـ / ٨٠٨ م ، ثورة عنيفة على الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) ، فاذا تذكرنا أن حكم هشام قد استمر حوالي ثمانى سنوات ، وأن هذه الثورة وقعت في نيات حكم الأمير الحكم - بعد حوالي اثنين وعشرين عاما من حكمه - أدركنا أن غالبيتهم قد بدؤوا تعليمهم ودراساتهم ، على عهد عبد الرحمن الداخل الذى استمر حكمه لأكثر من ثلاث وثلاثين سنة .

(٢٦) التبرى : نصح الطيب ، ج ٢ ، ص ٧٨ ، طبعة القاهرة .

(٢٧) مكيون : أخبار مجهرية ، ص ١٦ .

وإذا كان عهد عبد الرحمن الداخل على الرغم من اتساعه بالاضطرابات والمشاكل السياسية ، قد وجدت فيه هذه البدايات التعليمية الحسنة ، فإنه استطاع أيضا أن يمهّد الطريق لفترة سلام وازدهار طيبة على عهد ولده هشام الذي حكم خلال المدة من ١٧٣ الى ١٨٠ هـ (٧٨٨/٧٩٦ م) .

يجمع كثير من المؤرخين على أن الأمير هشام قد نبض بمدينة قرطبة ، فعمل على تجميلها ، وزينها بالحدائق والبساتين والمباني الجميلة ، وزاد في مسجد أبيه ، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد ، وعنى بنشر اللغة العربية وتدريسها (٣١) .

ويصف سانشيف البرنوس الأمير هشام بأنه : « ورع ، عادل وإن كان قليل السلطة ، ليس بالفتى المنتظر لاكمال عمل والده عبد الرحمن الداخل ، الجسور القاسى ، وعلى الرغم من ذلك فإن هشام أظهر حزما ونشاطا في مواجهة المشاكل التي واجهته خلافته لأبيه . وبخالف بعض ما فطر عليه في مواجهة أحداث أدت الى تثبيت دولته ، وحيث أن الشعوب تحتاج الى فترات هدوء وراحة بعد الأحداث الدامية التي اجتاحتها زمتنا من التاريخ ، فإننا نجد الأمير هشام ، بعد أن يقضى على تمرد اخوته والثائرين ، وبعد ثباته على العرش ، يعود ليؤكد تفقواه وورعه الدينى . لقد اهتم بالجهاد ضد المسيحيين لكي ينشر كلمة الله

(٣١) انظر في ذلك :

الحميدى : جذوة المتنبس ، ص ١١ .

الحجى : عهد الرحمن ، التاريخ الاندلسى ، ص ٢٨٢ ، وكذلك ص ٢٨٧ .

عنان : محمد عبد الله : دولة الاسلام في الاندلس ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

حنيم : عبد الشافى ، محاضرات في تاريخ المغرب والاندلس .

الواحد . لقد حاول أن يخلّك قرطبة ، بل أسبانيا كلها دين الله الإسلامى ، ودعا الناس للصلاة فى المساجد ، وكان عادلا جدا » (٣٢) . ولقد تغوّد على أن يرسل فى الليالى الباردة أكياسا من الدراهم للذين يمكنهم من المساجد ، يعبّدون الله سبحانه وتعالى .

وعهد هشام الرضى ، كما كان يسمى ، يعتبر فترة حاسمة فى مجال التعليم فى الأندلس ، فلقد كان الأمير نفسه ، دينا اهتماما مباشرا بالعلماء والفقهاء مانحا إياهم كل ما يستطيع من حماية وتأييد ، وكان له ديوان أرااق ، لتوزيع عطاياها ، حتى أنه « لم يقتل أحد من جنده فى شيء من شغوره أو جيوشه ، إلا وألحق ونده فى ديوان أرااقه » (٣٣) .

ويقول عنه ليشى بروفنسال :

« ان ثقاه وورعه واتساع ثقافته ، قد جعله يميل باستمرار الى التعامل مع فقهاء قرطبة الذين أتيحت لهم ، بمنااسبة الحج ، زيارة الأماكن المقدسة الاسلامية .

ولقد شجع كثيرا خلال مدة حكمه ، زيارة مواطنيه ، لهذه الأماكن ، واهتم شخصا بأن يعمل هؤلاء على أن يحضروا الى أسبانيا ، آخر ما وصلت اليه العلوم الاسلامية فى المشرق » (٣٤) .

انتشار المذهب المالكي :

ولا ينكر أحد اهتمام هشام بالتعليم والعلماء ، والبحث على ذلك وإلى عهده ينسب انتشار المذهب المالكي فى الأندلس وسيطرته على

(٣٢) سانشيت البرنوس : اسبانيا الاسلامية ، ص ١٢٧ .

Sanchez Albornoz : La España Musulmana, 1 ; 147.

(٣٣) مجبول المؤلف : اخبار مجموعة ، ص ١٢٠ .

(٣٤) ليشى بروفنسال : اسبانيا الاسلامية ، ص ١٢٧ .

الترجمة : د. محمد عبد السلام

الحياة التشريعية والتطبيقية * ولهذه الظاهرة أهمية كبرى ، خاصة على الحياة التعليمية في مراحلها المتوسطة والعليا ، لأنه إذا كان صحيحا أن الوظائف في الدولة قد قصرت على أتباع هذا المذهب ، فإن ذلك يدفع بالجميع الى دراسة المالكية ، وبالتالي فإن التأليف سوف يقتصر أيضا على هذا المجال ، مما يصنع الحياة التعليمية كلها بالمذهب السائد في الدولة ، ولنتوقف قليلا أمام انتشار المالكية في الأندلس .

تأسس المذهب المالكي في المدينة المنورة على يد مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م) ، الذي اتخذ من اجماع أهل المدينة أساسا لمذهبه ، ووضع كتابه المشهور « الموطأ » ، الذي يعد أساسا تشريعا مهما في الاسلام عامة ، وفي غرب الاسلام خاصة * ويذكر لنا القاضي عياض ثمانية عشر طالبا أندلسيا ، تتلمذوا على يد مالك وعاصروه (٣٥) .

أما أول من أدخل (الموطأ) الى الأندلس ، فالأمر يتذبذب بين البخاري بن قيس (المتوفى ١٩٩ هـ - ٨١٩ م) (٣٦) ، وزيد بن عبد الرحمن ، المعروف بشيطن (المتوفى ٢٠٤ هـ - ٨١٤ م) (٣٧) ، وأحدث الطبعات لكتاب (ترتيب المدارك) للقاضي عياض ، تذكر ثمانية طلاب تعلموا في تلقى العلم : على يد مالك بن أنس (٣٨) .

(٣٥) اليحصبي : القاضي عياض ، ترتيب المدارك - ج ١ ، ص ٨ ، ١٢ .

(٣٦) الحميدى : جذوة المنبع ، ص ٣٠٥ .

ابن نرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، والطبعة القديمة ، ص ٢١٩ .

مكي : نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

(٣٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ١٨١ .

الحميدى : نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

مكي : التيارات الثقافية المشرقية ، ص ١٦٤ .

(٣٨) اليحصبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨ .

وعن انتشار المذهب المالكي في الأندلس ، انظر دور النقيض يحيى بن عمر الأندلسي في المقدمة التي كتبها الدكتور محمود على مكي لكتابه « أحكام السوق » ، ص ٧٢ - ٧٧ .

ولكن الشحمية الكبرى ، التي يعزى إليها نشر الموطأ في الأندلس ،
هي شخصية الفقيه القرطبي يحيى بن يحيى الليثي (متوفى ٢٣٤ هـ /
٨٤٨ م) ، ثم شخصية عيسى بن دينار قاضي طليطلة (متوفى ٢١٠ هـ /
٨٢٥ م) * وتذكر بعض المصادر وفاته في عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ويقول
عنه ابن فرحون ، في الديباج المذهب :

« كانت الفنيا تدور عليه ، لا يتقدمه في وقته أحد في قرطبة ،
وكانت له فيها رئاسة بعد انصرافه من المشرق ، وكان ابن القاسم
— عبد الرحمن بن القاسم معلما مصريا مالكا ، توفي ١٩١ هـ /
٨٠٦ م) — يفتنه ويحله ، ويعفقه بالفتنة والوعر ، وكان لا يبعد في
الأندلس أفقه منه في نظرائه وهو الذي علم لأهلنا
مصرنا المسائل ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى * »

وبه ويحيى انتشر علم مالك بالأندلس ورجعت الفتيا إلى
رأيه » (٣٩) * ويقول عنه الحميدي :

« إنه كان قد أجمع في آخر أيامه ، على أن يدع الفنيا بالرأي ،
ويحصل الناس على ما رواد من الحديث في كتب ابن وهب (١٩٧ هـ /
٨١٢ م) وغيرها ، ولكن أعجلته المنية عن ذلك » (٤٠) * »

يذكر ليفر بروغنسال ، تلميذ عيسى بن دينار على مالك ، وينفيه

(٢٩) ابن فرحون : الديباج المذهب في تاريخ أعيان المذهب ، ج ٢ ،

ص ٦٥ ، ٦٦ * »

حميدي : المصدر المذكور ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ابن فرحون : نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٤٠) الحميدي : نفس المصدر ، ص ٢٨٠ .

مكي : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

مكي (محمدا) : مقدمة كتاب أحكام المسلمين ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

الدكتور مكى قائلاً « أنه كان أصغر من يحيى ، ولذلك لم يتعرف على مالك » ،
« ومات عيسى سنة ٢١٢ هـ ، ومات الليثى سنة ٢٣٤ » .

ولكن القاضي عياض ، يذكر عيسى بن دينار ، بين الذين لم يروا
مالكا بن أنس (٤١) .

ونتوقف قليلا أمام السؤال الهام الخاص بكيفية انتشار
المذهب المالكي في الأندلس — فهناك الكثيرون يرون أن الأمير هشام ، ومن
بعده ابنه الحكم ، هما السبب المباشر في انتشار هذا المذهب في
الأندلس — يقول ليثى بروغنسال :

« أنه في الأعوام الأخيرة التي سبقت وفاة مالك بن أنس ، استمع
عدد من طلبة الأندلس مثل زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن مضر وعيسى
ابن دينار ، والفقيه القرطبي الشير ، ذو الأصل البربري ، يحيى بن
يحيى الليثى — هؤلاء الطلبة الذين ذكروا اعلمهم ورع وتقوى أمير
الأندلس ، قاموا بعد عودتهم بنشر مذهب مالك في قرطبة وفي مدن
الأندلس الكبرى ، وذلك بالوافقة الصريحة لأديري بني أمية هشام والحكم
الأول » (٤٢) .

كما أنه يقول :

« أنه إذا كان المؤلفون العرب ينسبون ، أما إلى هشام ، أو إلى ابنه
الحكم ، المبادرة ، لكونهما فضلا نشر المذهب المالكي في الأندلس ،
وتبنياه مذهباً رسمياً ، فالحقيقة في المسألة أن كلا الأميرين قد ساهم
في انتشار المذهب المالكي ، وأن الثاني — أي الحكم — هو الذي

(٤١) الليثى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٤٢) ليثى بروغنسال : تاريخ إسبانيا — الترجمة الإسبانية : ج ١ ،

قرر بعد أعوام قليلة من وفاة والده بأن يكون القضاء والوظائف الكبرى سواء في قرطبة أو في باقي أنحاء الأندلس ، لمن يقدمون فتواهم على هذا المذهب التشريعي الجديد » (٤٢) .

وتتمثل دائرة المعارف الإسلامية الى نفس الرأي نائلة بأن هشام « أول من استوعب في أسبانيا تأثير المدرسة التشريعية والفقهية المعاصرة ، عالم المدينة مالك بن أنس ، مهذا الطريق لفقيائها ، ومقدما لهم كافة المساءلات » (٤٣) - متفقة في ذلك مع أورده صراحة القاضي يافض في ترتيب المدارك (٤٤) .

لكن الدكتور محمود على مكي ينفي ذلك بشدة ، مرجعا الأسباب التي أدت الى انتشار المذهب المالكي في الأندلس الى عوامل تطورت طبيعية تستجيب لحاجات المجتمع الأندلسي الذي دخل مرحلة استقرار تختلف عن الفترة التي سبقتها والمليئة بالمشاكل والحروب ، وأن مذهب الأوزاعي كان يتلاءم مع الأجيال الأولى على أرض الأندلس ، ولكن مع نهاية حكم الأمير عبد الرحمن الداخل ، وإسلام عدد كبير من سكان الأرض الأسبانية ، ومع السلام الذي ساد ربوع الأرض ، تجلت الحاجة الى تكوين فقهى وتشريعى ، يتناسب مع شعب مستقر ، وجيد التنظيم - ثم يستطرد الدكتور مكي بعد ذلك ، مجيبا على السؤال الهام :

لساذا اختار الأسبان المسلمون المدرسة المالكية في الوقت الذي كانت فيه مدرسة أبو حنيفة (المتوفى ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) مزدهرة ؟

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٩٦ .

(٤٤) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٨ « النص الانجليزي » .

(٤٥) المحققين : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

وألخص إجابة الدكتور مكى فى هذه النقاط :

١ - لأن أغلبية العرب الفاطنين فى أسبانيا قدمت من الشام ومن مصر وجالية كبرى من المدينة .

٢ - لحرص الأسبان المسلمين على الحج وحميتهم الدينية للتردد على الأماكن المقدسة .

٣ - انفصال السلطة فى الأندلس عن سلطة بنى العباس فى بغداد وتبنى العباسيين المدرسة الحنفية ، مما دفع الأندلسيين إلى تبني المالكية (٤٦) .

ويصير فى النهاية على أنه خلال عهد عبد الرحمن وابنه الأمير هشام لم يمارس المالكيون أية وظيفة من وظائف التشريع الكبرى فى الأندلس . أما عن الحكم الربضى ، فلم يكون هو الشخص الذى يفرض - بل ولا يفكر فى أن يفرض - المالكية ، كمدرسة رسمية فى الأندلس (٤٧) .

ومن الغريب هذا النفى الذى يقدمه الدكتور مكى ، فهو نفسه فى أكثر من موضع فى رسالته ، يعترف بأن عيسى بن دينار ، كان قاضياً على طليطلة ، وأن الفتيا كانت تدور عليه (٤٨) ، وأن « الغازى بن قيس » قد عاد إلى أسبانيا ، فى بداية حكم هشام ، وأنه قد عين مشاوراً ، مع القاضى مصعب بن عمران (انظر رسالة الدكتور مكى ، ص ١٦٣ ، ١٦٤) .

(٤٦) مكى : رسالته فى الدكتوراه المذكورة ، ص ١٥٤ - ١٥٨ .
وانظر النصل الذى عقده الدكتور حسين مؤنس لانتشار المذهب المالكي فى الأندلس فى كتابه « نجر الأندلس » ، ص ٦٥٢ - ٦٥٥ .
(٤٧) مكى : الرسالة المذكورة ، ص ١٥٧ .
(٤٨) انظر فى ذلك : مقدمة الدكتور محمود على مكى لكتاب احكام السوق ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

أما عن دور الأمراء في نشر هذا المذهب ، فهو دور لا يشك فيه ،
وإن لم يكن بطريقة مباشرة ، فإن مجرد موافقتهم وبسماحهم للعلماء
بالتدريس ونشر هذا المذهب يعتبر دوراً وإن كان غير مباشر ، والقاضي
يخاض ينسب ذلك بصراحة مخالفة إلى هشام (٤٩) .

ولقد شهد عهد الأمير هشام تشجيعاً حقيقياً على التعليم ، واتخذ
الأمير نفسه لأبنائه ، مؤدبين مشهورين بالعلم والخلق ، بل لقد وصل به
الأمير ، أن سكن بعضهم في داره ، كما حدث مع « مشمر بن نمير » ،
الذي تقدم الأندلس في أيام هشام فخصه إلى تأديب ولده ، وأنزله في
الدار المعروفة بسار (٥٠) . كما أن هشام اختار لتأديب وإلى عهده الحكم
تعالماً كبيراً هو وكية بن ربيعة (٥١) .

والى هشام ينسب بناء عدد من المدارس في الأندلس ، وحيث
أن هذا الموضوع يحتاج إلى مناقشة أوسع ، وإلى تفصيل أكبر ، نتيجة
لثثرة الخلاف حوله ، فاننى سأعالجه عند حديثي عن بناء المدارس في
الأندلس .

ولعل تربية وتعليم الأمير هشام نفسها يمكن أن تفسر لنا
اهتماماته العلمية ، ورعايته للعلماء والفقهاء على عهده ، حيث تجلت
هذه الاهتمامات منذ صباه الباكر ، مما أعطى ثماره العذبة بعد ذلك -
عند توليه مقاليد الأمور في البلاد .

يحكى المستشرق الأسباني « خوسيه انطونيو كوندى » أنه في
ذلك الوقت عرف الأمير هشام بأريحيته وذكائه ، مما كان يبعث
السرور لوالده ، الذي كان يميل إليه ، ليثابته ومهارته .

(٤٩) اليحصي - ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٥٠) ابن القزويني : علماء الأندلس ، ص ١٦٦ .

(٥١) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٦٥ ، طبعة مزيدي .

ولقد قام والده بتربيته على يد أفضل المعلمين في ذلك الوقت حتى يؤهله لشئون الحكم ، وما يستلزمه من العدالة والانصاف .

« أمر عبد الرحمن الداخل ، بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمي للقاضي في المسجد الجامع حيث أظهر الأميران نجاها ونجابة في كل مناسبة من المناسبات » (٥٢) .

أما على عهد الأمير الحكم فقد حدث صدام بينه وبين الفقهاء بسبب غيرته الشديدة على السلطة ، وزيادة تدخل الفقهاء — في شئون الحكم ، مما ترتب عليه قيام الفقهاء بالثورة على الحكم ومحاصرته في قصره في عام ٢٠٢ هـ / ٨٠٨ م .

ولقد قضى الحكم بعنف وقسوة على الثورة ، وطرد عددا كبيرا ممن قام بها فسكن بعضهم مدينة فاس ، وارتحل قسم آخر الى الاسكندرية ، ثم منها الى جزيرة كريت حيث أسسوا دولة سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، استمرت ما يزيد على قرن من الزمان (٥٣) . وقد يعطينا ذلك فكرة عن كثرة عدد الفقهاء على أيام الحكم ، اذا ما علمنا أن القسم الذي اتجه الى الاسكندرية كان يقدر بحوالى ١٥ ألف نازح من الأندلس .

وأصدر الحكم ، بعد ذلك ، عفوا عاما عن الشخصيات العلمية وخاصة الفقهاء ، طالبوت ويحيى بن يحيى الليثي (٥٤) ، ثم عمل على

(٥٢) كوندى : خوسيه انطونيو ، تاريخ الحكم العربى في اسبانيا ، ص ٥٥ .

Conde, Jose Antonio : Ho de La Dominacion de los de los Arabes en Espania p. 55.

(٥٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

المجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٤٢ .

(٥٤) أنظر عن يحيى بن يحيى : كتاب تهذيب التهذيب ج ١١ ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

تشجيع العلم والعلماء حتى أسلم الدولة بعد وفاته الى فترات تعدد من أخصب فترات الدولة الأموية في الأندلس ، ومن أزهى عصورها التاريخية والسياسية والثقافية ، أقصد بذلك العصر الذي تولى فيه الأمير عبد الرحمن الأوسط حكم البلاد .

يقول المؤرخون أن عصر عبد الرحمن الأوسط تتحكم فيه أربع شخصيات قوية تماما وكل واحدة منها تمثل جانباً من جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية في الأندلس ، وهم الفقيه اللامع يحيى بن يحيى الليثي ، والحكيم عباس بن فرناس والموسيقى المغنى «زرياب» ثم زوجته الأميرة طروب .

والشخصيات الثلاث الأولى تمثل التوازن بين الاتجاهات الثقافية، التي أمكن لها أن تسود على عصر عبد الرحمن الأوسط . فالفقيه يحيى بن يحيى الليثي (المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م) من أصل بربري ، ولكنه كان ذكياً ، حتى سمي بعقل الأندلس ، ويحكى لنا الحميدى سبب هذه التسمية فيقول عنه :

« كان مالك يسميه عاقل الأندلس ، وكان سبب ذلك فيما يروى أنه كان بمجلس مالك ، مع جماعة من أصحابه ، فقال قائل : قد خطر الفيل ، فخرجوا ولم يخرج ، فقال له مالك : مالك لم تخرج لتنظر الفيل ، وهو لا يكون في بلادك ؟ فقال له : لم أرحل لأبصر الفيل ، وإنما رحلت لأشاهدك وأنعلم من علمك وهديك ، فأعجبه ذلك منه وسماه عاقل الأندلس واليه انتهت الرئاسة في الفقه في الأندلس ، وبه انتشر مذهب مالك هنالك ونفقه به جماعة لا يحصون ، وروى عنه غير واحد ، منهم أبناء عبيد الله ، واسحق ، وأبو عبد الله محمد بن وضاح ، وزيد بن محمد بن زياد ، وإبراهيم بن قاسم بن هلال ، ومحمد بن أحمد البغلي ، وإبراهيم بن محمد ، ويحيى بن حجاج ،

ومطرق بن عبد الرحمن ... وغيرهم . وكان مع امامته ودينه ، مكينة
عند الأمراء معظما ، وعفيا عن الولايات ، حترها جلب درجته عن
القضاء ، فكان أعلى وزرا من القضاة ، عند ولادة الأمر هناك لزهدة
في القضاء وامتناعه عنه « (٥٥) » .

ويستطرد الحميدى نقلًا عن الفقيه أبي محمد علي بن أحمد قوله :
« مذهبى انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبي
حنيفة (توفي ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) ، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف »
كانت القضاة من قبله ، فكان لا يولى قضاء البلاد من أقصى المشرق
الى أقصى أعمال إفريقية الا أصحابه والمنتسبين الى مذهبه ، ومذهب
مالك بن أنس عندنا ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان
مقبول الفول في القضاة ، فكان لا يلي فاحش في أقطارنا : الا بمشورته
واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس
سراع الى الدنيا والرياسة ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم
به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ، ولا أجاب اليه ، وكان
ذلك زائدا في جلالتهم ، وراعيا الى قبول رأيه لديهم « (٥٦) » ، وقد
ذلك مظهر من مظاهر تدخل الدولة في نشر مذهب تشريعى ، ودور هذا
الفقيه .

أما عن العالم عباس بن فرناس (توفي ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م) ، فإن

-
- (٥٥) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ، ٣٦٠ .
اليحصى : ترتيب المدارك ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ - ٢٩٤ .
(٥٦) ترجحات يحيى بن يحيى اللبى كثيرة جدا ، واكتفى بالإشارة
الى :
الحميدى : ص ٣٥٩ - ٣٦١ ، والديباح المذهب ، ص ٢٥٠ ،
والمنهاج ٢ ٢ ٢ ص ٢٢٨ ، والفقيه لأبي حنيفة تحقيق مكى ،
ص ٨٢ ، ٨٤ .

المقارنة التي أجراها الأستاذ الدكتور عبد الشافي غنيم « أستاذ تاريخ الأندلس بتربية عين شمس » بينه وبين المغنى زرياب تعتبر أساساً متيناً للحديث عن ذلك الرجل ، يقول :

« في الواقع ، لا يمكن الحديث عن عصر عبد الرحمن الأوسط ، بعيداً عن حياة زرياب وابن فرنانس ، لأن الأول كان يمثل الجانب الذوقي والحسي في فلسفة حكم عبد الرحمن الأوسط والحضارة الأندلسية بوجه عام ، والثاني كان يؤكد الجانب العلمي التقني ، والتطور الفكري والعلمي في الحضارة الأندلسية بوجه خاص » (٥٧) .

جان عباس بن فرنانس اماماً في علم العروض ، « بل إنه أول علماء العروض في الأندلس على الإطلاق » (٥٨) ، كما أن ابن فرنانس قد برع في علوم الطبيعة والرياضة وشغف بالرياضيات ، حتى وضع في سقف بيته قبة كهيفة السماء ، مثل فيها الأفلak والنجوم والسحب ، حتى صارت معرضاً يفد الناس إليه من كل مكان ، كما أنه صنع بتكليف من الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم ، كما كلفه الأمير بعمل آلات لمعرفة الأوقات ، مقام بانجاز آلة تعرف بها الأوقات ليلاً ونهاراً وأسماها المقيالة ، ورفعها إلى الأمير مع هذه الأبيات :

ألا أننى للسدين خير أدام إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمساً بالنهار ولم تب كواكب ليل حالك الظلمات
بيمن امام المسلمين محمد تجلت لى الأوقات للصلوات

(٥٧) عبد الشافي غنيم : محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس -

عصر الإمارة .

(٥٨) عبد الشافي غنيم : نفس المصدر .

وله أيضا مجالات أخرى واسعة ، ليس المجال هنا لذكرها ،
ولكننا نذكر دلالة واضحة ، على الآفاق الفكرية والحضارية ، التي امتلأ
بها عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذي وصل بالأندلس الى درجة
كبيرة من الحضارة والرفق (٥٩) .

أما زرياب : أبو الحسن علي بن نافع (١٧٣ - ٢٣٨ هـ / ٧٨٩ -
٨٥٢ م) : المعنى ، الموسيقى ، فقد بدأ حياته في المشرق في كنف العباسيين
في عصر الخلفين العباسيين المهدي ، وهارون الرشيد ، وقد تكاملت له كل
أساليب النغم والتلحين ، فقد كان شجيد الذكاء ، لطيف الحس ، عذب
الحنوت ، رقيق الأتاه ، ولقد هاجر الى الأندلس على عهد عبد الرحمن
الأوسط ، وكان وصوله في عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، وخرج الأمير
عبد الرحمن الأوسط لاستقباله بنفسه ، وما أن سمع غناؤه وحنونه ،
حتى تسبقت به ، فعمره بفضله وإنعامه ، وأجرى عليه من الرواتب ،
والأرزاق ، الشيء الكثير ، وقدمه على سائر الخلفين .

وكان وصول زرياب الى الأندلس ، بداية عهد جديد من التطور
الاجتماعي ، وخطوة حقيقية في سبيل التقدم والازدهار ، لا في مجالات
الطرب ، والغناء ، والموسيقى فحسب ، بل في مجالات النمو الاجتماعي
والحسن الذوقي ، والسمو بالآداب ، ومختلف مظاهر السلوك ، حيث جلب
زرياب الى الأندلس ، آخر ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية ، من تطور
في المشرق ، مغيرا تلك الحياة العسكرية الجافة ، التي صبغت بلاد

(٥٩) انظر ترجمة عباس بن فرناس الواردة في : الحبيدي ،
ص ٢٠٠ . وابن حبان : المحقق ، نشر ميلتشور انطونيا ، ص ١٤٤ ،
ونشر محمود علي مكي : التعليقات ، ص ٥١١ ، والمقرئ في فقه الطيب ،
ج ١ / ١٢٣ ، ٤ / ١٢٩ . النسي : البقية ، ص ٤٣١ . ابن عبد ربه :
العقد الفرید : طبعة سعيد العريان ٢٥٧/٥ . والثعالبي : تيبة الدهر -
ج ١٦/٢ .

وكتاب « جيانجوس » تاريخ الامة الاسلامية باسبانيا ، ص ٤٢٦ ،
الجزء الأول .

Gayangos The History of the Mohammedan Dynasties in
Spain Vol. 1 : p. 416

الأندلس فترة طويلة ، حيث ظلت فيها حياة البداوة ، والخشونة والجفاف ، الى نهايات القرن الثاني من الهجرة / الثامن الميلادي .

والحق أن زرياب قد قابل الجميل بالجميل ، وأخلص للأندلس أيما إخلاص ، وعمل على النهوض بالمجتمع الأندلسي ، لكي يصل به الى مستوى المجتمع العباسي في بغداد ، مستفيدا من الحماية والتشجيع ، اللذين وفرهما له أمير الأندلس ، حيث يذكر بعض المؤرخين أنه قد جعل بين داره ودار زرياب ، بابا خاصا يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع ، وصوته العذب (٦٠) . ويذكر ابن حيان ، أن الأمير عبد الرحمن ، أنزله في منية نصر (٦١) ، التي أخذت اسمها ، من اسم الفتى نصر ، كبير غلمان القصر ، وأكثرهم قربا الى الأمير ، والذي ملك في محاولة سيم الأمير عبد الرحمن ، بغرض نقل الحكم من بعده الى ابنه الأمير عبد الله ، ابن زوجته طروب (٦٢) .

وما من أحد كتب في تاريخ الأندلس ، الا وأشار الى الأهمية الكبرى لزرياب — ذلك الشرقي الذي استطاع وحده أن ينقل أميائنا من حال البداوة الى حال الحضارة عن طريق : تحبيب هذه الأمة في الموسيقى ، وتنظيم أسلوب حياتها اليومي (٦٣) .

-
- (٦٠) عبد الشافي غنيم : تاريخ الأندلس ، عهد الإمارة .
 (٦١) ابن حيان : القتيبي ، طبعة مكى ، ص ١٢ .
 (٦٢) بالنسبة لنسبة نصر ، انظر تعليق الدكتور محسود على مكى في ملاحظاته ، على كتاب القتيبي لابن حيان — التعليق رقم ٥٦ ، ص ٤٣٤ ، وكذلك الروض المصطر ، ص ١٨٧ .
 وبالنسبة لقصة الفتى نصر مع الأمير عبد الرحمن ، انظر : ابن حيان : تحقيق مكى ، ص ٨ — ١٢ ، وانظر ، ليفي بروفنسال ، تاريخ اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٧١ ، الترجمة الاسبانية .
 (٦٣) انظر عن حيلة زرياب وآثاره في الأندلس : ابن حيان : القتيبي ، تحقيق محسود على مكى ، ص ١٣ ،

ولقد واجه عصر الأمير عبد الرحمن خطرا خارجيا ، تمثل في هجمات النورمان على الأندلس . وقد قاموا بهجومهم الأول على الأندلس في عام ٣٢٩ هـ ، الموافق ٨٤٤ م ، متجهين الى ناحية أشبيلية ، ويذكر لنا العذري :

« أنه في سنة تسع وعشرين ومائتين ، ورد كتاب وهب الله بن خزم ، عامل الأشبونة ، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركبا للمجوس ، ومعها أربعة وخمسون فارسا . فخرجت الكلاب الى المال بالاحتراس (٦٥) . ولكن ذلك لم يمنع من أن يصل التطور الثقافي والعلمي ونمو الحركة التعليمية في الأندلس ، حيث كان الأمير عبد الرحمن الأوسط ، على حد التعبير الوارد في دائرة المعارف الإسلامية بأنه كان « راعيا وحاميا لكافة الفنون والعلوم » (٦٥) ، كما أن عهده عرف بعهد « السلام الطويل » (٦٦) .

— الحميدي : جذوة القنيس ، ص ٩٥ . ولعل أطول ترجمة لزياد ، ودوره في الأندلس أوردتها المقرئ في نبح الطيب ، ج ٤ ، ص ١١٧ — ١٢٩ . تحقيق محمد عبد الحميد .

ليني برونيسال : تاريخ إسبانيا ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، الترجمة الإسبانية .

جارسيا غوييث : الشعر العربي الأندلسي ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

Garcia Gomez, Poesia Arabigo Andaluza, p. 32.

احسان عباس : اخبار الفناء والمفنين في الأندلس ، مجلة الأبحاث ، آذار ١٩٦٣ .

على راضي : الأندلس والناصر ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

جيودت الركابي : الأدب الأندلسي ، ص ١٧ .

وانظر أيضا مقالة المستشرق الإسباني « خوليان روبيرا » .

Ribera, J. : La Musica de las Gantigas.

(٦٤) العذري : نصوص عن الأندلس ، ص ٩٨ — ١٠٠ .

ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ .

The Encyclopedia of Islam, Vol. 10, p. 53.

(٦٥) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١ ، ص ٥٣ (النص الإنجليزي)

(٦٦) سواريث فرنانديث : لويس ، تاريخ إسبانيا ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

Suarez : Historia de Espania.

ولقد عقد ابن حيان فصلاً لذكر أولى النباهة في دولة الأمير
عبد الرحمن بن الحكم ، يمكن أن تظهر منه بعض ملامح التطور الثقافي
والعلمي ، خلال هذه الحقبة (٦٧) .

وتختتم الحديث عن عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بقول ابن
التلوطية :

« لقد سار في الناس بخير سريرة ، والترم اكرام أهل العلم ، وأهل
الأدب والشعر في دولته ، واسعافهم في مواطنهم كلها » (٦٨) .

تولى الأمير محمد (٢١٧ - ٢٧٣ هـ / ٨٣٢ - ٨٨٦ م) ، حكم
الأندلس ، بعد وفاة والده الأمير عبد الرحمن في عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ،
حينئذ كان الأمير قد أوجز بذلك إلى وراثته وأهل خدمته ، ويقول ابن
حيان : « كان الأمير عبد الرحمن قد كشف عن مزايا ولده ، ولذا ولدا ،
وعجم أخلاقهم اختياراً فوجد مجتمعا منبعا راجعا لهم بجلاله . فافلا
يا فتدال أحواله ، فأثب . تنفيله عليهم ، بعد علم منه بهم » (٦٩) . ويصفه
الحميدى ، بأنه كان محبا للمعوم ، مؤثرا لأسل الحديث ، عارفا
بحسن السيرة » (٧٠) .

والحقيقة أن عصر الأمير محمد ، قد شهد استمرازا لفترة الأردهار ،
التي تسادت خلال حكم والده عبد الرحمن ، إلا أنه كان أكثر ميلا
للحرية ، فلم يمكن القضاء من سلطانهم المطلق ، بل أنه سمح بالقيام
بتدريس علوم جديدة في الأندلس ، مثل علوم الصيدية . ولم يقصر
الأمير على المدونة ، أو على تعليم مالك بن أنس ، وموقف الأمير محمد
من بقي بن مخلد ، يكفي للدلالة على هذه الحالة ، وأنقل هنا قصة هذا
الفقيه مع قضاة حمرة والأمير محمد .

عاد الفقيه بقي بن مخلد (توفي ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) بعد رحلة طويلة

(٦٧) ابن حيان : القسيس ، تحقيق مكى ، ص ٧٦ - ٨٨ .

(٦٨) ابن التلوطية : افتتاح الأندلس - طبعة مدريد ، ص ٥٨ .

(٦٩) ابن حيان : القسيس ، تحقيق مكى ، ص ١٠٤ .

(٧٠) الحميدى : جذرة القسيس ، ص ١١ .

« بما جمع من العلوم الواسعة ، والروايات العالية ، والاختلافات
النفقية ، وغاز ذلك فقهاء قرطبة ، اصحاب الرأي والتقليد ، الزاهدين
في الحديث ، العارفين من علوم التحقيق ، المفسرين عن التوسيع في
المعرفة ، خصصوه ، ووضعوا فيه القول القبيح ، حتى ألزموه البدعة ،
وشتتوه الى العامة ، وتخطى كثير منهم برميهم الى الانماد والزندقية ،
وتشاهدوا عليه ، بخليط الشهاداة ، داعين الى سفك دمه ، وخاطبوا
الأمير محمداً في شأنه ، يعرفونه بأمره ، ويكثرون عليه بكل ما يرجون ،
من الوصول الى سفك دمه ويسألونه تعجيل الحكم فيه ، فاشتد خوف
بقي جدا ، واستتر خوفاً على دمه ، وعمل على الفرار من الأندلس ،
ان أمكنه ذلك ، فأرشدده الله الى التعلق بحبل هاشم بن عبد العزيز ،
ونبأه الأخذ بيده ، وكتب الى الأمير محمد ، ينتدبه الله تعالى في دمه ،
ويسأله التثبت في أمره ، والجمع بينه وبين خصومه ، وسماع حجة ،
خيأتني في ذلك بما يوفقه الله له ، فالتقى الله في نفس هاشم الاحتفاء
بشكواه ، والاعتناء بأمره ، فشمّر له عن ساعده ، وأوصل كتابه الى
الأمير محمد ، يشرح حاله ، غطف عليه ، واتهم الساعين به اليه .
فأمر بتأمين بقي بن مخلد ، واحضاره مع الطالبين له فتناظروا بين
يديه ، فأدلى بقي بحجته ، وظهر على خصومه ، واستبان للأمير جسدهم
أياه ، لتقصيرهم عن مداه ، فدفعهم عنه ، وتقدم اليه بمطأطة قدمه ،
ونشر علمه ، وأمر بايصاله اليه في زمرة الفقهاء ، والرفع من منزلته ،
فاعتلى درة العلم ، ولم يزل عظيم القدر عند الناس ، وعند الأمير
محمد ، الى أن مات رحمه الله » (٧١) .

-
- (٧١) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ، ص ١٥٤ .
ابن الفريسي : علماء الأندلس ، ص ٨١ - ٨٣ .
ابن حبان : المتقنين : تحقيق الدكتور محمود علي مكي ،
ص ٢٤٥ - ٢٥٠ ، وكذلك ص ٢٦١ - ٢٦٥ .
هذا ، وقد وردت ترجمة : بقي بن مخلد في معظم كتب التراجم ،
واشير الى بعضها :
الجبدي : جذوة المتقنين ، ص ١٧٧ ، ابن بشكوال : المسيلة :
ج ١ ، ص ١١٦ .
الضبي : بغية المتقنين ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

ولقد عمدت الى اثبات هذه الرواية الطويلة ، لأن لها معنى خاصا في العملية التعليمية ، حيث فتحت الباب على مصراعيه ، لانتشار علم الحديث في الأندلس ، ذلك العلم الذي كانت له بدايات متواضعة ، بدأت منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، ولكنها لم تزدهر وتنتشر الا في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن . ويقول ابن الفريسي ، عن أثر بقي ابن مخلد : انه هو « الذي نشر حديثه » وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ ، انتشر الحديث في الأندلس ، ثم تلاه ابن وضاح فهاضت الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك ، حنط رأي مالك وأصحابه » (٧٢) .

ويعترف المستشرق الأسباني الكبير غونثاليث بالينثيا ، المتخصص في الدراسات العربية ، بقيمة المحاولة ، التي كادت أن تكف بقيا حياته ، فيقول :

« أما في بقية صنوف الآداب ، فقد مضى الناس على ما قرره السلف من المناهج ، ففي دراسة اللغة ، مشوا على الأسلوب التقليدي ، ولم يشذ عن ذلك ، الا المحاولة الجريئة التي قام بها بقي بن مخلد . عندما أراد أن يلحق الناس أصول مذاهب فقهية أخرى ، غير المذهب المالكي ، كالمذهب الشافعي مثلا ، وقد كادت جرأته هذه أن تكلفه حياته ، ولولا تدخل الأمير محمد بنفسه في الأمر — استجابة لشكوى تقدم بها الفقهاء اليه — أمر بقي — لما نجا هذا الأخير من هلاك محقق . فقد أمر الأمير بقي على التدريس كما يريد ، وأتاح الفرصة بذلك »

= ومن الدراسات الحديثة : الاوسى : فصول من الادب الاندلسي ، ص ٤٦ .

حميد على مكي : رسالته المذكورة المذكورة ، ص ٢٠٦ . ريبيرا : التعليم بين المسلمين الأسبان ، ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٧٢) ابن الفريسي : علماء الأندلس ، ص ٨١ ، الذي — آج المذهب ، ص ٢٤٠ .

للمذهب الشافعي في الأندلس. » (٧٣) *

ويذكر ابن حيان ، أنه « كان من طباع الأمير محمد بن عبد الرحمن الأناة والحطيم ، قد ظاهرها على حليتي البيظلة والفهم ، وكان يكرما لأعلام الناس ، مقدما على طبقاتهم ، لذوى الفقه والعلم منهم ، يرفع مجالسهم ، ويلف رسائلهم ويضع رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم ، والتوقف على السماع من بعضهم في بعض ، ويسعى لاستئلافهم ، والاعراض عما يشاكسون فيه ، ولا يؤثر شيئا على السلامة منهم ، يعيد القول في ذلك ويبدئه » (٧٤) .

ولذلك لم تكن حادثة بقي بن مخلد ، هي الحادثة الوحيدة التي تدخل فيها الأمير شخصيا لانتقاد عالم من علماء المدينة ، من سورة غضب الفقهاء . ومن تعصبهم الرافض لكل جديد — ويحكى لنا ابن حيان أيضا ، موقفه من العالم محمد بن عبد السلام الخشنى (المتوفى ٣٨٦ هـ / ٨٩٨ — ٨٩٩ م) ، فيقول :

« لما سعى بالفقيه أبى عبد الله الخشنى ، الى ما نسب اليه ، فادرج في طى المطالبة معه ، وأخيف في سجنه اخافة بقي ، التي أدته الى الاستخفاء ، لم يقتد به في ذلك لصرامته ، وابعاء نفسه ومناقبه ، وأبى أن يستخفى ، وقال : ما كنت أستخفى لقول الحق ، ولا أخشى في الله أحدا ، وإن أصب في الله ، فطريق الخير سلك بى ، فميل في الطلب عليه ، وأسى القول فيه . »

وكرر على السلطان في شأنه حتى أمر محمد بن حارث ، بمتقلا أحكام السوق ، باحضاره ، ووقفه على ما ينسب اليه ، ومعرفة ما عنده . وكان ابن حارث ، بمتقلا أحكام السوق ، موصوفا بالأفئ والحيالة ، فأحضر الخشنى معنوتا به ، فلما مثل بين يديه خشن بؤاله ، وقال له :

(٧٣) غوثاليت بالينشا : تاريخ الفكر الاندلسى ، الترجمة الغربية ، ص ٧٢٦ ، والنص الاسباني ، ص ٢٦٨ و ٢٧٨ .
(٧٤) ابن حيان : المتنبس ، تحقيق مكى ، ص ٢٤٥ .

ايه يا عدو الله وعدو نفسه ! أنت القائل ان في القرآن ناسخا ومنسوخا؟ فقال الخشنى : ان الله تعالى يقول في محكم كتابه : « ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها » (٧٥) ، (مسطح عليه) سلوة نشوما . (فعلم بذلك وايد بن عبد الرحمن بن غانم ، متولى المدينة) (٧٦) ، فدخل الى الأمير محمد ، فأعلمه بما أحدثه صاحب السوق محمد بن حارث على محمد بن عبد السلام ، وحكى له قوله له . فضحك الأمير محمد حتى وضع كفه على وجهه ، ثم قال : يا وليد ، لقد لقي الخشنى من ابن حارثنا عنتا . لكأنى أفخر اليه أعرايبا فى ثمنه ، بدويا فى تهجته ، يكلمه بما لا يفهمه . أخرج الساعية الى الجاهل المسائن ابن حارث ، فعنفه أشد التعنيف وأعلمه أنه لولا عذرتنا إياه ، لجهلته بهذا الشأن الذى ليس بعدر لنا فى ثوابه مثله لعاقبناه على فعله ، ومز باطلاق محمد بن عبد السلام ، ثم اعتذر عنا اليه لما نبيل منه ، وقل له فليطامن جائسه ، ويمر مجلسه ، وينشر علمه » (٧٧) .

ولذلك كان الخشنى يسدأ مجالس تعليمه ، بالدعاء للأمير محمد . ويختتم هذه المجالس بالدعاء له أيضا على ما يذكر ابن حيان فى الصفحة المذكورة بها الجملة السابقة .

ويورد ابن حيان بعد ذلك ، روايات سابقة من المؤرخين لهذه القصة التى تلقى ضوءا باهرا على عدة قضايا ، قد أعود الى بحثها فى مجالات أخرى (٧٨) لتشابهها مع ما أورده ابن القوطية عن القاضي « أمية بن

- (٧٥) قرآن كريم : سورة البقرة ١٠٦/٢ .
 (٧٦) ما بين القوسين ، الأول وضعته ليستقيم الحديث لأنه ناقص من النص ، والثانى من تعليق الدكتور مكى فى ص ٢٥٢ ، من المقتبس .
 (٧٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .
 (٧٨) نفس المصدر ، ص ٢٥٢ - ٢٦٢ .
 أما عن ترجمة محمد بن عبد السلام الخشنى ، فانظر بالاضافة الى ذلك : الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٦٢ - ٦٥ . النباهى : قصصة الأندلس ، ص ١٣ ، ١٤ . الضمبى : بقبية المقتبس ، ص ١٠٣ . السيوطى : بقبية الوعاة ، ص ٥٢ . القسرى : فنح الطيب ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٥ ، ٩٧ . ابن حيان : المقتبس ، نشر انطونى ، ص ٧ ، ٨ .

عيسى — أحد وزراء الأمير — واهتمامه بحادث تعليم الأسرى الموجودين بدار الرهائن ، وما لذلك من دلالة على تدخل الدولة في التعليم » (٧٧) .

ومثال آخر على اهتمام الأمير محمد بحماية العلماء ، هو موقفه من الفقيه القرطبي قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار (المتوفى ٢٧٨ هـ / ٨٩٠ م) ، فقد رحل قاسم إلى المشرق ، وتعلم على يد أساتذة المذهب الشافعي هناك ، وحينما عاد إلى الأندلس ، اصطدم بعقلية فقهاء المالكية المتمسكة بالتقليد والحفاظ على آراء من سبقهم ، وعدم قبولهم للتجديد ، وقرر أن ينشر بين مواطنيه مبادئ المدرسة الجديدة ، عن طريق التعليم والتأليف ، ولقد تمكن من الحصول على حماية الأمير محمد الذي عينه وثائقيا خاصا به (٨٠) .

ونختتم الحديث عن هذا الأمير بما قاله عنه أقرب المؤرخين لعصره بأنه كان « مكرما لأعلام الناس من أهل العلم » (٨١) ، وكان « شغوفا بالبيان ، مؤثرا لأهل الآداب » (٨٢) .

ولقد أدى الاهتمام الذي بذله كلا الأميرين عبد الرحمن ومحمد إلى ازدياد تطور الحركة الثقافية ونموها ، بحث أنه حينما تعرضت الأندلس لفترة طويلة من التمزق ، امتدت على مدار حكم الأمير عبد الله (من ٢٧٥ — ٥٣٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م) ، لم تتأثر هذه الحركة ، ورغم أنها كانت أسوأ فترات حكم أسرة بني أمية سياسيا ، إلا أنها ظلت محتفظة بضوئها الثقافي والعلمي ، ويصف لنا المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان ، الجو العلمي والثقافي المحيط بالأمير عبد الله قائلا : « كان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة ، وبعدها (يقصد قبل

(٧٦) ابن القوطية : افتتاح الأندلس — تحقيق روبرا ، ص ٩٤ .

(٨٠) المقرئ : فتح الطب ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .
غونثالث بالنثيا : تاريخ الفسك الأسباني — النص الأسباني ، ص ٢٧٧ .

(٨١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس — طبعة مدريد ، ص ٧١ .

(٨٢) مجهول : أخبار مجموعة ، ط . مدريد ، ص ١٢٥ .

توليه الامارة وأثناء حكمه) ، أنمر مجالس الملوك بالفسائل ، وأنزها
عن الرذائل : وأجمعها لطبقات أهل الأدب والعلم » (٨٢) ، ثم يواصل
الحديث قائلاً : « كان في مقدمة أصدقائه وجالسه ، زعيم شعراء العصر ،
أبو عمر أحمد بن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، وكان شاعر الدولة
الأموية ، ومادح أمراءها منذ الأمير محمد حتى الناصر ، وموسى بن
محمد بن جرير ، المعروف بالزاهد ، وسعيد بن عسر العكي ، وعبيد الله
ابن يحيى بن ادريس الخالدي ، وسعيد بن عبد ربه ، ابن أخي صاحب
العقد ، وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب . وكان من أخص وزرائه في
تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان : عبد الملك بن جهور
وعبد الملك بن شهيد . وكان من عادته أن يلجأ الى العلماء وأغسل
الرأى ، في المشورة ، ويستعين بأرائهم وأحكامهم فيما يواجهه من أحداث
وخطوب ، وكان بقي بن مخلد شقيه العصر ، وأعظم علمائه ، أكثرهم
حظوة لديه ، وكان يجلبه ، ويزوره في داره ، ويقتبس منه ، ويستمع
لنصحه » (٨٣) .

ويشهد عصر الأمير عبد الله ، نوعاً آخر من العلوم ينساب بين
القرطبيين ، ويتعارض تمارضاً شديداً مع عقلية فقهاءه ، الذين كان
يستشيرهم ويقربهم دائماً . ظهر محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيع
(٣٢٩/٣١٩ هـ - ٩٣١/٨٨٢ م) ، الذي يعتبر أول فيلسوف أندلسي ،
وكان « أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة » على يد جديده لأبيه ،
ونشأ محباً للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاماً .
ومن السبب أنه كان في هذه السن المبكرة « أستاذ له تلاميذ علمهم » (٨٤) .
وفي نص آخر ، يوصف ابن مسرة « بأنه أول مفكر أصيل أطلعه

(٨٣) نقل ذلك من ابن حبان ، طبعة انطونيا ، ص ٣٤ - ٣٦ .

(٨٤) عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، ص ٥٦ .

(٨٥) أحمد نمكل : الأدب الأندلسي ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

الأندلس الإسلامى ، وكان يستر آراءه ، وراء نسكه وزجده ، وكان أبوه عبد الله من أهل البيع والشراء ، وكان يهوى آراء المعتزلة ، وكان صديقاً لخليل الغفلة (انظر ترجمة خليل الغفلة فى علماء الأندلس طبعة القاهرة - ج ١ ، ص ١٦٥ - وطبعة مدريد ، ص ١٢٠ ، ١٢١) ، وهو الذى علم محمداً ، علوم الدين والفلسفة « (٨٦) » .

ويبدو أن ابن مسرة ، قد بدأ فى تعليم مبادئ الفلسفة والاعتزال فى الأندلس واتخذ لذلك مقراً بعيداً عن الرثاء ، فى منزل له بجبل شربة ، ولكن الأراجيف والشائعات تناثرت ودارت حول طبيعة تعاليمه مما جعله يخاف على نفسه . ولقد قلت أن أسوأ فترات حكم الأسرة الأموية فى الأندلس ، كانت فترة الأمير عبد الله ، ولذلك فلقد رأى الأمير أن يسكت عن ابن مسرة وأتباعه ، خوفاً مما قد يؤدى اليه من فتنة جديدة ، ولكن ابن مسرة اتهم بالزندقة ، « فخرج فاراً ، وتردد بالشرق مدة ، فاشتغل بملاقاة أهل الجدل ، وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف الى الأندلس ، فأظهر نسكا وورعاً ، واغتر الناس بظاهره ، فاختلّفوا اليه ، وسمعوا منه ثم ظهر الناس على سوء معتقده ، وتبع مذهبه ، فانقبض من كان له ادراك وعلم ، وتمادى فى صحبته آخرون غلب عليهم الجهول ، فدأبوا بنحلته » (٨٧) .

واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، « ففرقه تبلى به مبلغ الأمانة فى العلم والزهّد ، وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه فى الوعد والوعيد ، وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس ، التجارية على مذهب التقليد والتسليم » (٨٨) .

ولقد اعتبره الدكتور محمود على مكى « أول صوفى فى أسبانيا

(٨٦) غرينثال باليونان : تاريخ الفكر الإسلامى ، ص ٢٢٧ : ترجمة

حسين مؤنس .

(٨٧) ابن البرقي : علماء الأندلس ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٨٨) نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

الإسلامية» (٨٩) . وليس من شك في انتشار تعليم ابن مسرة ، انتشارا واسعا (٩٠) ، مما سبب قلقا للدولة ، على عهد عبد الرحمن الناصر ، وسأشير إلى ذلك عند حديثي عن عهد الخلافة (٩١) .

وهكذا تطورت الأمور التعليمية ، على عهد الإمارة ، تطورا كبيرا ، فتعددت مظاهر التعليم ، وزادت أماكنه ، وكثر عدد الطلاب والمعلمين ، وينقل عن القاضي صاعد الطبقى (المتوفى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) قوله :

« ان هذه البلاد استمرت بعد الفتح لا يعنى أهلها بشئ من العلوم ، ألا يعلم الشريعة ، وعلم اللغة ، الى أن توطد الأمر لبني أمية ، فتحرك ذور الهمم ، لطلب العلوم » (٩٢) .

ومن هذه المذاهب التي حاولت في فترة مبكرة أن تجد لها أرضا في الأندلس المذهب الشيعي ، وهذا المذهب بالذات واجه مقاومة عنيفة من الدولة ، لأنه يقوم على سلب بنى أمية حقهم في الحكم ، ويقتصر ذلك على آل البيت .

(٨٩) محمود مكي : الرسالة المذكورة ، ص ٢٢٢ .
وانظر أيضا ترجمة لابن مسرة نشرها « بدرو شاليتا » ، ضمن تحقيقه للجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ، ص ٣١ .
(٩٠) انظر الكتاب الذي وضعه المستشرق الأسباني آسين بلاثيوس عن ابن مسرة ومدرسته ، في مدريد

Asin Palacios : Ibn Masarra y Su Escuela .

(٩١) انظر في ذلك :
ابن حيان : المقتبس - الجزء الخامس ، تحقيق بدرو شاليتا ، ص ٣٥ .

محمد عبد الله عنان : السفر الخامس من المقتبس ، ص ١٢١ .
مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية - مدريد ، العدد ١٣ ، ٦٥ - ١٩٦٦ () .

(٩٢) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة في رأى ابن رشد ، ص ٧ .

ولقد نشأ الفكر الشيعي ، بعد وفاة الرسول تقريبا ، وازدهر خلال الصراع بين علي ومعاوية ، واستيلاء الأمويين على الخلافة في المشرق ، ومحاولتهم التخلص من مطالبات الأسرة الهاشمية بالحكم ، واستطاع المتشيعون لعلي بن أبي طالب ، بالتحالف مع أبناء عمهم من بني العباسي ، الاطاحة بحكم أسرة بني أمية في دمشق ، وفي هذه اللحظات تمكن العباسيون من الاستحواذ على السلطة وحدهم ، وعملوا على القضاء على الأمويين والعلويين على حد سواء — مما دفع بأصحاب المذهب الشيعي الى العمل سرا ، حتى تمكنوا من تحقيق بعض النجاح في فارس وشمال أفريقيا ، وحاولو التسرب الى الأندلس — يقول الدكتور مكي : « ان الأمر لم يخل ، بكل تأكيد ، من ثورات ذات طابع شيعي ، ولكنها كانت مشتتة ، وقليلة النجاح » (٩٣) .

« ولقد كان من بين هذه الثورات ، والمؤامرات الكثيرة ، التي تجرّد عبد الرحمن الداخل للقضاء عليها بيد حازمة ، أخبار فتنة ، قام بها يربز الأندلس ، يقودهم معلم صبيان ، يسمى «شقيا» ، جمع بين الحماس الديني ، والشعبذة ، وزعم أنه ينتسب الى علي وفاطمة » (٩٤) .

ويوافق المستشرق الأسباني ، غوثالث بالثيا ، على أن ذلك ، كان المقصد منه : القضاء على محاولة ادخال الفكر الشيعي ، حين يذكر تلك القصة عند حديثه عن نشأة التفكير الفلسفي في الأندلس ، ويذكر : « وقد قضى بمنع علي الحركات الأولى التي رمت الى التجديد في ميدان الفقه ، خاصة ، وكان لها في نفس الوقت طابع سياسي ، ومن هذه

(٩٣) محمود علي مكي : رسالته المذكورة ، ص ٣ .
وانظر مقال للدكتور محمود علي مكي عن التشيع بالأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطبعة — العدد ٢ (١٩٥٤) .
(٩٤) غوثالث بالينثيا : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٣٢٣ ،
و ص ٢٢١ من النص الأسباني .

Gonzalez Palencia : Ho de la Literatura Arabigo. Española, pp. 22, 323.

الحركات تلك التي قام بها « شعيا بن ثقيا » ، وهو مؤدب صبيان ، نحا نحو التعصب والشجبة ، وزعم أنه من أبناء علي وفاطمة ، وانتحى بمقاييسه من شنتبريه Santabrie وقد قضى عبد الرحمن للداخل على هذه الثورة سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م (٩٥) .

ويحدد الدكتور مكى القضاء على هذه الثورة فيما بين سنتي ١٥٠ ، ١٦٠ هـ / ٧٧١ - ٧٨١ م (٩٦) .

ونشير أيضا في هذا المجال الى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، من أهل وادى الحجارة (توفى ٣٠٥ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م) ، ذلك الرجل الذى « لم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط ، متقن ، حسن التوجيه للحديث ، صدوق » ، ولكنه لم يذهب بمذهب مالك ، وكان « يزن بالتشيع لشيء كان يظهر منه ، فى حق معاوية رضى الله عنه » (٩٧) .

ومن المذاهب التى انتشرت فى الأندلس خلال هذه الحقبة ، ووجدت مقاومة من المذهب المالكي ومن الدولة ، مذهب الاعتزال ، الذى بدأ فى العراق ، وانتشر فى الشرق ، حتى أصبح فى فترة ما ، المذهب الرسمى للدولة العباسية .

ولأسباب سياسية ، ودينية ، واختلافات فقهية فى كثير من

(٩٥) نفس المرجع ، ص ٣٢٤ « النص العربى » - ترجمة د. حسين مؤنس .

(٩٦) ابن حيان ، المقتبس - طبعة القاهرة ، ص ٢٦٦ (تحقيق د. محمود مكى) .

مجبول : اخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٩٧) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ . الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٩ ، الضبى : بغية المنتس ، ص ٥٥ ، ابن حيان : المقتبس ، تعليق الدكتور مكى رتم ٤٥٤ ص ٥٧٧ ، ومقاتله عن التشيع فى الأندلس - مجلة العيد الحرى للدراسات الاسلامية بهدريد ، العدد الثاني - ١٩٥٤ م .

المسائل ، كان المذهب المالكي من أكبر أعداء المعتزلة ، من الناحية الفكرية ، كما كان الأمويون من أكبر أعدائهم في الجانب السياسي . ولم تعدم الأندلس بذورا للاعتزال على أرضها ، ومن أشهر معتزلي أسبانيا في تلك الفترة ، خليل بن عبد الملك المعروف بخليل « الفضلة » أو « الغفلة » ، وهو من أهل قرطبة ، وكان مشهورا بالقدر ، لا يتستر به ، « ولما مات خليل ، أتى أبو مروان بن عيسى ، وجماعة من الفقهاء ، وأخرجت كتبه : وأحرقت بالنار ، إلا ما كان فيها من كتب المسائل » (٩٨) ، ولعل هذه هي أول مرة تحرق فيها كتب على أرض أسبانيا الإسلامية ، وسنرى كيف سيتكرر هذا الحادث مرات على مدار تاريخ هذه المنطقة .

ومن الغريب أن بقي بن مخلد ، الذي تعرض لمخايقة الفقهاء له ، كان من الذين هاجموا خليل ، وحرمه من حضور مجلسه ، بل اتهمه هدهد بسفك دمه « فقال له بعد سؤاله عن عدة آراء ، ومنها رأيه في القرآن : والله لولا حالتك ، لأشرت بسفك دمك ، ولكن قم فلا أراك في مجلسي بعد هذا الوقت » (٩٩) ، مما يبين لنا السيطرة التامة للمذهب المالكي ، ودرجة التعصب التي وصلت إلى التهديد بسفك الدم ، مما دفع إلى نشأة المدارس السرية ، تحت رايه ظاهرية من الزهد والتقشف ، على ما أشرنا إليه من قبل في حالة ابن مسرة — أو إلى الترام المنزل ، والبعد والتدريس ، مثلما حدث مع القرطبي «حسن بن سعيد بن إدريس ابن ززين بن كساية الكنانى (المتوفى ٨٣٣ / ٩٤٣ — ٩٤٤م) ، «الذى كان يذهب إلى النظر ، وترك التقليد ، ويميل إلى قول محمد بن إدريس

(٩٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ « طبعة القاهرة » — و ص ١٢٠ ط . مدريد .
بالنثيا : الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٢ من « النص الأسباني » .
رافى : الأندلس والناسخ ، ص ٢٠ .
(٩٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس — ط . مدريد ، ص ١٢٠ .

الشافعي ، وكان يحضر الشورى ، ولما رأى الفتيا دائرة على مذهب
المالكيين ، ترك مسجددها ، ولزم بيته » (١٠٠) .

كما ظهرت في هذه الفترة ، نحل ومذاهب أخرى ، لا أجد داعيا
لذكرها لأنها خربت محاربة شديدة ، وقضى عليها ، وظل المذهب المالكي
سائداً ومنتشرا الى فترة طويلة . ويصف ابن الخطيب حالة أسبانيا
الاسلامية قائلاً :

« أحوال هذا القطر في الدين ، وصلاح العقائد ، سنية ، والنحل
فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس ، أمام دار
الهجرة ، جارية » (١٠١) .

(د) عصر الخلافة :

يطلق اسم « عصر الخلافة » تجاوزاً على عصر الخليفة
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٣٦٧ هـ / ٩٨٠ م - ٣٥٠ هـ /
٩٦١ م) ، ولكن من المعروف تاريخياً ، أن عبد الرحمن بن محمد
المعروف بعبد الرحمن الثالث . تولى الحكم سنة ٣٥٠ هـ - ٩٦٢ م ،
وعمره ثلاثة وعشرون عاماً ، وبثلث ستة عشر عاماً كاملة مستخدماً لقب
أمير فقط ، ولم يتسم بالخلافة ، واعتباراً من عام ٣٦٦ هـ - ٩٧٨ م ،
اتخذ الأمير عبد الرحمن الثالث لقب الخلافة ، وتسمى بالناصر لدين
الله (١٠٢) - وليس هنا مجال الحديث عن التاريخ السياسي ، ولكن
المهم الإشارة الى أن الأندلس في عصر الناصر ، قد وصلت الى درجة

(١٠٠) ابن الفريسي : طباء الأندلس ، ط . القاهرة ، ج ١ ،

ص ١٢٩ ، ١٢٠ .

(١٠١) ابن الخطيب : الاطاحة - ج ١ ، ص ١٢٤ .

(١٠٢) ابن حبان : القبس - تحقيق شاليتا ، ص ٢٤١ .

شاليت البرنوسى : اسبانيا الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣١٥ ، سواريس
مونسيب : مبدل التاريخ المالى : ج ٣ ، ص ٢٦٢ ، وتاريخ أسبانيا ،

من الاستقرار السياسى ، لم تعرفها من قبل ، بل انها وصلت الى قمة مجدها السياسى خلال فترة حكم عبد الرحمن الثالث ، وذلك ترك آثاره على كافة مجالات الحياة الأخرى .

وبالنسبة لجال تشجيع العلوم ، والعناية بالتعليم ، على عهد عبد الرحمن الناصر ، فاننا نجد أنفسنا أمام فترة من الفترات التى تنفخر بها الأندلس والتاريخ الأندلسى الى يومنا هذا ، فاننا نجد أنفسنا أمام صفحة مشرقة من صفحات عهد الرحمن الناصر ، لا يمكن أن ننكر ، بل على العكس ، يعترف بها كافة المؤرخين ، من المشرق والمغرب على حد سواء .

اننا نجد على عهد الناصر ، وربما للمرة الأولى فى التاريخ ، ما يمكن أن نطلق عليه بالتعبير الحديث ، اسم « وزير الدولة للعلم » ، فلقب قدام عبد الرحمن الثالث ، بعد مضى فترة من حكمه ، بـ « بنى ابنه الحكم » ، ولقى عهده ، للقيام بمهمة رعاية العلم والعلماء ، فى مملكته ، وأنتقل ذلك عن مساعد الطبقي (توفى ٤٦٦ هـ / ١٠٢٣ م) ، حيث يقول فى كتابه « طبقات الأمم » :

« ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة ، انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله ، ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وذلك فى أيام أبيه ، الى العناية بالعلوم ، والى ايثار أهلها ، واستجلب من بغداد ، ومن مصر ، وغيرهما من ديار المشرق ، عيسون الناكيف الجليلة ، والمصنفات الغربية ، فى العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها فى بقية أيام أبيه ، ثم فى مدة ملكه من بعده ، ما كاد يضاهاى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة » (١٠٣) .

ولهذا الحادث أثره الكبير فى الحياة العلمية فى الدولة الأموية ،

لأن اختيار الحكم بالذات لهذه المهمة ، وهو الذى « تهيأ لذلك ، لفرط
محبة التعليم ، وبمذهبه فى اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه الى
التنبيه بأهل الحكمة من السلوك » (١٠٤) — قد صبغ الحركة العلمية
على عهد عبد الرحمن الناصر ، بعدة مظاهر :

أولاً — فتح الباب على مصراعيه ، لاستجلاب العلماء المشارقة الى
الأندلس . ومن الصعب ، تحديد عدد الوافدين ، الذين وفدوا فى
هذه الفترة لكثرتهم ، ولكن من الواضح أن الحكم كان يختار
عينات جيدة من الأساتذة ، أمكن لها أن تملأ جوانب الأندلس
عامة ، علما وتعلما ، ومن أبرز من قدم فى هذه الفترة ،
أحمد بن أبى عبد الرحمن القرشى ، وهو « من أهل مصر ،
وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله إليها فى (محرم ٥٤٣هـ /
٩٥٤م) فأكرم الناصر مثواه ، وكان فقيه أهل مصر » (١٠٥) —
وأبو على القالى البغدادى (٣٨٨ — ٥٣٥٦ = ٩٠١ — ٩٦٧م)
ويجب أن نتوقف قليلا أمام تلك الشخصية العلمية الباهرة
لسببين : أولهما قيامه بتأديب الحكم المستنصر ، مما سترك
أثره على الخليفة فيما بعد ، وثانيهما المجموعة الهائلة من
الطلبة ، الذين تلقوا العلم على يديه فى قرطبة ، عسلاوة على
المؤلفات التى خلفها لنا .

يقول المقرئ « ان الناصر ، هو الذى استدعاه من بغداد » (١٠٦) ،
بينما تذكر مراجع أخرى كثيرة أن الحكم المستنصر ، هو الذى
استدعاه الى قرطبة (١٠٧) ، ولقد وصل الى الأندلس فى عام
٥٣٣٠ / ٩٤١م ، حيث استقبله الحكم المستنصر بالله أحسن
استقبال ، « وتلقاه بالجميل ، وحظى عنده ، وقرب منه ،

(١٠٤) صاعد : نفس المصدر ، ص ٨٨ .

(١٠٥) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(١٠٦) المقرئ : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

(١٠٧) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٥٥ .

وبالغ في اكرامه » (١٠٨) • ونستخلص من الروايات التي سجلت استقبال الناصر لأبى على القالى ، مدى الاهتمام الكبير بالناحية العلمية الذى بذله الخليفة عبد الرحمن الثالث • وتجمع كتب التاريخ والتراجم ، على أن الحكم ، « الذى كان يتصرف عن أمر أبيه ، أمر الوزير ابن رماحس ، أن يجىء مع أبى على الى قرطبة ، ويثقله في وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، نكرمة لأبى على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل » (١٠٩) •

ثانياً — إعطاء هؤلاء المعلمين الفرصة للتعليم في مساجد قرطبة ، مما ساهم في رفع المستوى العلمى والتعليمى لأهل الأندلس ، وشجع على الرحلة من الأقاليم الى قرطبة ، ولا يعنى ذلك ، انتفاء النهضة العلمية في عواصم الأقاليم الأخرى ، بل أن هذه الأقاليم قد أخذت خطها أيضاً من عناية الخلفاء بها ، وإن كانت قرطبة على أساس أنها العاصمة ، قد احتلت المكانة الأولى في ذلك المجال • وسوف أعود الى مناقشة مسألة إعطاء المعلمين الفرصة للتعليم في مساجد قرطبة من قبل الخلفاء عند الحديث عن تدخل الدولة في العملية التعليمية ، في الفصل الثالث من هذا الباب •

ثالثاً — استجلاب البارزين من علماء الأقاليم الى قرطبة ، إما للاقامة بها ، أو لإعطاء بعض الدروس ، ثم العودة الى بلادهم الأصلية ، مثلما كان الحال مع أبى يحيى زكريا بن خطاب التطيلى ، الذى « رحل سنة ٣٩٣ هـ / ٩٠٥ م ، وقدم الأندلس ، وكان الناس

(١٠٨) الحميدى : نفس المصدر ، ص ١٥٥ .

(١٠٩) القسرى : النسخ ، ج ٤ ، ص ٧١ ، جوثالث بالينثيا : الفكر الأندلسى ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ « الترجمة العربية » ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ... الخ .

يرحلون اليه في تطيلة السماع منه ، واستقدمه المستنصر الحكيم ، وهو ولي عهد ، فسمع منه أكثر مروياته ، وسمع منه جماعة من أهل قرطبة ، وكان ثقة مأمونا « (١١٠) » .

وكذلك قام الخليفة بنفل الفقيه محمد بن عيسى بن رفاعه المخولاني (توفي ٣٣٧هـ - ٩٤٨م) من أهل رية ، ولقد كان لهذا الرجل شهرة طيبة ، لم يجد ابن الفرضي بدا من الاعتراف بها حين يقول « انه كان يرحل اليه للسماع منه من قرطبة وغيرها » . وعلى الرغم من أن ابن الفرضي يتهم ذلك الفقيه بالكذب ويحاول أن يؤكد ذلك بأكثر من وسيلة الا أنه يقول « استقدم محمد بن عيسى الى قرطبة سنة ٣٣٩هـ / ٩٤٧م ، فأقام يحدث بمدينة الزهراء بقية ذلك العام ثم انصرف الى رية ، فمات بها بعد ذلك حوالي عام ٣٣٧هـ » (١١١) . كما أن الحكم استقدم الشيخ محمد بن مروان بن زريق (توفي ٣٣٩هـ / ٩٥١م) ، من أهل بطليوس ، الى قرطبة للاستفادة منه (١١٢) .

رابعا - الاهتمام بالكتب : ولقد اشتهر عن عبد الرحمن أناصر حبه للكتب ، حتى بلغت شهرته في ذلك ، الامبراطور البيزنطي ، الذي رأى أن أغلى هدية يمكن أن يقدمها اليه ، هي كتاب جديد ، هو كتاب « ديسغوريديس » . ويصف المستشرق الأسباني الكبير « خوليان ريبيرا » هذه النسخة قائلا : « انها كانت نسخة رائعة ، كتبت بحروف من ذهب ، وزينت برسوم جميلة ، تمثل النباتات المذكورة في النص ، وقد رجا الحاكم الأموي الامبراطور البيزنطي ، أن يرسل له عالما لترجم له الكتاب ، لأنه لا يعرف اليونانية ، ولم يسهل عليه العثور على شخص عالم بها ، يستطيع أن يترجم له الكتاب ،

(١١٠) القسري : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ .

(١١١) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(١١٢) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ص ٣٥٤ .

فأرسل إليه الامبراطور الراهب نيتولا ، « ليكون في خدمته » (١١٢) .

وانقسم الاهتمام بالكتب في هذه الفترة الى مظهرين :

أولهما - الحث على التأليف ، والاغداق ما أمكن على العلماء ، لكي يقوموا بتأليف الكتب ، فلقد كان « الحكم المستنصر قيس ولأيته الأمر وبسدها ، ينشط أبا علي ، ويعينه على التأليف بوسع العطاء ، ويشرح صدره بالأفراط في الأكرام » (١١٤) . ولهذا ، « طرز الشيخ أبو علي القالي ، كتاب «الأمالى» بأسلوب الحكم المستنصر » (١١٥) ، كما أن عبد الملك بن عمر بن محمد ابن عيسى بن شبيب ، الأديب ، المؤرخ ، ألف للحكم ، ولى العود ، في خلافة أبيه الناصر ، كتابا في الآداب والوفائيات . أسماء « إصلاح الخلق » (١١٦) . كما « قام أحمد بن محمد ابن عبد ربه (٣٤٦ - ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠ م) ، بجمع ديوانه الشعرى ، البالغ أكثر من اثنين وعشرين جزءا ، للحكم المستنصر على عهد أبيه » (١١٧) .

والقاء نظرة تأملية على الموضوعات التي اهتم بها الحكم في عهد والده الناصر ، يبين لنا نوع اهتماماته التي لم تقتصر على أعمال دينية ، وإنما شملت الشعر ، واللغة والأدب . . الخ .

-
- (١١٢) روبرا : اهتمام المسلمين في الأندلس بالكتب ، ترجمة جليل محرز ، ص ٨٦ (مجلة معهد المخطوطات العربية) .
 (١١٤) القسرى : التلخيص ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
 (١١٥) نيس المصدر ، ص ٧٢ .
 (١١٦) الحبيدي : جذوة المقتبس ، ص ٢٦٧ .
 المراكشى : ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الجزء الأول ، ص ٢٦ .
 (١١٧) الحبيدي : الجذوة ، ص ٩٤ - ٩٦ .
 الصبى : البقية ، ص ١٤٨ - ١٥١ .
 راضى : الأندلس والناصر ، ص ٥٦ .

ثانيهما - الحصول على مؤلفات من كافة البلاد الإسلامية ، وخاصة من بغداد ، « فأرسلوا رسلا أذكاء ، أكفاء ، إلى دار السلام مزودين بمبالغ ضخمة من المال ، وأوصوهم أن يسلكوا الممكن وغير الممكن من الطرق للحصول على أهم ما يتباهى به بغداد من دور العلم ، وجواهر المعرفة ، فذهب أولئك الرسل ، واستعملوا الروية والأناة ، وبذلوا المال بسخاء ، فنجحوا في رسالتهم ، وهاموا بمهمتهم خير قيام ، وعادوا من دار الحكمة وقد نقلوا أكثر ما ترجم من المؤلفات في بغداد ، وسلموها للخلفاء ، فحفظوها بين سحورهم ونحورهم ، ضنا بها ، وحرصا عليها ، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها . فذاعت في ربوع الأندلس ثم تخطت البحر المتوسط إلى شمال أفريقيا » (١٨) .

والنتيجة الحتمية لوزير الانجاسين ، أعنى : الحث على التأليف ، والبحث عن الكتب في المشرق ، تضخم مكتبة قرطبة ، بصورة كبيرة ، وقيام كل من الأمراء والمواطنين بتقليد الحكام في ذلك ، مما أفسح المجال لظهور مكتبات كثيرة في الأندلس . سوف نتناولها بالدراسة في موضعا ، عند الحديث عن المكتبات ودورها التعليمي .

وثمة جانب آخر تتجلى فيه عناية الناصر بالتعليم . ألا وهو رعايته للعلماء والفقهاء والعلماء ، فكان يستقبلهم في مجلسه ويمنحهم جوائزهم ، ولم يقتصر ذلك على المشهورين منهم ، بل لقد وصل إلى معامى الكتاب . ويقص علينا ابن الفرضي أن « محمد أحمد بن يحيى الزهري ، المعروف بالأنصلي الزاهد ،

(١٨) غلاب : الفداحة الإسلامية ، ص ١٣ ، ١٤ .
 وآسين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٦ ، ٨٧ .
 تاريخ التعليم)

من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عبد الله (توفي ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ،
كان معلم كتاب ، وكان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن
ابن محمد ، ويأخذ جوائزَه « (١١٦) » .

لقد وصلت الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة ، الى درجة عالية من
التطور ، حتى أصبحت « أعجوبة العصور الوسطى » (١١٧) ، ولكن ذلك لم
يكن نتيجة لعصر الخلافة فحسب ، وإنما هو — على ما بينت في هذا الباب —
حصار سنوات طويلة من الاهتمام بالعلماء والأدباء ، وتشجيع القيام
بالتعليم ، والحرص على الحصول على الكتب ، حتى أن العالم الكبير ،
والنحوي الفذ أبا علي القالي عند وصوله الى أرض الأندلس ،
ولكثره ما رأى من ضعف اللغة على مدار رحلته الى الأندلس ، كان
يتصور أنه ، عند وصوله الى الأندلس ، سوف يحتاج الى مترجم ، ولم
يكن الأمر كذلك ، فحينما استقبله ابن رماح وصحبه في الطريق الى
قرطبة ، ضمن وفد كبير من علية القوم ، ساروا يتذكرون الأدب ،
« فأنشد أبو علي بيت عبدة بن الطيب :

ثم قمنا الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

وأخطأ أبو علي ، وأنشد « أعرافها لأيدينا مناديل » فأنكر ابن رفاعه (١١٨)
الألبيري ذلك ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه هرج وزعارة ،
واستعاد أبا علي تثبتا مرتين ، فأنشده في كليهما « أعرافها » فلوى

(١١٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٣٤٢ .

(١٢٠) فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ١١٦ .

ولم يترك الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم مجالاً للحدوث
عن قرطبة بعد صدور كتابه الرائع « قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية »
والذي صدر في بيروت في جزئين في عام ١٩٧١ ، وللأسف الشديد أن
الكتاب قد التهمته نيران الحرب الأهلية ولم تنج منه إلا عدة نسخ تكرم
الأولف بإيداعها مكتبة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد ومكتبة
المعهد الأسباني العربي للثقافة .

(١٢١) محمد بن رفاعه الأموي الألبيري ، توفي في عام ٤٠٣ أو ٤٠٤ ،

انظر الإحاطة ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ابن رفاعه عائلته منصرفا وقال : أجمع هذا بيوفد على أمير المؤمنين ،
 ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس
 لا تغلط فيه الصبيان ؟ والله لا أتبعه خطوة . وانصرف عن الجماعة .
 وندبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب إلى
 الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لابن رفاعه ، ويشكوه ، فأجابه —
 الحكم — على ظهر كتابه : الحمد لله الذي جعل في بادية من بواديها ، من
 يخطئ وأفسد أهل العراق الينا ، وابن رفاعه أولى بالرضا عنه ، من
 أسخط عليه ، فدعه وشأنه وأقدم بالرجل غير منتقص من تكريمه
 فسوف يعمل به الاختبار ان شاء الله ، أو يحط به » (١٢٢) . وعند وصول
 أبي على القالى الى قرطبة ، أثنى على من بها من الفقهاء وخاصة محمد
 ابن القوطية .

ولكن على الرغم من ذلك كله ، على الرغم من اجماع المؤرخين
 والكتاب ، على رعاية الناصر للعلوم ، واهتمامه بالحركة التعليمية
 الا أننا يجب أن نتوقف قليلا أمام الحملة العنيفة والشديدة التي
 وجهها الناصر ضد اتباع مذهب ابن مسرة القرطبي . هذا . ولقد قدم لنا
 الجزء الذى نشر حديثا من « مقتبس ابن حيان » نصوصا تفصيلية
 وواضحة عن هذه الحملة ، يتبين منها أن الناصر قد كلف صاحب المدينة
 عبد الله بن بدر ، « بالتنقير عنهم ، والقصر لأثارهم ، وطلب الدلائل
 عليهم ، والايقاع بمن صح لديه أنه منهم ، أو مقول لهم ، فتجرد
 ابن بدر ، ينشد تخويفهم ، وأغلظ لمن عثر عليه منهم ، فجرت لهم في
 ذلك خطوب ، يطول القول فيها » (١٢٣) ، ولم يكتف الخليفة بذلك وانما
 أصدر كتابا في شأن هؤلاء « قرئ في جميع الأمصار .

ولقد توقفت طويلا أمام هذه النقطة : لماذا قام عبد الرحمن

(١٢٢) المقبرى : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٧١ .

ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ، ١٨٤ .

(١٢٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شاليتا ، ص ٢٤ .

الثالث بذلك ؟ هل حقا كانت تعاليم ابن مسرة من الخطورة بحيث تدفع بالناصر الى شن هذه الحملة القوية ؟ أم أن سلطة الفقهاء في قرطبة كانت قوية الى درجة تجبير الخليفة على اتخاذ مثل هذه الاجراءات التحديدية ؟ .

ان عددا كبيرا من الأبحاث الحديثة ، قد أثبتت على ابن مسرة ، وأبعدت عنه أى شك في الاحاد أو الهرطقة أو الزندقة ، بل ان المؤرخين القريبين جدا من العصر ، يثنون على عمله الدينى عامة والمالكي خاصة فيصفه ابن حبان بأنه كان « يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنة ، سرد القرآن ويشققها بالاجتناب بأوضح برهان ، حتى يخرج منها أجزاء مختصرة حسنة لم يزل الاجماع من مخالفة الى اليوم ، واقعا على أنها أفضل ، وأوجز ، وأبسط من كل مختصرة ، صيغت فيها » (١٢٤) .

أما بالنسبة لسلطة الفقهاء في تلك الفترة ، فأننى ، على الرغم من العناية الكبيرة التى قدمها لهم الناصر لدين الله ، لا أعتقد أن الخليفة كان راضيا لهم ، بل على العكس من ذلك تماما ، لقد كان يتمتع بسلطة فاهرة ، مكنته من تنفيذ أشياء كثيرة ، على الرغم من الفقهاء ، وليس أدل على ذلك ، من اتخاذ منذر بن سعيد البطلى الظاهرى (٢٧٢ — ٣٥٥ هـ / ٨٨٦ — ٩٦٦ م) ، قاضيا ، وصاحباً للصلاة ، والخطابة بجامع الزهراء ولقد كان منذر ظاهريا ، يقول بقول داود ابن على الظاهرى ((توفى ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) ، ولا يخفى ذلك . حقا انه كان اذا جلس للقضاء حكم على المذهب المالكي — ولكنه في مؤلفاته ودروسه ، ومجالس علمه ، لم يكن يخفى اتباعه للمذهب الظاهرى . بل ان البعض قد وصل الى القول بأن منذر بن سعيد : « كان من المؤيدين

لاين مسبرة ، في معظم آرائه « (١٣٥) . ومع ذلك لم يتعرض منذر لأية مضايقة من فقهاء قرطبة ، بسبب منزلته من الناصر .

وإذا ما وضعنا في الحسبان ما حدث مع الفقيه ، أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشبتريني . (توفي ٤٢٦ هـ / م ١٠٣٤ م) وصاحبه الفقيه أبي محمد بن حزم ، حيث تعرض لهما صاحب المدينة ، وأمرهما بالقيام وترك التحاق ، ومنع العامة عن الاجتماع اليهما (١٣٦) : ثم تعرض أتباعهما للسجن ، والامتحان — لأدركنا أن شخصية الناصر كانت فعلا أقوى من فقهاء عصره وأنه لم يكن يخضع لهم في مسألة مثل مسألة ابن مسرة .

لقد فكرت في البداية : أن الناصر ، ربما قد قام بذلك في السنتين الأوليين من حكمه ، لكي يكتسب مودة العامة والفقهاء ، ومساعدتهم له في القضاء على حركات التردد ، التي كن عليه مواجهتها ، عند توليه أمر البلاد ، ولكن الحصول على التواريخ الثابتة لهذه الحملة ، والتي يذكر الرازي ، أقرب المؤرخين لعصر الناصر ، أنها بدأت ، اعتبارا من يوم انجمعة ، لتسبع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاثة مائة (٤٥١ هـ) : ثم « تمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والاختافة لهم ، وبخوف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر » (١٣٧) ، الذي توفي سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤١ م .

ان التفسير الوحيد ، الذي أجده مقنعا ، ولعلني أكون مخطئا ، هو أن الناصر في تلك المرحلة ، كان قد وصل الى سن الشيخوخة ، وبالتالي

(١٢٥) المقرئ : نوح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ، أزهار الرياض ، ص ٢٩٥ .

على راضي : الأندلس والناصر ، ص ٥٤ .
عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢١١ .
(١٢٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٧ .

آسين : ابن حزم القرطبي ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٢٧ .
Asin Palacios : Abenhazam de Cordoba, 10 136, 137.

(١٢٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق سالمينا ، ص ٣٠ .

أصبح ضعيفا، كما أنه، وهو الرجل الذى أنفق ببذخ، على أعمال دينوية، ربما اعتوره الحنين الى القيام ببعض الأعمال، التى يتقرب بها الى الله، مثل العمل على الحفاظ على السنة، وحمايتها من البدع.

ومن المناسب فى هذا المجال، أن نصحح، اعتمادا على أحدث ما نشر من مقتبس ابن حيان، بعض ما قاله المستشرقان الأسبانيان الكبيران، «ميجيل آسين بلاثيوس» و «أنخيل غونتالت بالينثيا»، عند الحديث عن «ابن مسرة ومدرسته»، حيث يقول لنا أولهما: «أن ثلاثة حملوا على عاتقهم مسئولية مقاومة المسرية واضطهادها، وأكثر هؤلاء الثلاثة مكانه، بل وأعلامهم من الناحية الوظيفية الرسمية الفقيه محمد ابن بى (٣١٧ - ٣٨١ هـ/ ٩٢٩ - ٩٩١ م (١٢٨)، وهو فقيه ضالع فى الفقه والتشريع، تولى قضاء الجماعة فى قرطبة، بعد وفاة الحكم الثانى. أما الثانى، فهو اللعوى الشهير، والأديب الأشجلى، أبو بكر ابن الزبيدى (٣١٦ - ٣٧٩ هـ/ ٩٢٨ - ٩٨٩ م) (١٢٩)، مؤيد الخليفة هشام الثانى. ولقد كتب الزبيدى كتابا فى الرد على ابن مسرة، عنوانه «هناك ستور المحدثين»، أما الثالث، فهو المحدث الشهير، الفقيه أبو عمر بن لوب الظلمنى (٣٤٠ - ٤٢٨ هـ/ ٩٥١ - ١٠٣٧ م) (١٣٠)، الذى كتب كتابا ضخما، يكشف فيه العورات المستورة لذهب ابن مسرة. ويرى آسين بلاثيوس، أن بدء حملة الاضطهاد ضد أتباع ابن مسرة، كان فى أواخر حكم الخليفة المستنصر بالله، ذلك الخليفة الذى أنهى زهر سنوات عمره، وأجس بدنو الموت، بعد مرضه، أصبح يستعد للحساب ولقاء الله، مكفرا عن ذنوبه التى ارتكبها، حين شجع الفلسفة

-
- (١٢٨) الحميدى: جذوة المقتبس، ص ٩٣.
 الضبى: بغية الملتبس، ص ١٤٦.
 (١٢٩) الزبيدى: كتاب الواضح، المقدمة.
 الحميدى: جذوة المقتبس، ص ٤٣.
 العزاوى: نعمة رحيم: أبو بكر الزبيدى الأندلسى، ص ٥٦ وما بعدهما.
 (١٣٠) الضبى: بغية الملتبس، ص ١٦٢، الحميدى: الجذوة، ص ١٠٦.

ودراستها ، وذلك عن طريق القيام ببعض الأعمال الخيرية ، مثل عتق
الجواري ، وتوزيع الصدقات ، وتشجيع مدارس لتعليم القرآن ،
وتوصية ابنه هشام بدراسة الكتب الدينية . ولقد مات الحكم بعد
ذلك ، وتولى أحمد بن يحيى قضاء الجماعة ، واستغل منصبه أكبر
استغلال ، لكي يناهض هذه الموجة المسرية المتقدمة والمنشرة - ساعده
على ذلك سياسة العودة الى الدين الصحيح ، التي أوصى بها الحكم ابنه
هشام ، وبدأ الاتهام يلاحق هذه المجموعة من القرطبيين ، أتباع ابن مسرة ،
ويقتل آسرين هذه الآراء والملاحظات ، بأن «أيا منهم لم يتعرض لعقوبة
كبرى بسبب معتقده لأنه القاضى لم يتمكن من الوصول الا الى نتائج
مبسطة لا يعرف مدى خطورتها» (١٣١) . ولقد تابعهما في القتل ، بأن الحملة
ضد أتباع ابن مسرة لم تبدأ الا في أواخر عهد الحكم ، السيد : نسمة
وحكيم العزاوى ، حيث يقول « تعرض ابن مسرة للاضطهاد في حياته ،
واشتد الهجوم على أتباع مذهبه ، حين أظهر الحكم في أخريات أيامه ،
الرغبة في التكفير ، عما أبدى من تسامح وميل للفلسفة » (١٣٢) .

لكن الحقيقة ، كما سبق أن بينت هي أن الحملة قد بدأت في عهد
عبد الرحمن الناصر ، وتولى حمل لوائها - صاحب المدينة ، عبد الله
ابن بدر .

والحقيقة كذلك أن أتباع ابن مسرة قد تعرضوا للامتحان الشديد
« وجرت لهم خطوب يطول القول فيها » (١٣٣) ، مما يلقي ظلالا ،

(١٣١) آسبن بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

Asin Palacios : Ibn Masarra y su Escuela, p. 89, 90.

ونفس الكلام تقريبا ، ذكره غوثالث بالينثيا : تاريخ الادب الاندلسي .

ص ٢٢٦ .

Gonzalez Palencia : La Literatura Arabigo Española,

p. 226 .

(١٣٢) العزاوى : أبو بكر الزبيدي الاندلسي ، ص ٤٤ .

(١٣٣) ابن خبار : المنبر - تحقيق : أساطيا ، ص ٣٤ .

ولو باهتة ، على تسامح الحكم بالذات ، لأنه إذا كانت هذه الجملة قد بدأت في أواخر حكم الناصر ، وكان الحكم يتصرف عن أمر أبيه ، بل كان الحكم هو المسئول الأول عن النواحي العلمية والتعليمية ، فإن ذلك يدعو إلى التساؤل أكثر من مرة عن الأسباب المباشرة وراء ذلك ، ولكن بما أن ذلك ليس مقصد المراد هنا ، فلنترك السؤال لفرصة أخرى قد تستجيب فيها لما في النفس من شكوك ، وأكثرى نكت بعرض نص كتاب عبد الرحمن الناصر بهذا الخصوص :

كتاب الخليفة في التنديد بمذهب ابن مسرة وأتباعه

أنفذ الخليفة الناصر لدين الله ، الى آفاق ملكه ، بشأن هؤلاء
المبتدعة كتابا طويلا فرى عليهم بأمصارهم من انشاء الوزير الكاتب
عبد الرحمن بن عبد الله الزجاجي نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فان الله تعالى جده وعز ذكره ، جعل دين الاسلام
أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى
منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن
يقبل منه) (١) الآية ، وقضى فى محتوم أمره ونفاذ حكمه أن ينسخ به
الديانات ريجتم برسالاته الرسالات ، فبعث محمدا خاتم النبيين وأكرم
الأكرمين وأعز الخلائق على رب العالمين بأن كتب الصلاة والسلام
عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ،
وأرسله بأفضل دين سماء حنيفا الى خير أمة أخرجت للناس (٢)
كَمَا قَالَ ، عز من قائل ، إذ عرفنا فضل ما هداانا اليه من الدين وكرمنا
به على سائر الأمم (كدتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر) (٣) الآية ، فله ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ،
الشكر على خصائص هذه الفضيلة والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ
من الغواية وهدى فأحسن الهداية ، وأثار فأبان الحجة وكفانا بواضح
المناهج مؤنة الفكرة ونظم زمان الأمة وجمع وجوه السعادة العاجلة
والنجاه الآجلة فى تأليف الجماعة واجتتاب نزعات الفرقة ، حيث يقول
عز وجهه لسيبه ، المخصوص بهداه ، صلى الله عليه وسلم ، تحفيا به

(١) قرآن ، س ٣ ، آية ٨٥ .

(٢) قرآن ، س ٢ ، الآية ١٤٣ .

(٣) قرآن ، س ٢ ، الآية ١٠ .

وبعباده ، ورأفة بسخطها على خير خلقه ، وإعلاما لهم بتواصل الدين من قبله لأنبيائه وكرامته لاختلافهم بعد رسوله — صلعم — (شريح لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه) (٢) الآية ، فخوفه وحذر ونهي عن تفرق الكلمة و (فيه) على البعد ١٠٠٠/ ونفى الله الخبائث عنها ، وفضلها على سائر البلدان واستقر فيها الدين كميته يوم أكمله الله لعباده ، ولما استوسعت الطاعة وشملت النعمة وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تتبغى خيرا ولا تأتمر رشدا ، من طغاف السواد ومن ضعف آرائهم ومن خشونة الأوغاد ١٠٠٠ كتبوا لم يعرفوها خلقت فيها حلومهم ، وقصرت عنهم علومهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جيلوا وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان وأحل عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن واستياسوا وآيسوا من روح الله (ولا يبأس من روح الله إلا القوم الكافرون) (٣) ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرفوا التأول في حديث رسول الله — صلعم — فبرئت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه (ألم قد آلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب ويما أرسلنا به رسلنا ، فسوف يعلمون) (٤) — الى قوله (اذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون • في الصميم ثم في النار يسجرون) (٥) ، فهذا أبلغ الوعيد وأفظع النكال (من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) (٦) ثانيا عطفا (ليضل عن سبيل الله) (٧) اتى قوله (عذاب الحريق) (٨) ، ثم تجاوزوا في اليمنان ، وسدوا على أنفسهم

(٢) قرآن ، س ٤٢ ، آية ١٣ .

(٣) قرآن ، س ١٢ ، آية ٨٧ .

(٤) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٦٩ ، ٧٠ .

(٥) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٧١ ، ٧٢ .

(٦) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٨ • أو س ٣١ ، آية ٢٠ .

(٧) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .

(٨) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .

أبواب الغفران ، فأكذبوا التوبة وأبطلوا الشفاعة ونالوا محكم العقاب
وغامض متشابه التأويل ، بتقدير عقولهم (فأما الذين في قلوبهم زيغ
فيبتغون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله) (١١) ، الى قوله
(وما يذكر الا أولو الأبواب) (١٢) فصاروا بجهل الآثار وسوء حمل
الأخبار الى القدح في الحديث وترك نهج السبيل ، فأسأوا الفهم عن
العلوم ، وأقدموا بمكره القول في السلف الصالح ، واستبدلوا على
ثقله الحديث ، ووضعوا من الكتب أوضاعها وتابعوا شهواتهم فيها ،
وتابعوا فيما أوتيتهم وورطتهم ورأوا لتخضع وحشية ، يحثهم لازم
الضلالة وداعية الهلكة والشذوذ عن مذهب الجماعة من غير نظر نافذ في
دين ولا رسوخ في علم ، حتى لقد تركوا رد السلام على المسلمين ، وهي
التحية التي نسخت تحية الجاهليين ، خلافا على أدب الله تعالى وقوله
جل جلاله (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) (١٣)
وقالوا بالاعتزال عن العامة ، وشدوا أزره فأثروه ، وانكسروا فنكرهم
(الذين يستمعون القول فيبتغون أحسنه) (١٤) الآية ، فلعجوا في جهالتهم ،
وتأهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقدوا على الأمة الحنيفية ،
واعتقادا لبعضها ، واستحلالا لدمائها ، وتذرعوا الى انتهاك حرمة
وسبى ذريتها (قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم
أكبر) (١٥) الآية ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط
بهم ، ولما صار غيهم فائسيا وجهلهم شائعا ، واتصل بأمر المؤمنين
من قدحهم في الديانة ، وصدوفهم عن الجادة ، ما شغل نفسه ، وأقضى
مضجعه وأسپر ليله ، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم (١٦) ،
وأوعز إيعازا شديدا وإنذارا فظيحا ، وعهد عهدا مؤكدا شافيا كافيا ،

(١١) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .

(١٢) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .

(١٣) قرآن ، س ٤ ، آية ٨٦ .

(١٤) قرآن ، س ٣٩ ، آية ١٨ .

(١٥) قرآن ، س ٣ ، آية ١١٨ .

(١٦) اقتباس من القرآن ، س ٨٤ ، آية ١٠ .

نظر به لوجهه ، تبارك اسمه (١٧) ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد ،
وامر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليوسع قلب
الجاهل ، ويفت كيد المستوتر الجائر ، وينقش عزم المعاند المعجل ،
ويضطر الغواة الى الانابة الصحيحة التي تقبلها الله منهم ، أو يكشفه
عن الأذهان سرائرهم ، فيكون عليهم الشهيد ، و (انهم آتيتهم عذاب
غير مردود) (١٨) . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ،
ويرسله في بدوه وحفره ، وأن ينفذ عهوده اليك والى سائر قواده
وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ولا يحرم القاصي بأعم
الداني من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهة وفتنة
فلم تحل الديار ، ولا تمقت الآثار ، ولا استحق البلاء على قوم ، ولا أهلك
الله أمة من الأمم الا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل
للسنة والاعتداء في القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات
الله عليه وسلم — هذا عند وروده عليك في الجامع قبلك ، وانتشره في
أسماع رعيك ، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وابث فيهم عيونك ،
وطالب فيهم غورهم جهوك ، فمن تجلى بطيقتهم أن انتسب اليهم ،
وقامت عليه البيئات بذلك عندك فاكتب الى أمير المؤمنين بأسمائهم
ومواضعهم وأسماء الشهود عليهم ونصوص شهاداتهم ليعود باستجالاتهم
الى باب سدته ، لينكلوا بحضرته فيذهب غيظ نفسه ويشفي حر صدره
وأياك أن تداهن في أهل الريبة وتتخطاهم الى ذوى السلامة والأخوة
الصالحة ، فان فرطت في أحد الأمرين أو كليهما فقد برىء الله منك
وأحل دمك ، فأعمله واعتمله ، ان شاء الله تعالى » .

ويقول ابن حيان بعد ذلك :

« وتماذى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والاخافة لهم ، وتخويف

(١٧) اقتباس من القرآن ، س ٥٥ ، آية ٧٨ .

(١٨) قرآن ، س ١١ ، آية ٧٦ .

الناس من فتنهم ، بقية أيام الناصر لدين الله » (١٩) *

تولى الحكم بن عبد الرحمن الخلافة في قرطبة سنة ٨٣٥٠/٩٦١م ، وعمره حوالي سبعة وأربعين عاما ، وتوفي سنة ٨٣٦٦/٩٧٦م ، أى أنه ظل على عرش الخلافة ستة عشر عاما ، وهي فترة قصيرة جدا نسبيا ، لكنها في تاريخ الأندلس ، من أنصح صفحاته ، اهتماما بالعلم والعلماء ، ولا يختلف في ذلك أثنان ، وليس من الممكن إيراد ما كتب عن الحكم الثاني لأن مجرد الوقوف على ذلك فقط ، عملية صعبة جدا ، بل ومستحيلة ، فهناك كتب كثيرة جدا ، كتبت في الشرق أو الغرب ، قديما أو حديثا ، في تاريخ الأدب ، أو في التاريخ ، أو في الفلسفة ، أو في تاريخ العلوم ، قد خصصت صفحات لهذا الخليفة العظيم ، وإذا كان الحكم قد اعتلى عرش الخلافة هذه المدة القصيرة فقط ، إلا أن تاريخه العلمي يرجع إلى ما وراء ذلك بعشرات السنين ، حينما تحمل عن والده عبء الجانب الثقافي والعلمي والتعليمي في مملكته ، وجعل من دولته بعد ذلك ، امتدادا لنشاطاته وأعماله التي مارسها خلال عهد والده *

والجدبر بالذكر أن الحكم لم يكن خليفة يرعى العلوم ، ويحمي العلماء ويشجع على التعليم فحسب ، ولكنه هو نفسه كان عالما كبيرا ، وسندا يعتمد عليه ، ومرجعا يحتكم إليه ، يقول المستشرق الفرنسي ، ليفي بروفنسال : « علينا أن نبرز في المقام الأول ذلك الاسم الخالد .

(١٩) نشر هذا النص لأول مرة ، المؤرخ المصري محمد عبد الله حسان ، تحت عنوان (اكتشاف السقر الخامس من القتبس) - مجلة المعيد المصري للدراسات الإسلامية بهدريد ، العدد ١٣ ، عام ٦٥ - ١٩٦٦ ، الصفحات ١٢٥ - ١٣٧ .
ابن حيان : القتبس ، الجزء الخامس ، تحقيق شاليتا ، الصفحات ٢٥ - ٣٠ .

Pedrp Chalmeta : AL-MOQTABAS de Ibn Hayyan, V 25 - 30.

الحكم الثاني عالم لا غبار عليه ، راعيا مهيبا عظيما للآداب والعلوم ،
حديثا للفنون . « (٢٠) »

أما غونثالت بالينثيا فيقول : « ان تسامح الحكم مع العلماء ، لم
يكن له حدود ، مما دفعهم للالتفاف حول بلاطه ، ولقد قام بحمايتهم
وتشجيعهم حتى الفلاسفة منهم ، وأعطى الحرية لهم ، لكي يقوم الرياضيون
والفلكيون بالتدريس علنا ، تلاميذهم » (٢١) . ونصفه دائرة المعارف
الاسلامية ، بأنه كان « راعيا للفنون والعلوم والترقية » (٢٢) .

ولقد تحول مسجد قرطبة في عهد الناصر والمستنصر ، الى جامعة
تحقيقية وليس المجال هنا للافاضة في هذا القول ، لأننى سأتناوله عند
حديثى عن المساجد ، ولكن ما هو جدير بالاشارة هنا ، أن الحكم ، « قد
عهد الى أخيه المنذر ، بالاشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها » (٢٣) ،
دون أن يهمل هو رعاية هذا المكان ، بل كان شديد الاهتمام به ، حتى
وصل عدد طلابه وزواره الى الآلاف (٢٤) .

(٢٠) ليفى بروفنسال : تاريخ إسبانيا - النص الأسباني ، ج ٢ ،
ص ٣٢٥ .

Léve Provençal ; Espana Musulmana ; V. 10 325.

الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٩٩ . ولقد أورد ابن الأبار نصا
طويلا في صفات الحكم العملية في كتابه : الحلة السراء ، انظر ج ١ ،
ص ٢٠٣ - تحقيق الدكتور حسين مؤنس .

(٢١) غونثالت بالينثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، النص الأسباني ،
ص ٢٠ ، و ص ٢٨٣ ، وانظر أيضا الترجمة العربية ، ص ٤٤٨ .

(٢٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الانجليزية ، ج ٢ ،
ص ٢٢٣ .

The Encyclopaedia of Islam ; T 2 ; pp. 223.

(٢٣) عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الاول ،
التسم الثانى ، الطبعة الثالثة ، ص ٤٥٧ .

(٢٤) محمد غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ ، وانظر أيضا قول
عبد الملك بن زبادة : « انى اذا احتوشنى ألف محبرة ... » ، الحميدى :
ص ٢٦٦ ، وخوليان ريبيرا : في اهتمام المسلمين بالكتب ، ترجمة
د. جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد رقم ٥ ،
ج ١ (١٩٥٩) ، ص ٧٣ .

ويمكن لنا أن نلخص اهتمام الحكم بالنواحي العلمية والتعليمية في هذه النقاط :

أولاً - استجلاب العلماء من كافة نواحي الأندلس إلى قرطبة ،
التراجم على أنه كان يختار أفضل العلماء ، أو من تتوافر لديهم
وسماحه لهم بالتعليم في المساجد العامة بقرطبة ، وتدلتنا كتب
تصوص ليست شائعة عند الناس ، فعلى بن معاذ بن سمان
الرعي (المتوفى ٥٣٨٩ / ٩٩٩ م) ، بجاني ، كان لغويا ، نسبيا
استقدمه الحكم المستنصر بالله ليقبض من علمه ، وكان عنده
جميع كتب ابن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد
سلمة نحواً من سنة ، ثم عاد إلى بجانة (٣٠) . وفي تلك الإشارة
للخليفة بتحديد جلوس هذا الفقيه « بحومة مسجد سلمة »
جاء يوحى بشيئين :

(أ) وجود مساجد أخرى في قرطبة لها أهمية : غير المسجد
الجامع .

(ب) وجود أماكن خاصة بالاقامة ، ملحقة بالمسجد ، يقيم فيها
هذا الفقيه مدة عام ، ثم يعود بعد ذلك إلى وطنه
« بجانة » .

وايستقدم المستنصر بالله ، أيضا « محمد بن فرج بن
سبعون النحلي (توفي ٥٣٦٧ / ٩٧٧ م) إلى قرطبة ، فسمع
عنه غير واحد » (٣١) ، وتوفي هذا الرجل في بجانة ، مما يدل على
عودته من قرطبة بعد انتهاء مهمته هناك .

(٢٥) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٢٧٣ .

وكذلك حدث نفس الشيء مع محمد بن مروان بن زريقه
من أهل بطليوس ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، وكتب
عنه (٢٧) .

لهم بل كان هو شخصيا مهتما باستقدامهم الى قرطبة والترحيب
ثانيا - اتساع رحيل العلماء المشاركة الى الأندلس ، وتكريم المستنصر
بهم ، وإكرام مثواهم ، ورفع منازلهم عند ، ومن هؤلاء الذين
وصلوا الى قرطبة على عهد المستنصر بالله « إسماعيل بن عبد
الرحمن بن علي القرشي (توفي بعد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م)
الذي رحل من مصر الى الأندلس ، فحل يومئذ على الحكم
المستنصر على الرحب والسعة » (٢٨) . ولقد أورد ليفي بروفنسال
أسماء عدد كبير من هؤلاء (٢٩) .

ثالثا - احترام الحكم المستنصر للعلماء ، ومكانتهم ، مما جعلهم
يؤمنون بدروسهم وبطابعتهم ، ورفع من قدرهم عند الناس .
وعند الطلبة ، ولقد وصل بعض هؤلاء الفقهاء والعلماء الى
درجة عالية من المهابة ، حتى أنه كان يطلب ولا يرد له طالب .
وأسوق تلك القصة الطويلة التي حفظها لنا المقرئ عن الفقيه
إبراهيم بن إسحق - يقول المقرئ :

« كان معظما عند الناصر وابنه الحكم ، وحق لهما أن
يعظماه ، فقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرح قال : كنت

(٢٧) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

(٢٨) الحميدى : جذوة المتبس ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

المقرئ : نفع الطيب - ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٢٩) ليفي بروفنسال : إسبانيا الإسلامية - ج ٢ ، ص ٣١٨ .

اجتاز يومه ابي الفقيه ابي ابراهيم - رحمه الله تعالى - فيمن
يختلف اليه للفتحه والرواية ، فأتى لعنده في أحد الأيام في
مجلسه بالمسجد المنسوب « لأبي عثمان » الذي كان يجلى
به قرب داره بجوف قرطبة ، والمجلس حافل بجماعة الطلبة ،
وذلك بين أساتذتين . إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل
جاء من عند الخليفة الحكم - فوقف وسلم وقال له : يا فقيه ،
أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر قد خرج فيك ، وها
هو قاعد ينتظرك . وقد أمرت بأعجالك ، فآله الله . فقال له :
سبحا وطاعة لأمر المؤمنين ، ولا عجلة ، فأرجع اليه وعرف -
وفكك الله عني - أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى ،
معي طلاب العلم أسمعيهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وهم يقيّدونه عني ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه
حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أؤكد
من تسييري اليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع الي من
هؤلاء المستبين في ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت اليه .
إن شاء الله تعالى . ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصي يستد
متساجرا من ترققه فلم يك إلا ريثما أدى جوابه . وعاد سرعيا
ساكن الطيش فقال له : يا فقيه ، أنبت قولك على نصه ان
أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى اليه ، وهو يقول لك : جزاك
الله خيرا عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين
وأمرهم بك حتى ينفخ في شفاك ، وتمضي معي ، فقال له
حسن جميل ولكني أضعف عن المشي الى باب السدق

(٣٠) انظر : ابواب النصر في « مخصوص عن الأندلس » من
للإندلس . وحسين مؤنس في « وصفا جديد لقرطبة الإسلامية »
ص ١٦٨ .
وعن باب السدة انظر : « تورييس بالباس » : الأندلس - العدد ٧
(١٩٥٢) ص ١٦٥ .
Torres Balhas : Bab al Sudda. Al-Andalus XVII.

ويصعب على ركوب دابتي لشيخوختي ، وضعف أعضائي ،
وباب الصناعة (٣١) الذي يقرب إلى من أبواب القصر المكرم
أحوط وأقرب وأرفق بي ، فان رأى أمير المؤمنين - أيده الله
تعالى - أن يأمر بفتحه لأدخل عليه منه ، هون على المثنى ،
وودع جسمي ، وأحب أن تعود إليه ، وتنتهي له ذلك حتى
تعرف رأيي فيه ، وكذلك تعود إلى خاني أراك فتى سديدا ،
فكن على الخبر معينا . وخبيري عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين
وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت وأمر
بفتح باب الصناعة ، واستناراك من قبله ، ومنه خرجت إليك ،
وأمرت بملازمتك مذكرا بالنيوض عند فراغك . وجلس الخصي
جانبا حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت
به عادته غير منزعج ولا قلق ، فلما انفضضنا عنه ، قام إلى
داره فأصلح من شأنه ، ثم مضى إلى الخليفة الحكم ، فوصل
إليه من ذاك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على
ذلك الباب ، فأعيد اغلاقه على أثر خروجه - قال ابن مفرح :
ولقد تعمدنا في تلك العشية أثر قيامنا عن الشيخ ، المرور بذلك
الباب المعهود اغلاقه بدبر القصر فوجدناه مفتوحا كما وصف
الخصي ، وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ما بين كناس
وفراش ، منأهين لانتظار أبي ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك ،
وطال تحدثنا عنه ، فهكذا يكون العلماء مع الملوك والماوك مع
العلماء ، قدس الله تلك الأرواح » (٣٢) .

ويقول الدكتور سالم عن باب السدة أنه باب الجنان وهو باب
السطح الشرقي من أبواب قصر قرطبة فتحه الأمير عبد الرحمن الأوسط
في سور ممتد من سور قرطبة لاغلاق الرصيف وكانت دفتة من حديد .
وكان الأمير يشرف على اعدام الثوار أمام الباب .
(٣١) أحد الأبواب الشمالية لقصر قرطبة ، وكان مغلزا . وعرف بذلك
للاصقته لدار الصناعة القريبة من مسجد أبي عثمان . راجع المقرئ -
ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٥ .
المقرئ : ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٦ .

مظهر آخر من مظاهر اهتمام الحكم بالحياة التعليمية ، هو قيامه بنشئة بزيارة الفقهاء في مجالسهم ، وتفقد أحوالهم ، ورؤية مستواهم العلمى ، فقد قام الحكم المستنصر بزيارة أبى الحسن على بن محمد الأنطاكى (المتوفى ٣٧٧هـ / ٩٨٧م) . حيث عين الفقيه الأنطاكى بعض الطلبة لقراءة القرآن يوم هذه الزيارة ، اختارهم من بين طلبته ، وكان منهم خلف بن حسين ابن مروان (٤٢٧هـ / ١٠٣٦م) ، والد المؤرخ الكبير ، ابن حبان (٣٧٧ - ٤٦٩هـ / ٩٨٧ - ١٠٧٧م) ، تقول المصادر أنه « قرأ القرآن على أبى الحسن الأنطاكى ، وحكى أنه كان حسن الصوت ، وأحد من عين الأنطاكى للقراءة ، يوم زاره الحكم المستنصر » (٣٣) .

رابعا - انشاء أماكن للتعليم ، ركزها على التعليم الأولى ، أى أنه أنشأ مكاتب في مدينة قرطبة لكي يتعلم فيها أولاد الفقهاء والضعفاء مجانيا ، ثم أنه جعل لمعلميها أوقافا من دخل حوانيت السراجين ، لكي يتفاضوا منها مرتباتهم ، وتجمع كافة المصادر على أن هذه الخطوة تعتبر من أفضل خطوات الحكم المستنصر بالله حيث تقول « ومن مستحسنات فعالة وطيبات أعماله : اتخاذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن ، حوالى المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعيد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم » (٣٤) . وعند الحديث عن عام ٣٣٤هـ /

(٣٣) ابن الأبار : تكملة الصلة - ج ١ ، ص ٢٩٥ .
وانتظر التبريق الذى خصه به الدكتور محمود مكي في مقدمته لتحقيقه للسفر الثانى من مقتبس ابن حبان ، ص ٨ - ١٩ .
(٣٤) ابن عذارى : البيان المترب ، ص ٣٥٨ .

٩٧٤م يقول : « وفيها جس الحكيم المستنصر ، حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء » (٣٥) . وهذا ولقد أنشأ الحكم المستنصر ، في هذا المجال ، سبعة وعشرين مكتبا ، منها ثلاثة بجوار المسجد والباقي بكل ريف من أرباض المدينة ، وفي هذه المناسبة يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتب لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

نأذكك بأخير تاليفها وواعيها (٣٦)

خامسا — اهتمام الحكم المستنصر بالله بتأليف الكتب ، والحصول عليها . وفي هذا المجال ، ارتفع الحكم الى درجة عالية ، لا يكاد يذانيه فيها أحد ، وتتجلى مظاهر اهتمامات الحكم بالكتب وتأليفها ، والحصول عليها فيما يلي :

(أ) تشجيع التأليف ، والاعتناء به ، والاثابة عليه ، وإكرام

(٣٥) ابن حيان — المقتبس — تحقيق الحجي ، ص ٢٠٧ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٧٠ .

وهناك من يرى أن الحكم المستنصر بالله قد قام بهذه الأعمال في سنة ٣٦٤ ، أي قبل وفاته بعامين فقط ، بسبب إيلاله من مرض خطر ألم به ، كما أنه لنفس السبب قد أغنى الكثير من عبيده وجواريه ، ومع موافقتي على هذا الرأي وصحته كثيرا إلا أن ذلك لا يمنع من استخدامه كدليل على اهتمام الحكم بالتعليم والمعلمين لأنه كان في وسعه استخدام هذه الأموال في مجالات أخرى كبناء المساجد أو توزيعها على الفقراء دون توجيهها لبناء المكاتب ولمسالك المعلمين .

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ — طبعة

لبنى برونسسال ، و ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، طبعة صادر في بيروت ، و ص ٣٤٠ ،

٣٤٢ ، تحقيق كولان .

العلماء العاملين في هذا المجال خارج حدود الأندلس أو داخله. فمن خارج الأندلس، «وجه إلى الحافظ أبي الفرج الأصبهاني، ألف دينار، على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغاني» (٣٧) . هذا ولقد أرسل المؤلف إلى الحكم : نسخة حسنة متقنة ، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق ، أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل أبو الفرج أيضا للحكم المستنصر « كتابا ألفه في أنساب بني أمية ، يشيد فيه بمجدهم وآثارهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة » (٣٨) . ولقد فعل المستنصر ذلك أيضا مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي ، في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد بن يوسف البراق الذي صنف له كتابا ضخما في « مسالك أفريقيا وممالكها » ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى ابن مفرج (٣٩) .

(ب) أما في داخل الأندلس ، فلقد كان نشاط الحكم في مجال التشجيع على التأليف كبيرا جدا ، واتخذ في هذا السبيل وسائل كثيرة ، منها مثلا :

الاعفاء من الغزو في مقابل تأليف كتاب ، وهذا ما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث (توفي ٣٥٢هـ / ٩٦٣م) ، المعروف

(٣٧) المقري : النفع ، ج ٤ ، ص ٧٢ . عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣١٤ . أوكانيا : الحكم المستنصر بالله ص ١٨ .

(٣٨) عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثاني ص ٤٥٦ . غوثالبیس : الكتب والمكتبات في إسبانيا الإسلامية ، ص ٣٦ .

(٣٩) انطونيا : بلاط الحكم المستنصر ، ص ٤٢ . عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣١٤ . عنان : دولة الاسلام ، ص ٤٥٦ .

بابن الصفار ووالد القاضي يونس ، قاضي الجماعة بقرطبة ، والذي يحدثنا « ان الحكم المستنصر حينما خرج لغزو الروم سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، تقدم الى والدي بالكون في صحبته ، فاعتذر بضعف في جسمه ، وألم لا ينجده فقال له الحكم : ان ضمن لى أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالشرق والأندلس مثل كتاب المولى في أشعار خلفاء بنى العباس ، أعفيت من الغزو ، وجازيته أفضل الجزاء » (٤٠) . ويستطرد الضبي في هذه الرواية قائلا : « وخرج أحمد بن نصر الى الفقيه بذلك فقال : أفعل ذلك لأمر المؤمنين ان شاء الله ، قال : فقال المستنصر : ان شاء أن يكون تأليفه في منزله فذلك اليه وان شاء أن يكون في دار الملك المطلة على النهر فذلك له . فقال : فسأل أن يكون ذلك في دار الملك وقال : أنا رجل مورود في منزلي ، وانفرادي في دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شغل ، فأجيب الى ذلك ، وكمل الكتاب في مجلد صالح ، وخرج به أحمد بن نصر الى الحكم المستنصر ، فلقية بالجلد في طليطة ، فسر به الحكم » (٤١) .

(ج) تقديم الجوائز الكبرى ، بل واسناد الوظائف المهمة الى العلماء الذين يعملون على التأليف مثلما حدث مع أحمد بن عبد الملك الأشبيلي (المتوفى ٤٠١ هـ / ١٠١١ م) ، ولقد كان « أحفظ الناس لقول مالك وأصحابه ، جمع للحكم أمير المؤمنين كتابا حفيلا في رأى مالك سماه : كتاب الاستيعاب ، وكان جمعه له مع أبي بكر ، محمد بن عبد الله القرشي ، ورفع الى الحكم ، فوصليهما بجائزة كبيرة ، وقدمهما للشورى » (٤٢) .

(٤٠) ابن خاتان : مطلع الأنس ، ص ٥٩ .

(٤١) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٣٦ .

الضبي : بغية المنعم ، ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٤٢) ابن بشكوال : المطلة - ج ١ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

ابن نرحون : الدياج المذهب ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

أما أحمد بن فرح الجبائي : وهو العالم ، الشاعر
الأديب ، فلقب ألف للحكم المستنصر كتاب « الحقائق »
عارض فيه كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني .
الا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو
عمر أورد مايتى باب في كل باب مايتى بيت ، ليس منها باب
متكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه غير أندلسي شيئا (٤٦) .
ومحمد بن عبد الله بن سيد ، من أهل بجاية (المتوفى ٨٣٦ /
٧٧٤م) كان فقيها ، حافظا للسائل ، وروى « المستخرجة »
للحكم المستنصر بالله (٤٧) .

أما ما هو مشير للإتباه حقا : وجدير بالملاحظة ، فهو تلك
الروح العلمية الحقة للحكم المستنصر بالله ، ومعرفته لشروط
تأليف الكتب ، من تهئية المراجع وأعداد المكان ، ومتابعة العاملين ،
فالحكم لم يكتف بالمساعدات المالية ، بل ساعد أيضا في
الناحية العلمية بامداد العلماء بما يحتاجون اليه من مصادر .
تقد أرسل الى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن
يونس صاحب كتاب (تاريخ مصر والمغرب) كتابا استعان به
هذا المؤرخ في تصنيف كتابه فيما يخص الأندلس (٤٨) .

وكذلك أمر الحكم المستنصر بالله ، محمد بن الحسين ، وابنه
سيد ، وأبا علي انقالى ، بمقابلة كتاب « العين » للخليل بن
أحمد ، في دار الملك التى بقصر قرطبة . وأحضر من الكتاب
نسخا كثيرة في جعلتها نسخة القاضي منذر بن سعيد ، التى
رواها بمصر عن ابن ولاد ، « فمر لنا صور من الكتاب بالمقابلة .

(٤٣) الضبي : بغيمة الشمس ، ص ١٥١ .

(٤٤) ابن الفرصى : علماء الأندلس ، ص ٣٦٨ .

(٤٥) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ،

قد دخل علينا الحكم في بعض الأيام فسألنا عن النسخ « (٤٦) » ،
وتمضى القصة طويلة بعد ذلك فيما لا يهمنا ولا يعنيننا ، ولكننا
يجب أن نتوقف أمام هذه الأفكار العلمية السليمة في القيام
بتحقيق النصوص تحقيقا سليما ، وذلك بالتزود بكل ما هو
مطلوب لذلك من الحصول على كافة النسخ ، ثم إيجاد المكان
انصالح للعمل كما هو الحال في أيامنا هذه .

سادسا - وجه الحكم عناية خاصة الى المكتبات ، حتى استطاع أن
يجمع في قمره مكتبة يصل عدد مجلداتها الى ٤٠٠٠٠٠ مجلد ،
وان فهارسها شملت أربعة وأربعين مجلدا ، وليس هنا المكان
المناسب لمناقشة صحة هذا الرقم ، ولكن جميع المصادر ،
قديمها وحديثها ، العربية منها وغير العربية ، تؤكد هذا الرقم
وتردده . وهناك في هذا المجال دلائل صحة ، وعلامات شك .
فمن علامات الشك التي راودتني في هذا الموضوع ، ما أثاره
الدكتور ميكيل دي ابالنا (أستاذ تاريخ اسلامي بجامعة
كومباس اللاهوتية بمدريد) ، في المناقشة التي تبعت محاضرتي
عن « تدخل الدولة في التعليم في الأندلس » (٤٧) ، حول ضخامة
هذا الرقم واستحالته ، وخاصة اذا تمت مقارنته ببعض
المكتبات الكبرى في العالم اليوم ، مع اختلاف العصر . ولقد
فكرت في ذلك أيضا بعد ذلك ، ووجدتني أمام عبارة أخرى
تردها الكتب التي تتحدث عن هذه المكتبة مفادها : « أن
فهارس هذه المكتبة كانت أربعة وأربعين مجلدا ، في كل واحد

(٤٦) الحميدى : جذوة القنيس ، ص ٤٧ - ٤٩

(٤٧) محاضرة ألقيتها بدعوة من المعهد الأسباني العبري للثقافة في

منها عشرون ورقة^(٤٨) . ومعنى ذلك أن هناك ٤٤ مجلد $\times ٢٠$ ورقة = ٨٨٠ ورقة \times حفتين لكل ورقة = ١٧٦٠ صفحة .
 فإذا افترضنا أن أقصى حمولة لعمود الصفحة الواحدة ٣٠ سطرا ، فإن الاجمالي في هذه الحالة سيكون ٥٢٨٠٠ عنوان .
 صحيح من الممكن أن يكون هناك من بعض العناوين عشرات النسخ ، أو أن بعض الكتب تتكون من عشرات الأجزاء والمجلدات ، ولكن مع ذلك يبدو الفارق واسعا والبون شاسعا ، حتى إذا أخذنا بقول ابن حزم في الجمهرة ، بأن كل مجلد من الفهرس يحتوى على خمسين ورقة^(٤٩) ، وقمنا بالعملية الحسابية المذكورة فإن الرقم يصل الى ١٣٢٠٠٠ عنوان فقط، ولكن هذا الرقم الأخير قد يقترب بى الى تصديق الرقم الكلى للمكتبة الذى أورده كثير من المؤرخين ، وخاصة إذا ما علمنا أن « القرطبيين جميعا كانوا في هذه الفترة يعيشون الكتب ، وأنه في الربض الغربى من المدينة ، كان حوالى مائة وسبعون امرأة يكسبن رزقهن من نسخ الكتب »^(٥٠) . ويشك الدكتور غلاب في هذا الرقم ، مرجعا ذلك الى الاسراف الذى كان يلجأ اليه المؤلفون المسلمون عادة عند ذكر الأرقام »^(٥١) .

-
- (٤٨) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ١٨١ .
 ابن مغازى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .
 سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٣١٤ .
 (٤٩) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٢ .
 لى برونسفال : تاريخ إسبانيا ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .
 ابن الأبار : الحلة السراء — ج ١ ، ص ٢٠٣ — تحقيق د. حسين مؤنس .
 (٥٠) سانشيث البرنوث : إسبانيا الإسلامية ، ج ١ ، ص ٤١٥ .
 Sanchez Al-bornoz : La Espana Musulmana ; 1 : 415
 مانويل ريو : محاضرات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٩٦ .
 Rie ; Manuel : Lecciones de Ho Medieval ; 196
 (٥١) محمد غلاب : الفلسفة الإسلامية ، ص ١٥ .

ولكى يصل الحكم الى هذا المستوى في جمع الكتب ،
فانه لجأ الى عدة أساليب ناجحة منها : —

(أ) أنه وجه رسلا الى بلاد المشرق ، وخاصة الى بغداد
ودمشق والقاهرة ، لشراء الكتب ، باذلا في سبيلها أحسن
الأثمان . ولعل أجمل وصف لذلك ، ما يقوله ابن الأبار عن
الحكم المستنصر من أنه « كان شغوفا بالعلوم ، حريصا على
اقتناء دواوينها ، يبعث فيها الى الأقطار والبلدان ويبذل
في أعلامها ودعاترها أحسن الأثمان ، ونفق ذلك لديه ، فحملت
من كل جهة اليه ، والملك سوق ، ما نفق فيها ، جلب اليه ، حتى
غصت بها بيوته ، وضاعت عنها خرائثه » (٥١) .

ولقد جعل الحكم ، في هذه البلاد ، مندوبين دائمين له ،
لترقب هذه الكتب ، وتوافيه بها ، ويذكر لنا التاريخ أن من
« وراقبه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق
والأندلس جماعة » (٥٢) .

(ب) استخدم الحكم عددا كبيرا من النساخ في منزله يتولون
نسخ الكتب النادرة ، بل انه أقام صناعة متكاملة في داره ،
تضم النساخين والمجلدين ، والصابطين ، يقول لنا ابن خلدون
« أن الحكم جمع - بداره الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة
في الضبط ، والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله » (٥٣) .
كما أن عباس بن عمر بن حرون الكتاني (توفي ٤٣٧٩/٩٨٩م) ،
من أهل ضغلية « قد خرج الى الأندلس ، فقدمها عام ٤٣٣٩م ،

(٥٢) ابن الأبار : الطة السراء — ج ١ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ١٨١ .

المقري : نفع الطبيب — ج ١ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٥٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

غوثاليس : الكتب والمكتبات ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(٥٤) ابن خلدون : المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .

واتصل بولي العهد ، الحكيم بن عبد الرحمن ، رحمه الله ،
 « فتوسع له في الورق ، وصار في جملة الوراقين » (٥٥) .
 (ج) مساهمته في جعل الأندلس أكبر أسواق الأدب والعلم ،
 فكان المؤلفون يؤمنونها من جميع البقاع ، حاملين انتاجهم
 فإذا مثلوا فيها ، اشترى منهم الخليفة هذه المنتجات بأثمان
 حرية بتشجيعهم ، ويحيلهم على العودة بأضعاف ما كان معهم .
 ويقول الدكتور غلاب « ان التاريخ يحدثنا أن الحكم الثاني
 كان له فضل التفوق في جمع هذه الثروة العظيمة التي كان
 لها فيما بعد أثرها البارز في بناء جرح المدنية الانسانية ، بما
 أحدثته من انقلاب في الأفكار الأوروبية في أواخر القرون
 الوسطى ، مما كان أحد الأسباب القوية والمباشرة للنهضة
 الأوروبية » (٥٦) .

وكما أشرت من قبل ، لقد ساعد على ذلك أن الحكم لم
 يكن راعيا للعلوم والآداب فحسب ، بل كان عالما ، يعرف
 قيمة العلماء ويعرف قيمة الكتاب ، ومع التسليم بمبالغة الكتاب
 والمؤلفين في اضعاء الألقاب والأوصاف الا أنه لا شك في أن
 لذلك ظلا من الحقيقة ولو نوعا ما ، فيقول ابن الأبار واصفا
 الحكم المستنصر « كان مع هذا كثير التهمم بكتبه والتصحيح
 لها والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد له كتابا كان في خزائنه
 الا وله فيه قراءة ونظر ، من أي فن كان من فنون العلم ،
 يقرؤه ، ويكتب فيه بخطه ، اما في أوله أو في آخره ، أو في
 تضاعيفه ، وفي سبب المؤلف ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب
 الرواة له ، ويأتي من ذلك بمغرائب لا تكاد توجد الا عنده ،
 لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موشوقا به ، دأبونا

(٥٥) ابن الأفرقي : علماء الأندلس ، ص ٢٤٧ .

(٥٦) غلاب ، الفلسفة الإسلامية ، ص ١٤ .

عليه ، جاز كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به » (٥٧) .

والحميدى يؤكد أنه رأى بنفسه خط الحكم المستنصر على كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، حيث قيد الحكم تاريخ ميلاد ابن عبد ربه (٨٢٤٦ / ٨١٦٠ م) ، وتاريخ وفاته (٨٣٢٨ / ٩٣٩ م) ويقول : هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا ، لأنه كان عالما ثبta (٥٨) . كما أن القاضي عياض يقول عنه « وكان الحكم ممن جالغ الكتب ، ونفر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم » (٥٩) .

لقد أطلت الكلام عن الحكم المستنصر بالله ، أو ان شئت أطلت الكلام عن فترة الخلافة ، لأنها « العصر الذهبي » (٦٠) لأسبانيا الإسلامية في كافة المجالات ، ولأنها الفترة التي ألح فيها أستاذى الدكتور « لويس سواريث فرنانديث » ، في أكثر من مرة تحدثنا فيها ، على أنها أكثر فترات تاريخ أسبانيا الإسلامية تحديدا للذات ، ونضوجا للشخصية . هذا ولقد كتب المستشرق الأسباني « ميلتشور-مارتينيث أنطونيا » عن بلاط الحكم المستنصر العلمى مقالا وافيا ، فيه الغناء لمن

(٥٧) ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٥٨) الضبى : بغية اللتمس ، ص ١٤٨ .

ليفى بروتينال : أسبانيا الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

Léve Provençal : Espana Musulmana, 2 : 317.

(٥٩) أليخسبى : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٦٠) ريبوبيسى ، خوسيه : تاريخ أسبانيا — ج ٢ ، ص ١٢٩ .

Repollés Aguilar ; J. Ho de Espana, 2 : 129.

يريد الاطلاع على المزيد (١١) *

ولكن الى أي مدى يمكن لنا الانطلاق في الحديث عن رعاية الحكم المستنصر للعلوم والآداب ؟ كما قلت سابقا .
لم يكن هذا هو المجال للحديث تطويلا عن الاهتمامات العلمية للحكم ، ولذلك لم أستوف كثيرا مما تحت يدي مما قيل في حق هذا الخليفة العظيم ، وأقول مرة أخرى ليس هنا المجال المناسب تماما ، لتبيان الى أي مدى كانت هذه الرعاية والعناية ، فقط أود أن أشير الى بعض الملاحظات التي يمكن أن تظفي ظلالا ، ولو باهتة ، على اندفاع كل من يكتب في الثناء على الحكم المستنصر *

ان ما حدث من اضطهاد لاتباع ابن مسرة على عهد والده عبد الرحمن الناصر ، والتاريخ المحدد الذي بدأت فيه هذه الحملة ، يؤكد أن الحكم في تلك الفترة ، كان يناهز الأربعين من عمره ، كما أنه كان يتمتع بسلطة حقيقية ، ولكننا لم نسمع له صوتا في حماية هؤلاء مما أوقع بهم من عذاب ، بل ان نهايات حكم الحكم قد شهدت أيضا محاولات لتتبع الفلاسفة وعقائهم ، وأرجع كثير من المؤرخين ذلك ، الى ضعف الحكم وشيخوخته ، ورغبته في التكفير عن خطاياهم ، بالتسامح مع الفلاسفة خلال حكمه (١٢) *

(١١) انطونيا : بلاط الحكم المستنصر العلمي ، نشر بمجلة الآباء
الأسطونيين بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٢٦ .
Antune. M.M. : La Corte Literaria de Alhaquein II en
Cordoba ; en Religión y Cultura ; Revista de los P.A.,
1929.
(١٢) آسرين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٩٠ .

علاوة على ذلك ، فإن تربية الحكم كانت تربية دينية تقليدية ، مما قد يجعل من الصعب عليه الانطلاق إلى حدود بعيدة في مسألة التسامح ، واعطاء الحرية لتبادل العلوم ، وينقل لنا القاضي عياض رأى الحكم المستنصر في كل من هو على غير المذهب المالكي ، ومن ذلك الرأى يمكن لنا أن نقف ، ولو قليلا ، أمام ذلك الاندفاع الهائل في تقييم الحكم المستنصر ونص القاضي عياض كالتالى :

« وفي كتاب الحكم المستنصر إلى الفقيه أبى ابراهيم (٦٣) ، وكان الحكم ممن طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم ، فقال في كتابه :
وكل من زاغ عن مذهب مالك ، فإنه ممن زين على قلبه وزين له سوء عمله » (٦٤) .

(٦٣) انظر العلاقة التي تربط الحكم بالفقيه أبى ابراهيم من خلال القصة الواردة في هذه الأطروحة ، ص ٧٥ — ٧٧ .
(٦٤) البيهقي : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(هـ) الدولة العباسية :

الحديث عن الدولة العباسية ، ليس إلا امتدادا للحديث عن فترة الخلافة في الأندلس ، ولكن أغلب المؤرخين يميل الى اطلاق هذا الاسم على حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، حيث أنهم قد استولوا على السلطة الحقيقية في الأندلس ، ولم يتركوا للخليفة « هشام الثانى » الذى حكم من (٣٦٦ - ٤٣٩٩ / ٩٧٦ - ١٠٠٩م) ، الا السلطة الاسمية .

وأورد هنا ما كتبه المستشرق الفرنسى الكبير «ليفى بروفنسال» عن التغير السياسى ، الذى وقع فى هذه الفترة :

« بدأت أسبانيا الاسلامية ، بعد وفاة الحكم الثانى ، فترة جديدة تعرضت فيها سلطة الخلافة لضربة قوية لم يكن لها سابق أو نذير ، حيث أن الخليفة الجديد ، علاوة على كونه حدثا صغير السن : كان أيضا أضعف من أن يمارس بنفسه مهام الخلافة ، وأضعف من أن يطالب بذلك حتى بعد أن صار شابا أو رجلا كبيرا ، لقد انتقلت هذه المهام ، وتلك المسؤوليات الى يد ديكتاتور حقيقى ، أو الى «الحاجب» الذى كان رجلا شهما ، غير هياب أو متردد . انتقلت هذه المسؤوليات الى يد عامل أو موظف ، لم يعرف لطموحاته حدود ، ارادته من حديد ، ذو قدرة سياسية فائقة ومقدرة حربية لا ينازع عليها ، ومهارة لا تخطئ فى اقتناص واستغلال الفرص ، مما مكّنه من الصعود الى أعلى مراتب الشرف والرياسة فى ذلك الوقت ، لقد كان يكفى مرور عدة أعوام ، تمكن فيها من القضاء على كافة منافسيه ، ليحدث ما يمكن أن نطلق عليه « انقلابا » وليوضع بين يديه ، دون منازعة ، سلطة الحكم فى الأندلس ، ومن ذلك الحين ، سيصعد هذا الشاب طريقا مكللا بالنار ، مؤكدا أنه ، ربما أكثر مما كان عبد الرحمن الناصر ، فارس وبنطل مجد الاسلام على شبه الجزيرة الأيبيرية دون منازع ،

وأنة قد سجل في سجلات تاريخ الإمبراطورية الأسبانية الإسلامية (الأندلس) أعظم انتصاراتها زينا ودويا ، فقد أفضح بيد نخازمة . ثورات السكان ، وتمردات المدن ، وفشى على نفوذ الأرستقراطية العربية . وسلطة الصفائية وأعاد تنظيم الجيش ضاماً إليه قوات تدين له بالولاء والطاعة العمياء . لقد كان هذا الرجل ، على مدى أكثر من عشرين عاماً ، الحاكم الأوحده ، وأبسلطان المطلق في الأندلس ، بينما لم يكن للخليفة الحقيقي إلا اللقب ، والمراسم المظهرية « (٦٥) » .

لقد ظلت في أول هذا الباب ، أن السياسة لا يمكن أن تنفصل عن التعليم ، أو عن رعاية العلوم والآداب ، وأن العامل السياسي ، يتدخل دائماً ، لكي يجعل من العامل التعليمي أداة لخدمة السياسة ، والمثال الحالي للمفسور بن أبى عامر ، مثال حى على محاولات التقرب . ولو ظاهرياً لشاعر العامة ، واستمالة رجال الدين ، ويصف لنا صاعد الطبقي المتوفى (٥٤٦٣ هـ / ١٠٦٩ م) ما حدث بقوله « تولى هشام وهو غلام لا يحتلم بعد فتعلم على تدبير ملكه بالأندلس ، حاجبه أبو عامر محمد بن عبد الله وعمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه « الحكم » الجامعة للكتب المذكورة وغيرها ، وأبرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر من خواص أهل العلم بالدين ، وأمرهم باخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق ، وعلوم النجوم ، وغير ذلك من علوم الأوائل ، حاشا كتب الطب والحساب . فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو ، والأسفار ، والأخبار ، والطب

(٦٥) ليفى بروغسال : أسبانيا الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .
وتنظر أيضاً في هذا المجال : كارل غريمبرج : المفسور الوسيطى .
ص ١٣٤ — ١٣٨ . واميليو متر : أسبانيا المفسور الوسيطى ،
ص ٩٣ ، ٩٤ .

Léve Provençal : Espana Musulmana ; 1 : 497.

Grimberg ; Carl : La Edad Media : 134 - 138.

Mitre ; Emilio : La Espana Medieval, 93 - 94.

والفقه ، والحديث ، وغير ذلك ، من العلوم المباحة عند أهل الأندلس ،
 إلا ما أفلت منها ، وذلك أقلها ، أمر بإحراقها وأفسادها ، فأحرق
 بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر ، وعمل عليها التراب والحجارة ،
 وعبرت بخروب من النخيل ، وفعل ذلك تحبياً إلى عوام الأندلس
 وتقبيحاً للذهب الخليفة الحكم عندهم ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة
 عند أسلافهم ، مذمومة باللسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها منوماً
 عندهم بالخروج عن الملة ومظنوناً به الإلحاد في الشريعة ، فسكن
 أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، وخملت نفوسهم وتسترأوا بما
 كان عندهم من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت
 يكتفون ما يعرفونه منها ، ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب
 والفرائض والطب ، وما أشبه ذلك ، إلى أن انقرضت دولة بني أمية ،
 من الأندلس » (٦٦) .

ومن ناحية أخرى ، شهدت فترة المنصور ، اضطهاداً حقيقياً لاتباع
 ابن مسرة ، وتولى القاضي محمد بن زرب — على ما بينت سابقاً —
 مسألة الرد عليهم ، كما أنه تولى إحراق كتب ومؤلفات كل من كان يشك
 في أنه من أتباع ابن مسرة ، أمام المسجد الجامع بفقرطبة ، وعلى مرأى
 جمع غفير من الناس ، من بينهم أصحاب هذه المؤلفات — أورد ذلك
 النباهي (توفي قبل عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م) ، ولكن النباهي أخطأ في
 تحديد عام ٨٣٥٠ هـ / ٩٦٦ م ، كسنة إحراق كتب أتباع ابن مسرة ، وتابعه
 على ذلك الخياط الدكتور جودة عبد الرحمن في مثالته المنشورة عن
 القاضي أبي الوليد الباجي (٦٧) ، يقول النباهي : « اعتنى القاضي
 ابن زرب بطلب أصحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستئبانه من
 علم أنه يعتقد مذهبهم ، وأظهر للناس كتاباً حسناً وضعه في الرد على

(٦٦) صاعد الطيفي : طبقات الأمم ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٦٧) جودة عبد الرحمن : وصية القاضي أبي الوليد الباجي ،

ابن مسرة ، ترقى عليه وأخذ عنه ، وفي سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، استتاب جملة من الناس ، جرى بهم إليه ، من أتباع ابن مسرة ، ثم خرج إلى جانب المسجد الجامع الشرقي ، وقعد هناك ، فأحرق بين يديه ما وجد عندهم من كتبه وأرضاعه ، وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين « (٦٨) » .

والخطأ في تحديد التاريخ هنا ، حيث كان منفر بن سعيد البلوطي هو قاضي الجماعة في تربية حتى وفاته في عام ٤٥٥ هـ / ٩٦٧ م ، وتبعه القاضي محمد بن السليم (٦٩) ، وتولى ابن يقي القضاة بعد وفاة محمد بن السليم في سنة ٤٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وعند ذلك ، تولى تعقب أتباع ابن مسرة (٧٠) ، ويبدو أن الشياهي لا يقول عليه كثيرا في التواريخ ، والدليل على ذلك ، ذكره عند الحديث عن القاضي منذر ، أنه « فُتس قاضيًا إلى أن ترقى في عقب ذي القعدة سنة ٤٥٥ هـ / ٩٦٦ م » (٧١) ، ثم ذكره نفس كتاب الحكم المستنصر بالله ، في تولية محمد بن السليم القضاء ، وأن هذا الكتاب قد صدر في سنة ٤٥٣ هـ / ٩٦٤ م (٧٢) . والصحيح أنه تولى سنة ٣٥٦ .

سمة ثالثة ، يمكن أن نطالعها على الداخل بين السياسة والحكم ، حيث أن المتصور بن أبي عامر ، لم يواصل إكرام بعض العلماء الذين اعتبرهم صنائع الحكم المستنصر ، ونسبت ذلك مما يقوله ابن فرحون عند حديثه عن محمد بن حارث الخشني (توفي ٤٧١ هـ / ٩٨١ م)

(٦٨) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٨ .

(٦٩) الصيدى : جفوة المقتبس ، ص ٤٠ .

النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط ٧ ، ص ٤٧ .

(٧٠) انظر ما تاله آسسين بالانيسوس في : ابن مسرة ومترسسته ،

ص ٨٩ - ٩٠ .

بالشبا : تاريخ النكر الأندلسي ، ص ٢١٦ .

(٧١) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ .

(٧٢) نفس المصدر : ص ٧٦ . وانظر التاريخ الصحيح عند

ابن اللزقي ، ص ٣٧٢ .

من أنه « قد آلت به الحال بعد موت الحكم ، وتقصير ابن أبي عامر
بجناح الحكم ، إلى الجلوس في حانوت يبيع الأدغال » (٦٦) .

ومن ناحية أخرى ، كان للمنصور اهتماماته العلمية ، وجهوده في
الوصول بالأندلس من الناحية الثقافية إلى مستوى أرفع مما كانت عليه
خلال فترة الخلافة على عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني ، فقد هذى
على نفس الأساليب تقريبا في تشجيع العلم والعلماء . ويمكن تلخيص
جهوده في ذلك المجال في النقاط التالية :

أولا - البحث على تأليف الكتب : وتقديم العطايا الضخمة لمن
يقومون بها ، فقد دفع لصاعد الطبري خمسة آلاف دينار ثمنا لكتابه
(الفصوص) (٦٧) ، كما أن « أبو مروان القرشي الميعطي ، جمع في
أقوال مالك بن أنس وروايات أصحابه عنه كتابا ، اجتمع على جمعه
مع الفقيه أبي عمر أحمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المكوي ، بأمر
المنصور بن أبي عامر » (٦٨) .

كما أن حسان بن مالك بن أبي عبده ، حينما رأى المنصور بن أبي
عامر مهتما بكتاب كتب « في أيام الرشيد » ، فقام بتأليف كتاب للمنصور
على مثال هذا الكتاب ويقول الضبي أن « سبب تأليفه إياه ، أنه دخل
على المنصور وبين يديه كتاب أبي السري يعجب به ، فخرج من عنده ،
وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفا ونسحا ، وتصويرا ، وجاء به في
مثل ذلك اليوم من الجمعة الأخرى وأراه إياه ، فسر به ، ووصله
عليه » (٦٩) .

(٧٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٧٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

عنان : دولة الاسلام في الاندلس - العصر الأول - القسم
الثاني ، ص ٥٢٧ .

(٧٥) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٧٧ .

الضبي : بغية المتنبس ، ص ٥١٤ .

(٧٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٨٣ .

الضبي : بغية المتنبس ، ص ٢٧١ .

ثانياً — أن المنصور قد شجع أيضاً قدوم العلماء المشارقة إلى الأندلس ، وأعطاهم نفس الفرصة في إحصاء المزيد من الكتب الشرقية إلى قرطبة ، وإذا عتقا بين الناس ، كما أنه حثهم على تأليف كتب جديدة ، ربما لا تقل في أهميتها عن الكتب التي ألقت على عهد عبد الرحمن الناصر أو الحكم المستنصر ، ومن أشهر المؤلفين على المنصور ، أبو العلاء حسان بن الحسن الربيعي ، اللغوي (المتوفى ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م) ، وألف للمنصور مجموعة كتب أوردها الحميدى الذي يقول أن المنصور كان كثير الشغف بأحدها — كتاب الخواص — « حتى رتب له من يفرجه أمامه في كل ليلة » (٧٧) .

ثالثاً — اتخذ المنصور مجالساً علمياً خاصاً كل أسبوع كان يلتقى فيه مع العلماء والأدباء ، مما أثار حماس الحركة الأدبية على عصره ، وجعل التنافس بين العلماء يزاد ، وخاصة في المجالات اللغوية والشعر ، وتجمع الكتب تقريباً على أن المنصور « كان مجاباً للعلم ، مؤثراً لأهل الأدب ، مفرطاً في إكرام من ينتسب إليهما ويفد عليه متوسلاً بهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ومشاركته فيهما ، وكان له مجلس معروفة في الأسبوع ، يجتمع فيه من أهل العلوم ، الكلام فيها بحضرته ، من كان مقيماً في قرطبة » (٧٨) .

رابعاً — اهتم المنصور اهتماماً كبيراً بالشعراء ، حتى وصل به الأمر إلى إنشاء ديوان خاص بالشعراء جعل له رئيساً مسئولاً عنه هو « عبد الله بن محمد بن مسلمة » ، وتحدثنا كتب التاجم عن هذا

(٧٧) الحميدى : جنوة المتقيس ، ص ٢٢٢ — ٢٢٧ .

الخبيري : البقية ، ص ٣١٩ — ٣٢٣ .

ألكاشي (عبدالواحد) : المعجب ، الطبعة السابعة ، ص ٥٠ — ٦٠ .
Pons Boigues : Bio Bibliografico, PP. p. 122.

(٧٨) الحميدى : جنوة المتقيس ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

ألكاشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٣١ و ٣٨ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٦١ .

عبدان : المصدر المذكور ، ص ٥٧٥ — ٥٨٧ .

الرجل بأنه كان من أهل العلم والأدب ، نافذا من نقاد الشعر ، كان رئيسا جليلا في أيام المنصور بن أبي عامر ، وفي ديوانه كان زملا أشعر في تلك الدولة ، وعلى يديه كانت تخرج حالاتهم ورسومهم وعلى ترشيحه كانت تجرى أمورهم (٧٦) .

وفي هذا الديوان ، كان يسجل كبار الشعراء ونصرف لهم رواتبهم حسب مكانتهم الأدبية ، وملتقى الشعرية ، ووردت أخبار هذا الديوان في معظم كتب تراجم وكتب الأدب وكتب التاريخ ، ووردت أخبار هذا الديوان كثيرا مع ترجمة « أحمد بن محمد بن دراج القسطلی » (المتوفى ٤٢١ هـ / ١٠٢٧ م) (٧٧) .

خامسا - قام المنصور بنفسه باختيار العلماء ، سواء القادمون عليه من المشرق أو ممن كانوا من أهل الأندلس ، وكان يعقد لهم مجلسا للمناقشة يحضره كبار العلماء والأدباء والشعراء ، وإذا ما أثبتا المختص قوته وبراعته ، ونجاحه في الاختبار ، فإن المنصور كان يهديه «دية» ويقدم له مبلغا من المال كبيرا ، وأورد هنا حادثتين للدلالة على ذلك ، أولاها مع الشاعر « ابن دراج القسطلی » المذكور آنفا ، الذي « سعى به إلى المنصور ، وأنه منتحل - سارق لا يستحق أن يثبت في ديوان العلماء ، فاستحضره المنصور واختبره ، واقترح

- (٧٦) الحميدى : جذوة القنيس : ص ٢٣٩ .
الضبي : البغية : ص ٣٢٣-٣٢٤ « طبعة مدريد » ، و ص ٣٢٦ - ٣٣٧ « طبعة القاهرة » .
(٨٠) الحميدى : الجذوة ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
الضبي ، بغية المتوس ، ص ١٥٨ - ١٦١ « طبعة القاهرة » ،
و ص ١٤٩ ، ٥٠ « طبعة مدريد » .
ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤٠ .
محمود على مكى : ديوان ابن دراج القسطلی ، المقدمة .

عليه ، فبرز ، وسبق وزالت التهمة عنه فوصله بمائة دينار ، وأجرى عليه الرزق ، وأثبتته في جملة الشعراء » (٨١) .

أما الحادثة الثانية ، فقد حدثت مع صاعد البغدادي ، الذي كان حاضرا مجلس المنصور يوما فأحضرت له وردة في غير وقتها لم يستتم فتحها فأئشده صاعد بديهة بيتين جميلين من الشعر ، أعجب بهما المنصور أيما أعجاب ، فصده على ذلك « ابن العريف » وقال لابن أبي عامر : هذان البيتان لغيرة ، وقد أشدنيهما بغض البغداديين انفسه بمصر وهما عندي على ظهر كتاب بخطه . فقال المنصور : أريه ، فخرج الرجيل وذهب الى صديق له « ابن بدر » ، وحكى له النصة ، فائشده أبياتا على نفس الوزن والقافية ، وضمن هذه الأبيات بيتي صاعد . وأخذ « ابن العريف » هذه الأبيات ، وعلتها على ظهر كتاب بخط مصرى ، وممداد أشقر ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها ، أشد غيظه على صاعد ، وقال لحاضرين ، « غدا أمتحنه » فان فضحه الامتحان ، أخرجته من البلاد ، ولم يبق في موضع « لى عليه سلطان » .

فلما أصبح وجه اليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء فدخل بهم الى مجلس محفل قد أعد فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع الثوابير ، ووضع على السقائف لعب من اليااسمين في شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلىء مثل الحصياء ، وفي البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : ان هذا اليوم اما أن تسعد فيه معنا واما أن تشقى بالفسد عندنا ، لأن قوما قد زعموا أن كل ما تأتئ به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك قبلى شكله ،

(٨١) انظر المراجع المذكورة في الملاحظة السابقة ، كما ان النصة كاملة واردة في عدد كبير من كتب الادب الاندلسى التى تحدثت عن « ابن دراج القسطلئ » ، كما اشار الى ذلك الدكتور « أحمد هيكل » في محاضرة له بالأمم الأسبائى العربى للثقافة بمريد .

فحصه بجميع ما فيه ، « فأشدد صاعد فميدة رائعة في ذلك ، تنوق بها على الجميع ، وأمر له المنصور بألف دينار ، ومائة ثوب ، ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً ، وألحقه بالندماء » (٨٢) .

وهذا الاختبار الذي تعرض له صاعد اللغوى ، ليس الأول من نوعه ، بل لقد عُد له امتحان آخر عند وصوله ، ووردت تفاصيله أيضاً في « نفع الطيب » ، حيث يقول : ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوماً ، وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم ، كالزبيدي والعاص ، وابن العريف ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل النافذ علينا ، يزعم أنه متقدم في هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن . فوجه إليه : فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل ، أخرج : قرع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن « أبي سعيد البيراني » فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب « سيبويه » فبادره العاص بالسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس من صناعته . فقال الزبيدي : « صاحبكم ممزق » (أى كاذب ومموه) فقال صاعد : أحال الشيخ صناعته الأبنية ؟ ، قال الزبيدي : أجل . قال صاعد : وبضاعتى أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار وفك المعتمى ، وعلم الموسيقى . . . (٨٣) .

ويبدو أن ابن المنصور ، الذي ولى الحجابة بعثده ، المظفر عبد الملك ، قد واصل سياسة الاهتمام بالعلم والعلماء ، فعلى الرغم من فترة حكمه القصيرة ، والمشاغل العسكرية التي خاضها ، إلا أننا نراه

(٨٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ج ١ ، الصفحات ١٤ - ١٩ طبعة احسان عباس .

المقرئ : نفع الطيب ، ص ٧٩ - ٨١ .

(٨٣) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

يقوم بزيارة لبعض الفقهاء في أماكن تدريسه ليستجيب دعوته . ويطلب منه الدعاء له (١٤) .

كما أنه قد قام بنقل العالم أبي محمد منى بن أبي طالب القرطبي (المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) « إلى جامع الزاهرة ، فأقرأ فيه حتى انصرفت دولة آل عامر » . فنقله محمد بن عثمان المهدي إلى المسجد الجامع بقرطبة ، وأقرأ فيه الفتنة كلها » (١٥) .

وسقطت الدولة العامرية ، وانضمت الأندلس للفتنة الكبرى . ويحدثنا ابن حبان عن مقتل أكثر من مئتين مؤدباً في مدينة قرطبة وحدها ، مما يدل على كثرة استأجار مراكز التعليم في قرطبة في هذه الفترة . ولقد نقل إلينا ابن بسلام عن أبي حبان قائلاً : « قال ابن حبان : وأصيب في تلك الواقعة من المؤدبين خاصة ، ذئب ووسون ، سريت سقاتهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم ، لعدمهم » (١٦) .

وعلى الرغم من الفتنة العظيمة التي أحاطت بقرطبة ، والظروف السياسية السيئة ، وتقلب الأمراء عليها ، إلا أننا لا نعدم بعضهم ممن يهتمون بالعلم والعلماء ، بل ويجعل من ضمن الوظائف الكبرى في عصره ، خدمة خزائن البلاط والحكمة ، فالخليفة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الذي تولى في عشر من شهر رمضان سنة ٤١٤ هـ ، ديسمبر ١٠٢٣ م ، والملقب بالمستظير بالله ، اتخذ بعد توليته ، قراراً ببعض الوظائف ، أوردتها ابن حبان على النحو التالي :

-
- (٨٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨٤ .
 (٨٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٣١ - ٦٣٢ .
 عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية ، ص ٢٠٩ .
 (٨٦) ابن بسلام : الخيرة ، م ١ ، ج ١ ، ص ٣١ ، وطبعة احسان عباس ، ج ١ ، ص ٤٤ .
 عبد الله جمال الدين : رسالته للدكتوراه ، ص ٧ .

خدمة الدينيتين ، والزاهرة ، وخدمة كتابة استعقب والمحاسبة ،
 وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالنخاض والطعام ، وخدمة مواريث
 الخاصة وخدمة الطراز ، وخدمة المبانى ، وخدمة الأسلحة وما يجرى
 مجراها ، وخدمة الهراية والقض والدفع ، وخدمة الوثائق ورفع كتب
 المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة الأتزال والنزائل ،
 وخدمة أحكام السوق (١٠) .

قرطبة الخلافة :

أتخذ المسلمون مدينة قرطبة عاصمة لهم ، لأول مرة ، في عام
 ٩٦ هـ / ٧١٩ م ، وحظيت بتدبير كبير من عناية ولادة الأندلس منذ ذلك
 التاريخ . والتدبير الكبير الذى طرأ على المدينة بدأ مع بداية عهد
 عبد الرحمن الداخل الذى عمد إلى « تجديد ما لمس لبنى أمية بالمشرف
 من معاني الخزنة وأثارها ، فشيّد الدور وأقام القصور » (١١) .

ويقول المقرئ عن عبد الرحمن الداخل « أنه لما تسجد ملكه شريح

(٨٧) ابن بسلام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ،
 ص ٣٦ ، ٣٧ ، طبعة احسان عباس ، ج ١ ، ص ٥١ .
 عبد الله عنسان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، القسم
 الثانى ، ص ٦١١ .

عبد الله جمال الدين : رسالة للدكتوراه ، ص ١٤ .
 وقد شن الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم هجوما عنيفا على هذه
 الملاحظة قائلا : ليس في هذا ما يدل على الاهتمام بالفلم والطباء ،
 تبعث تبديد خزانة القصر ، وتدمير الزهراء والزاهرة وقرطبة والرصافة
 وقتل المؤيدين والاملاحة بالشعراء وتفرقتهم الى شرق الأندلس بتحدث
 عن اهتمام بالفلم والعلماء على اساس افساؤ لا قيمة لها ، نفس
 ابن حيان يعلق عليها بقوله : « هذا زخرف من التسطر وضع على غير
 حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل » فله شكركى على هذا
 التمهيج .

(٨٨) عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص ٦ ، قرطبة
 حاضرة الخلافة في الأندلس ، ص ٤٦ .

في تعظيم قرطبة ، فجدد معانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ،
وابتنى مدينة قصر الأمانة ، والمسجد الجامع ، ووسع شأه ، وأصبح
مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متتريها له ، واتخذ بها قصيرا
حصنا ، وجناتا واسعة ، نقل إليها غرائب العراش ، وكرائم الشجر
من بلاد الشام ، وغيرها من الأقطار » . كما انه يعود إلى انقول في موضع
آخر : « ان عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره ، وعظم ، بنى القصر
بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع ، وأفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى
بقرطبة الرصائف ، شبيها برصائف جده هشام » (٨٦) .

كما أن عبد الرحمن الداخل قد بدأ في بناء المسجد الجامع في ذلك
المسجد الذي تطور فيما بعد إلى يصبح أكبر مسجد في غرب الاسلام
على الإطلاق ، وواحدا من أكبر المساجد في العالم الاسلامي بأكمله .

وشهدت قرطبة تطورا كبيرا على عهد الأمير هشام « الذي زاد في
مسجد أبيه ، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد ، وعنى بنشر
اللغة العربية وتدرسيها حتى أصبحت تدرس في مدارس اليهود ، كما
جعل مدينة قرطبة ، وزيتها بالحدائق والبساتين ، والمباني الجميلة .
وكثيرا ما كان هشام يشاهد منجولا في طرقات قرطبة ، يخالط الناس ،
ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم » (٩٠) .

أما عصر عبد الرحمن الثاني فقد شهد ما يمكن أن نطلق عليه انقلابا
اجتماعيا كبيرا ، حيث شهدت المدينة سيلا من التأثيرات المشرقية عامة
والعراقية خاصة ، ساعدت في تطوير المستوى الاجتماعي والأدبي والفني
بالدينونة . ساعد على ذلك كون الأمير عالما منجورا في علوم
الشريعة والفلسفة (٩١) ، علاوة على كونه شاعرا مطبوعا ، ذا همة عالية ،

(٨٦) المتري : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٨٢ .
(٩٠) عبد الشافي غنيم : محاضرات في التاريخ الاندلسي : عصر
الامارة .

(٩١) ابن خلدون : التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٣٠ .
المتري : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

أحسن العلماء والأدباء ، ورفع قدر رجال العلم والأدب والفن ، ممن ضاق المشرق بمواهبهم ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم وفادتهم •

ويرى الدكتور عبد العزيز سالم « أن المجتمع القرطبي قد تأثر في عصر عبد الرحمن الثاني ، بالتقاليد العراقية التي أخذت تغزو الأندلس ، وتتمتج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلا تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط مملكة غرناطة » (٩٢) •

وعلاوة على ذلك ، فإن عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شهد قدوم الموسيقى ، الفنان الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب ، والذي سبقت الإشارة إليه قبلا ، ويعتبر زرياب ، بلا شك ، بداية عصر اجتماعي جديد . لا في مجال الموسيقى والغناء فحسب ، ولكن في مجالات الحياة الاجتماعية حيث عمل على تطعيم هذه الحياة بكثير من التقاليد العراقية والفارسية ، وإذا كان وصول زرياب وما قدمه لصالح الآداب الاجتماعية القرطبية ، يعتبر نقطة حاسمة ، فإن الفضل في ذلك يرجع أيضا إلى الأمير الأندلسي « الذي جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة » (٩٣) •

ويرى المستشرق الأسباني أنخيل غونثاليث بالنسيا أن زرياب « لم يستهر أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بأدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته في إرسال شعره ، وولائمه البديعة التي كان يتغنن في ترتيبها ، فأخذ الناس عنه ذلك كله ، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذي يحتذيه القرطبيون

(٩٢) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج ١ ،

ص ٥٦ .

(٩٣) ابن سعيد : المغرب في طي المغرب ، ج ١ ، ص ٤٦ .

ابن حذاري : البيسان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

في أعداد ملاسيهم . ومن ذلك الحين ، جسد حكام الأندلس ، في أن يكون
تتمورهم مجد أدبي يحاكي ما كان لقصود خلفاء المشرق « فاهتموا
برعاية الآداب والعلوم والفنون ، حتى تصل قرطبة إلى مستوى
يضاهاى ما وصلت إليه دمشق وبغداد » (١٤) .

ولقد كانت قرطبة في مبدأ نهضتها ، تتخذ من بغداد مثلا أعلى ،
تسير على نمودجه ، وتتسج على منواله في كل شيء ، « في الآداب
والعلم ، وفي الموسيقى والفن ، وفي الطب والكيمياء ، وفي العلم
والجنحة ، وفي الإخلاق وأسياسه ، وبالأجمال في كل نواحي الحياة
الثقافية » (١٥) ، وهذا صحيح نوعا ما ، ولكي الحال لم يبق كذلك دائما ،
لأن قرطبة على عهد عبد الرحمن الثالث ، والحكم المستمر ، والسنة
هشام الثاني (فترة المنصور بن أبي عامر) ، قد شهدت تطورا عمرانيا
وعلميا واجتماعيا ، جعلها من أعظم المدن في الغرب ، ان لم تكن
أحسنها في العالم كله ، وتركت قرطبة أثرها الفاد على كافة الكتاب
والمؤلفين في الشرق والغرب ، واعترف العالم كله بعظمتها وجلالها ،
ويذكر أن تبقى نظرة على ما شيدت فيها بعض المؤلفين أعرب والأجانب
نسى تصل إلى تصور حقيقي لهذه المدينة :

« ... أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس وشيها وقهرها الأعظم
وأم مدائنها ومساكنها ، ومقر الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية
والإسلام » (١٦) ، ومدينة العلم ومقر السنة والجماعة ، مزينا فيما

- (١٤) غوثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٨ - ٥٠ .
عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ ، ص ٥٨٠٥٧ .
(١٥) غلاب : الفلسفة الإسلامية ، ص ١٣ .

(١٦) في هذه الجملة نوع من المبالغة ، لأن قرطبة لم تكن يوما
دار الملكة في النصرانية فتتل نتج المسلمين للأندلس ، كانت طليطلة ،
أما أثناء حرب الاسترداد وبعددها فلقد اتخذت أكثر من مدينة في
أسبانيا ، عاصمة لأسبانيا ، كما أن أسبانيا في ذلك الوقت كانت مقسمة
إلى ممالك عدة ، لكل منها عاصمتها ، وحين توحدت أسبانيا على يد الملكين
الكاثوليكين كانت عاصمة أسبانيا هي المدينة التي يوجد بها البرلمان
الأسباني ، ثم اتخذ فيليب الثاني مدريد عاصمة له في عام ١٥٦١ م .

نزول جبل من الصحابة ، وجملة من التابعين ، رضى الله عنهم أجمعين » (٩٧) .

ويزيد الأديبى (٥٦٠ / ١١٦٤ م) (٩٨) في وصف المدينة فيقول :

« ومدينة قرطبة ، قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدائنها ودار الخلافة الإسلامية ، وفصائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومنافعهم أظهر من أن تستر » ، واليهيم الانتهاء في البناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن النثر في الملابس والراكب ، وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجمال التخصص في الطعام والمشرب مع جميل الخلاق ، وحيد الطرائق ، ولم تخل قرطبة من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير ، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم مراكب ، وهم عليا ، وهي في ذاتها قمس مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكتفيها من الأسواق والفسادق والحمامات وسائر الصناعات (٩٩) . وفي طولها من غربيها إلى شرقيها ٣ أميال ، وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد ، وهي في سفح جبل مطل عليها ، يسمى جبل العروس ، ومدينتها الوسطى هي

(٩٧) جيهول : جغرافية الأندلس وتاريخها ، المخطوط رقم ٣٦ ،

بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمطرد ، ص ١١ ، ١٢ .

د. حسين مؤنس : وصفاً جديداً لقرطبة الإسلامية ، مجلة المعهد

المصرى ، المجلد ١٣ ، ص ١٦٤ .

(٩٨) أنظر : تاريخ الجغرافيين والجغرافيين في الأندلس من

ص ١٦٥ إلى ص ٢٨٠ .

(٩٩) يورد الدكتور حسين مؤنس تفسيراً لهذه العبارة ، عند حديثه

عن « جغرافية قرطبة » ، مفاده انقسام قرطبة إلى خمسة أقسام

رئيسية يتولى مسئولية الحراسة في كل منها عريف ، أو أن المدينة

خلال زيارة الأديبى لمسلم تعد مدينة واحدة ، وأما خمس مدائن

وتجارة يشرف على الأمن في كل منها عريف مستعينا بعدد من الخراسان

أو أن ذلك هو التقسيم الذي اتفقه المرابطون في الأندلس ، انظر في ذلك

« تاريخ الجغرافيين والجغرافيين في الأندلس » ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

التي فيها باب القنطرة (١٠٠) ، وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمسجد المسلمين مثله ، بنية وتنميته ، طولا وعرضا » (١٠١) .

أما القرى ، فقد خصص صفحات طويلة للحديث عن قرطبة ، والاشادة بجمالها وعظمتها ولا أجد داعيا لذكرها هنا لطولها ، ولكن سأورد ما نقله عن الجباري (المتوفى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م) :

« حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، كانت تنتهى الغاية ، ومركز الراجية ، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الامام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات ، الفائقة » .

والسبب في تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم ، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط ، الا على البحث والطلب ، لأنواع الفنون والأدب » (١٠٢) .

(١٠٠) بالنسبة للمدينة الوسطى — انظر الدكتور عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٧٥ ، وعن القنطرة : ج ١ ، ص ١٩٧ .

واميليو غارثيا غوث في : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، مجلة الاندلس ، العدد ٣٠ ، ص ٣١٩ — ٣٨١ .

Garcia Gomez : Notas Sobre la Topografia Cordibesa

en Los «Anales de al Hakam II» por Isa al Razi.

Al Andalus XXX ; 319.

(١٠١) الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢٠٨ .

(١٠٢) المقبرى : نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ٩ .

وانظر ايضا في نفس الجزء الصفحات ٨ ، ١٠ ، ١١ ، و ج ١ ، ص ١٤٧ .

أما عن الكتاب الغربيين عامة ، والأسباب خاصة ، فقد أعطوا المدينة حقها من الوصف والتقدير ، وسنشير باختصار الى بعض أقوالهم :

« كما كان القرن العاشر الميلادي قرن الكمال في فنسبة للخلافة ، فهو أيضا كذلك بالنسبة لقرطبة ، تلك المدينة الواقعة بين الشرق والغرب ، كانت مثل بيزنطة ، ملقبة للتيارين » وعلى عهد عبد الرحمن الناصر ، وصلت مساجدها الى ألف وستمئة مسجد وحماماتها لا يحصىها عدد . ازدانت المدينة بالقصور الفخمة ، والعلماء الأجلاء ، الذين من أجلهم جمع الحكم الثاني مكتبته الشهيرة ذات الأربعمئة ألف مجلد » (١٠٦) .

« قرطبة ، العاصمة الخلالية ، وصلت الى قمة لمعانها ، الى أن تميج أكثر مدن عصرها ازدهارا وجمالا » (١٠٧) .

« ما أسرع ما وصلت قرطبة الى أن تكون مدينة رائعة مأهولة مثل بغداد ذاتها ، لقد وصلت تعدادها الى أكثر من نصف مليون ساكن ، كانت عامرة بالقصور الفخمة ، والمساجد الشامخة ، والمكتبات الوافرة ، والمدارس الشهيرة ، حيث علم أعظم الرجال علما في ذلك الوقت » (١٠٨) .

« لقد ترك العرب اسمهم لخالد على هذه المدينة ، أن أكثر من خمسمئة عام من الحكم العربي للمدينة ، قد جعل من قرطبة ، مدينة

(١٠٣) سواريث فرنانديث : مجمل التاريخ المسمى ، ج ٣ ،
العصور الوسطى ، ص ٣٦٩ .
وانتشر أيضا كتابه « تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى » ،
ص ١١٦ ، ١١٧ .

(١٠٤) سانت جارسيا : تاريخ إسبانيا المسمى ، ص ١٠٧ .
Santamaria A. : Mo Universal de España 197.
(١٠٥) هنرييه أهيلار : تاريخ إسبانيا ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
Repolles Aguilar : Mo de España. 1 : 128.

خاصة بهم ، بما قاموا به فيها ، نعم ، لقد كانت خسارتهم أصيلة تطعمت بما حصلوا عليه من لقاءهم مع العناصر القديمة للثقافة الاسبانية الرومانية » (١٦) .

ويقول في مكان آخر من نفس الكتاب متحدثا عن القرن العاشر :

« انه غرن العظمة في قرطبة ، فاليها جاءت سفارات كل الأمم : خوان جورتز Juan de Gortz (٩٥٣ م) قدمها بغيرا باسم الامبراطور الألماني « أثنون العظيم » Otón el Grande ، وقد ترك لنا هذا السير ، وصف رائع وشيئا لهذه الرحلة ، ومن قبله كان قد ورد في قرطبة مشغرا ~~القسطنطينية~~ نوادير اداورها البيزنطي » (١٧) .

« على عهد الخلافة في قرطبة ، نمت كل عناصر العظمة ، تلك العناصر التي غرست على عهد الامارة ، فوصلت قرطبة الى نصف مليون نسمة ، واحتوت على ثلاثة آلاف مسجد ، ومائة وثلاثة عشر ألف منزل ، بالخلافة التي كانت حمام » (١٨) .

أما المستشرق الألماني « ريمريد هرتكه » فتقول عنها :

« تجذب قرطبة طلاب العلم من كل أنحاء الشرق ، بل والغرب أيضا — تجذبهم بمدارسها العليا ، ومكتبتها العظيمة التي جمع لها الخليفة

(١٦) انطونيو خاقس : تاريخ مدينة قرطبة ، ص ١٢ .
Jaen, Antonio : Ho de la ciudad de Cordoba p. 120.

(١٧) نفس المصدر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .
وانظر أيضا ما يقوله سانشيت البرنوس في كتابه الجديد « صفحات جديدة عن ماضي اسبانيا » ، ص ٧٢ وما بعدها .

Sanchez Albornos :

Neuvas Páginas sobre el pasado de Espana ; pp.

71-107, Madrid, 1979.

(١٨) بوليكاريو : تاريخ اسبانيا ، ص ٧٨ .
Policarpo Mingot : Historia de Espana ; p. 78.

الحكم الثانى ، وهو من أشهر علماء عصره ، نصف مليون من الكتب تقريباً ، جمعها له عشرات من رجاله ، وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته التى حدثت قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عاماً » (١٠٩) .

وعلى الرغم من اعترافنا بالمبالغة التى يلجأ اليها المؤرخون والجغرافيون العرب فى إعطائهم الأرقام ، إلا أن الحقيقة التى لا جدال فيها هى أن هذه الأرقام ، رغم ما فيها من مبالغة ، ليست :لا تعبيرا عن عظمة هذه المدينة ، التى وصل عدد سكانها فى هذه الفترة لأكثر من نصف مليون نسمة ، وامتدت مساحتها الى مسافات بعيدة : تصورنا لنا المخطوطة الخاصة بجغرافية الأندلس قائلا :

واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ مائلا ، وفى عرضها فرسخين وذلك بالأميال أربعة وعشرون ميلا فى الطول ، وستة أميال فى العرض (١١٠) ، كل ذلك ديار ، وقصور ، وبساتين ، ومساجد ، وقبسات ، وخانات ، وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادى المسمى بالوادى الكبير .

وتواصل المخطوطة الحديث عن أبواب قرطبة ، وسورها ، وغصرها وأبوابه الرئيسية ، وأرباضها البالغة واحدا وعشرين ربعا ، ثم يورد أسماء هذه الأحياء بالأسم الى أن يصل الى القول :

« وأحصيت دور قرطبة التى بها وبأرباضها ، فى أيام الحاجب المنصور »

(١٠٩) زيفريد هوتكة : شمس العرب تسطع على الغرب « الترجمة العربية » ، ص ٣٥٣ .

(١١٠) يرى الدكتور حسين مؤنس أن ذلك مقبول ، إذا كان المقصود المدينة وما يتبعها اداريا ومالبا من القرى والأراضى (انظر تحقيقه لهذا الجزء المنشور بمجلة المعهد المحرى للدراسات الإسلامية ، العدد ١٣ ، ص ١٦٦ ، التعليق رقم ٥) .

محمّد بن أبى عامر ، فكانت مائة ألف دار (هنا سقطت كلمة من المخطوطة يعتقد الدكتور مؤنس أنها « أو مائتين ») ، وثلاث عشر ألف دار ، وسبعة وسبعين دارا ، وهذه دور الرعية ؟ أما دور الأمراء والأكابر والوزراء ، والرؤساء ، والقواد ، والكتاب ، والأجناد ، وخاصة الملك ، فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مصارى الكراء والحمامات والخانات .

وكان بها من المساجد ثلاثة عشر ألف مسجد وثمانمائة مسجد ، ونيف وسبعون مسجدا ، وكان بربض نفقة خاصة ثمانمائة مسجد (هنا يلاحظ الدكتور مؤنس أن المؤلف قد خلط بين عدد الدور وعدد المساجد ، ويبين أن الرقم قد ورد عند المقرئ ج ٢ ص ٣٨٧٧ ، ٣٨٧٨ مسجدا ، ويعمد التذكير بأن الكثيرين من المؤلفين القدامى لم يكن لديهم تصور سليم عن الأرقام — انظر ص ١٦٩ — التعليل ٩) .

وكان عدد حماماتها ثلاثة آلاف حمام ، وسبعائة حمام وأحد عشر حماما وكان بها من الفنادق والخانات ألف وستمائة فندق لسكنى التجار والمسافرين والعزاب والغرباء وغيرهم .

وكان بها من الحوانيت ثلاثون ألف حانوت ، وأربعمائة واثنتان وخمسون حانوتا .

وانتهت دور قصرها الكبير الذى ينزله الخلفاء والملوك الى أربعمائة دار ونيف وثلاثين دارا ، كلها للملك وحرمة وفتياته » (١١١) .

ولا يكتمل الحديث عن عظمة مدينة قرطبة على عمر الخلافة ، إلا بالحديث عن مدينتى الزهراء والزاهرة ، والمسجد الجامع وقنطرة الوادى .

(١١١) مجهول : جغرافية الاندلس ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ص ١٦٦ — ١٧٠ .
L'Éve Provencal : España Musulmana. Vol 11, 195—256.

ومدينة الزهراء تمثل عظمة الخلافة على عهد عبد الرحمن الناصر، ويحيط بدوائع انشائها وبنائها أساطير كثيرة، وحكايات خيالية جامعة وتقع شمالى غربى مدينة قرطبة على مسافة ١٠ كيلو مترات تقريبا، وشرع فى بنائها عام ٥٣٢٥ هـ، الموافق ٩٣٦ م، وعهد الناصر الى ولده الحكيم المستنصر بالأسراف على بناء المدينة، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء، وكتب التاريخ والآثار حافلة بالأرقام الخاصة بعدد العمال والرواتب وتكاليف ذلك بالدنانير والدراهم، وأسعار شراء الرخام من القسطنطينية ومن قرطاجنة وأفريقية، وتونس ومن سائر بلاد الأندلس، مما لا أجد داعيا للإشارة اليه هنا (١١٢) .

ومنذ تأسيس قصرها الرئيسى ومسجدها، اتخذت مقرا للخلافة، ونقل إليها بيت مال المسلمين، والديوان والمطبخ والخزائن (١١٣) و « أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس ألا من بيتنى دارا

(١١٢) للحصول على توصيات وافية عن مدينة الزهراء، يمكن الاطلاع على بعض الأعمال التالية :

المقرى : نفع الطيب، ج ٢، ص ١٠١ - ١٠٤ . وازهار الرياض ج ٢، ص ٢٦٧ - ٢٧٢ .

الأديبى : نزهة المشتاق، ص ٢٦٢ .

مجهول : جغرافية الأندلس، ص ١٧٠ .

المقرى : نصوص عن الأندلس، ص ١٢٣ .

ابن حوقل : كتاب السالك والمالك، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

ابن غالب : فرحة الأنس، ص ٣١ - ٣٣ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١، ص ٢٢٩ - ٢٥٨ .

شاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٤٠٧ - ٤١١ .

عبد الله عسان : دولة الإسلام فى الأندلس، العصر الاول، القسم

الثانى، ص ٣٦٥ - ٤٠٥ . الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال،

ص ٣٥ وما بعدها .

Terres Balbas; Ciudades Hisano Musulmanas. 1 : 63.

(١١٣) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ١٠٨ .

أو أن يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم .
فتسارع الناس الى اعمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت غيبة
الرغبة » (١١٤) ، وتوفي عبد الرحمن الثالث بمدينة الزهراء في عام ٣٣٥ هـ
/ ٩٩١ م ، وواصل الحكم المستنصر من بعده العناية بالمدينة حتى
وفاته ، ولقد وضعت وفاة الحكم وانشاء المنصور لمدينته الجديدة
الزاهرة ، حدا لتوسع الزهراء بل والبداية للفناء عليها .

أما عن مدينة الزاهرة ، فلقد كان المنصور بن أبي عامر يهدف الى
أن يشيد أنه لا يظل عظيمة وسطانية ، عن الخليفتين الناصر والمستنصر ،
فشرع في بنائها في عام ٣٣٨ هـ / ٩٧٨ م : « وشحنها بجمع أسبحة
وتموالة وأمتعتها واتخذ فيها الدواوين ، وعمل في داخلها الأهراء
وأطلق بساحتها الأرجاء ، ثم أقطع ما حوالها لوزرائه وكتابه ، وقواده
وجبايه ، فأبيتوا بها كبار الدور وجليات القصور ، واتخذوا خلاليب
المستغاثات الخبذة ، والمانازم الجديدة ، وقامت بها الأضرحة وكثير من
الأرقاع ، وتنافس الناس بالنزول بأكتافها ، والحلول بالاراضي
للذين من صاحب الدولة ، وتناهى الطوف في البناء حوله ، حتى اتصلت
أرباضها بأرباض قرطبة » (١١٥) .

(١١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(١١٥) ابن عذاري : ج ٢ ، ص ٤١٢ .

المقري : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ص ٢٥٨ - ٢٦٢ .
عنان : دولة الاسلام في الأندلس - العصر الاول ، القسم الثاني
ص ٥٢٢ . علارة على أن معظم المصادر المشار اليها عند الحديث عن مدينة
الزهراء وعن مدينة قرطبة ، قد تناولت أيضا مدينة الزاهرة .
انظر :

Torres Balbas : Madina al Zahira

la Ciudad de Alhambra. Al Andalus V. XXI (1956)

p. 254.

Ciudades Hispano — Musulmanes : 1 : 66.

أما المسجد الجامع الذى أمتارت به مدينة قرطبة عن باقى مدن الأندلس بكاملها فسوف تأتى الإشارة إليه عند الحديث عن المؤسسات التعليمية فى الأندلس ، ولهذا لا أجد داعيا لذكره فى هذا المجال .
أما قنطرة قرطبة ، فعلى الرغم من كونها معلما رئيسيا من معالم مدينة قرطبة ، حتى تعد أولى أربع مظاهر تتميز بها مدينة الخلفاء ، ويجمع أحد الشعراء هذه المزايا فى بيتين هما :

بأربع فافت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان شتان والزهاء ثالثة

والعلم أعظم شئ وهو رابعها (١١٦) *

ولم يكن قصدى من ذلك الذى عرضته عن قرطبة وأربانتها وضواحيها أن أقدم وصفا تاريخيا أو وصفا للمدينة ، لأن ذلك موضوع يحتاج الى مجلدات كاملة ، وهناك بالفعل عشرات المجلدات تناولت هذه المدينة عماريا ، وحضاريا واجتماعيا وفنيا ، ومن الصعب على دارس فى غير هذه التخصصات ، أن يلم بكل ما كتب عن هذه المدينة العظيمة ، وإنما قصدت مما كتبت عنها : إعطاء صورة عن أهمية الحضارية للمدينة ، يمكن أن نقودنا الى تصور الحياة العلمية والتعليمية التى تفلت هذه الأحياء الواسعة ، وعمرت بها تلك المساجد الكثيرة ، وحفلت بها المكتبات ، والمجالس ، أردت أن أحصل الى الحقيقة التى عبر عنها عبقرية زمانه : فيلسوف التاريخ ، وأثنى وأبرز علماء الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون ، الذى صاغ أفضل معادلة بين الحضارة والتعليم ، حين قرر أن « التعليم للعلم من

(١١٦) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ، ص ٣١٠ .
Gayangos : The History of the Mohammedan Dunas-
ties in Spain ; 1 : 327.

جملة الصنائع » (١١٧) ، ضاربا الأمثلة الحية بالوقائع التاريخية التي مر بها عالم المغرب الاسلامي فقال : « اعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب ، باختلال عمرانه ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وققدانها كما مر ، وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، واستبحرن عمرانهما ، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم ، لاهتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خرجتا ، انقطع التعليم من المغرب ، الا قليلا » (١١٨) .

ويعود ابن خلدون لتأكيد فكرته ، مبينا أن انقطاع التعليم بالأندلس سببه تناقص العمران ، وأن استمراره بالشرق يرجع الى اتصال العمران فيقول :

« وأما أهل الأندلس ، فذهب رسم التعليم من بينهم : وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مؤين الستين . »

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه » (١١٩) .

« ناعلم من جملة الصنائع ، والصنائع تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة . » (١٢٠) .

وأجد أيضا في ذلك المجال ، أن أستاذي ، الدكتور لويس سواريث

(١١٧) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .

(١١٨) نفس المصدر ، ص ٩٨٦ .

(١١٩) نفس المصدر ، ص ٩٨٨ .

(١٢٠) نفس المصدر ، ص ٩٩٠ - ٩٩١ .

وانظر أيضا عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية ،

ص ١٧٦ .

هينانديث . على حق في تصوره لقرطبة في القرن العاشر الميلادي .
وكان كل شارع منها ، وكل ركن من المدينة حافلان بالبنابة والمعلمين ،
من كل الطبقات والأديان ، كل منهم يسعى الى علم معين ، أو الى استاذ
معين وليس غريبا أن تتطابق تلك الصورة التي يرسمها الدكتور سواريث
وهو المؤرخ الوسيط ، الذي يركز معظم اهتماماته على دراسة تاريخ
أسبانيا المسيحية مع ما يقوله الدكتور حسين مؤنس المؤرخ المصري ،
المتعمق في الدراسات الأندلسية ، حين يصف مناخ قرطبة خلال القرن
الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، بقوله :

« يمكن أن تتصور البيئة العلمية الأندلسية ، في ذلك العصر
بيئة تأليف وترجمة ، وتجديد ، وطلب للعلم والمعرفة ، مما جعل قرطبة
خلال القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، مركزا من مراكز
القيادة والاشماع للحضارة في العالم كله » (١٢١) .

(١٢١) مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،

ص ٥٦ .

هذا وقد تعرض هذا الجزء من الرسالة لنتقد عنيف من الدكتور
عبد العزيز سالم على أساس تركيزه على مدينة قرطبة فقط وعدم الإهتمام
بالحواسر الأندلسية الكبرى . ووجهه بأنه خارج عن موضوع الرسالة ،
ومع تسليم بصحة رأي سيادته في أنه قد يستند بالقنارىء عن الموضوع
الأصلى إلا أنني رأيت التركيز عن قرطبة ، على أساس أنها العاصمة ،
وبوصفها مثالا للمستوى الاجتماعي الذي شهدته المدن الأخرى ، ولم أرغب
في الخروج عن الموضوع أكثر من ذلك .

الفصل الثاني

منذ سقوط الدولة الأموية الى سقوط غرناطة

(١) عصر الطوائف :

تعرضت الأندلس لفترة من التمزق السياسي ، وذلك بانقسامها الى ممالك صغيرة متنازعة فيما بينها ، وتعتبر هذه الفترة من أسوأ عهود الأندلس سياسيا ولكنها على العكس من ذلك ، كانت فترة ثقافية لامعة حيث أعطت فترة الاستقرار السابقة ثمارها خيالا عصر الطوائف ، فبرز كثير من العلماء والأدباء والشعراء . ولقد حاول ملوك الطوائف الاحتواء على أكبر عدد من هؤلاء في ممالكهم الصغيرة ، مما أشعل روح التنافس العلمي والثقافي . وينقل المقرئ قول الشقندي : وكان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، اذ نفقوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على النثور المنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم الا قول : العالم الفلاني . عدد الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني^(١) .

ولقد عرفت كثير من هذه الممالك بتشجيعها لمجالات أدبية معينة على ما مالت اليه مشارب الحكام ، ففي أثسبيلية ، ازدهر الشعر على أيام ابن عباد ، لان الأمير نفسه كان شاعرا واتخذ وزراءه وكتابه من الشعراء ، بينما لم يجد الشعراء عند صاحب دانية مجالا واسعا رغم اهتمامه بالعلوم والأدب اهتماما كبيرا جدا . ويصف ابن حيان مجاهد الغامري صاحب دانية بقوله : كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته في علم اللسان ، ونفوذه في علم القرآن . عنى بذلك من صباه ، وابتداء نحالة التي حين اكتماله ، ولم يشغله عن

(١) المتسرى : فتح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
خناجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ٦٧ - ٧٠ .
عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة الزرية الإسلامية ، ص ١٧٩ .
الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ٢٥ .

التريد عظيم ما مارس من الحروب برا وبحرا ، حتى صار في المعرفة
تسييح وجده وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمه ، وكانت دولته أكثر
الدول خاصة وأسراها صحابة ، لانتقاله العلم والفهم ، فأمه جملة
العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيموا في ظل سلطانه ، واجتمع عنده
من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة وحلبة طاهرة ، على
أنه كان فيما بلغني مع أدبه من أزهد الناس في الشعر ، وأحرمهم
لأهله ، وأنكرهم على منسده لا يزال يتعقبه عليه كلمة كلمة ، كأنها
أنا زاع فيه من أخلة وسرقة ، فلا تسلم على نفقه قافية ، ثم لا يفوز
المخلص من مضماره على الجهد لديه بظائل ، ولا يحظى منه بنائل ،
فأفسر الشعراء لذلك عن مدحه ، وخال الشعر من ذكره (٧) .

ولن استطرد في الحديث كثيرا عن اهتمامات مجاهد دائية ،
لأن ذلك موضوع طويل (٨) ، ولكن تكفى الإشارة الى أنه حاول أن يدفع
١٠٠٠ دينار لأبي غالب ، المعروف بابن التبان المرسي ، على أن يزيد في
ترجمة كتابه « الموعب » . أنه ألفه لأبي الجيش مجاهد ، فرد الخفيه
المسال ، وأنف من ذلك قائلا : والله لو بدلت لي الدنيا على ذلك ما
فعلت ، ولا استجرت الكذب ، فاني لم أجمعه لك خاصة ، وإنما جمعته ،
لكل طالب عم عامة (٩) .

أما في دولة بني المظفر أمراء بطليوس ، فكانت أيامهم في غرب

(٧) ابن بسام : الذخيرة - القسم الثالث - ج ١ ، ص ٢٢ ، تحقيق
إحسان عباس .

عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، ط ١ ،
ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٨) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ١١٠ .

أنظر مختار العبادي : الصقلية في إسبانيا ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٩) مختار العبادي : الصقلية في إسبانيا ، ص ٢٢ - ٢٣ .

عنان : دول الطوائف ، ص ١٩٤ .

الأندلس أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الأدب ، وكان المظفر يحيى ابن منصور المتوفى ١٠٦٧م / ٥٤٦٠م ، أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ، ونوادير الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتابا كبيرا ترجمه باسمه « (٦) » . كما كانت بطليموس زمن المتوكل ، دار أدب وشعر ونحو وعلم ، وأحاط به مجموعة جمعة من كبار الشعراء .

أما عن أبي التاسم بن عباد المعتمد على الله ، فلقد اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ، ما لم يجتمع لك قبله من ملوك الأندلس ، وكان « مقتصرًا من العلوم ، على علم الأدب ، وما يتعلق وينضم إليه » (٧) .

واردمرت الحياة الأدبية والعلمية في باقي أقاليم الأندلس الأخرى ، مثل بلنسية (٨) ، سرقسطة (٩) ، وملقة (١٠) ، والمرية (١١) ، وقرطبة (١٢) . ولقد سبق القول أن « السلطان سوق ، يجلب إليه ما

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ١١١ .

وعن بطليموس وبنى الأنطلس . انظر كتاب مانويل تورون : « أرض بنى الأفطس » .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٩ .

وانظر أيضا : صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس .

(٧) عجيل حسن : الحياة العلمية في مدينة بلنسية .

(٨) ترك : مملكة سرقسطة في القرن الحادي عشر الميلادي .

Afif Turk : Reino de Zaragoza en S. XI.

(٩) روبلي : تاريخ مملكة الاسلامية .

Guillen Robles : Malaga Musulmana.

(١٠) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٧٤ .

١٨٥ .

محمد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية (رسالة ماجستير بجامعة الاسكندرية) .

(١١) خالد الصوفي : بنو جهور في قرطبة .

Khalid Soufi : Los Banu Gahwar en Cordoba.

ينفق لديه » (١٣) •

وبقد برز في تلك الفترة ، عدد كبير من العلماء والأدباء والفقهاء ،
والشعراء ، والمؤرخين ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

ابن حيان (المتوفى ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م) ، وهو من أشهر مؤرخي
المسلمين في العصور الوسطى (١٣) ، وصاعد الطبقي (المتوفى ٤٦٢ هـ /
١٠٦٩ م) ، وصاحب كتاب « طبقات الأمم » (١٤) ، وأبو الوليد الباجي ،
الذي أدخل الأندلس علوما كثيرة وتناظر مع ابن حزم (المتوفى ٤٧٤ هـ /
١٠٨١ م) (١٥) ، وابن حزم الظاهري (المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) (١٦) ،
الذي يعتبر قمة من فعم الفكر الانساني •

ومن الشعراء الذين برزوا في تلك الفترة يمكن الإشارة الى ابن
دراج القسطلي ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن شهيد . وحتى
لا أكثر من الأسماء الملامعة في مجال الأدب ، فانني أشير على القاريء
المتعمش أن يلقى نظرة على ذخيرة ابن بسام الششتريني ، التي أعاد
تحقيقها واستكملها مؤخرًا ، الدكتور احسان عباس (١٧) •

(١٢) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٢ ، ج ١ — تحقيق : لطفى
عبد البديع ، ص ٤ •

وبصورة عامة انظر : عبد الله عسان : ملوك الطوائف •
(١٣) انظر ترجمة ابن حيان : المقدمة التي كتبها الدكتور محمود على
مكي ، لتحقيقه للجزء الثاني من المقتبس ورسالة دكتوراه عبد الله
جمال الدين •

(١٤) طبع الكتاب أكثر من مرة في القاهرة وغيرها من بلدان المالم •
ابن حيسان : نصوص من كتاب المتن ، أعداد عبد الله جمال الدين •
(١٥)

(15) Turki, A.: Polemiques Entre Ibn Hazem et Bayl...
Asin Palacia : Abenhazam de Cordoba y su Historia....

ابن بسام : الذخيرة ، الجزء الثالث ، القسم الأول ، ص ٩٠ (طبعة
بيروت) •

(١٦) الظاهر مكي : دراسات عن ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) •
خفاجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ١٦١ — ١٦٧ و ص ٢٠٣ •
(١٧) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان
عباس — ٨ أجزاء — بيروت — ١٩٧٥ •

ولم تخل الفترة أيضا من بعض الاضطهاد للعلماء وخاصة ما تعرض له ابن حزم من مطاردة من مكان الى آخر ، حيث استقر به المقام في قرية صغيرة لا يؤمه فيها الاصحار الطلبة ، وأحرقت كتبه في أشبيلية ويثول ابن حيان عنه :

طلق الملوك يثرونه عن ثوبهم ، ويسرونه عن بلادهم ، الى أن انتصوا الى منطلق أثره تربية بلدة من بادية لبنة ، وبها توفي رحمه الله ٤٥٦ هـ ، وهو في ذلك غير مرتدع ، ولا راجع الى ما أرادوا به ، بث علمه غيمن يثنايه من بادية بلده من عامة المقتسين منهم ، من أصاغر الطلبة (١٨) .

(ب) المرابطون والموحدون :

قابل تدهور الأدور السياسية في الأندلس ، ازدياد قوة أسبانيا المسيحية ، وخاصة مملكة قشتالة ، التي تمكنت من فرض حمايتها على الدويلات الإسلامية ، وطمعت في السيطرة عليها واحدة بعد الأخرى .

كما أن تلك الفترة شهدت ظهور دولة جديدة على الجانب المقابل للأندلس من البحر المتوسط ، أي في المغرب الأقصى ، هي دولة المرابطين (١٩) التي وصلت الى قمة عظمتها وقوتها على عهد أميرها

-
- (١٨) انظر المراجع المذكورة عليه — وراجع أيضا : الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ ، طبع فريد الرضاى . أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٧ ، و ص ٥٤ ، ٥٥ . ومن النقاط التي أثار نقاشا في هذه الرسالة هو التطويل والتركيز على مدينة قرطبة والاهمال أو شبه الاهمال لباقى جواضر الأندلس الكبرى وعذرى في ذلك أن قرطبة هي قصبة الملك هناك ومجتمعها يمثل المجتمع الأندلسي كله دون أن أقصد الاقلال من أهمية المدن الأخرى . المؤلف . (١٩) انظر في تاريخ الدولة المرابطية بعض الأعمال التاريخية التالية : ابن أبر زرع : روض القرطاس ، ج ٢ ، ص ٣ . الراكنى : المعجب ص ١٩٢ — ٢٦٠ . حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ . عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (التسم الثانى) القاهرة ١٩٦٤ . =

يوسف بن تاشفين (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ / ١٠٦١ - ١١٠٧ م) وابنه الأمير
على بن يوسف .

هذه الظروف مجتمعة دفعت بملوك الطوائف الى الاستعانة
بالمرابطين ضد أسبانيا المسيحية ، ولكن المسألة انتهت بعد فترة من الزمن
بالقضاء على ملوك الطوائف ، واستيلاء المرابطين على ممالكهم ، ودخول
الأنطلس ضمن الدولة المرابطية ، واستمرت كذلك الى أن سقطت الدولة
المرابطية ، وحلت محلها الدولة الموحدية (٣) .

وتكبر عن المؤرخين الأسبان ، وخاصة غير المستشرقين ، يصفون
فترة المرابطين والموحدين ، بحكم الأسرات الأفريقية ، وبعضهم يرى
أنها فترة اختلال أجنبي ، ويرى الدكتور لويس سواريث ، في نقاشاته
معنى أن أسبانيا الإسلامية ، كإسبانيا الأسبانية ، تجلت ذاتها في مرتين
تتبع الأولى في فترة الخلافة الأموية في قرطبة ، والثانية في دولة بني
نصر في غرناطة ، وإذا كان رأي أنشركيز على ما بين الفترتين في هذه
الدراسة ، ولقد كنت أرى باستمرار ، ومازال رأيي كذلك ، أن تاريخ

= وتاريخ الأنطلس على عهد المرابطين والموحدين (ترجمة عنان ، القاهرة
١٩٥١) . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٤ ، تحقيق احسان عباس
بيروت ١٩٦٧ .

١٩٥١) . ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٤ ، تحقيق احسان عباس ،
(٢٠١) أنظر في تاريخ الموحدين بعض الأعمال التاريخية التالية :

ابن عذاري : البيان المغرب ، الجزء الثالث : تحقيق موسى ميرندا .
« النمل الموشية » المنسوب خطأ لابن الخطيب ، تحقيق البشير النورتي ،
تونس : ص ٧٨ وما بعدها روض القرطاس ، ج ٢ ، ص ١٠٠ . نظم
الجهان ، ص ١٠٢ . والتاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية للمستشرق
الاسباني « موسى ميرندا ، جزءان » تطوان ١٩٥٦ .

Huici Miranda, A. : Historia politica del Imperio
Almohade. ... 2 tomos. Tetuan, 1956.

ابن صاحب الصلابة : كتاب المن بالامامة (تحقيق عبد الهادي
النوري) .

عبد الله غلام : الدولة الموحدية بالمغرب .

المغرب والأندلس يتصل ببعضه صلة قوية ، التي درجة يستحيل معها الفصل ، بل ما هو أكثر من ذلك ، أن تاريخ الأقاليم الإسلامية الكبرى ومنها إقليم غرب العالم الإسلامي ، يرتبط ببعضه ، وأن محاولات التقسيم الجغرافي ، محاولات مبتسرة ، وتجزئة غير سليمة ، ولعل لا أبعد كثيرا إذا قلت أن تاريخ العالم الإسلامي بأكمله خلال العصور الوسطى متشابك ، ومتصل ومتقارب ، وإذا كانت الصورة غير واضحة أو مختلفة في المجالات السياسية ، فهي ولا شك حية قوية واضحة في المجالات الثقافية والاجتماعية ، ولست أتحد من ذلك القول بصورة واحدة تماما وإنما أقول أن لكل منطقة ، علاوة على السمات العامة التي تربطها بغيرها من مناطق الإسلام ، لها سماتها الخاصة ، ومميزاتها النوعية .

ولقد شرحت وجهة نظري لأستاذي ، باستحالة فصل الفئرة التاريخية للمرابطين والموهدين عن مسار التاريخ العام للأندلس ، وخاصة في مجال التعليم ، حيث أن المؤسسات التعليمية كانت قد استقرت أسسها منذ فترة طويلة ، وواصلت عملها رغم التغيرات السياسية التي طرأت على الأندلس .

لقد شهدت فترة المرابطين اهتماما نوعيا بالعلوم ، فلقد كان لها فكرها الخاص الذي طبع التعليم في الأندلس ، ونتيجة لتعصبهم الديني ، ازدهرت علوم واضمحلت علوم أخرى ، فهم قد اهتموا اهتماما كبيرا بالذهب المالكى ، وأهملوا ما عدا ذلك ، واضطهدوا علماء الكلام ، مما طبع عصرهم بطابع معين من الدراسات ، يقول المراكشي حين يتحدث عن الأمير يوسف بن تاشفين :

« واشتد ايتاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحدا من قضائته ، كان قيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا بيت في صغير من الأمور أو كبير ، إلا بمحضر من أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس . »

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة اليهم ،
وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته ، فعظم أمر
الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرف وجوه الناس اليهم ، فكثر لذلك
أموالهم ، واتسعت مكاسيهم » (٢١) .

ويقول في موضع آخر :

« ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده ، الا من علم علم
الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ،
وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب
الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من
مشايير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان
بتفكير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقررا
الفقهاء عند أمير المسلمين تنبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ،
وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره
إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأحوال ، حتى استحکم في نفسه
بعض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد
في تبيذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ،
ولما حقت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله (المتوفى ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م)
المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقديم بالوعيد الشديد - من سفك
الدم واستئصال المال - إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد
الأمر في ذلك » (٢٢) .

(٢١) الراشدي : الموجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٣ ،
والطبعة القديمة ص ١٧٧ .
(٢٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ . ابن القطان : نظم الجمان ،
ص ١٤ ، ١٥ .

الناصرى : الاستقصال لأخبار المغرب الأقصى ، ص ٦٧ ، ج ٢ .
عنان : عبر الرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط ١٩٦٤ ،

وأُسرف الأمير يوسف بن تاشفين في تقريب الفقهاء ورعايتهم ، وكان محبا لهم والعلماء والصلحاء ، مقربا لهم ، مكرما لهم ، أُخوي بينهم الأزداق من بيت المال طوال أيامه (٣٦) . أما ابنه علي ، فقد جمل من بلاطه في مراشس مركزا لكثير من رجال الأدب والعلم ، حيث قصد هناك أبو بكر بن الجند وابن القبطرنة وابن عبدون وابن أبي الخصال .

ولعل قصر فترة المرابطين ، وانشغالهم بالحروب الكثيرة في تثبيت دعائم دولتهم ثم في المحافظة عليها ، قد صبغ هذه الدولة بالانحسار العسكري ، ولم يعطها الفرصة الكبيرة لازدهار علوم أخرى كثيرة ، أو حجب الأنشطة العلمية ، فلم يصل إلينا الكثير من المعلومات عنها .

وعلى العكس من حالة المعلومات التي نجدها بين أيدينا ، عن دولة المرابطين فإننا نتمتع ببيانات وافرة ووثائق كثيرة عن الموحدين ، ولست أدري السبب في ذلك ولكن من المحتمل أن يكون كما سبق لي القول : قصر فترة المرابطين ثم امتداد حكم الموحدين لفترة طويلة جدا ، مما منع المؤرخين على عصرها من التأريخ للفترة السابقة .

هذا ولقد أبدت الدولة الموحدية بالتعليم اهتماما كبيرا جدا ، وذلك لغيامها على عقيدة دينية ، مما حتم ضرورة الاهتمام بنوعية التعليم حتى يمكن اقناع الناس بهذه العقيدة ، وحملهم على دراسة مؤلفات مؤسس هذه الدولة محمد بن تومرت (٣٧) ، ولقد وضع الموحدون لذلك برنامجا إجباريا أنقله هنا عن كتاب العلوم والفنون على عبد الموحدين (٤٨٧) — ٥٥٨ هـ / ١٠٩٤ — ١١٦٣ م (٣٨) .

- (٣٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ٣٨ .
 (٣٤) عن الشيخ ابن تومرت ، انظر : ابن القطان : نظم الجمان : الصنهاجي : أبو بكر بن علي المكنى بالبيدق : وكذلك أخبار الموحدين ابن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر .
 المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٦٢ — ٢٦٧ .
 (٣٥) محمد السنوسي : العلوم والآداب والفنون على عبد الموحدين ، تخلصان ١٩٥٠ .

وضع هذا النظام للتعليم الاجبارى عبد المؤمن بن على ، ويقوم هذا البرنامج على أنه يجب على كل من انضوى تحت راية الموحدين ان يتعلم الضرورى من العقائد وما يتعلق بالاصالة ، ولقد بالغ في هذا الأمر ، فجعله حتما لازما على كل مكلف — الرجال والنساء ، والأحرار والعبيد — ورخص ان يفهم اللسان البربرى دون العربى أن يقرأ بلسانهم ، عقيدة ابن تومرت — التونيد — البربرية . أما الذين يقيمون العربية ، فكان لازما عليهم أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت العربية — المرشدة — وأكد على الجميع في حفظ ذلك وتدبره وملازمة قراءته ، وتعامده ، كما أكد على العوام ، ومن في النديار في حفظ أم القرآن ، وما تيسر من القرآن ، وألزم نوابه أن يقيموا علماء أمناء من تعليم ليعلموا الناس ما ذكر .

وزيادة في الاهتمام ، نرى عبد المؤمن يشرف بنفسه على مباشرة هذا النوع من التعليم في مراكز وناحيتها ، ويكتب الى نواحي المملكة الأخرى يقص عليهم عمله هذا ، ويأمرها بأن تحتذى حذوه ، وتقوم بدورها بتدقيق هذا المنهج .

ويلحق بكتايب المهدي المقربين ، مجموع أحاديث الجهاد ، أنذى أمر يوسف (٣١) بتدوينه ليملى على الموحدين ليدرسوه ، فكان ذلك على الناس بنفسه ، وكان كل واحد من الموحدين والسادة بجى بطوح يكتب فيه الاملاء .

(٢٦) بالنسبة لحيودات كل خليفة وحدى على حدة سوف نتناولها فيما ضمن هذه الرسالة في تناولنا لبعض المجالات المحددة . ومن السهل على من يرغب الاستزادة مراجعة مجموعة المصادر المذكورة في تاريخ دولتي المرابطين والموحدين وأخبار المبدى بن تومرت ، وفي هذا المجال ، بالذات يمكن مراجعة كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين لمانونى . وكتاب تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى للاستاذ غنيمت .

تاريخ التعليم

وكذا مجموع أحاديث الصلاة وما يتعلق بها ، الذي جمعه بآمر يعقوب طائفة من العلماء ، فكان يباهي بنفسه على الناس ، ويأمرهم بحفظه ، وانتشر هذا المجمع في جميع الغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنن من الكسا والأموال (٣٧) .

ولقد كان عبد المؤمن مؤثرا لأهل العلم ، محبا لهم ، محسنا اليهم ، يستدعيهم من البلاد الى السكن بجواره ، والجوار بحضرته ، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التثوية بهم ، والاعظام لهم (٣٨) .

ولقد اتخذت الدولة الموحدية مواقف محددة لصبح التعليم في بلادها بصفة جديدة ، وخاصة القضاء على المذهب المالكي ، ودراسات الفروع ، والعردة الى دراسة الحديث والمدرسة الظاهرية ، فالأمير عبد المؤمن قد أمر في سنة ٥٥٠هـ / ١١٢٤م ، بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده ، وتغيير المنكر وتفريق كتب الفروع ، ورد الناس الى قراءة الحديث : وكتب بذلك الى جميع طلبة المغرب والعدوة (٣٩) .

وهناك من يتحدث عن حرية كبيرة سادت عصر الموحدين حيث يقول الأستاذ عبد الهادي التازي بأنه « كان من رأى الموحدين — على العموم — أن لا يحجروا على الناس في تفكيرهم ، ولذلك فقد ازدهرت الفلسفة ، وارتفعت رموس المفكرين في كل زاوية ، بل ان أفقهم كان لا يضيق عن سماع النقد : وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يجلو رجال الفكر والعلم ، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريات ، والمظاهر السامية » (٤٠) .

-
- (٢٧) العلوم والآداب والفنون على عبد الموحدين ، ص ٢٧ ، ٢٨ .
 المراكشي : المعجب في تفيض أخبار المغرب ، ص ٢٩٣ .
 (٢٨) نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .
 (٢٩) ابن أبي زرع : الأيس المطرب ، ص ١٥٤ .
 (٣٠) عبد الهادي التازي : بتسمية كتاب المن بالإمامة ، ص ٦٢ .

لكن من الصعب التعميق بذلك ، حيث أن الموحدين تعصبوا كثيرا ضد المذهب المالكي ، ولعل في قصة الفقيه محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبي : المالكي (المتوفى ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م) ، ما ينفي تلك التحرية التي تطلق على الموحدين ، فلقد كان من جلة العلماء الحفاظ ، متفنتا في المعارف كلها ، جامعا لها ، كثير الرواية ، واسع المعرفة ، جامل الأديب .

كان من كبار فقهاء المالكية ، يتصرف في علوم شتى ، واستمع به أهل قرطبة في الفقه والأصول ، وقدم مصر هاربا من بني عبد المؤمن ودولته (الموحدون) ، لما ظهر بالمغرب ، ثم خاف أن يستولى على بحر ، فقدم الحجاز ، فخاف أن يحججه فدخل اليمن (٣١) .

أما علي عهد أبي يوسف يعقوب (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م) ، فقد انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يخرجوا منها ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ففعل ذلك : فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، وفوارد ابن أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب البرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحوها ، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة غاس : يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار ، وتقدم إلى الناس في ترك الاستئصال بعلم الرأي ، والخوض في شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة (٣٢) .

صحيح أن الفلسفة قد شهدت على عهد الموحدين ازدهارا كبيرا . وخاصة على يدى ابن طفيل وابن رشد . وأن بعض الأمراء الموحدين كانوا متدخلين في تلك المادة ، ولكن ذلك لم يمنع من أن يتعرض

(٣١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٦٠ .

ابن زحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣٢) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠٠ .

ابن رشد للايذاء ، وأن يكتب أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب « بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة — أى الفلسفة — وبإحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والصاب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ سمت القبله فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد ، وعمل بمقتضاها » (٣٣) ، وسوف أتناول ذلك تفصيلا عند التحديث عن الفلسفة ، وغيرها من العلوم المنتشرة في الأندلس .

هناك جانب آخر من جوانب الاهتمام بالتعليم يعزى الى الدولة الموحدية ، ألا وهو انشاء المدارس في مناطق كثيرة من الامبراطورية الموحدية بشطريها الأفريقي والأندلسي ، وبما أنني سوف أتناول مسألة المدارس في الأندلس في فصل خاص ، فسأترك ذلك الموضوع ، لمعالجته هناك .

(ج) الدولة النصرية :

بعد فترة من الازدهار السياسي ، والعسكري ، والثقافي ، أصاب دولة الموحدين التدهور السريع ، وخاصة بعد معركة العقاب (١٥ صفر ٦٠٩هـ - ١٦ يولية ١٢١٢م) (٣٤) . ويرى ابن عذارى ، أنها كانت السبب في هلاك الأندلس الى الآن (٣٥) (أى الى عهد المؤلف) وقامت في

-
- (٣٣) المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص ٤٣٧ .
 (٣٤) انظر عن معركة العقاب بعض الأعمال التاريخية مثل :
 هويسى ميراندا : من الأرك الى العقاب ، معارك الاسترداد الكبرى .
 Huici Miranda : las Grandes Batallas de La Reconquista
 اجوادى بلاى : مجمل تاريخ أسبانيا ، ج ١ ، ص ٦٤٥ .
 Aguado pleye : Manual de Historia de Espana 1. 645.
 (٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، تحقيق هويسى ميراندا ،
 ج ٣ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

الأندلس عدة ثورات محلية منفصلة عن الدولة الموحدية ، وعادت الأندلس الى فترة تشبه فترة ملوك الطوائف ، وتقدمت الحروب الأسبانية المسيحية ، تسترد المدن والقواعد الأندلسية الكبرى ، وخيم على الأندلس شبح النهاية المحتومة للدولة الإسلامية هناك ، وخلال هذا الظلام والغبار تمكن أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري (٩٥٥هـ - ١٠٧١هـ / ١١٩٨ - ١٢٧٣م) ، من أن يؤسس له إمارة ، ما لبثت بعد دخوله غرناطة في عام ١٠٣٥هـ / ١٢٣٨م واتخاذها عاصمة له ، أن نهت وتطورت ، وأصبحت دولة صمدت للتيارات السياسية والحركة الاسترداد الأسبانية مدة تزيد على مائتين وخمسين عاما ، ولقد عرفت هذه الدولة في التاريخ باسم الدولة النصرية ، أو دولة بني الأحمر ، وتتميز بأنها صغرة مصغرة لدولة الأندلس الكبرى على عهد الخلافة فعلى عهدها لم تعد غرناطة أو لم يعد الأندلس جزءا تابعا لامبراطورية شمال أفريقية ، دون أن يعنى ذلك انقطاع الصلة مع هذه المنطقة من العالم .

هذا ولقد شهدت الدولة النصرية في غرناطة مراحل من القوة والضعف ودورات من الانتصارات والهزائم ، وسلسلة من التحالفات والمعاهدات مع ممالك أسبانيا المسيحية وخاصة قشتالة وأراجون ومع ممالك العالم الإسلامي الأخرى ، وليس هذا هو مجال التطويل في هذه الموضوعات التي سبقني غيري من الأساتذة والباحثين الى دراستها (٣٦) .

(٣٦) الدراسات الخاصة بمملكة غرناطة كثيرة جدا ومتنوعة ومن الصعب حصرها وتنكي الإشارة الى بعض الكتب التاريخية مثل : ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ، وأعمال ابن الخطيب الأخرى . الطوسي (أحمد محمد محمود) : مشاهد الحضارة في مملكة غرناطة . سبابة (محمد كمال) : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة . العبادي (أحمد مختار) : مملكة غرناطة على عهد ملكها سبب الخامس .

هذا ولقد أسرفت كتب التاريخ والرحلات والجغرافية في وصف
غرناطة وأبراز محاسنها ، فيقول عنها المقرئ « غرناطة من أحسن
بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شيء بها
ويتساقط نهر حدرة ، ويطل عليها الجبل المسمى بشير ، الذي لا يزول
الثلج عنه شتاء وصيفا ، ويجمد عليه حتى يصير كالبحر الصلب ، وفي
أعلاه الأزهار الكثيرة ، وأجانس الأقاويه الرفيعة » (٣٧) .

وينقل المقرئ وصف ابن بطوطة لغرناطة بأنها « قاعدة بلاد
الأندلس ، وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في الدنيا ، وهو مسيرة
أربعين ميلا ، يفترقها نهر شنييل المشهور ، وسواء من الأنهار الكثيرة ،
والبساتين الجليلة ، والجنات والرياضات والقصور ، والكروم محدقة
بها من كل جهة ... » (٣٨) . أما عن الرحالة البحري عبد الباسط ،
فقد زار غرناطة قبل سقوطها بحوالي خمسة وعشرين عاما ، ووصفها
لنا قائلا :

« ورأيت غرناطة ، فإذا بها بلدة نزهة عظيمة ، من أعظم بلاد
الأندلس وهي قاعدة ملك الاسلام بالأندلس ، وتخت السلطنة بها .
غربية الوضع ، حسنة الأبنية ظريفة ، أنيقة ، بديعة الوضع ، بها سائر
أرباب الصنائع ، وهي كدمشق الشام ، وبها المياه الجارية والبساتين
والأجنة والكرم ، وهي مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء ،

-
- Prieto Vivos ; A. : Formacion del R. de Granada. =
 Simonet ; F. : Descripcion del R. de Graada Lafuente
 Alcantra : Historia de Granada.
 Gallego Burin : Los Moriscos del R. de Granada Segun
 el rienado de Guadix.
 Caro Barojs ; A. ; los Moriscos del R. de Grana da Granada.
 Ladero Quesado : Granada Historia de un Pais
 Islamico (1232—1561).

(٣٧) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٣٨) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

وأرباب الفنون والكدالات ، وبها بقيت الشمس ، والآثار العتيقة والأمكنة للزحمة انخ (٣٩) . ويستتارد الرحالة المصري بعد ذلك متحدثا عن علماء غرناطة وشايفها ورجال الأدب والفكر فيها مما يدل على مدى التقدم الثقافي الذي وصلت اليه هذه المملكة على الرغم من انهيارها السياسى والعسكرى والصراع الأسمى الذى أوقعها خريسة سيطرة على يد الملكين الكاثوليكين ، سنة ٨٩٧/٥ ١٤٩٢ م (٤٠) .

بدأ الأزدهار الثقافي فى مملكة غرناطة على عهد نائى لهرانيا أبى عبد الله محمد ، الخب « بالنتية » ، لما اشتهر به من العلم والفقه . ولقد ولد هذا الأمير بغرناطة عام ٨٦٧ - ١٢٢٥ م . ويقول ابن الخديب أنه يؤثر عنه « تنظيم دواوين المملكة ، وتقسيم الضرائب ، وترتيب رسوم الملك والآنقاب على خدمتها . وعرف ببراعته فى السياسة وساسة أفعته ، وتوغره على المزيد من الخلال الفاضلة ، بالاضافة الى العلم ، وممارسة الشعر ، وإيثاره مجالس الأدباء والفقهاء » (٤١) . ومن المصادقات الغربية ، معاصرتة للملك القشتالى ألفونسو العاشر الخب بالعلم . مما قد يوحى بنوع من التأثر فى اتخاذ الأنقاب . وابن قال ابن خلدون انه عرف باسم الفقيه ، لانتقاله طلب العلم أيام أبيه . ولاشتغاله بالفتنة زمانا فى صباه (٤٢) ، وتوفى هذا الأمير عام ٨٧٠ - ١٣٠٢ م .

(٣٩) مملكة غرناطة ، عام ١٤٦٥ ، ١٩٦٦ م ، مذكرات رحالة مصريين .
الاندلس : المجلد الاول : ص ٢١٢ - ٢١٤ .
Levi Della Vite : EL Regno Granata, Nel 1465-1466 ;
Nel Ricorde di un Viaggiatore Egiziano. (al Andalus 1.
1933 : 307.

(٤٠) سواريث غرنانديث : تاريخ اسبانيا (غزو مملكة غرناطة) ، ص ٥٩٦ ٦٠٤ .

(٤١) ابن الخطيب : الاطلة ، ج ١ : ص ٥٦٥ .

سبانية : يوسف الاول : ص ٢٧ .

الطوخى : مظاهر الحصار فى غرناطة ، ص ٦ .

(٤٢) الطوخى : الرسالة المذكورة : ص ٦ .

ولقد عمل هذا السلطان على احضار العلماء من المدن الأندلسية الى غرناطة ، يقول ابن الخطيب عند الحديث عن محمد بن ابراهيم ابن محمد الأوسى (توفي ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) ، أنه من أهل مرسية ، وأنه أقرأ للتعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بنى نصر من مدينة بجاية فانتفع الناس به (٤٣) ، كما أن الفقيه الكبير أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد (المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩م) والذي انتهت اليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ، ورواية الحديث ، حين نشأت بينه وبين المتطب على مائة وخمسة ، أكدتها سعاية ، وكيس منزله في حينة ، واستولت الأيدي على ذخائره وكتبه ، وفوائد تشييده عن سيوخه ، لحق بغرناطة ، آوياً الى كنف سلطانها الأمير أبى عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر ، فأكرم مثواه وعرف حقه (٤٤) .

ويعد هذا من أكبر مظاهر اهتمام الأسرة النصرية بالعلماء والمعلمين حيث أننا نجد جميع أمراء هذه الأسرة يواظفون هذه السياسة ، وساعدهم وزراؤهم في ذلك ، فنجد الوزير ابن الحكيم يهش لقدوم الفقيه محمد بن خميس (المتوفى عام ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م) الى غرناطة في عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م ، ويمت اليه بالرسيلة العلمية واجتذبه بخطبة التلميذ ، واستنزه بتأنيسه وبره ، وأقعده للاقراء بجواره (٤٥) .

ولا شك أن أكبر عناية بالمعلمين والتعلمين قد شهدتها غرناطة على يدي ملكيها الكبيرين يوسف الأول (٤٦) ، ومحمد الخامس (٤٧) ، حيث أجريا الجراية على العلماء والمعلمين وأوليا اليهم وظائف كثيرة ،

(٤٣) ابن الخطيب : الاطاحة ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٤٤) ابن الخطيب : الاطاحة ، ج ١ ، ص ١٨٨ — ١٩٣ .

(٤٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ — ٥٦٢ .

(٤٦) شبابة : يوسف الأول ملك غرناطة .

(٤٧) العبادي : مملكة غرناطة ، على عهد محمد الخامس .

وأوكلا اليهم أعمالا يتقاضون منها جراية ، ثم لكى يقدموا فى نفس الوقت بالتدريس وتعليم الناس ، فالفقيه محمد بن محمد النمرى الضرير (المتوفى ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م) كان حافظا للقرآن أسنادا ، يقوم على العربية خير قيام « نوفى بغرناطة تحت جراية من أمرائها ، لاختصاصه بقراءة القرآن على قبورهم » (٤٨) •

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بنقل الفقيه محمد بن محمد العبدرى من سبنة الى غرناطة ، حيث فعد للاقراء ، الى أن توفى عام ٥٧٥٣ / ١٣٥٢ م (٤٩) •

كما أن ابن الخطيب يقول فى ترجمة محمد بن عبد الولي الرعيني (المتوفى ٥٧٥٠ / ١٣٤٩ م) بأنه « طلب الى التصدر للاقراء ، فأبى لشدة انتباضه فنبت بالباب السلطاني على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك فى شهر شعبان من عام وفاته » (٥٠) •

أما الوزير أبو عبد الله المحروق فقد اختص بالفقيه محمد بن أحمد ابن فتوح بن ثقرال (المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م) ، ورث له بالحمراء جراية وفلده نظر خزانه الكتب السلطانية (٥١) •

وعلى عهد السلطان يوسف الأول شهدت غرناطة حدثا تاريخيا فيما يتعلق بالعملية التعليمية ، أقصد بذلك تأسيس المدرسة النصرية فى غرناطة ، كما أن هناك ما قد يبين تأسيس مدارس أخرى على عهد الملك محمد الخامس • وسوف أتناول هذه النقطة بالتفصيل ، فى الفصل الخاص بالمدارس فى الأندلس •

(٤٨) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٣١ — ٣٣ •

(٤٩) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٧ — ٢٨ •

(٥٠) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٣ — ٣٥ •

(٥١) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٢ — ٢٥ •

ولقد كان لسقوط المدن الأندلسية الكبرى ، قرطبة وبلنسية وأشبيلية ومورسية وغيرها : وهجرة كثير من علمائها إلى غرناطة ، أثره الكبير في ارتفاع المستوى الثقافي لهذه المملكة إلى درجة تعيد إلى الأذهان الفترة التي كانت عليها قرطبة على عهد الحكم المستنصر بالله .

ولقد لعت أسماء كثيرة جدا في المجالات العلمية والأدبية ولا أجد داعيا للإشارة إلى بعضها لأن ذلك قد يوحى بعكس ما أريد ، ولكن من يلقى نظرة متعجلة على مؤلفات ابن الخطيب أو على مؤلفات أبي الوليد بن الأحمر (المتوفي ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) (٥٢) ، وغير ذلك من الكتب يمكنه أن يتدر أهتمام الدولة النصرية بالعلم والعلماء .

وأود أن أشير إلى أن هذه الحركة الفكرية الكبيرة لم تقتصر على مدينة غرناطة ، وإنما شاعتها مدينة مالقة ، ومدينة وادي آسن حيث كان لجلس الاغراء بالمسجد الجامع بمالقة شهرة عالمية كبيرة ، وعاش في المدينة عدد كبير من العلماء اللامعين ، والمعلمين المعروفين .

ويقول روبلس في كتابه عن تاريخ مالقة :

« أن الحركة الأدبية والعلمية في مالقة كانت تتمتع بمستوى عال ومكانة مرموقة خلال الفترة التي أركز فيها هذه الدراسة ، وترداد وضوحا أمامي كلما ركزت انتباهي على مجال من المجالات . لقد وجدت فيها أكاديمية ، وبمساجدها مكاتب تنمو وترداد ، من هبات العلماء » (٥٣) .

(٥٢) انظر مثلا : زمامة (عبد القادر) : أبو الوليد بن الأحمر .
(٥٣) Gullen Robles : Malaga Musulmana, p. 391.

الفصل الثالث

بعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم

في الأندلس

تدخل الدولة في التعليم في الأندلس ، مسألة اختلف حولها الباحثون والدارسون كثيرا باختلاف الفترة الزمنية ، وباختلاف مفهومهم لمعنى تدخل الدولة في التعليم — فهناك من ركز آراءه حول مسألة انشاء المراكز التعليمية ، ومن اعتمد على العملية التدريسية ذاتها ، ومن انطلق في آرائه على نظام التعظيم . وفي كل نقطة من هذه النقاط ، تعارضت الآراء ونباينت ، واختلفت التعبيرات ، ولتحاول أن تلقى نظرة سريعة على هذه الآراء ، لنوضح مدى الفرق في اختلاف وجهات النظر .

ومن الممكن تصنيف هذه الآراء الى مجموعتين ، أولاها تميل الى الرأي القائل بالتدخل المباشر والواضح للدولة في نظام التعليم ، وتشكل هذه المجموعة من عدد لا بأس به من المؤرخين العرب والمتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية من غير العرب ، وينسب هؤلاء الى بنى أمية في الأندلس قيامهم بتأسيس مجمع للعلوم في قرطبة حيث كانوا يعملون على الطريقة الشرقية ، علوم الكلام والفقه ... الخ ، ونستعرض فيما يلي بعض هذه الآراء :

يرى الدكتور عبد الغنى عبود أن الدولة في الاسلام تتدخل في التعليم بوصفها ممثلا للجماعة الاسلامية ، عندما تصق قصورا أو عجز في بعض المجالات أو الاتجاهات (١) .

ويقول الأستاذ أحمد أنور الجندى : «لقد كان الملك الاسلامي ملوئا

(١) عبد الغنى عبود : في التربية الاسلامية ، ص ١١٦ .

بالمدارس والكتليات ، وكانوا يكتفون التلاميذ الفقراء مؤونة دفع أجر التعليم ، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة » (٦) .
ويقول الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة في كتابه عن قصة الأدب في الأندلس « لم يلبث العرب بعد قليل من مقامهم في الأندلس أن بنوا القصور ، وأنشأوا الجامعات ، وأقاموا المكتبات » (٧) .

وفي موضع آخر يصف مدينة قرطبة بأنها « كانت من أشهر مدن الأندلس الاسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن ، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم ، واشتهرت بمبانيها العظيمة ومساجدها التي أشهرها مسجد قرطبة الكبير ، وقد كان من أكثر جامعات العلوم الاسلامية ، تخرج منه العلماء والفلاسفة » (٨) .

ويقول الدكتور غلاب « أن الحكم الثاني كان شديد العناية بمسجد قرطبة الذي كانوا يعمدون طلبته بالآلاف ، وأنه أعلن التسامح الديني الذي أمر به الاسلام ، وأباح حرية الجدل والنقاش في جميع المسائل الحيوية » (٩) .

أما الأستاذ محمد يوسف ، فيرى أن بنى أمية قد قاموا بتأسيس مجمع للعلوم في قرطبة حيث كانوا يعلمون على الطريقة الشرقية علم الكلام والفقه والفلسفة (١٠) . ويميل الى هذا الرأي أيضا المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان (١١) .

أما الدكتور حسين مؤنس ، فإنه يصوغ العلاقة بين الدولة وبين

(٢) أحمد انور الجندي : مجلة دعوة الحق ، العدد ١٠٢٩ ، ص ٤٠ .

(٣) خفاجة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤) خفاجة : نفس المصدر ، ص ٨ .

(٥) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ .

(٦) محمد يوسف مؤنس : بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصور الوسطى ، ص ٨ .

(٧) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثاني ، ص ٥٧ .

الفقهاء على أساس أنها أولا علاقة مصلحة وبحث من جانب الدولة على التأييد الشرعي من جانب الفقهاء (٨) .

ولم يقف الأمر على الباحثين والدارسين العرب فقط ، وإنما شاركهم الرأي عدد من المستشرقين المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية ، ومن هؤلاء مثلا :

يقول انخيل غونثالث بالنسيا : « كان من نتائج سياسة التسامح ، ورعاية الثقافة التي بدأها الحكم المستنصر أن ظهرت المدارس ، واجتمع المستعملون بكل علم من العلوم ، بعضهم إلى بعض » (٩) .

ويتحدث خوسيه انطونيو كوندى عن ذهاب الأميرين هشام وسليمان ابني عبد الرحمن بأنهما كانا يحفلان بعيد ميلاد والدهما ويقدمان هدايا عظيمة إلى الرجال المثقفين الذين يتوافدون على الأكاديمية والتي كانت تحتفل بهذه المناسبة (١٠) .

أما المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفنسال ، فإنه يشير إلى هذه المسألة عند حديثه عن انتشار المذهب المالكي في الأندلس ، قائلا عن مجموعة الفقهاء الذين تتلمذوا على يد مالك بن أنس بأنهم « عند سورتهم إلى وطنهم قاموا بالدعاية في قرطبة وفي المدن الكبرى بالأندلس للمذهب المالكي ، وذلك بالموافقة التصريحة للأميرين هشام والحكم » (١١) .

ويقول نفس المستشرق الفرنسي في موضع آخر « إن هشاما بالإضافة إلى تقواه وامتداد ثقافته ، كان يميل دائما إلى ما يفعله الأساتذة القرطبيون ، وأنذين أتيت لهم فرصة الحج وزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية ، وخلال حكمه فضل على قدر الإمكان ، هؤلاء

(٨) أنظر حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٧-٢٥ .

(٩) غونثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ،

ص ٤٤٨ .

(١٠) كوندى : تاريخ الحكم العربي في إسبانيا ، ص ٥٥ ، ط ١٨٧٤م .

(١١) ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، للنسب الأسباني ،

ج ١ ، ص ٩٨ .

الحجاج من رعاياه ، واهتم اهتماما شخويا بكل ما أحضروه الى أسبانيا من بيانات ومعلومات ، عن تطور العلوم الاسلامية في المشرق » (١٢) .

ولم يقتصر الأمر على الباحثين المتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية فحسب ، ولكنه انتقل أيضا الى بعض مؤرخي العصور الوسطى الأسبان مثل سانشيث البرغوس ، وأجواد وبلايى - وأنقل ما يقوله أجواد وبلايى عن الحكم المستنصر :

« لقد كان الحكم متحررا مع الكتاب والعلماء على عصره ، حمى التعليم وأسس في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية ، أما عن جامعة قرطبة فلقد كانت صاحبة الصدى الشديد والرغبى السلطان فى العالم كله على عهدها ، ففيها علم أبو بكر الروانى القرشى الذى كان يشرح السنة ، وأبو على القالى البغدادى الذى أعطى دروسه فى اللغة والشعر ، وابن القوطية ، ذلك الذى كان موضع تقدير القالى ورأى فيه أنه أكثر علماء الأندلس علما بقواعد العربية ، ولقد كان هناك للعلوم الأخرى أساتذة لا يقلون بريقا ولعانا ، أما غالبية الدارسين ، فلقد كانوا يدرسون الفقه ، أى علم اللاهوت والقانون الاسلامى ، ذلك العلم الذى يمكن دارسه من ارتقاء أعلى المناصب » (١٣) .

وانتقلت هذه الآراء الى الكتب العامة ورددتها بعض من كتب فى تاريخ أسبانيا ، ولا أجد داعيا للاستطراد فيما تقتضيه هذه الكتب عن مدينة قرطبة وعن قصورها الشامى ، ومساجدها العليا ، ومدارسها الشهيرة التى أنجبت أكثر علماء العصر علما ، لقد أسس الحكم فى كل البلاد المدارس المجانية وجعل التعليم العام بطريقة تسمح بالقول بأنه قليلا جدا أو نادرا ما نجد فى الأندلس من لا يعرف القراءة والكتابة » (١٤) .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٩٧ .

(١٣) أجواد وبلايى : تاريخ أسبانيا ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(١٤) أنجيلرا : تاريخ أسبانيا ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

أما المجموعة الأخرى من الباحثين والأساتذة ، فهي التي ترفض رفضاً باتاً أن يكون للدولة دور مباشر في العملية التعليمية ، ومثلها مثل المجموعة الأولى تضم عدداً من الباحثين العرب والمستشرقين على حد سواء ، ولا بد لنا من الوقوف ، لعرض بعض آراء هذه المجموعة ، حتى يمكن أن نتبين مدى الفرق الكبير بين آراء كل منهما .

يقول الدكتور الأهواني عند حديثه عن التعليم الأولى والكتاب :

« يقوم بالتعليم في هذا المكتب معلم ، هو الذي يستأجر الكتاب ، ويتخذ مكاناً للتعليم ، وقد يشترك معلمان أو أكثر في التعليم بالكتاب ، إذا كان عدد الصبيان كثيراً ، ولكن الغالب أنه معلم واحد ، وليس للحاكم سلطان على هذه الكتابات ، فهو لا ينسخها ، ولا يشرف على سير التعليم فيها ، ولا شأن له بها وإنما يفتتح المعلمون الكتاب من تلقاء أنفسهم » (١٥) .

أما الدكتور محمد أسعد طلس فهو يقرر « أن الحكومة لم تكن تشرف في حدر المسلة الإسلامية ، على المعلمين وكتاتيبهم ، وإنما كانت الرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وخلقه » (١٦) .

أما الدكتور أحمد شلبي ، فقد تطرق كثيراً في هذه الحرية ، فيقول ضمن حديثه عن العلاقة بين الحكومة والمدرسين ، أنهم كانوا « يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل — القيام بالتدريس — دون انتظار من يحثهم على الذهاب ، ونال الناس يلتفتون حولهم ، ويأخذون عنهم ، من غير أن تتدخل الحكومات في ذلك ، فقد كان هذا العمل غير داخل في دائرة سلطانها ، فما دام المعلم غير محين منها ، وما دام لا ينتقاض من الدولة على عمله أجراً ، فقد ترك له أن يدرس ما شاء وقتما شاء » (١٧) .

(١٥) أحمد مؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ، ص ٦٤ .

(١٦) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٧٠ .

(١٧) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٢١٣ .

أما عن الأساتذة الأسبان اغناثيو باورو^(١٨) ، وغاليرمو غوثالبيس^(١٩) ، وانطونيو بايسترو^(٢٠) ، فانهم يذهبون الى الحرية المطلقة ، وحيث أن ثلاثتهم يعتمدون كلياً على آراء المستشرق الأسباني الكبير خوليان ريبيرا ، فأركز على آرائه باعتباره أفضل من تتاول تاريخ التعليم في الأندلس بالدراسة والبحث — يقول خوليان ريبيرا :

« ماذا علينا أن نقول لكي ننفي التأكيد بأن هشام الأول أنشأ مدرسة حسب ما يقول « كوندى » وما يردده الكثيرون ممن تابعوه ونقلوا منه ، أو أن بنى أمية أسسوا أكاديمية تعلم فيها الفنون والعلوم ، على ما يقول « دوجات » . أنى لا يمكننى الاجابة بطريقة أخرى غير القول بأننا لم نجد آثاراً أو بقايا لما يقال في أى مدونة جديدة بالاحترام ، بل على العكس ، فإن كل المعلمين في الأزمنة الباقية لم يكونوا ملحقين بأية منظمة تعليمية ، وأن تعليمهم كان خاصاً بصورة محضة . أقصد أن أقول ، ان المعلمين والطلبة ، كانوا مستقلين تماماً عن السلطة العامة » ^(٢١) .

وإذا عاد المستشرق الأسباني ، ليتأمل في بعض أعمال الحكم الثانى ، واجدا فيها بعض الشك ، فإنه يعود وينفى عنه تماماً أى تدخل في التعليم ، وأنقل ما يقول :

« حقق الحكم الثانى بعض الأعمال التى يمكن أن تفسح مجالاً للتمعن في هذه المسألة — ويسرد هذه الأعمال ثم يحكم عليها بعد ذلك

(١٨) اغناثيو باورو : عن تاريخ التعليم الأسباني الاسلامى في العصور الوسطى (محاضرة باللغة الأسبانية ، نشرت ١٩٣٤) .
(١٩) غاليرمو غوثالبيس :

La Enseñanza en la España Musulmana

(٢٠) بايستري (انطونيو) : تاريخ اسبانيا وتأثيرها على التاريخ العالمى ، ص ١٥٠ .

Bailesteros : Ho de Espana y su influencia sobre la
Ho Universal. p. 150.

(٢١) خوليان ريبيرا : تاريخ التعليم بين المسلمين الأسبان ،
ص ١١ — ١٢ .

بمثال : « ولكن النظرة المتمثلة تبين لنا أن هذه الأعمال لا تكفي لكي نعطينا الاحساس بأن السلطان كان مفكفا ، كمسئول عن الدولة ، بتعليم وتنشيط رعاياه » (٢٢) .

ويصدر الأستاذ حكما فاصلا تماما في هذا الأمر حين يقولنا صراحة : من المناسب منذ اللحظة الأولى تأكيد ما ساد بصفة رئيسية خلال هذه الفترة ، وبالتالي في كل الموضوعات التي تدرسها في هذا المجال ، ألا وهو وضوح عدم تدخل الدولة المباشر في شؤون التعليم (٢٣) . ويستطرد إلى أن يصل إلى القول : باختصار شديد ، لقد جرت أيام حكم العرب لاسبانيا دون أن يبدو تدخل مباشر للمسلطة العامة في التعليم -- ما عدا في نهيات هذا الحكم (٢٤) .

إلى أين نمضي بين تلك الآراء المتضاربة تماما ؟ لا شك أن لكل من هذه الآراء وجهة نظر خاصة يعتمد عليها ، وينطلق منها في إصدار أحكامه وآرائه . وحتى يمكن لنا أن ندخل الأمر تحليلًا علميًا ، لا بد لنا أيضا من وضع تعريف محدد لمعنى تدخل الدولة في التعليم ، حتى يمكن أن ننطلق منه لعرض ما نراه مناسبًا ، ولا بد من وضع قواعد محددة نستوذي بها طريقنا في التعرض للمشكلة غامضة تتضارب حولها الآراء . تضاربا حقيقيا ، وما أريد قوله هو : ماذا نقصد بتدخل الدولة في التعليم ؟

١ — هل نقصد بذلك قيام الدولة بإنشاء هيئة تنظيمية تتولى الإشراف على المعلمين وأماكن التعليم والطلبة ... الخ ؟

٢ — هل نقصد قيام الدولة ببناء المدارس والانفاق عليها ؟

(٢٢) نفس المصدر ، ص ١٢ .

(٢٣) نفس المصدر ، ص ١١ .

(٢٤) نفس المصدر ، ص ٢١ - ٢٢ .

٣ - هل نقصد تولى الدولة وضع المنهج والمحتوى التعليمي وتوجيهه في إطار ينفذ سياسة الدولة ؟ *

٤ - أم نقصد اتفاق الدولة على المعلمين ، واعطاءهم مرتبات شهرية ؟ *

٥ - أم نقصد قيام الدولة بذلك كله ؟ *

المشكلة الحقيقية التي تواجه الباحث في هذا المجال هي محاولات تطبيق مفاهيم ومعايير معاصرة على فترة زمنية يفصل بيننا وبينها أكثر من ألف عام في بعض فتراتنا ، وأقل من خمسمائة عام في بعضها الآخر ، ونتيجة لاتساع المفهوم الخاص بتدخل الدولة أو مدى الحرية ، فإنني أرى أن للجانب الذي يقول بعدم وجود تدخل للدولة في التعليم بعض الحق ، إذا كان قصدهم عدم وجود هيئة رسمية تحمل اسم الاشراف على التعليم *

كما أن للدكتور ريبيرا الحق في الاعتماد على ابن سعيد الفاضل بأن أهل الأندلس لم يكن عندهم مدارس ، تمهاتها الدولة *

أننى شخصيا أعتقد بممارسة الدولة لنوع من التدخل في التعليم في الأندلس وأن ذلك التدخل قد شمل كافة النقاط التي بينتها ، وإن كان ذلك يتباين من فترة الى أخرى ومن عصر الى عصر ، ولنستعرض معا بعض ما يثبت هذا الرأي ، على الأقل من وجهة نظري *

لقد أشرت في بداية هذا الباب الى التكليف الديني الخاص بتحمل الحاكم مسئولية تعليم الناس الدين الجديد ، وخاصة في البلاد المفتوحة ، ودور الولاة وأمرأء بنى أمية في نشر الدين واللغة العربية ، كما بينت الأهمية في عبور عدد من التابعين الى الأندلس ، وكيف أن مهمتهم الرئيسية هي تعليم البربر وأهل الأندلس ، قواعد الدين ، وأصول اللغة العربية ، كما أنني استعرضت الاهتمام الذي بذله حكام

الأندلس بالعلم والعلماء ، وأثر ذلك على تطور المستوى الثقافي ووصر
الى درجة عالية ، مبينا مظاهر اهتمامهم نقطة نقطة .

أولا - التدخل في المنهج التعليمي :

١ - ينقل لنا ابن القوطية (٢٥) (القرن الرابع الهجري / العاشر
الميلادي) ، نصا لطيفا ، ولكنه يحمل معنى كبيرا وذلك عند حديثه عن
الحميل بن حاتم فيقول « ومن أخبار الحميل ، أنه خطر يوما بمؤدب
يؤدب الصبيان وهو يقرأ « تلك الأيام نداولها بين الناس » (٢٦) ،
فقال الحميل نداولها بين العرب ، فقال المؤدب : بين الناس ، فقال
الحميل : وهكذا نزلت الآية ؟ قال : نعم هكذا نزلت . قال الحميل :
والله انى أرى هذا الأمر سيشركننا فيه العبيد والسفال والأراذل » (٢٧) .

ويرى المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا في هذا الموقف الفرق
بين رجل السياسة ورجل الدين ، فالأول يسعى لتركيز السلطة في يده
عن طريق السيف أو غيره بينما الثانى بما يمتلكه من حماس دينى
يسمى لنشر الدين بين الإسبان الجدد (٢٨) ، لكن النظرة المتأنية لهذا
النص قد توحى بما هو أكثر من ذلك ، أولا وقبل كل شئ ، المشك في
صحة هذا الخبر ، واحتمال أنه خبر موضوع للتهجم على العرب ونقدهم ،
وخاصة أن كاتبه « ابن القوطية » من أصل أسباني ، وأن المولدين كانوا
قد أحسوا بشخصيتهم ونفوذهم ، وأنهم قد قاموا بأكبر الثورات
ضد قرطبة على يد عمرو بن حفصون . وعوامل المشك هي : أولا أن
الفترة الزمنية الفاصلة بين الحديث وروايه ، حوالى مائتين عام تقريبا ،

(٢٥) ابن القوطية : علماء الأندلس - ج ٢ ، ص ٧٦ .

الحميدى : جذوة القتبس ، ص ٣٦٩ .

الضير : نكتة الملتبس ، ص ١١٢ .

الحصى : التاريخ الأندلسي ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢٦) القرآن الكريم : السورة الثالثة ، الآية ١٣٩ .

(٢٧) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٢٨) ريبيرا : التعليم بين الأسبان المسلمين ، ص ٢٢ .

وهي فترة طويلة نسبيا ان لم يكن الخبر مدونا • وثانيا ، ذلك التصادف الغريب بين مرور الحميل وقراءة هذه الآية بالذات •

من ناحية أخرى هناك من العوامل ما يدفع الى قبول هذا النص منها مثلا أن ابن القوطية على الرغم من أصله الأسباني ، إلا أنه لا يتطرق أى شك فى إيمانه ، ولقد احتل مكانه بارزة على عهد عبد الرحمن الناصر بل كان أفضل الأندلسيين علما باللغة العربية وذلك بشهادة أبى على القالى (٣٩) ، كما أن الفترة التى عاش فيها ، عصر عبد الرحمن الناصر لم تكن تسمح له بإيراد شىء ضد العرب ، ان لم يكن له أصل من الحقيقة ، علاوة على ذلك فقد قبلها وسجلها كافة المؤرخين سواء من العرب أم من غيرهم •

وإذا قبلنا هذه الرواية ، مثلما قبلها الجميع ، فاننى أستشف منها معانى كثيرة منها : وجود مكان لتعليم الأطفال ، وأن هذا المكان يمكن المرور عليه ، ورؤيته ، وسماع ما يدور فيه • ومنها أيضا أن المسئولين كانوا ينتقدون هذه الأماكن التعليمية ليطلعوا على ما يقوم به المؤدب ، ومنها ما هو أكثر احتمالا ، وهو قيام هؤلاء المسئولين بمحاولة فرض منهج تعليمي محدد يتماشى وسياسة هؤلاء الحكام •

٢ - ملاحظة أخرى ينقلها البنا ابن القوطية أيضا ، تبدو أكثر وضوحا ودلالة ، عند حديثه عن القاضي أمية بن عيسى ، أحد وزراء الأمير محمد الذى حكم خلال الفترة من عام ٢٣٨ الى ٢٧٣ هـ (١٥٢-١٨٦ م) ، يقول : لقد خطر يوما بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة (٣٠) ، ورهائن بنى قيس بنشدون شعر عنترة (٣١) ، فقال لبعض الأعوان : اثنتى بالمؤدب ، فلما نزل الى فراش المدينة ، وأتاه المؤدب ، قال له :

(٢٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان - ج ٤ ، ص ٤ .
(٣٠) عن دار الرهائن وباب القنطرة : انظر غارثيا غومث : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، الأندلس - المجلد ٣٠ - ١٩٦٥ ، و ٣٤٦ .
(٣١) الشاعر الجاهلي المشهور عنترة بن شداد ، شاعر قبيلة سبيس .

لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك ، تعتمد الى شياطين نجى ، يجم الخلفاء
فترويههم الشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ، كف عن هذا ،
ولا تروهم الا خمريات الحسن بن مائى وشبهها من الأهزال (٣) .

وفى هذا النص نجد أيضا أن معلما تعينه الدولة ، ويهتم - حتى
ولو بطريقة غير مباشرة - بوضع منهج خاص يتلاءم وظروفهم
الخاصة .

٣ - قبول المذهب المالكى كمذهب رسمى للدولة ، مما صبح
التعليم كله خلال كافة مراحل بصيغة هذا المذهب ، وإذا كان الخائف
بين الباحثين والمؤرخين حول اسم أول أمير أندلسى ، قام بفرض هذا
المذهب ، وإذا كانوا قد انقسموا فى أقوالهم بأنه الأمير هشام الأول
أو الحكم الربضى ، أو أنه عبد الرحمن الأوسط ، فليس ذلك مما يعينى
كثيرا ، لكن المهم أن هذا المذهب قد عرف فى الأندلس ، على أنه المذهب
الرسمى الوحيد (٣) ، وأنه لقى مساندة واضحة من الأمراء ، وهى
بالتالى مساندة لنوع معين من التعليم فى بلادهم ، وقصرهم الوظائف
العامة على من يتبع ذلك النوع من التعليم ، وما هو أكثر دلالة قيامهم
بمطاردة ومطاردة كل من يخالف هذا المذهب ، مثلما هو الحال فى
مطاردتهم لكل المذاهب الدينية الأخرى كالشيعية والمعتزلة والخوارج
... الخ ، وكذلك مقاومتهم الشديدة والقاسية أحيانا لمن يتعاطى
الفلسفة ، مثلما حدث مع ابن مسرة القرطبى ، وليس الأمر كما يحاول أن
يحوره بعض الباحثين ، على أنه استرضاء للعامة ، وخضوع للفقهاء ،
لأننا نرى أن الخلفاء يتدخلون لحماية بعض العلماء على الرغم من
معارضة الفقهاء لهم ، مثلما حدث مع بقى بن مخلد ومحمد بن عبد
السلام الأحنفى وغيرهم .

(٣٢) ابن قرطبة : نفس المصدر ، ص ٩٤ .

(٣٣) بن عبود (محمد) : التاريخ السياسى والاجتماعى لآشيبيلية
على عهد بنى عباد (نظام آشيبيلية القضاى) - رسالة دكتوراه -
لم تطبع بعد .

٤ - شهد العصر المرابطي والموحدي تدخلًا سافرًا لفرض مناهج تعليمية معينة ، تتناسب والعقيدة التي تقوم عليها الدولة ، فبينما نجد أن المرابطين يهتمون بأهل الفقه والدين ، حتى بلغ الفقهاء في أيامهم مبلغًا عظيمًا ، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ، ويصف المراكشي هذه الحالة بقوله : فعظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثر لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم^(٣٤) ، نجد أن الموحدين يميلون إلى المذهب الظاهري ، « ويأمرون بقطع علم الفروع ، وأن الأمير أبا يوسف يحقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » ، « تتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة » ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات المشرة في الصلاة ، وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يمليه على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع ، في جميع المغرب ، وحفظه الناس ، من العوام والخواص ، فكان يحفلون بحفظه للجليل السني ، من الكسا والأموال ، وكان قصده في الجملة ، هو محو مذهب مالك ، وإزالة من المغرب مرة واحدة ، وجعل الناس على الظاهر من القرآن والحديث^(٣٥) ، ويؤكد ابن فرحون ذلك حين يترجم لحمد بن أبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأشبيلي (المتوفى ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) فيقول بأنه « شيخ المالكية ، وكان من كبار المتعصبين للمذهب ، فأودى من جهة بني عبد المؤمن ، ولما أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر ، صنف كتاب « المعلى في الرد على المعلى » (لابن حزم)^(٣٦) » .

وبينما نجد أن المرابطين يحاربون محاربة شديدة كل من له صلة

(٣٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٣ .
عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٧١ .
(٣٥) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٠٠ .

٤٠٢ .
عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢٠٣ .
(٣٦) ابن فرحون : الديباج - ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

يعلم الكلام ، وأن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧هـ / ١١٠٧ - ١١٤٣م) قد « استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله وكان يكتب عنه في كل وقت للبلاد بالتشديد في نيل الخوف في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب ، أمر أمير المسلمين بحرقها ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك » (٣٧) ، نجد أن الفلسفة تزدهر على عهد الموحدين ، وأنه قد ظهر على أيامهم عدد من الفلاسفة ، مثل أبي بكر محمد بن طفيل (المتوفى ٥٨١هـ / ١١٨٥م) وأبي الوليد محمد بن رشد (المتوفى ٥٨٥هـ / ١١٨٩م) ، ولقد كان أمير المؤمنين أبو يعقوب (٨٥٨ - ٥٨٠هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤م) شديد الشغف بابن طفيل إلى درجة أن ابن طفيل كان يقيم في القصر أياما ليلا ونهارا لا يظهر ، ويقول المراكشي : ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار ، وينبهه عليهم ، ويخصه على أكرامهم ، والتنويه بهم ، وهو الذي نبهه على أبي الوليد محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ، وبه عندهم (٣٨) .

ثانياً - التدخل في شؤون المسلمين :

في هذا المجال ، أخذ تدخل الدولة عدة أشكال منها : -

١ - نقل المسلمين من القرى والمدن الإقليمية إلى العاصمة لكي يقوموا بالتدريس بها ، وبين أيدينا حالات كثيرة جدا ، لا أجد داعيا لذكرها لتوفى الاطالة - ومن أمثلتهم ، على سبيل المثال :

محمد بن مروان بن زريق من أهل بطلبوس كان « شيخا عافيا حليما وسيما ، وكان تاجرا ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، رحمه الله ،

(٣٧) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٥ .

ابن النطان : نظم الحمان ، ص ١٤ - ١٥ .

(٣٨) أنظر اهتمام هذا الخليفة الموحدي بالفلسفة في :

المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٧ - ٣٥٤ .

وكتب عنه « (٢٩) » .

محمد بن فرج بن سيعون النحلى (٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) ، من أهل بجانة استقدمه الحكم المستنصر الى قرطبة فسمع منه غير واحد (٤٠) .

وهبة بن مسرة بن مفرح الحجارى (توفى ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، استقدم الى قرطبة بكتبه ، وأخرجت اليه أصول بن وضاح التى سمع فيها فسمعت عليه وسمع منه علم كثير ثم انصرف الى بلده (٤١) .

واستمرت حركة نقل المعلمين من القرى الى العاصمة ، على مدار فترة الوجود الاسلامى فى الأندلس ، ونجد أمثلة كثيرة خلال العصر الناصرى بغرناطة وخاصة فترة الأمير محمد الفقيه ثم عهد أبى الحجاج يوسف وابنه محمد الغنى بالله ، وتكفى هنا الإشارة الى :

محمد بن ابراهيم بن محمد الأوسى (٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) ، من أهل مرسية ، أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر ، من مدينة بجاية ، فافتتح الناس به (٤٢) .

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى الفيحاضى (المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م) كان أوحده زمانه علما وتخالفا وتواضعا وتفننا ، ورد غرناطة مستدعى عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، وقعد بمسجدها الأعظم ، يقرئ فنونا من العلم ، من قراءات وفقه وعربية وأدب (٤٣) .

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بمجهود كبير فى البحث عن العلماء

(٣٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٥٤ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٤١) ابن زرعون : الديباج — ج ٢ ، ص ٣٥ .

جذوة القتبس ، ص ٣٢٨ .

(٤٢) ابن الخطيب : الإحاطة — ج ٢ : ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٤٣) المقبرى : نفع الطيب — ج ٨ ، ص ٢٢ .

والفتية عليهم ونقلهم الى غرناطة^(٤٤) ، يقول ابن الخطيب عند ترجمته لأبى جعفر أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن صفوان القيسى :

« الى أن نظرت في أمور الملك ، فانتشلت من مهواه ، ودلت البر على مثواه ، وأسئيت له الجراية ، ونشرت من تعظيمه الراية »^(٤٥) .

ويقول عند ترجمته لمحمد بن الولي الرعيني (المتوفى ٥٧٥٠ / ١١٣٤٩م) ، « بأنه طلب للتصدير للاقراء فأبى لشدة انتباهه فنبهت بالباب السلطاني على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك في شهر شعبان من عام وفاته »^(٤٦) .

ويقول ابن الخطيب في رسالة على لسان سلطانه انه كان « يندب الناس الى تعليم القرآن لحبيانهم ، فذلك أصل أديانهم »^(٤٧) .

ومما يدل على أن الاقراء في الجامع كان يتم بمشاوره الخليفة ، ان لم يكن بأمر مباشر منه ما يرويه القاضي عياض ، نقلا عن ابن عبد البر ، في ترجمته لأحمد بن خالد (المتوفى ٥٣٣٢ / ٩٣٤م) : « من أنه كان يقعد للناس في مجلسه حيث انتهى به المجلس ولا يتنسم » وعزم عليه أخرا في الانتقال الى الجامع بأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بد ، وعمارته ، بنشر العلم ، بعد موت محمد بن لبابة (٥٣١٤ / ٩٢٦م) ، فأجاب الى ذلك بعد اباية شديدة »^(٤٨) .

وما يروى عن سعيد بن عمير بن عبد الرحمن (المتوفى ٣٠١ هـ / ٩١٣م) « من أنه كان يسكن بلاط مغيب ، فنقله الأمير عبدالله الى المدينة

(٤٤) انظر : الاحاطة — ج ٢ ، ص ٢٧ و ص ٣٣ — ٣٥ .

(٤٥) ابن الخطيب : الكتبة الكامنة ، ص ٢١٦ .

(٤٦) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٣٣ — ٣٥ .

(٤٧) المقبرى : نفع الطيب — ج ٩ ، ص ١١ .

(٤٨) البهيمى : ترتيب المدارك — ج ٥ ، ص ١٧٧ .

الحميدى : جذوة النفس ، ص ١١٣ .

بغرب الجامع (١٦) .

٢ - أجز المطين ، وفي هذا المجال فإن الصورة قد أخذت أشكالاً متعددة ، فبينما كان عبد الرحمن الثالث يمنع جوائزهم للمعلمين نجد أن المستنصر بالله قد أوقف حوانيت السراجين للاتفاق على معلمى الكتاتيب التى أنشأها بقرطبة ، ولدينا نص صريح على دفع مرتبات للمدرسين أورده الضبى فى كتابه بغية المنتس عند ترجمته ليحيى بن بقى المعروف بالسلوى (توفى بمرسية سنة ٥٦٣ / ١١٦٨ م) ، حيث يقول عنه :

« الواعظ ، الفقيه ، عارف بالتفسير ، أديب ، طيب .. »
بمرسية أعواماً جمّة يعظ الناس ، ولم يكن يأخذ شيئاً من أحد ، كان الأمير بمرسية محمد بن سعد (٥٤٤ / ١١٤٧ م) قد جعل له مرتباً ثم قطع عنه ، فاشتغل بالطب ، وظهر فيه ، فكان يعين نفسه مما يعود عليه منه ، ولا يسأل أحداً شيئاً » (٥٠) .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال ما يقال عن الأمير المرابطى يوسف بن تاشفين من أنه « كان يسير فى أعماله فيفتقد أحوال رعيته فى كل سنة » وكان محباً للفقه والعلماء والصلحاء ، مغرباً لهم ، صادراً عن رأيهم مكرماً لهم ، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال حياته » (٥١) .

أما عن عبد المؤمن بن على - أول خليفة موحدى - فلقد كان مؤثراً لأهل العلم محباً لهم ، محسناً إليهم ، يستند عليهم من البلاد الى السكون عنده ، والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم ، والاعظام لهم » (٥٢) .

(٤٩) ابن الفرضى : طباء الاندلس ، ص ١٦٣ .

الحيدى : جذوة الفتى ، ص ٢١٣ .

(٥٠) الضبى : بغية المنتس ، ص ٤٩٨ .

(٥١) ابن أبى زرع : روض الترطاس ، ص ٣٨ .

(٥٢) الكراكشى : المعجب ، ص ٢٩٣ .

وهناك مظهر آخر من مظاهر حصول المعلمين على الأجر ، ألا وهي تعيينهم في وظائف معينة ، وأكثر هذه الوظائف كانت العمل في أحد المساجد أما خطيباً أو مقرأً أو أئمة ، وإبنى على يقين من أن أسناد هذه الوظائف كان يهدف في الدرجة الأولى ، إلى إعطائه الفرصة للقيام بالتعليم في هذا المكان ، علاوة على أن كثيراً من وظائف الدولة كانت تسند إلى العلماء والفقهاء وغيرهم من رجال العلم ، ونستدل على ذلك بما تنقله لنا كتب التراجم — مثلاً :

خلف بن رزق الأموي المقرئ ، من أهل قرطبة (المتوفى ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) ، كان إمام مسجد الزجاجين بقرطبة ، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وكان يقرئ القرآن ، ويعلم العربية ، وكان حسن النطقين ، جيد التعليم (٥٢) .

إبراهيم بن محمد بن علي ، أصله من جزيرة طريف ، ونشأ بفغرناطة ولى الخطابة والامامة بجامعها سنة (٥١٦هـ / ١٣١٧م) ، وجمع بين القراءة والتدريس فكان مقرأً للقرآن ، مبرزاً في تجويد ، مدرساً للعربية والفقه ، أخذاً في الأدب ، متكلماً في التفسير ، ظريف الخط (٥٣) .

وهناك من النصوص الكثيرة ما يؤكد أن أسناد مثل هذه الوظائف كان يرجع إلى شخصيات رئيسية في الدولة ، ان لم يكن إلى الخليفة نفسه — يقول ابن الأبار نقلاً عن القاضي نذير بن وهب بن نذير الفهري ، أنه : كان بشتنمية (٥٤) ، معلم كتاب يؤدبهم ، ويؤم في مسجدين : أحدهما يصلّي فيه نهاراً والثاني ليلاً ، فكتب إلى الحاجب أبي هروان

(٥٢) ابن بشكوال : الصلاة ، ص ١٦٩ .

(٥٤) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٥٥) أورد الأستاذ عنان بأنها شتمرية الشرق أو شتمرية بني رزين

انظر ص ٧ ، في كتابه « طبوغرافية عربية إسبانية » ، وانظر تطابق حسين

مؤنس ، على ابن الأبار : الحلة السراء — ج ٢ ، ص ١٠٦ .

عبد الملك (٤٩٦هـ / ١١٠٣م) (٥٦) يسأله التقديم في المسجد الجامع
للزيارة في الدولة مع سائر الأئمة ، فوقع له في مكتوبه :

أيظيق تأديبا وعقد امامة

في مسجدين وجامع أنساك

أثبت على احدى المراتب لا ترد

فمن الزيادة يتقى النقصان (٥٧)

بالإضافة الى هذه المظاهر كلها من تدخل في شؤون المعلمين فان
كتب التاريخ قد حفظت لنا نصا قيما جدا يبين لنا تدخل الأمراء في بعض
النواحي الشخصية جدامن حياة المعلمين ، ومن أمثلتها ما يحكى عن حبيب
بن دحون (توفى في سنة ٣٠٠هـ / ٨١٥ - ٨١٦م) ، من أنه كان فقيها
فاضلا ، قدم الأندلس بعلم كثير ، فذهب الى شره ، فكان يتحلق اليه
في المسجد الجامع بقرطبة ، وهو يلبس الوشى الهاشمي (٥٨) ، وما سأله ،
فتكاثر الناس عليه ، فكره الأمير عبد الرحمن ذلك ، وأوصى اليه بترك
التحلق (٥٩) .

ثالثا - الاعتراف على أماكن التعليم وعلى انتظامه :

في هذا المجال أيضا تعددت مظاهر تدخل الدولة في التعليم ويمكن
حصرها في عدة نقاط منها :

١ - زيارة الأماكن التعليمية ، ولقد بقيت الإشارة الى زيارة
الصميل لمؤدب يعلم الصبيان ، وزيارة القاضي أمة بن عيسى لدار

(٥٦) انظر عن أبي مروان : عبد الله جمال ، تعليقات رسالته
للدكتوراد ، التطبيق رقم ١٢٩ ، ص ٤٠ .

(٥٧) ابن الأبار : الحلة السراء - ج ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٤ .

(٥٨) يقول الدكتور محمود على مكى ، أنه كان نوعا من الخز الثمين .

(٥٩) ابن حبان : المغتصب (تحقيق مكى) ، ص ٩٤ - ٩٦ .

الرهائن في ساعة من ساعات تعليم هؤلاء الصبيان ولدينا زيارات أخرى كثيرة قام بها رجال مسئولون في الدولة للمعلمين أثناء قيامهم بالتعليم، فقد قام الوزير الشهير هاشم بن عبد العزيز بزيارة الفقيه وهب ابن عبد الأعلى في مجلس علمه (٦٠) ، والخليفة الحكم المستنصر بالله قد قام بزيارة الفقيه أبي الحسن الأنطاكي ، وعين له الأنطاكي بعض من يقرأ القرآن أثناء هذه الزيارة (٦١) . وعلى عهد الموحدين كان الخليفة يحضر مجالس التعليم بنفسه ، ويقوم بتشجيع الحاضرين ومساعدتهم (٦٢) .

يضاف الى ذلك المناظرات العلمية ، والمجالس التي كان يعقدها الخلفاء والأمراء ، وسوف أتناول دور هذه في العملية التعليمية في مجال منفصل .

٢ - دور القضاة في التدخل في بعض مظاهر العملية التعليمية ،
فهناك شبه اجماع من جميع من تناولوا العملية التعليمية في الأندلس ،
أو كتبوا عنها بعض الفصول ، على أن « الكتاتيب » ، أو ان شئت ،
المدارس الأولية — كانت خاضعة نظريا لاشراف المحتسب (٦٣) .

وان كان ما أثار انتباهي هو الدور الذي كان يلعبه القضاة حيث
توقفت طويلا أمام ظاهرة تردد أسمائهم مرتبطة ببعض المسائل الخاصة
بالتعليم ، وتدخلهم في بعض شئوننا ، والمشكلة بالنسبة لي ، التي صعبت
على حلها أو الوصول الى رأي نهائي فيها هي ، هل كان القضاة يقومون

(٦٠) ابن الأبار : تكملة الصلة — ج ٢ ، ص ٤٢٠ ، مدريد ١٨٨٠ .

(٦١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٦٢) انظر النص الطويلة الواردة في المعجب ، ص ٣٦٩ ، مع هلال

ابن سعد بن مردنيش .

(٦٣) مكي (الطاهر أحمد) : دراسات عن ابن حزم وكتابه « طوق

الحمامة » ، ص ٥٢ .

دوسى القبائل : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ،

ص ٢٧ ، ٩٧ -

ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .

ببعض هذه التصرفات بصفة شخصية أم بصفتهم الوظيفية ؟ ، فالقاضي أمية بن عيسى هو الذى تدخل لدى معظم الزهائن ، ليوصيه بعدم تعليمهم شعر عنتره ، وأن يعلمهم أنشعار الحسن بن هانى ، وصاحب السوق على عهد الأمير محمد هو الذى تولى أيضا محاسبة الفقيه محمد بن عبدالله الخننى ، وصاحب المدينة على عهد عبد الرحمن الناصر هو الذى طارد غرقه ابن مسرة ، وصاحب المدينة هو الذى طرد ابن حزم ومسعود بن مقلت ، ومنعهم من التدريس فى الجامع ، والقاضى ابن ذكوان على عهد المنصور بن أبى عامر هو الذى نوه بعلى بن أبى طالب (المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) ، وأجلسه فى الجامع ، فنشر علمه وعلا ذكره ، ورحل الناس اليه من كل قطر وولى الخطبة والشورى والصلاة الى أن قعد عنها (٦٥) ، والمعلم أبو جعفر الحميرى المؤدب (المتوفى ٦١٠هـ / ١٢٢٣م) ، حينما هجاه أحد طلبته شعرا « أنهى خبره الى القاضى أبى الوليد بن رشد ، فأوجسه ضربا » (٦٦) ، ومحمد بن عياض بن محمد بن عياض (٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) « كان محبا للعلم مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ، ليجيب اليهم العلم والتمسك به » (٦٦) ، وما هو أكثر من ذلك أن عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى كان فى آخر أمره قد عزم على الحج ثانى مرة ، فأرسل اليه القاضى زيد بن الحشا ، وقال له : « قد قمت بالفرض ، فهذه المرة الثانية هي نافلة ، والذى أنت فيه الآن أوكد من فمئنه من الخروج حرصا على وجوده فى طليطة معلما ومهذبا للناس » (٦٧) .

رابعا - استقبال المعلمين المشرقين فى الأندلس :

فى هذا المجال فإن هناك اجماعا تقريبا ، على دور الدولة والخلفاء ،

-
- (٦٤) ابن فرحون : الديباج المذهب - ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
 (٦٥) المراكشى : المعجب ، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ، والنديمة ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .
 (٦٦) ابن فرحون : الديباج - ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
 (٦٧) أرسلان (شكيب) : الحلال السندسية - ج ٢ ، ص ١٥ .

في الترحيب بالعلماء المشاركة الذين هاجروا الى الأندلس ، ولقد استمرت هذه الحركة ، منذ بداية الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، والى قرب سقوط غرناطة ، ولقد قام هؤلاء العلماء بالتعليم في المساجد الجامعة في قرطبة والزهاء والزاهرة ، وغيرها من مساجد الأندلس ، ونفقوا من الخلفاء والأمراء أكبر رعاية ممكنة ، ولعب المستنصر بالله في هذا المجال دورا كبيرا *

وفي مقابل وصول العلماء المشاركة الى الأندلس ، فان سماح حكام الأندلس برحلات الأندلسيين الى المشرق على الرغم من العداء السياسي الكبير الموجود بين الأمويين هنا والعباسيين هناك ، يعتبر دليلا آخر من دلائل التدخل غير المباشر في العملية التعليمية ، لأن السماح بالرحلة وإكرام العلماء بعد العودة ، واسناد الوظائف اليهم ، قد شجع من هذه الرحلات ، وسمح بنقل علوم وكتب المشاركة الى الأندلس بأسرع ما يكون *

خامسا - بناء الأماكن التعليمية :

احتل بناء المساجد المقام الأول في هذا المجال ، وليس من شك في أن بناء المساجد لم يكن يهدف في الدرجة الأولى الى ايجاد مكان للتعليم ، بقدر ما هو مكان للعبادة ، لكن المسجد كان من جانب آخر ، أكبر مؤسسة تعليمية في الإسلام ، وسوف أتناول دور المسجد تفصيلا في مجال آخر ، ويهمنى التأكيد على أن قيام الحكام في الأندلس ببناء المساجد والتشجيع على بنائها ، قد دفع بالتعليم في هذه المنطقة ، خطوات واسعة الى الأمام *

ولم يقتصر بناء الأماكن التعليمية على المساجد فحسب ، بل قام الحكم المستنصر ببناء سبعة وعشرين مكتبا لتعليم الأطفال ، وجعل الموحدون عرائش بجوار القصر يقيم بها الأتشيخ والكتبة ، وبنيت المدارس ، ولسوف أتناول المدرسة في الأندلس ضمن باب المؤسسات التعليمية *

وأختتم هذا الحديث عن دلائل تدخل الدولة في التعليم ، بالإشارة إلى مسألة دواوين العطاء ، التي كان يسجل فيها القادمون إلى الأندلس مثلما حدث مع محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله (المتوفى ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) ، الذي وصل إلى الأندلس سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) ، فأمر المستنصر بالله بإزالته ، وتوسخ له في العطاء ، وأثبتته في ديوان قریش (٣٨) ، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم ، وصل إلى الأندلس ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م فأكرمه أمير المؤمنين ، وأمر بإجراء النزل عليه (٣٩) . ومحمد بن العباس بن يحيى (المتوفى ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ م) ، قدم الأندلس على أمير المؤمنين المستنصر بالله ، فكان يجري عليه النزل مع الأضياف (٤٠) .

وأنتنى آمل في دراسة خاصة عن نواحي التوزيع المعتمدة في هذه الدواوين ، تكشف بوضوح أكثر ، عن دور هذه الدواوين ، في تقديم العطاء للمعلمين وغيرهم .

(٦٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٦٩) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

(٧٠) نفس المصدر ، ص ١١٤ — ١١٥ .

الباب الثاني

المراحل التعليمية في الأندلس

١١

مقدمة :

مراحل التعليم ومؤسساته في الإسلام لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في العالم الإسلامي بأكمله .

ويقصد بالمرحلة التعليمية، الفترات التي يمر بها الطفل منذ صغره ، حتى ينتهي من التعليم المتوسط ، ويلتحق بالتعليم العالي ، أو يترك التعليم ، الى عمل ما ، ويحددها المفكر المصري أحمد أمين بقوله : « أن التعليم كان مرحلة تبتدىء بالكتاب أو بالمعلمين الخاصين ، وتنتهى بأن تكون حلقة في مسجد » (١) .

ولقد تعارف الناس على تقسيم التعليم في العالم الإسلامي الى مراحل ثلاث ، دون أن يعنى ذلك الفصل الواضح والمحدد بين كل مرحلة أخرى ، والتقسيم هنا يقوم أولا على أساس السن والمكان والمادة التعليمية .

فالمرحلة الأولى هي التي يحفظ فيها الطفل القرآن الكريم ويتعلم القراءة والكتابة ، وبعض العلوم الأخرى . ولقد تباين ذلك من منطقة الى أخرى في العالم الإسلامي من حيث التركيز على مادة أو اعمال أخرى . وكما قلت ، فان التعليم في العالم الإسلامي كله متشابه ولكنه يختلف من مكان الى آخر حسب بعض الظروف التاريخية أو الشروط الجغرافية أو الأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

أما المرحلة الثانية ، فان الطفل كان يتلقى فيها تعليما أوسع وأشمل . وأكثر تركيزا حيث أصبح في امكانه تلقي شروح القرآن وتفسيراته ، وقراءاته ، وكذا الحديث والآراء الفقهية ، وما الى ذلك

(١) أحمد أمين : فنى الإسلام — ج ٢ ، ص ٦٦ .

من علوم الدين ، أو العلوم الانسانية عامة ، كما أنه يمكن له أن يسجد
في دراسة العلوم العقلية •

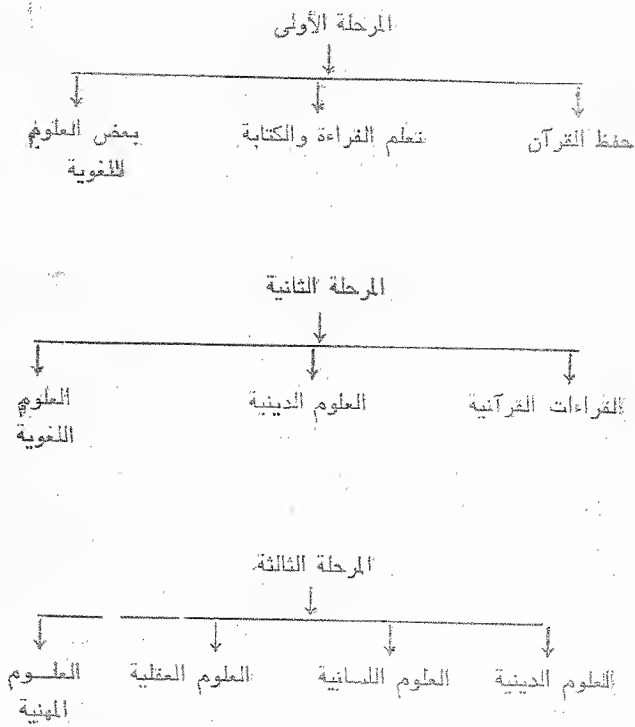
وفي المرحلة الثالثة ، يقوم بالرحلة والانتقال من مكان الى
مكان ، بغرض التركيز ، والتخصص ما أمكن ، في ناحية أو في عدة نواح
من العلوم ، التي سبق وبدأ تعلمها في المرحلة الثانية •

ويمكن تقسيم المراحل التعليمية أيضا الى ثلاث من ناحية مكان
التعليم ، فالمرحلة الأولى يتعلمها الطفل في البيت أو في المكتب ، والثانية
لما في المسجد أو في بيت المعلم ، أما الثالثة فلقد كانت تتم في المسجد وفي
المنزل وفي المدرسة — أو في أى مكان عام أو خاص ، يمكن فيه
الحديث مع الأستاذ المعلم •

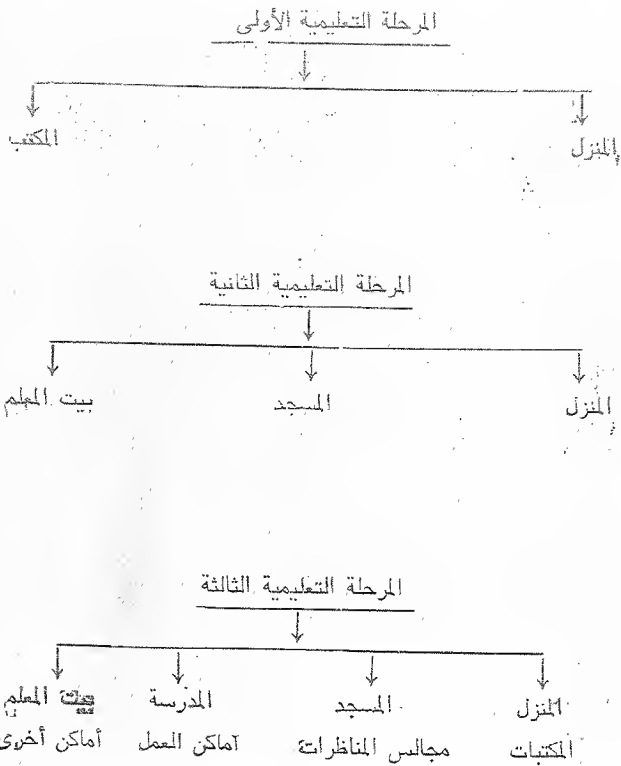
ولكى لا يكون الحديث مكررا فإننى سأتناول كل مرحلة تناولا
كاملا ، أقصد بذلك أنه عند الحديث عن المرحلة الأولى أو الثانية
أو الثالثة فإننى سأتناول كل الجوانب المتعلقة بهذه المرحلة — المكان —
المحتوى الدراسى — المعلم — التلميذ — العلاقة بين المعلم والتلميذ —
الجزاء ، سواء كان مكافأة أو عقابا — أجر التعليم — العلاقة بين
الأسرة والمعلم ، الى آخر هذه المظاهر •

وأود الاشارة منذ البداية الى أن ذلك التقسيم المرحلى ، ليس
الا بغرض التسهيل الدراسى فقط ، لأنه من الصعب جدا وضع حواجز
فاصلة تماما بين مرحلة تعليمية وأخرى ، أو بين تعليم مادة وتعليم
مادة أخرى •

المرحلة التعليمية حسب المنهج التقليدي



الراحل التعليمية حسب مكان الدراسة



الفصل الرابع

المرحلة التعليمية الأولى

أفصح بذلك نوع التعليم ، الذى يتلقاه الطفل فى سننى عمره الأولى - أى تلك الفترة التى تبدأ بمحاولة التوالدين أو المعلم ، سواء فى البيت أم خارجه ، تعليم الصغير القراءة والكتابة ، أو تلقينه الآيات القرآنية ، حتى ينتقل بعد ذلك الى مجالس المعلمين والمؤدبين فى المساجد أو فى غيرها من أماكن التعليم .

المكان :

نصيب ما بينت فى الجدول السابق ، فان المرحلة الأولى يتم تلقينا فى كل من المنزل والكتاب ، وتتناول دور كل منهما فيما يلى :

دور المنزل :

لاشك أن المنزل يلعب الدور الأساسى فى التكوين العقلى للطفل ، وأنه يترك بصمته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على تربية الأبناء ، والوالدان والأقربون بحكم ثقافتهم وعلمهم يتركون فى نفوس أبنائهم حب العلم عامة وحب مادة ما أو مواد يعمل بها الوالد أو الأقربون . ولم تهمل كتب التراجم الإشارة الى تأثير البيت فى عدد كبير من الشخصيات العلمية والأدبية الأندلسية حيث يشار إليهم بأنهم من بيت علم فليل عن أحمد بن محمد بن على - قاضى الجماعة بقرطبة - توفى ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، أنه أخذ عن أبيه وتلقاه عنده ، وهو من بيئة علم ودين (١) . وأحمد بن محمد بن أحمد

(١) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٧٨ .

ابن مخلد المتوفى ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ، سمع من أبيه بعض ما عنده ، وهو من بيت علم ونباهة وفنل وفتيانة (٢) . أما خليل بن اسماعيل بن عبد الملك المتوفى ٥٥٧ هـ من بيت علم ودين وفتة ، سواء في ذلك رجالهم ونسأولهم وخدمهم (٣) .

ولاشك أن الوالدين أو أهل المنزل قد حاولوا دائماً ، منذ الأعمار الأولى لطفولهم ، تعليمه بعض الآيات القرآنية أو القراءة والكتابة أو الأعداد ، وذلك قبل ذهابه إلى الكتب ، أو قبل أن يبدأ معه معلمه تعليمه ، سواء في منزل الصبي ، أو في مكان تعليم المعلم .

ولقد لعب الوالد دوراً رئيسياً في هذه الناحية ، وواصل دوره ، بعد ذلك مع ابنه ، في مراحل تعليمه التالية ، حتى أننا يمكن لنا دون أدنى تردد - اعتبار الوالد المعلم الأول في حياة طفله ، سواء بطريقة مباشرة ، أي بأن يتولى بنفسه تعليم صغيره أو بطريقة غير مباشرة كأن يحثه على التعليم ، ويساعده على ذلك . فأحمد بن يحيى ابن أحمد المعروف بابن الحذاء (٨٤٦٧ / ١٠٧٤ م) ، روى عن أبيه أكثر رواياته ، ونديه صغيراً إلى طلب العلم والسماع من الشيوخ الجلاء في وقته ، فحصل له بذلك سماع عاك ، أدرك به درجة أبيه » (٤) .

ويقول ابن الأبار عن نفسه ، أنه قرأ القرآن على والده ، وسمع منه أخباراً وأسماعاً ، وأنه استظير عليه مراراً أيام أخذه على الشيوخ ، يتمتع بذلك حفظه » (٥) .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٧٩ .

(٣) السيوطي : بنية الوعاة - ج ١ ، ص ٥٦١ .

(٤) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٦٢ .

(٥) ابن الأبار : الحلة السراء - ج ١ ، ص ١٥ (من مقدمة

الدكتور حسين مؤنس) .

وقد اتخذ المنزل أحيانا كمكان لتعليم الأطفال ، وإن كانت الاشارات الى ذلك ليست كثيرة ، ولكن يقال عن حزم المعلم ، أنه كان هو وابنه محمد وابنته ، تجمعهم في تعليمهم ، دار واحدة (٦) .

الى جانب ذلك يتحمل المنزل مسئوليات أخرى في متابعة الطفل عند ذهابه للمكتب ، وفي تطور تعليمه ، ودفع أجر التعليم وتحديد الفترة التي يجب أن يستمر فيها الطفل في المكتب والسن التي توجب عليه الانتقال الى حلقات المدرسين بالمسجد أو غيرها ، ثم يواصل المنزل بعد ذلك دوره ، في المراحل التالية من تعليم الطفل ، وسأشير الى ذلك في حينه .

المكتب :

تطلق هذه الكلمة على المكان الذي يتعلم فيه الصغار ، وقد تطلق عليه كلمة « كتاب » (٧) والجمع مكاتب أو كتاتيب . والمعلم الذي يتولى التعليم فيه ، يسمى أحيانا « بالمكتب » (٨) أو « الرجل » (٩) . أما كلمة « المعلم » ، فهي الأعم والأكثر استعمالا . ويرى الدكتور أحمد شلبي ، أن المكتب لا يرجع الى فترة تاريخية مبكرة جدا من تاريخ الاسلام ، مخالفًا في ذلك ما قاله جولد زيهر Gold Ziher في دائرة معارف الأديان والأخلاق (١٠) ، مؤكدا أن ظهور المكتب في الاسلام كان في نهاية القرن الأول أو مطلع القرن الثاني من الهجرة ، وأنه حتى في هذا التاريخ ، كان « حديث الوجود وقليل الانتشار » (١١) .

(٦) ابن الأبار : تكملة الصلة - ج ١ ، ص ٣٤ .

(٧) أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، ص ٤٤ .

(٨) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٩) أي الذي يصنع من الطفل رجلا .

أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٤٩ .

(10) Encyclopaedia of Religions and Ethics, Vol. v. p. 199.

(١١) أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٥٣ .

ولقد قام الدكتور شلبي بدراسة تاريخية مطبولة عن المكتاب أو الكتائب في الإسلام ، بين فيها أن أراض الجزيرة العربية وبلاذ الشام قد شهدت نوعين من المكتاب : الأول منهما خاص بتعليم القراءه والكتابة ، وأرجع ذلك النوع الى ما قبل الإسلام ، وأن الذين تولوا التعليم فيه ، خاصة في الفترة الإسلامية الأولى ، كانوا من غير المسلمين (١٢) ، أما الثاني فهو كتاب « لتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي » (١٣) ، وهذا النوع جاء متأخرا على ما يرى ، واعتبره بناورا لما كان يحدث من تعليم أبناء الملوك والعظماء في قصور ذويهم ، وتعليم الأولاد بمعرفة أهلهم (١٤) .

المكتب في الأندلس :

ظهر المكتب في الأندلس في فترة مبكرة من بعد الفتح العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ولقد سبق لي أن بينت في رسالتي الصغرى (١٥) أنه من الطبيعي أن التعليم في الأندلس بدأ بالكبار سنا بقصد تعليمهم الذين التحيد واللغة العربية ، كما ظنت ، بأنه كان من الطبيعي أن يظهر المكتب الخاصة بتعليم الأطفال بسرعة ، لأنه إذا كان رجال الجيش قد تزوجوا من نساء أهل البلاد كما فعل عبد العزيز بن موسى بن نصير بزواجه من أرملة آخر ملوك القوط ، وأن هذا الاختلاط قد أثر على الأجيال الجديدة ، وإذا ما كانت السن المعقولة لبدء التعليم ، هي ما بين الخامسة الى السابعة ، فإن ذلك يقودنا حتما الى القول بأن الاتجاه لتعليم الصبيان في الأندلس ، قد بدأ خلال العقد الأول من الفتح ، لا أكثر .

وإذا افترضنا أن بعض العائلات العربية قد عبرت الى الأندلس بعد اتمام عملية الفتح السريعة ، وأن هذه العائلات قد اصطحبت

(١٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٤٩ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ٥٢ .

(١٥) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس منذ الفتح

حتى الخلافة ، ص ٤٧ من النص العربي .

مهما نساءها وأولادها فمن الجائز القول بأن الكتابيب ضد بدأت في الأندلس في فترة مبكرة عما ذكرنا ، وعلى كل حال فإنها لم تتأخر عن السنوات العشر الأولى — والامارة الأولى ، التي وردت عن تأديب الصبيان أوردتها لنا ابن القوطية ، في كتابه عن افتتاح الأندلس ، حيث ذكر أن الصميل قد تنافس مع مؤدب للأطفال حين خطر به يوما ، ومن هذا النقائس نستنتج وجود مكان لتأديب الأطفال ، يمكن المرور عليه ورؤيته ، وسماع ما يدور فيه (١) . ولقد وقع ذلك بالتأكيد قبل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٧ م ، أي قبل تولي عبد الرحمن الداخل الامارة الأندلسية .

كما أن الزبيدي في كتابه طبقات النحويين ، ينقل لنا نصا فيما عن الغازي بن قيس المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، يمكن لنا أن نستنتج منه ، أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل كان الغازي يمارس التأديب ، بل ان مهنة التأديب كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس ، وأن هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب أن يتفاضوا في مقابلتها أتعبا ، ويتجمعون للدفاع عنها ، يقول النص بأن الغازي بن قيس « كان ملتزما بالتأديب في قرطبة أيام دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨ / ١٧٢ — ٧٥٦ / ٧٨٨ م) » وذكر محمد بن عمر بن لبابة (٣٠٤ / ٩١٦) أن رجلا حاكم بعض المؤدبين في الحذقة (أي فيما يجب أن يدفعه مقابلا للحذقة) ، فمعنيا المؤدب فناظره في ذلك ، وتعصب له المؤدبون بقرطبة وأسفقوا أن يفتح عليهم في ذلك باب منع ، فأتوا غازي ابن قيس فقالوا : ياسيدنا — تعريضا له بالتأديب — عرض غرض لنا كيت وكيت ، فقال : يغرمها صاغرا قميئا ، وقضى لهم بذلك ، اذ هو مما جرى عليه الناس » (٢) .

كما أن لدينا نصا آخر عن معلم صبيان قناد ثورة ضد عبد الرحمن

(١٦) انظر النص والتعليق في صفحة ١٩٥ من الكتاب .

(١٧) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

الداخل وكان يسمى «شقياء» ويتم القضاء عليه عام ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م^(١٨)، ولعل في هذا ما يمكن أن يلقى ظلالاً ولو باهتة على رأي الدكتور شلبي في مسألة تأخر ظهور المكتب في العالم الإسلامي، إلى أوائل القرن الثاني من الهجرة، لأنها إذا كانت مؤكدة في الأندلس بعد حوالي ٤٠ سنة ومحتمة قبل ذلك بكثير، فليس من المحتمل أنها قد تأخرت في بلاد المشرق إلى أكثر من مائة عام. ومما يؤكد ظهور المكتب الخاص بتعليم القرآن في السنوات الأولى من عمر الإسلام ما جاء عند ابن سحنون والقاسبي، من أنه سئل أنس (القرن الأول من الهجرة/ السابع الميلادي) كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضى الله عنهم - قال أنس: كان المؤدب له أنجائه، وكل صبي يجيء كل يوم بنوبته بماء طاهر فيصبه، فيمحوون به ألواحهم. قال أنس: ثم يحفرون له حفرة في الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف^(١٩).

وعلى العموم فليس من غرض هذا البحث التأريخ للمكتب في الإسلام، بل في أسبانيا الإسلامية فقط، حيث نعود فنؤكد رأينا، من أنه من المحتمل أنه لم يتأخر في الظهور عن السنوات العشر الأولى، وأنه أصبح مؤكداً خلال الأربعين سنة الأولى.

نقطة أخرى، لم أجد في كافة المصادر الأندلسية ما يمكن أن يدل على وجود النوع الأول الذي أشار إليه الدكتور شلبي، وإنما هناك نوع واحد لا غير، يتعلم فيه الأولاد القراءة والكتابة، وبقية العلوم، كما سنبينها فيما بعد.

أماكن وجود المكتب:

المكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال، وقد يكون غرفة في منزل، أو حانوتاً يكثرى، أو فناء، ولم يكن له مكان معين يقام

(١٨) مجهول: أخبار مجموعة (ط. مدريد)، ص ١٧.

ابن حيان: المتبى (تحقيق مكى)، ص ٢٦٦.

(١٩) القاسبي: أحوال المتعلمين، ص ٣١٦، وآداب المتعلمين،

ص ٣٥٣.

فيه ، ولقد كان عادة يقام بالقرب من المسجد وربما في داخله ، ولقد نهى بعض الربيع عن إقامة المكتب داخل المسجد ، وذلك بسبب ما يسيبه الصبيان من القذارة وامتنالا لحديث الرسول « صلى الله عليه وسلم » الفائل : جنبوا صبيانكم المساجد (٢٠) ، وأجمع على ذلك رجال الحسبة ، فعملوا من واجب المحتسب أن « ينهى عن الخط للصبيان والمجانين في وسط المساجد ، لأن الرسول ، أمر بتتزيه المساجد عن الصبيان والمجانين ، ولأنهم يسودون حيطانها ، وينجسون أرضها ، وما فيها من الحصر والفرش ، إذ أنهم لا يجتازون من البول ، وسائر النجاسات ، وإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يتخذ المؤدبون أمكنة ، يعلمون فيها صبيانهم ، ويراعى فيها أن تكون على الدروب وأطراف الأسواق » (٢١) .

أما ابن عبدون الأثبيلي ، فيقول : المساجد هي بيوت الله ومواقع الذكر ، ومواقع العبادة ، مشهورة بالطهارة ، ويجب أن لا يؤدب فيها الصبيان ، فانهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم فان كان ولا بد ففى السقائف (٢٢) .

أما السقلى فيرى أن معلمى الصبيان يجب أن يكونوا بالشوارع العامة بالناس ، وأصحاب الحوانيت (٢٣) .

ورغم هذه التوضيحات الواضحة ، فاننا نرى أن المعلمين والمؤدبين فى الأندلس لم يلتزموا بها التزاما كبيرا ، حيث نجدهم قد اتخذوا من المساجد مكانا لتعليم الأحداث ، ولدى ملاحظتنا واضحتان على ذلك ، أولاهما : قال عثمان بن محمد ، أخبرنى أبى قال : شهدت مجلس عمرو ابن عبد الله (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) يوما من الأيام

(٢٠) ابن ماجة ، سنن « مساجد » ، ص ٥ .

(٢١) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٢٧ ، ١٣٨ .

(٢٢) ابن عبدون : الحسبة ، ص ٣١٤ .

(٢٣) السقلى : كتاب فى آداب الحسبة ، ص ٦٨ .

في المسجد المجاور لداره ، غرأيته جالسا ، يحكم بين الناس ٠٠٠ وهو جالس في ركن المسجد مع من جلس اليه من أهل الجوائج والخصومات وفي الركن الثاني الذي يقابله مؤمن بن سعيد وقد جلس مع من جلس من الأحداث حيث قدف طفل آخر بالحذاء ، وسقط الحذاء في مجلس القاضي — مما يدل على قرب المسافة بين المجلسين — وكيف أن القاضي لم يغضب ، وإنما قال : لقد آذانا الصبيان الذين تسالوا واحدا بعد الآخر خارج المسجد (٢٤) .

أما الملاحظة الثانية فتتحدث عن الأديب الأندلسي الشهير ، أحمد ابن محمد بن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد (توفي ٣٣٨ / ٩٣٩ م) قائلة بأنه وقف يوما تحت دوش بعض الرؤساء ، وقد سمع غناء حسنا فرش بالماء ولم يعرف من هو . فمال إلى مسجد قريب من المكان ، واستدعى بعض ألواح الصبيان ، وكتب :

يا من يضمن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا البخل في أحد (٢٥)

ولعل السبب في استخدام المساجد كمكان لتعليم الأطفال يرجع إلى أن كثيرا من خدمة المساجد كانوا يحترفون هذه المهنة ، مما جعل من السهل عليهم ممارسة العملين في وقت واحد ، حيث نجد أن أحمد ابن خلف الأموي (٤٩٩ / ١١٠٥ م) ، من أهل قرطبة « كان معلم كتاب ، وصاحب صلاة » (٢٦) .

(٢٤) الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ، ص ١٠٤ ، ص ٦٧ ، ط ، القاهرة .

Ribera, J. : Historia de los Jueces de Córdoba, pp. 445-447.

(٢٥) الحميدى : الحذوة ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الضنى : بغية المنس ، ص ١٤٩ .

لم نترجم الشعر لأنه لا محل له .

(٢٦) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٥ .

كما وجدت المكاتب في المنازل حيث نجد أن ابن حزم المعلم قد استخدم داره مكانا للتأديب ، وساعده في ذلك ابنه وابنته (٣٧) .

وعينما أنشأ الحكم المستنصر سبعة وعشرين مكتباً في مدينة قرطبة جعل ثلاثة بجوار المسجد الجامع ، والباقي في أحياء المدينة (٣٨) .

وهناك من كان يتخذ من دكانه مكانا يقرئ فيه الأولاد فيجلى عن إبراهيم بن مبشر بن شريف البكري (المتوفى في ٨٣٩٥ / ١٠٠٤ م) ، أنه كان يقرئ في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة وينفذ المصاحف ويعلم المتدئين (٣٩) .

أما من ناحية الانتشار ، فمن الطبيعي أن المكتب قد وجد في كافة الأحياء بالمدن ، وفي القرى (٤٠) ويرى الدكتور شلبي أن عدد المكاتب وعدد معلمى الأطفال قد زاد في القرن الثاني الهجري ، وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب ، بل ربما وجد فيها أكثر من كتاب ، وقد ذكر ابن حوقل أنه عد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب في مدينة واحدة هي مدينة بلرم في صفية (٤١) .

وفي الأندلس ، انتشرت هذه المكاتب انتشاراً واسعاً ، بدليل كثرة أسماء المعلمين والمؤدين ضمن كتب التراجم الأندلسية ، ولا يسعنا هنا أن نذكر أسماء هؤلاء ، لأن ذلك معناه أن ننقل مئات الصفحات من هذه الكتب الى هذه الرسالة ، وتكفى الإشارة الى أنه في موقعة قنتش (٤٢) سنة ١٠٠٩ هـ / ١٠٠٩ م ، أصيب من المؤدين خاصة ، ما نيف على ستين ،

-
- (٢٧) ابن الفرضي : طباء الأندلس - ج ١ ، ص ٢٥ .
 ابن الأبار : التكملة - ج ١ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .
 (٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب (ط بيروت) ص ٢٤٠ - ٢٤١ .
 (٢٩) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٨٨ .
 (٣٠) انظر الامواني : في التربية الاسلامية ، ص ٦٤ .
 (٣١) أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، ص ٥٤ - ٥٥ .
 (٣٢) ابن الأبار : الحلة السراة - ج ٢ ، ص ٦ ، التعليق رقم (٢) .

عريت سقائهم في غداة واحدة منهم : وتعطل صبيانهم لعدمهم (٢٣) •

سن الذهاب إلى المكتب :

ان تحديد سنة واحدة معينة لذهاب الأطفال إلى المكتب ، عملية صعبة جدا • انها نفس المشكلة ، التي يواجهها أبناؤنا اليوم ، عند تحديد سن ذهابهم إلى المدرسة الأولية ، فلقد كان الآباء على ذلك العهد ، مثلما هو الحال مع آباء اليوم ، يحرصون على أن يبدأ أولادهم التعليم في سن مبكرة ما أمكن ذلك •

والآراء التربوية الحاثثة على بدء التعليم في الصغر كثيرة ومعقولة ، فيقول الشاعر :

علم بنيك صفارا قبل كبرتهم

اذ ليس ينفع بعد الكبرة الأدب

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت

ولن تلين اذا قومتها الخشب (٢٤)

ويرى ابن خلدون أهمية تعليم الصغر فيقول : وسبب ذلك أن تعليم الصبي في الصغر أشد رسوخا ، وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب الأساس للملكات ، وعلى حساب الأساس وأساليبه ، يكون حال ما ينبنى عليه (٢٥) •

كما أوصى ابن الجزار ، توفي ٨٣٥ هـ / ١٠٠٤ م ، بضرورة التأديب في الصغر ، لأن الصغير أساس قيادة ، وأحسن مواتاة ، وقال : لقد أمرنا أن يؤدب الصبيان وهم صفار ، لأنهم ليس لهم عادات تصرفهم لما

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة - ج ١ ، ص ٢٤ (تحقيق احسان عباس) •

(٢٤) المغراوي : جامع جوامع الاختصار والتبيان ، ص ٤١ •

(٢٥) ابن خلدون : المقدمة - ج ٣ ، ص ١٢٤٠ •

يؤمنون به من المذاهب الجميلة ، والأفعال الحميدة ، والطرائق المثلى ،
أذ لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يراد بهم من
ذلك ، فمن غود ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة ،
في الصغر ، حاز بذلك الفضيلة ، ونال المحبة والكرامة ، وبلغ غاية
السعادة ، ومن ترك فعل ذلك ، وتخلي عن العناية به ، أداء ذلك الى
عظيم النقص والخصاسة ، ولعله يعرف فضيلة ذلك في وقت ،
لا يمكنه تلافيه (٣٦) .

ويقول الدكتور الأهوازي : « ان الواقع أنه لم يكن هناك سن
معينة يبدأ عندها الطفل في تلقي العلم ، وانما كان الأمر متروكا لتقدير
آباء الصبيان ، فإذا وجدوا الطفل بدأ في التمييز والادراك . دفعوا به
الى انكتاب » (٣٧) .

ويرى أبو بكر بن العربي الأندلسي (٥٤٣/١١٤٨ م) أن « للقوم
في اتعليم سيرة بديعة ، وهو أن الصغير منهم اذا عقل . بعثوه الى
المكتب » (٣٨) .

ولقد اهتم كثير من الأندلسيين بأن يبدأ أولادهم التعليم في مرحلة
مبكرة ، مما كان سببا في نبوغهم في سن مبكرة ووصولهم الى درجة عالية
من العلم ، ولقد سبقت الاشارة الى أحمد بن يحيى بن أحمد الذي نذبه
والده صغيرا ، لطلب العلم ، والسماع من الشيوخ الجال في وقته ،
فأدرك بذلك سماعا عاليا أدرك به درجة أبيه (٣٩) .

كما أن لدينا اشارات أخرى على بدء المرحلة التعليمية الثانية
في سن مبكرة جدا ، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن هؤلاء الأطفال قد بدءوا

(٣٦) ابن الجزار : سياسة الصبيان ، ص ١٣٤ - ١٣٨ .

(٣٧) أحمد فؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ، ص ٦٠ .

(٣٨) ابن العربي : احكام القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .

(٣٩) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٢ .

تاريخ التعليم في الأندلس .

مرحلة دراستهم الأولى في سن مبكرة ، فيقال مثلا ان ابن مريوال بن جراح بن حاتم المتوفى ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، بدأ بالسماع ، وعمره لا يتجاوز إحدى عشرة سنة. (٤٠) .

وسليمان بن حسان ، المعروف بابن جليل ، صاحب كتاب طبقات الأطباء ، سمع الحديث بقرطبة سنة ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م ، وهو ابن عشرين بمسجد أبي علاقة وبجامعها وبالزهراء. (٤١) .

وكذلك يقال عن أبي عبد الله محمد بن طاهر القيسي التدميري انه « طلب العلم في حدثان سنه » (٤٢) .

وعن المنصور بن أبي عامر « أنه طلب العلم في حدثاته » (٤٣) .

وأميل شخصيا الى تصديق سن الذهاب الى المكتب في الأندلس بالعام السادس من العمر حتى بين أبناء الأمراء أنفسهم ، ولقد وردت أكثر من إشارة ، الى تحديد السن في هذه المرحلة ، فيقال عن عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر أنه ولد له ولد عاش الى أن دخل الكتاب ، وظهرت منه نجابة ، فأول لوح كتبه بعث به الى أخيه الحكم المستنصر ، وكتب اليه من شعره هذه الأبيات :

هاك يامولاي خطا

مطيه في اللوح مطا

ابن سبع في سنه

لم يطق اللوح ضبطا

(٤٠) ابن بذكوان : الصلة ، ج ١ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤١) المراكشي : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٤٢) المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٤٣) ابن حذاري : البيان المغرب ، ص ٣٨٢ .

دمت يامولاي حلى

يولد ابن ابنك سبطا (٤٥)

وهناك أيضا ملاحظة أخرى واضحة الدلالة ، ينظرها لنا ابن عذاري ، يقول : « قال ابن جرير : كنت قاعدا يوما مع المنصور اذ طلع ابنه عبد الرحمن ، وهو يومئذ ابن سبع سنين ، خارجا الى المكتب » (٤٥) .

أما المدة التي يقضيها الطفل في المكتب ، فهي أيضا تختلف حسب قدرة الطفل على التعلم ، وامكانياته في الانتقال الى المرحلة التعليمية التالية ، ولذلك من الصعب أن نحدد سنا معينة يترك الطفل فيها المكتب ، ويتوجه الى الدراسة على الأستاذة في الأماكن الأخرى . ويمكن أن نقول : أن الطفل كان يستمر في المكتب حتى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة تقريبا ، لأن القابلي يوصي معلم الأطفال قائلا : « وانه لينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض اذا كان فيهم من يخشى فسادة ، يناهر الاحتلام » (٤٦) .

هذا ولقد سبق أن أشرت إلى بعض الأطفال الذين أنشروا دراستهم في المكتب ، وبدعوا في التردد على طقات المعلمين : في الحادية عشرة أو العاشرة ، لكن الغالب أن يتردد الطفل الى هذه المرحلة التعليمية فيما بعد الرابعة عشرة .

فيقال عن عبد الجبار بن فتح بن منتصر البلوى المتوفى ٢٥٨ هـ / ٨٧٧م « انه طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة » (٤٧) .

(٤٤) الحميدى : الجذوة ، ص ٢٧٠ .

الضبي : البقية ، ص ٣٧٢ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٤٥) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

(٤٦) الأهوانر : التربية الاسلامية ، ص ١٣٠ .

(٤٧) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

ويقول الدكتور هيكل عن ابن حزم انه « بعد الخامسة عشرة تقريبا ، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم ، وهى مرحلة الخروج الى الحياة ، والتحصيل والدرس ، والتعليم خارج البيت » (٤٨) .

المنهج التعليمى فى المرحلة الأولى :

يقول المؤرخ المصرى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، أن التربية فى العصور الوسطى - فى الشرق والغرب - كانت تربية دينية ، ترمى قبل كل شيء الى تهذيب النفس والروح ، ورياضتها ، وكانت خاضعة كل الخضوع للسلطة والتحكم وكانت قائمة على النقل لا العقل ، والتعليم فيها شكلى محض ، يعنى كل العناية بالألفاظ ويهمل الروح واللب .

وفى موضع آخر يقول : ان التعليم الدينى كان يرمى فى الشرق والغرب ، فى الاسلام والمسيحية على السواء ، الى تهذيب روحانى ، أى الى تربية دينية أخلاقية تعد الفرد لا لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحياة ، والذى يعيش فيه هذا الفرد ، بل لعالم آخر لا يصل اليه الا بعد أن تخلص روحه من أدرانها . لم يكن هذا التعليم يهتم بأعداد الفرد بما ينظم العلاقة بينه وبين أفراد المجتمع الذى يعيش فيه أو بما يكسبه قوة ومهارة فى معالجة أسباب المعاش ، بقدر ما كان يهتم بمصالحة الفرد بخالقه كما كانت تتصورها عقلية العصور الوسطى (٤٩) .

والحقيقة أن تقديم الحركة التعليمية فى العصور الوسطى بأنها دينية محضة ، فيه ظلم كبير ، وحتى يمكن لنا أن نتبين بوضوح المنهج

(٤٨) هيكل : الادب الأندلسى ، ص ٣٥٧ .

(٤٩) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على .

التعليمي في المراحل التعليمية بصفة عامة ، والمرحلة الأولى بصفة خاصة ، فمن الضروري أن نتفهم الغايات التي كان يقصدها هذا التعليم ، أقصد بذلك ، لكي نعرف ماذا نتعلم ؟ — علينا أن نعرف ماذا نعلم ؟ ثم يأتي بعد ذلك كيف نعلم ؟ ويكون الترتيب كالتالي :

لماذا نعلم — ماذا نعلم — كيف نعلم ؟

بالنسبة للزرنوجي المتوفى ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م هو : أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضا الله تعالى ، والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهال ، وأحياء الدين ، وإبقاء الإسلام ، فإن بقاء الإسلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل ، قال محمد ابن الحسن رحمه الله : لو كان الناس كلهم عبيدي لأعتقنهم ، وتبرأت عن ولائهم ، وذلك لأن من وجد لذة العلم والعمل به ، قلما يرغب فيما عند الناس .

وينبغي لطالب العلم ألا يذل نفسه ، بالطمع في غير مطمح ، ويبتحرر عما فيه مذلة العلم وأهله ، ويكون متواضعا (٥٢) .

والبدر الغزي يرى أن يقصد وجه الله بأشغاله ، وألا يريد بعلمه غير الله (٥١) .

أما ابن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م ، فهو يركز فضيلة العلم والعلماء فيمن يقصدون به وجه الله الكريم (٥٣) .

وهناك آراء أخرى كثيرة تركز على أن التعليم قد أخذ وجهة دينية بحتة ، ألا وهي الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى ، والأذعان

(٥٠) الزرنوجي : تعليم المتعلم ، ص ١٢ .

(٥١) الغزي : المعيد في آداب المنيد والمستفيد ، ص ٢٢ .

(٥٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٣ .

لتعاليم رسوله عليه السلام والغاية الأصيلية هي رضا الله . . والذي يعلم ولده فيحسن تعليمه ، ويؤدبه فيحسن تأديبه ، فقد عمل في ولده عملا حسنا ، يرجى له من تضعيف الأجر فيه ، كما قال الله تعالى :
(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) (٥٣) .
ومن هنا نتبين بوضوح ، أن الهدف الديني في التربية ، كان هو المهيم والمسيطر ، سيطرة شاملة على التربية ، في العالم الإسلامي (٥٤) .

ولكن لم يكن الهدف الديني للتعليم هو الهدف النهائي والوحيد ؛ ولكن كان للتعليم أيضا هدفة الدنيوى ، فقد كان العلم هو الوسيلة الوحيدة لتغيير المستوى الاجتماعى ، وكان كل من يستطيع أن يتعلم ؛ يستطيع أن يصل الى أعلى المراتب السياسية والاجتماعية في المجتمع ؛ ومن هنا كان العلم هدفا ووسيلة في حد ذاته ، وكان للعلم غوائده الدنيوية التى لا شك فيها ، والمناظرة التى حدثت بين ابن حزم وأبى الوليد الباجى في غرض تعلم كل منهما يمكن أن تبين لنا بوضوح ، أنه لدى كل من العالمين الكبيرين ، كان الغرض الدنيوى واضحا ودافعا لـا حصلا من علم ، فأبو الوليد الباجى يقول لابن حزم :

أنا أبعد منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه ، فتسهر في مشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر في فتنديل بائت السوق .

فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك انما طلبت العلم وأنت في هذه الحال وجاء تبديلها بمثل حالى ، وانما طلبته في حال ما تعلمه ، وما ذكرته ، علم لا أرجو به الا علو القدر العلمى في الدنيا والآخرة (٥٥) .

(٥٣) أحمد فؤاد الاموانى : التربية الإسلامية ، ص ١٢٠ .

(٥٤) الحون : أهداف التربية في العصر العباسى ، ص ٥٦ .

(٥٥) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

ولقد تشابكت الغرضان تشابكا كبيرا : حتى أصبح من الصعب الفصل بينهما ، ويمكن القول بأن الهدف الأول كان إجباريا ، بينما الهدف الثانى كان اختياريا ، ولذلك فإن القابسى (٥٣هـ / ١٠١٢م) يضع منهجه التعليمى فى قسمين : إجبارى ويشمل علوم القرآن ، الصلاة ، الدعاء ، بعض النحو والعربية والقراءة والكتابة ، وعلوم اختيارية هى النحاصب : جميع النحو ، العربية ، الشعر ، أيام العرب الخ ، ولقد كان هذا هو المنهج السائد فى كل من القرنين الثالث والرابع .

ومن الغايات الدنيوية التى يحققها الوالد من تعليم ابنه ، أن يكون سعيدا ، أو كما قال القابسى : فمن رغب الى ربه أن يجعل له من ذريته قرة عين ، لم ييخل على ولده بما ينفق عليه فى تعليم القرآن (٥٦) .

وهناك من يرى أن يخضع هدفنا ثالثا من أهداف التربية عند المسلمين ، ألا وهو هدف اللذة الروحية من العلم ، وهو الهدف الذى يدفع صاحبه الى التعلم والبحث ، لا لشيء سوى البحث والتعلم لذاتهما مكتفيا بلذة البحث عن الحقيقة والتفتيش عن دقائق المعرفة ، ولقد تعرض كثيرون من مؤرخى التربية الاسلامية الى هذه النقطة ، وتكفى الاشارة الى أن الغزالى كان يرى « العلم فضيلة فى ذاته ، على الاطلاق » (٥٧) ٣

ولعل من المفيد هنا ، أن أعرض لرأى الدكتور محمد أسعد طلس القائل « والرأى عندنا أنه لا توجد أغراض للتربية عند العرب على الاطلاق ، وانما يجب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذى يلائم المذهب ، فطريقة التعليم مستمدة من مذهب صاحبها » (٥٨) .

(٥٦) الاخوانى : التربية الاسلامية ، ص ١٢٩ .

(٥٧) الغزالى : الأحياء ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

فتحية حسن : التربية عند الغزالى ، ص ١٧ .

(٥٨) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ص ١٤٣ .

لقد عرض الدكتور طلس لآراء القابسي ، وآراء الدكتور الأهواني وأساء فهم آرائهما حين عرضها قائلا : « أما القول بأن التعليم انما كان له هدف واحد ، كما ذهب اليه القابسي والأهواني ، فهو قول المترتب البالغ » (٥٩) .

فلم يقل القابسي اطلاقا بهدف واحد للتعليم ، والأهواني لم يقل ذلك أيضا ، ولقد سبقتنا الإشارة ، الى أن القابسي قد وضع غرضا أحليا ، هو تعلم الدين ، وجعل ذلك في مرتبة اجبارية ، وجعل أيضا للتعليم أغراضا معيشية يقرها ويسمح بها ، وجعل تعليم ذلك من المسائل الاختيارية .

وبالنسبة للرأي القائل ، بأن الغرض من التعليم انما هو على حسب المذهب ، فهو قول بين السقوط بنفسه ، فالمذاهب الاسلامية على اختلافها وتنوعها كانت تعمل على اعداد الفرد لشيئين :

أولهما : ارضاء الله سبحانه وتعالى ، وتنفيذ ارادته .

ثانيا : اعداد الانسان لحياة سليمة وصالحة ، ونقول الدكتور فتحة سليمان : ان أهم ما يسترعي الانتباه في دراسة الغزالي من الناحية التربوية هو شدة اهتمامه بالعلم والتعليم وقوة عقيدته في أن التعليم الصحيح هو السبيل الى القرب من الله ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وبهذا رفع الغزالي من مكانة المعلم ، ووضع ثقته في المعلم الصالح ، الذي اعتبره خير مرشد ومهذب ، ولا يقتصر الأمر عند الغزالي على التعلم فحسب ، ولكنه يشترط العمل بما نعلم الانسان ، وأن يعلمه لغيره ، فمن علم وعمل بما علم ، فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات ، فانه كالشمس ، تضيء لغيرها ، وهي مضئة بنفسها (٦٠) .

(٥٩) . محمد أسعد طلس : نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

(٦٠) فتحة حسن : المذهب التربوي عند الغزالي ، ص ١٤ ، ١٥ .

نعم يمكن القول بأن الغاية من التعليم قد اختلفت في تفصيلاتها من معلم الى آخر ، نتيجة وجهة نظره الدينية ، أو مذهبه التعليمي ، أو الاقليم الذي نشأ فيه ، أو الظروف السياسية والاقتصادية المحيطة به ، ولكن يبقى بعد ذلك أهداف علمية للجميع : التعليم من أجل الكمال الانساني الذي غايته ارضاء الله ، التعليم من أجل الكمال الانساني الذي غايته السعادة في الدنيا .

كان ذلك الغاية من التعليم في الاسلام بصورة عامة ، وأسبانيا الاسلامية قد شكلت جزءا من هذا المجتمع ، وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا نعلم ؟

السياسة التعليمية عند أبي الوليد الباجي هي : حفظ القرآن الكريم ، وحفظ الحديث النبوي الشريف ، والتعرف على ما كان منه صحيحا ، وما كان غير صحيح ، ودراسة علم أصول الفقه الذي هو أصل لمعرفة القرآن ، ومعرفة الحديث ، ويجب على الطالب أن يتدرب تدريبا سليما على معرفة طرق النظر ، وتصحيح الأدلة ، وإقامة البرهان (٦١) .

ومن هنا كان تعليم القرآن الكريم وتحفيظه هو الهدف السائد في هذه المرحلة في كافة أنحاء البلاد الاسلامية . ويصف ابن خلدون ذلك بقوله :

واعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده ، من آيات القرآن ، وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي يتبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات (٦٢) .

(٦١) جودة عبد الرحمن : وصية القاضي أبو الوليد الباجي ،

ص ١٧ .

(٦٢) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٣٩ .

ومن ناحية أخرى يقرر المستعرب الأسباني الكبير عند حديثه عن تعليم ابن حزم بأن : الفقه والسنة النبوية كانا الأساس النظري للثقافة الإسلامية بأجمعها (٦٣) .

هذا هو الأساس العام فيما يجب أن يتعلمه الأطفال ولكن تختلف فرائق تعليم القرآن للولدان باختلاف الأقاليم والشعوب باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات (٦٤) .

ولقد عقد ابن خلدون فصلاً في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه فقال :

« أعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات . وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه .

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الوالدان ، الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومثاله واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب ، إلى أن يحقق فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة

(63) Asín Palacios : Aben hazam de Cordoba, I. 33.

(٦٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٠ .

وهذا مذهب أهل الأماص بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشيبية . وكذا في الكبير اذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم .

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم . فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان روايه الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب . ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشيبية وقد نذا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة ، لو كان فيها سند لتعليم العلوم . لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الأول ، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم .

وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ، ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان آياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك . وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الأندلس ، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب البصارى على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدرى

بهم عنايتهم منها * والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده ، كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان * وإذا كتبوا لهم الألواح فيخط قاصر عن الاجادة * ومن أراد تعلم الخط ، فعلى قدر ما يسمح له بعد ذلك ، من الهممة في طلبه ، وبتفقيه من أهل صنعته *

فأما أهل افريقية والمغرب ، فأفادهم الاختصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة ، لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاختداء بها ، وليس لهم ملكة في غير أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي ، وحظه الجمود في العبارات ، وقلة التصرف في الكلام ، وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب ، لما يخلطون في تعليمهم القرآن ، بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه ، فيقتدرون على شئ من التصرف ومجازاة المثل بالمثل ، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة : لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله *

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي ، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا » (٦٥) *

ويشهم من كلام ابن خلدون أن الأندلسيين اهتموا أساسا بتعليم القرآن لأولادهم ، شأنهم في ذلك شأن بلاد المغرب الاسلامي كلها *

والدلائل كثيرة على قيام أهل الأندلس بتعليم القرآن لأولادهم في المكتب ، منها قول ابن العربي : « وصار الصبي اذا عقل ، وسلكوا به أمثل طريقة لهم ، علموه كتاب الله تعالى » (٦٦) * ومن وصية ابن هود ، الذي حكم بشرق الأندلس من ٦٢٥ الى ٦٣٥ هـ / ١٢٢٨ الى ١٢٣٧ م ، الى أخيه يقول : « ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى ، فان تعليمه للمعاشر يطفىء غضب الرب » (٦٧) * وابن الخطيب يقول عن سلطان غرناطة بأنه كان « يندب الناس لتعليم القرآن لصبيانهم فذلك أصل أديانهم » (٦٨) *

ومن ناحية أخرى اهتم الأندلسيون بأن يخلطوا في تعليمهم القرآن بعض المواد الأخرى مثل رواية الشعر ، وبعض العربية ، وأعطوا اهتماما خاصا بتعليم القراءة والكتابة ، وتحسين الخط حتى تميز صنف خطهم الأندلسي ، ينقل هنرى بيريس عن ابن خلدون وتتميز ملك الأندلس بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط ، فتميز خطهم الأندلسي ، كما هو معروف الرسم لهذا العهد (٦٩) *

كما أشار ابن خلدون الى أهمية قيام الأندلسيين بتعليم أولادهم الشعر والعربية في تكوين ملكة اللغة العربية ، وتفوقهم في الخط والأدب فقال :

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي ، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث ، الذي هو أصل العلوم وأساسها ، فكانوا لذلك أهل

(٦٦) ابن فرحون : الديباج الذهب ، ص ١٢١ « نقلا عن كتاب المصاحف من العواصم » *

(٦٧) التتري : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ *

(٦٨) التتري : النفع ، ج ٩ ، ص ١١٠ *

(٦٩) هنرى بيريس : منتخبات من مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٨ *

خط ، وأدب بارع ، أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبى (٧٠) .

ولكن العالم الأشبلى الكبير أبو بكر بن العربى لم يكن راضيا عن هذا المستوى أو بمعنى أصح على أن يكون القرآن الكريم هو أول ما يعلم للأطفال ، ولذلك أختتم حديثى عن محتوى التعليم فى المكتب بذكر رأى هذا المفكر التربوى الأشبلى ، كما يلخصه الأستاذ الطالبى ، باعتباره واحدا من أشهر المتحدثين فى مجال التربية فى الأندلس :

« ان لابن العربى نظرات نافذة فى مجال التربية ، وفى طرق التعليم ، حصل ذلك عن طريق رحلاته ، وعن طريق خبرته بالطرق التربوية المستعملة فى أنحاء العالم الإسلامى ، مشرقه ومغربيه » .

وقد عرض القاضى للطرق التعليمية فى المغرب العربى ، ونقدنا نقدا لاذعا ، وكذلك للطريقة الأندلسية ، فانه لم يقل أن يبدأ الأمر بتعليم الأطفال للقرآن « ياغفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ولا يفهم ، ويتصب فى أمر ، ويرى أنه على فرض أن الصبى استطاع أن يفهم بعض الألفاظ المستعملة عنده ، فى حياته اليومية ، كجاء ، وقام ، وقعد فانه لا يستطيع أن يؤلف بينها ، ولا أن يفهم ما تدل عليه من الممانى ، اذا انتظمت فى تركيب » (٧١) .

طريقة أبى بكر بن العربى فى التربية :

عمل أبو بكر بن العربى على وضع طريقة جديدة للتعليم ، بين هذه الطريقة فى عدة من مصنفاته ، شرحها فى « كتاب التعليم » الذى جعله جزءا من كتابه « قانون التأويل » ولم يصلنا هذا الجزء مع

(٧٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٢ .
(٧١) عبار الطالبى : آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ، ص ٢٢٤ - الجزا ئر .

ابن خلدون : المقدمة - ج ٣ ، ص ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ .

الأسف الشديد ، وإن كانت بعض فقراته منشورة في عدة مؤلفات أخرى .

وبيننا أيضا في كتابه « ترتيب الرحلة للترغيب في الحلة » على ما قال به ابن خلدون ، وفي كتابه « سراج المريدين » ، وفي مؤلفه « العواصم من الفواصم » .

ومن هذا كله يتبين اهتمام الفقيه الأندلسي بالتعليم وأهميته ، وما يمكن أن نصل إليه حين يوضع البرنامج النصح للتربية . ويرى أبو بكر بن العربي ، أنه في عصور الاسلام الأولى لم يكن العرب في حاجة الى تعلم اللغة العربية لأنهم في ذلك الوقت كانوا يتكلمونها بطريقة سليمة ، خالية من الأخطاء اللغوية ، وخالية من الكلمات الأجنبية ، وبعد ذلك حينما اختلط العرب بشعوب أخرى ذات لغة وثقافة مختلفة ، تطرق الفساد الى الألسن ، ونفذ اللحن الى اللغة ، فعميت الحقائق عن بعض القلوب ، وغمضت فأصبح من الضروري أن يكون تعليم اللغة هو الأساس ، وذلك عن طريق الاهتمام بتعليم الألفاظ ومعانيها ، وأساليب تكوين الجملة ، وطرق دلالتها على ما تردد التعبير عنه ، لقد أحس أبو بكر بن العربي ، بضرورة العودة الى لغة القرآن ، الى اللغة العربية الفصحى ، حيث قال : ينبغي أن ينشأ الطفل على تعلم العربية ومقاطع الكلام ، ويحفظ أشعار العرب ، وأمثالها .

ثم ينتقل ابن العربي بعد ذلك الى شرح قيمة تعليم الحساب وأهميته لأن الحساب فيه فائدة نظرية ، هي شحذ الذهن ، وتمارين الفهم ، وفائدة عملية ، ترجع الى منفعة في القوانين الفقهية في قسمة التركات والمساكنات ، وما إليها من مسائل في الحياة العملية (٧٢) .

(٧٢) أشار عيسار الطالبي في كتابه عن آراء أبي بكر بن العربي الكلامية الى طريقته في التربية بتفصيل واسع ويمكن الاطلاع عليها في الصفحات من ٢٢٩ الى ٢٤٠ .

فإذا تعلم الطفل شيئاً من ذلك انتقل الى تعلم الشعر — وكل ذلك لئى يمهّد له دراسة القرآن . لأنه اذا أخذ الطفل خطه من هذه الوسائل اللغوية والصياغية ، ودرس خلال ذلك شيئاً من مفصل القرآن ، واستند ساعده فى هذه العلوم التى تعتبر مقدمة لدراسة القرآن انتقل الى دراسة القرآن نفسه ، حيث أن اللغة ، والشعر ، ومعرفة الكتابة ، بمثابة وسائل ميسرة ، لتعليم القرآن ، وفيه (٧٢) .

لقد أشار ابن خلدون الى هذه الطريقة فى التعليم ، شرحها وعرضها ، وأعجب بها ، ولكنه أكد استحالة تطبيقها لأن الظروف لا تساعد على ذلك ، مؤكداً أن قوة العادة وشدة التأثير الدينى ، تدفع بالناس الى ما هم عليه — يقول :

ولقد ذهب الفاضل أبو بكر بن العربى فى كتاب رحيته (٧٣) ، الى طريقة غريبة فى وجه التعليم ، وأعاد فى ذلك وأبداً ، وتقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس (٧٤) ، قال : لأن الشعر ديوان العرب ، ويدعو الى تقديمه ، وتعليم العربية فى التعليم ضرورة لفساد اللغة . ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن عليه حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل الى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة . ثم قال : « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الحصى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب فى أمر غيره أهم عليه » ، ثم قال « ينظر فى أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه » .

(٧٣) عمار الطالبي : آراء أبو بكر بن العربى : ص ٢٢٢ — وانظر تعليم هنرى بيريس على هذه الطريقة فى كتابه « الشعر الأندلسى » ص ٣٣ .

(٧٤) يقصد كتاب ترتيب الرحلة لابن عربى .
(٧٥) يلاحظ هنا بأن مذهب أهل الأندلس لم يكن تقديم العربية والشعر والا لما هاجم أبو بكر هذه الطريقة ، وانما كانوا يعلمون هذه العلوم فى نفس الوقت مع القرآن .
انظر أحمد شلى : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٤ .

ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علما إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك ، بجودة الفهم والنشاط :

« هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله ، وهو لعمرى مذهب حسن ، إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال ، ووجه ما اختلفت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إيتارا للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات ، والفراط من العلم ، فيلغته القرآن ، لأنه ما دام في الحجر ، انقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ وأحصل من رتبة الثور ، غربا عصفت به رياح الشبهة ، فالفقه بساحل البطالة ، فيفتنمون في زمان الحجر ، ورتبة الحكم ، تحصيل القرآن ، لئلا يذهب خلوا منه . »

ولو حصل التيقن باستمراره في طلب العلم ، وتقبله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والشرق ، ولكن الله يحكم ما يشاء ، لا محقق لحكمه » (٧٦) .

طريقة التعليم في المكتب :

من الجائز أن تكون الأيام الأولى للطفل صعبة ، وكان على المعلم وأهل الطفل العمل على تعويده على المناخ الجديد .

كان من العادة أن يذهب الطفل إلى الكتاب مبكرا ، حيث يظل هناك إلى منتصف النهار ، ويعود الطفل إلى منزله للغذاء والزاحة قليلا ، بعد ذلك يتجه إلى الكتاب مرة ثانية لكي يبدأ الدراسة فترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل فينصرف إلى منزله على أن يعود في صباح اليوم التالي .

ويرتكز ذلك على ما أوتر عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه :

(٧٦) ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ، ص ١٢٤٢ - ١٢٤٣ .
تاريخ التعليم في الأندلس .

حين أمر عابد بن عبد الله الخزاعي ، بأن يلزم تعليم الصبيان « بعد صلاة الصبح الى الفحى الأعلى ، ثم من الظهر الى صلاة العصر ، ويسرحهم بقية النهار ، ولا يلزمه الله بشرط أو عادة ، قلت : كمادة أهل البادية في اقراءهم السور ليلاً » (٧٧) .

وأيام التعليم خمسة أيام : السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء وصبيحة الخميس ، « وكان للأطفال نجف يوم الخميس ، وطول يوم الجمعة عطلة للراحة ، وبالإضافة الى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض أيام المناسبات العامة » (٧٨) .

وهناك رأى آخر فى مسألة الوقت ، يسوقه المؤرخ التونسي ، المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، فى مقدمته لكتاب « آداب المعلمين » ، غائلاً : أما أوقات التعليم — فيما مضى — فليس لدينا ما ينبىء على تعيين ابتدائها صباحاً ، ولا وقت انتهائها مساءً وغاية ما نعلمه فى خصوصها ، ما روى عن أحد مشاهير علماء القيروان ، قال الوائشريسى : « وسئل أبو طيب عبد المنعم بن خلدون الكندى (توفى بالقيروان ، ٤٣١ هـ / ١٠٣٠ م) (٧٩) ، هل يجلس المعلم من الصبح الى المغرب ، أو عند طلوع الشمس الى الاسفار ، فأجاب : أما وقت جلوس المعلم بقيامه ، فبحسب العرف ، وما تعاهده أهل التعليم فى كل بلد » (٨٠) .

وهناك من المؤرخين ، من يرغب رفضاً قاطعاً هذه الاستثناءات . وميل كائفة مؤرخى التربية الاسلامية الى أن فترات التعليم كانت تمارس ، على وجه الخصوص فى المرحلة الأولى ، على مدار النهار

(٧٧) المغراوى : جامع جوامع الانفسار ، ص ٥١ .

(٧٨) أحمد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ص ٧٠ .

(٧٩) الوائشريسى : المسيسار ، ج ٨ ، ص ١٥٢ .

(٨٠) حسن حسنى عبد الوهاب : آداب المعلمين (المقدمة) ، ص ٤١ .

وامتداده من الصباح الى العصر ، راجع في ذلك ما كتبه الدكتور الأهواى (١١) .

ومريقة التعليم في الكتاب تتلخص في أن المعلم يقوم بقراءة آية من آيات القرآن ، ثم يقوم الطفل بترديدها حتى يحفظها ، ثم ينتقل الى آية أخرى وهكذا ، وهناك بعض المعلمين ممن كانوا يلجأون الى تعليم الأطفال السور القرآنية القصيرة أولاً ، وبعضهم كان يبدأ حسب ترتيب المصحف فيقول ابن مرشد :

« أول ما يبدأ به المؤدب في تعليمه الصبي ، تحفيظه كتابة الحرف ، وقراءتها حتى يأتف ذلك ، ثم يشرع في تحفيظه السور القصار من القرآن » (١٢) .

وعندما ينتقل الصبي من جزء الى آخر ، كان عليه أن يقرأ على معلمه ما قد سبق وتعلمه ، وهكذا يمضى الصبي من جزء الى جزء آخر حتى يتم حفظ انقرآن ، ويمكن لنا أن نتبين في هذه المسألة خطوتين رئيسيتين :

أولهما : التلقين ، وهو الجزء الجديد ، ويقرأه الأستاذ للطفل الذي يقوم بالترديد خلف المعلم ، وحتى اذا كان الطفل قد وصل الى مرحلة تسمح له بالقراءة ، حتى يعرف الطفل القراءة السليمة ، وهنا أود أن أشير الى أن المروى يرى أن العرف كان قد جرى في الأندلس بالقراءة في المصحف لا في الألواح ، ولا فرق بينهما (١٣) .

ثانياً : الاستظهار ، وهو مراجعة ما كان الطفل قد درسه من قبل ،

(٨١) أحمد فؤاد الأهواى : التربية الإسلامية ، ص ١٧٦ (القاهرة - ١٩٥٥) .

(٨٢) ابن مرشد : نظام الحسبة في الاسلام ، ص ١٢٨ .

(٨٣) المروى : جامع جوامع الاختصار ، ص ١٩ .

وذلك بأن يخصص المعلم للطفل وقتاً يستمتع منه فيه الى جزء مما قد حفظه الصبي ، واذا أخطأ الطفل كثيراً في حفظه فإن عليه أن يدرس ثم يعود للقراءة ، في اليوم التالي .

ولقد كان معلم الكتاب مسئولاً عن تعليم الحنفيان القراءة والكتابة ، ولذلك كان على الأطفال أن يحصلوا معهم ألواحهم ومحابيرهم ، ولقد كانت تلك الألواح تصنع من الحجر أو الخشب ، وكان من السهل محوها بالساء أو بقطعة من القماش ، ويصف ذلك البروفيسور خوليان ريبيرا فيقول : « استعمل الأطفال ألواحاً توتية من الخشب ، كانوا يكتبون عليها بأقلام من القصب ، يغمسونها في الصبر ، وعند الانتهاء من تمرين ما ، غامهم يقومون بمحوها بقطعة من القماش مبللة ، ثم يعاودون الكتابة » (٨٤) .

ومما يثير الدهشة ، أن يقول الدكتور أسعد طلس : « وطريقة التعليم في الكتاب ، هي أن يقرأ المعلم آية من القرآن ، ثم يرددها الطفل حتى يحفظها ، فينتقل الى آية أخرى سواها ، أو يكتب الآيات المطلوبة في لوح » (٨٥) .

وأن يقول الدكتور الأهواني « على أن أهم ما يدرس للصبي هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجماعية ، إذ يبدأ المعلم أو العريف بأية يرددها الصبيان من بعده ، ولكل صبي لوح يكتب فيه ، يثبت فيه ما يريد أن يحفظه ، ثم يمحوه ليكتب شيئاً جديداً » (٨٦) .

(84) Ribera, J. : Ha de la Ensenanza entre los Musulmanes españoles, p. 34.

Galino, Angeles : Ha de la Educacion Edad Antigua y medieval, p. 463.

(٨٥) أسعد طلس : المصدر المذكور ، ص ٧٨

(٨٦) الأهواني : التربية في الإسلام ، ص ٥٣ .

ان وجه العناية هنا هو متى تعلم الصبي القراءة والكتابة حتى يستطيع أن يسجل ما يملأ عليه .

ان الدكتور الاهوانى عند تقسيمه لليوم المدرسى يقول :

وتوزيع العلوم على اليوم المدرسى كالنظام الآتى :

أ - يدرس الحبيان القرآن من أول النهار في وقت مبكر حتى الضحى .

ب - يتعلمون الكتابة من الضحى الى الظهر ... الخ (٨٧) .

ونفس التقسيم تقريبا ، يضعه الدكتور طلس فيقول : « كان من العادة أن يذهب الطفل الى الكتاب مبكرا ، فيبدأ بيومه بحفظ حزب من القرآن الكريم ، وبعد أن يحفظه يبدأ بالنسخ والكتابة والتمرن على تجويد الحفظ الى وقت الظهر ، ثم يعود الى بيته للغداء ، أو يتخذى في الكتاب ، ثم يبدأ عمله ثانيا بعد صلاة الظهر حتى فترة العصر يقرأ ويكتب ، الى حين الانصراف الى أهله بعد العصر ... » (٨٨) .

ومن دراسة هذا التقسيم يتبين استجابة أن يكتب الطفل ، وخاصة في الأعوام الأولى ، ما يتلى عليه من آيات القرآن ، بسبب الصعوبة في تعلم القراءة والكتابة .

ويمكن لنا أن ننصور حلا للمشكلة ، بأنه خلال الأعوام الأولى ، يعتمد المعلم على التلقين والتحفيز ، في الوقت الذى يعمل فيه على تعليم الطفل القراءة والكتابة ، الى أن يصل الى مستوى يسمح له بكتابة ما يملأ عليه مباشرة ، ليتولى حفظه بعد ذلك ، أو أن يتمكن من القراءة في الصحف . هذا ولقد نص ابن سحنون على أن من واجبات المعلم « أن يجعل للأولاد وقتا يعلمهم فيه الكتب » (٨٩) ، ويفضل ابن سحنون أن

(٨٧) الاهوانى : نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(٨٨) طلس : المصدر المذكور ، ص ٧٨ .

(٨٩) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ١٠٠ .

يكون ذلك انونت من النسخ الى وقت الظهور تقريبا فيقول : « ولجعل الكتاب من النسخ الى وقت الانقلاب » (٩١) *

ويذهب الدكتور أحمد شلبي الى رأى آخر يقسم تلك المرحلة من التعليم الى قسمين ، أو يفرق في الكتاب بين نوعين : نوع أولى لتعليم القراءة والكتابة فقط ، ثم ينتقل منه الطفل بعد ذلك الى تعلم القرآن وبقية العلوم في مكتب آخر ، وأورد طائفة كبيرة من الآراء التي يستند عليها ، وإن كان من الواضح أن ذلك النوع من المكاتب ، أن كان قد وجد ، كان في المشرق فقط ، حيث لم يأت الدكتور شلبي بأى نص ، يمكن أن يستدل منه على وجود نوعين من المكاتب في الأندلس (٩٢) *

أما بالنسبة للأندلس ، فأعتقد بوجود نوع واحد من المكاتب ينتم فيه تعليم القراءة والكتابة ، والقرآن ، وبعض العلوم الأخرى كما سبق أن أوضحنا وعلى ما يبينه صراحة ابن خلدون (٩٣) *

بعض النواحي التربوية في المرحلة الأولى :

يرى ابن عبدون أن التعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف ، فإنه كالرياضة للمير الصعب الذي يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ، ويقبل التعليم (٩٤) *

ولقد أعطى المعلم سلطة واسعة ، أن لم تكن مطلقة على الأولاد ، رفعته الى مكانة الوالد بالنسبة لهم ، فملاوة على مسؤولياته التعليمية ، فهو مسئول أيضا عن النواحي التربوية ، وأهم ما يجب أن يكون موضع اهتمام المعلم : تعليم الأولاد الصلاة ، وطاعة الوالدين ، والسعد عن

(٩٠) ابن سحنون : نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(٩١) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٤٤ - ٥٨ .

(٩٢) انظر مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ١٢٤٠ - ١٢٤١ .

(٩٣) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون .

الأخلاق الفاسدة ، وله الحق في عقاب الأولاد بالضرب لتعليمهم على هذه الأخلاق الحميدة ، وهنا شروط كثيرة نتمسح أن يسرف المعلم في عقاب الأولاد لأن ذلك مضر بالمتعلمين ، ويقول ابن خلدون في ذلك :

« ان ارحاف الحد في العقوبة ، مضر بالتعليم ، سيما في أصغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرياه بالفسف والفقر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به الفقر ، وضيق على النفس في انسياطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاها إلى الكسل ، وحمل على الكذب والنصت ، وهو النظام يغير ما في ضميره خوفا من انسياط الأيدي بالفقر عليه ، وعظمه المكر والخديعة لذلك ، ومارت له هذه عادة وحلقت ، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والفقر ، وهي الحصة والمدافعة عن نفسه ومثله ، وصار ميالا على غيره في ذلك ، بل وكسبت النفس من اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، غارت كس ، وعاد أسفل السافلين » (٩٤) .

ويرى السطفي أن لا يضرب الصبي الا تحت قدميه ، ثلاثا ، أو خمسة (٩٥) .

ولقد تحرر المربون الاسلاميون كثيرا من اعطاء سلطة الضرب الشديد إلى المعلمين ، وذلك لأهميتها في تفسية الطفل ، فابن سحنون يقول : لا بأس أن نضربهم على متافعهم ، ولا يجاوز بالأدب ثلاثا ، الا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك اذا أدى أحدا ، ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، ولا يجاوز بالأدب عشرة ، وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثا (٩٦) .

(٩٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ١٢٤٤ .

(٩٥) السطفي : آداب الحصة ، ص ٦٨ .

(٩٦) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٨٩ .

أما العقباني ، فيسرى ألا يزيد الكتب على ثلاثة ، فإن زاد على ثلاثة ، اقتضى منه (٩٧) .

وابن مرشد يقول : ولا يضرب صبيا بعصا غليظة ، تكسر العظم ، ولا رقيقه تؤلم الجسم ، بل تكون وسطا ، ويتخذ مجلدا عريض السير ، ويعتمد في ضربه على الانخاذ والآلية ، رأسه الرجلين ، لأن هذه المواضع لا يمتنع من الضرب فيها مرض ولا نائلة (٩٨) .

ولقد منع ضرب الصبي على ظهره أو على بطنه ، ويضرب فقط أسفل قدميه (٩٩) ، كما حددت الآجال التي يحاطب فيها الصبي ومنها : الهرب ، وعدم الحفظ ، إساءة الأدب والفحش في الكلام ، والقيام بالألعاب المحرمة كاللعب بالتمار ، وبصفة عامة القيام بأعمال شائنة ، وأكثر الأدوات استخداما لضرب الأولاد ، وأشدّها تسوة ، كانت الفلقة ، وأن اقتصر استعمالها على الأمور الكبيرة (١٠٠) .

كما أن على المعلم أن يراعى حاجات الطفل الأساسية ، كأن يسمح له بالانصراف لقضاء حاجته ، ولا يؤخره فيورثه بعض الآلام أو بعض الأمراض في جهازه البولي (١٠١) .

كما كان على المعلم أن يراعى وقت عدائهم وراحاتهم (١٠٢) ، ولم يكن مسموحا له باستخدامهم في حوائجه وأشغاله ، التي فيها عار عليه آباؤهم كحمل الحجارة أو نقل الزبل أو غير ذلك (١٠٣) .

(٩٧) العقباني : تحفة الناظر ، ص ٣٢٦ .

(٩٨) ابن مرشد : نظام الحسبة في الإسلام ، ص ١٣٨ .

(٩٩) المفراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .

(١٠٠)

(100) Canard, M. : Falaga (Arabica, 1954) ,

p. 331.

Ribera, J. : Ha de la ensenaza..., pp. 35,36.

(١٠١) المفراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .

(١٠٢) السبلى : آداب الحسبة ، ص ٦٨ .

(١٠٣) ابن مرشد : نظام الحسبة في الإسلام ، ص ١٣٨ .

وحيث أن المكتب كان يضم أولادا من سن متباينة فقد سمح لتعلم باستعمال بعضهم في تعليم البعض الآخر ، كأن يقوم طفل بأمر طفل آخر ، ولكنه لم يكن يسمح لطفل بعقاب طفل آخر ، حيث يقول ابن سحنون بأن « لا يولى أحدا من الصبيان ضرب غيره ، ولا يجعل لهم عربنا منهم ، إلا أن أن يكون الصبي قد ختم وعرف القرآن » (١٠٤) .

ولقد فصل المفاوى في رسالته تفصيلا مطولا عددا كبيرا من آراء المربين المسلمين في مسألة العقاب ، ولا أجد داعيا لذكرها هنا ، لعدم التحويل (١٠٥) .

ونقطة أخرى مهمة جدا في الناحية التربوية ، ويجب أن يراعيها المعلم في المكتب ، ألا وهي العدل بين الصبيان ، واجب عليه : العدل بينهم في جلوسهم وكتبهم وتجويدهم ، وعرضهم ، وتقليب ألواحهم وضبطها ، وإصلاحها (١٠٦) .

المعلمون :

يرى البروفيسور خوليان ريبيرا أن التعليم في العالم الاسلامى « قد بدأ بأكبر الشخصيات الاسلامية ، وأكثرهم نبلا وجاها ، ثم مضى يبسط على مدار الزمن ، حتى استقر في أيدي أكثر أفراد المجتمع وضاعة وسخالة ، والسبب في ذلك : أنه في الأعوام الأولى من عمر الاسلام وحسب مايقول ابن خلدون ، كان التعليم يتركز في الرواية الى الآخرين ، الأوامر والنواهي التي سمعت من فم المشرع ، وكذلك إيصال مبادئه ، وبصورة مجانية محضة . ولقد كان عظماء الرجال ومشايخ القبائل : ممن

(١٠٤) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٩٨ .

المفاوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٣ .

(١٠٥) انظر : المفاوى في جامع جوامع الاختصار — الصفحات من

٣٩ — ٤٧ .

(١٠٦) نفس المصدر ، ص ٤٦ .

تسلطوا من أجل نشر الدين الذي أوحى به الله إلى نبيه ، هم الذين قاموا بتعليم القرآن ، الذي كانت تعاليمه ، من الأساس القوي لأخلاقهم وسلوكهم . ولقد قاموا بهذه الطريقة أو بهذا الجهد دون أن يتوقفوا لحظة أمام رأى شك قد يثور في نفوسهم منيعة الاحساس الشخصي أو الكبرياء . والدليل أمامهم أن إنبيى عليه السلام — عند وداعه لوغود القبائل العربية ، أحجبتهم بمجموعة من أكابر صحابته ، وكلف هؤلاء بتعليم هذه الشعوب الدين الذى حملته إلى الانسانية ، ولقد عهد بهذه المهمة إلى عشرة من أكابر صحابته ، وبعد ذلك أتى أناس ممن سوا أهل مكانة .

ولكن عندما انتشر الاسلام بين أمم كثيرة ، وكان من الواجب أن يستخرج من الكتاب الشريف أقصى ما يمكن لحل المشكلات التى نجت أمام المحاكم والقضاء ، تطلب هذا الأمر تعليما مستمرا وثابتا ، مما جعل من المهنة عملا يمكن الارتياق منه ، ورؤساء القبائل اضطروا ، اهتمامهم بالمحافظة على السلطة داخل الامبراطورية وعلى سيطرتهم الانكسبية ، الى أن يهجروا العلوم الى هؤلاء الراغبين فى التخصص فيها ، منتقلة بذلك الى أيدي ليس لها مكانة كبيرة وموضع احتقار انبلاء كبار الشخصيات . وهذه الآراء ، التى عرضها أكبر مؤرخى الاسلام اذا بصر ، يمكن تطبيقها على أسبانيا ، مع بعض التحفظات » (١٧) .

ثم يمضى المستعرب الأسباني متكلمًا عن أسبانيا ، شارحا كيف بدأ التعليم فيها على يد كبار الناس مجانًا ، ثم تحول الى مهنة يرتقى منها ، قائلا أن ذلك قد يرجع تقريبا الى عهد الحكم المستمر . (١٨) .

والحقيقة أن معلمى المرحلة الأولية ، قد تعرضوا لانتقادات كثيرة

(157) Ribera, J. : Ha de la ensenanza los musulmanes expandes. pp. 30,31.

(108) Ribesa, J. ; Op. Cit., pp. 31,32.

يسبب بعض التمرقات السيئة ، التي ارتكبها بعد الدخلاء على المينة
وحيث أن تعليم الأولاد القرآن ، والقراءة والكتابة ، قد بدا لكثير من
الناس أنه عمل سهل ، فلقد لندس عدد كبير من المعلمين في هذه المينة
متخذين منها حرفة ، وهؤلاء تسببوا في عدد كبير من الحماقات ، التي
أنتجت موضوعها أدبيا طريفا ، وخاصة في المشرق .

لكن دراسة مكانة معلمى الكتاب في الأندلس ، من خلال التراجم
الجملة والوافرة التي احتفظت لنا بها كتب التراث الأندلسي تسمح
لنا بأن نرسم صورة حقيقية للمعلمين ، بعيدا عن ترهات الأدباء ،
أو قصائد الشعراء .

وقبل أن نتقل الى الجانب التاريخي ، أود الإشارة إلى أن
المعلمين في الأندلس لم يسلموا من بعض الاتهامات الأدبية ، مثل تلك
التي صجها عليهم الوزير أبو عامر بن سعيد ، ونظماها إلينا ابن بسام ،
حيث يقول : « يقوم من المعلمين بقرطبنا ، ممن أتى على أجزاء من
النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب
البحران ، ويرجعون إلى فطن حمئة ، وأذهان حدثة ، لا منفذ لها في
شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان . . . » .

وفي مجال آخر يقول :

« ومن دليل تقصير عناية المعلمين ، أنهم لا يفكرون أن يجعلوا ما
يخطونه من المعرفة تمثيلا ، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفا وانما
تفسو بها أنفاسهم فسوا ، بين تلاميذهم . . . » .

والنص يهتوى على سبب واحتقار كبير لأجد داعيا لذكره هنا ،
ولكن كما قلت ، المسألة هنا موضوع أدبي لا يمكن التحويل عليه كثيرا
في النواحي التاريخية (١٦) .

(١٦) ابن بسام : النخبة (القسم الأول) — المجلد الأول ،

ولست أعنى بذلك أن كافة معلمى المرحلة الأولى فى الأندلس كانوا أبرياء تماما ، من التهم الموجهة الى معلمى الأطفال فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، ولكن أريد أن أقول ان أخبارهم السيئة ، على الأقل لم تنتشر على الملا بتلك الصورة المظلمة ، التى يقدمها الجاهظ مثلا عن معلمى الكتاب فى المشرق .

وفى الأندلس نرى ابن عبدون الأشبلى ، ينتقد بعض المعلمين ، لكن بصورة مهذبة ورقيقة فيقول :

« ويجب أن لا يكون المؤدب عزبا ولا ثسابا بل يكون شيخا خيرا دينيا عفيفا ورعا قليل الكلام والنسوة الى استماع ما لا يعنيه ، وأن لا يحضر الجنائز البعيدة ، ولا يكثر من البطالة ، ولا يهمل الصبيان ولا يزول عنهم الا لأخذ العدا والوضوء ، ويكون راثيا فى مكانه محافظا على حوائج صبيانه ، ويجب للحاكم والقاضى ، اذا رأوا مؤدبا يكثر من الاقبال اليهما فى الشهادات ، أن يسألاه عن الحضار ، فان كان صاحب محضره فلا تقبل شهادته لأنه إنما يطلب الظهور ، وأن يتسم باسم العدالة ، ليرتضى أو تودع عنده الودائع ، وينال رفعة الذكر والشهرة فى الخير ، وهو عنهما بعيد فان لم تكن عنده محضرة وعرف خبره ، وسمع القاضى حسن الثناء عليه قبله ، وانى لأعرف منهم جماعة بالوصف الذى وصفت ، فيا أسفا عليهم ، مساكين » (١١) .

هناك أيضا بعض الاعتقادات الأخرى التى وجهت الى هؤلاء المعلمين تتناول بعض تصرفاتهم الشخصية أو أساليبهم التعليمية .

وعلى الرغم من هذا كله ، فلقد تمتع المعلمون ، ومن بينهم معلمو الكتاتيب ، بمكانة اجتماعية طيبة ، وتمتع بعضهم بمكانة اجتماعية عالية جدا .

وأول مظاهر التقدير في الأندلس لهؤلاء ، أن لقب « معلم كتاب » أطلق عليهم ، وتصدر أول ترجماتهم ، وبينان فضائلهم ، وذلك دليل على مكانة هؤلاء ، يقول ابن الفرضي أن :

محمد بن عبد الله بن محمد البهراني المؤدب (توفي ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) من أهل قرطبة ، كان معلم هجاء ، وكان خير الرواية ، حدث وكتب عنه غير واحد من أصحابنا (١١١) .

وحبيب بن أحمد بن إبراهيم المتوفى ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م ، أنه كان معلم كتاب ، وحدث عنه أحمد بن عون وغيره (١١٢) .

ويشير ابن الخليل إلى أحمد بن عبد الملك العدوي قائلاً : « وهو اليوم من مطمى الكتاب » (١١٣) .

وهناك مئات التراجم التي تتحدث عن المسلمين والمؤدبين في الأندلس ، ذاكرة فضائلهم وعلمهم وشيوخهم وتلاميذهم ، ولا أجد داعياً لأذكرها هنا. (١١٤) .

علاوة على ذلك فإن المستوى الثقافي لمعلمي الكتاب في الأندلس كان مرتفعاً نسبياً ، ويفسر ذلك كثرة الترجمات الواردة عنهم ، بل أن بعضهم قد ترك آثاراً ثقافية كبيرة ، فيقال عن عمر بن عبد الله الرعيني ، من أهل « رية » أنه سكن قرطبة ، وكان يكنى أبا جعفر جعفر (توفي ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) ، كان معلم كتاب ، وكان رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً ، حدث عنه القاضي بونيس ، في غير موضع من تصنيفه (١١٥) .

(١١١) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

(١١٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ١٠٧ .

(١١٣) ابن الخطيب : الكنية الكائنة ، ص ٢٧٨ .

(١١٤) انظر على سبيل المثال في كتاب علماء الأندلس فقط السجلات

٩ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٧٦ ،

٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ (طبعة كوديرا) .

(١١٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ .

أما محمد بن حمد - المعروف بالأسييلي - من أهل قرطبة (المتوفى ٥٣٢٥/٩٣٦ م) ، فقد كان معلم كتاب ، روى عن محمد بن وفاق وغيره ، وكان يجتمع إليه أهل الحسنة والعلمون ، ويقروءون عليه ، وكان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد ، ويتأخذ جوايزه (١١٦) .

ومن هذه الملاحظة يمكن أن نستخلص نتيجتين هامتين :

أولاً : أن بعض معلمى الكتاب كانت تصل به ثقافته وعلومه الى درجة تجعله يعطى من وقته لإرشاد زملائه المعلمين وتوجيههم أو تثقيفهم في القراءات وغيرها ، كما أن المعلمين من تلاميذهم كانوا يبعون الى تحسين مستواهم الثقافى دون خجل ، ويجلسون الى واحد منهم يدرسون على يديه .

والثانية : الاهتمام الذى قدمه بنو أمية في الأندلس للتعليم الأولي وللمعلمين ، وذلك بالسماح لهم ، بأن يستقنوا في مجالسهم وتسيديم الجوائز لهم ، مما يعتبر دليلاً على قيمة المعلم ومكانته الاجتماعية .

دليل آخر على أن مهنة تعليم الأطفال لم تكن في يد أكثر طبقات المجتمع سفالة ، بل العكس من ذلك مارسها رجال من الطبقة العالية جداً ، هو أن الوليد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الناصر خرج من الأندلس ، واشتغل في برقة بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن (١١٧) .

ومن ناحية أخرى فإن الخليفة المعطى ، خليفة ميورقة ، انتهر فرصة غياب مجاهد العامرى ، في سردانية في عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م ، وحاول

(١١٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١١٧) المقرئ : النسخ ، ج ٣ ، ص ٤١٢ .

الاستئثار بملكه ، ولكن شعيب ميورقة لم يؤيده ، وعلم مجاهد به . فذا
كله ، فأمر حين عودته بعزله وارساله الى بجاية حيث استقر بها مع
لصبيان البربر (١١٨) .

كما أن مينة تأديب الصغار يمكن أن تكون سلما يرتفع بصاحبه
الى مكانة عالية ، فمحمد بن يحيى بن عبد السلام الأردى ، قدم قرطبة ،
فلزم التأديب في داره ، ثم انتقل الى أحد الحديريين ، ثم استخدمه
عبد الرحمن الناصر ، لتأديب المغيرة (١١٩) .

وأخيرا فان الأدب الأندلسي لم ينس أن يبجل هذه المهنة والقائمين
بها ، فلقد كتب صاحب الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الى حديته
أبى عبد الله البتيم رسالة تقتطف منها :

« وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ،
والحنين الى العهد القديم ، فسرت باستقامة حاله ، وفعل ماله ،
وان لاحظ اللاحظ ، ما قال الجاحظ ، فاعتراض لايرد ، وقيلاس لايطرد ،
حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالاضنك ولا بالجديب ، معاهدة الاحسان
ومشاهدة الصور الحصان ، رعيانا أن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وأنى
لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل
مسيطر الدرة ، متفطب الأسرة ، متنمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو الى
مكتبه كالأمير في موكب ، حتى اذا استقل في قرشه ، واستوى على
عرشه ، وترنم بتلاوة قالوته وورشه ، أظهر للخلق احتقارا ، وأزرى
بالجبال وفارا ، ورفعت اليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم

(١١٨) العبادى : السقالية في اسبانيا ، ص ٢٦ .

(١١٩) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٣٦ - ٣٤٠ .

— Al — Abbadí : Los eslavos en España, p. 26. En sexto
ara de, p. 26.

والمظلوم ، فتقول كبرى في ايوانه ، والرشيدي في اوانه ، أو الحجاج
بين أعوانه » (١٢٠) .

أجرة التعليم :

مسألة الأجر على التعليم من المسائل المعقدة ، على الأقل من
الناحية النظرية ، حيث أن الرسول عليه السلام قد ساء بتعليم الناس
القرآن ، دون أن يسأل أحدا أجرا ، وتابعه على ذلك الصحابة ، وعدد
كثير من التابعين ومن جاء بعدهم ، وهناك الكثير من الأحاديث الحاثثة
على التعليم مجانا وخاصة القرآن الكريم ، وختم الى القرآن أحاديث
رسول الله ، وذهبت طوائف كثيرة من العلماء والفهاء ، الى أنه لا يجوز
قبول الأجر على تعليم القرآن والحديث .

وتطورت الأمور وامتدت لتشتمل على اندراستات أندينية عامة
وقال الناس ان التعليم يجب أن يكون مجانا ، والأجر الوحيد المقبول
على ذلك هو جزاء الله سبحانه وتعالى في الآخرة ، وسار على هذا
المنوال ، عدد كبير من معلمي المسلمين ، سواء الأغنياء منهم والفقراء .

ومن ناحية أخرى ، فاننا نجد أن عددا كبيرا أيضا من العلماء
ومن بينهم الأندلسيون ، يباركون أخذ الأجر ، معللين ذلك بأن من
الضروري أن يوجد من يقوم بتعليم أبناء المسلمين ، وأنه لابد لضمان
ذلك من دفع أجر على التعليم ، ويرى الدكتور أحمد شاذلي أن فكرة
اعطاء المرتبات لمن يخدمون العلم ، ويسهمون في رفع المستوى الثقافي ،
قد بدأت في عهد مبكر ، قد ترجع الى عهد أبي بكر ، حين جلس بعض
الناس في المساجد ليسمعوا الناس بعض الأشياء التي لم يكن المفسدون
منها خدمة العلم ولا وجه الله ، ثم لاستعانة المسلمين بخبر المسلمين .
للقيام ببعض الأعمال الخاصة مثل الترجمة وغيرها ، وأن هذه الفكرة
تطورت مع الزمن ، ونسى الناس الحقائق الأولى الخاصة بالتعليم

مجانا ، خدمة لله ، وأصبح دفع المرتبات للمدرسين شيئا عاديا ، أيا كان الموضوع الذي يدرسونه ، وأيا كان الدين الذي يعتنقونه (١٢١) .

ودراسة الكتب التي تناولت تاريخ التربية الإسلامية ، نعطينا فكرة واضحة جدا عن أن المستوى الاقتصادي لمعلمي الكتاب في المشرق كان مستوى متواضعا ، إن لم يكن فقيرا ، ويورد الدكتور شلبي أمثلة كثيرة تدل على ذلك ، حتى في صقلية فإنه يورد ما ينعيه ابن حوقل على معلمي الكتاتيب في صقلية رضاهم بشطف العيش ، وقلة الدخل ، إذ ما كان يتجاوز إيراد الواحد منهم ، عشرة دنائير في العام ، بل ربما لا يصل إيراده إلى هذا الحد (١٢٢) .

أما في الأندلس ، فلقد أفتى الفقهاء بجوار الأجر على تعليم القرآن ، وخاصة ابن حبيب ، وابن حبيب هو فقيه الأندلس ، ولآرائه التشريعية مكانة خاصة ، ولقد برر قبول الأجر على العكس مما عمل به النصارى الأولون قائلا : وتأويل النهي أن ذلك كان في مبتدأ الإسلام وحين كان القرآن قليلا في صدور الرجال ، غير ناس ولا مستفتين في الناس وكان الأخذ على تعليمه يومئذ في تلك الحال ، إنما كان ثمنا للقرآن أما بعد أن صار فاشيا في الناس ، فقد أثبتوه في المصاحف ، وصارت المصاحف وما فيها مباحة للجاهل والعالم . وللقاري وغير القاري ، غير محجوبة ولا ممنوعة ، ولا مطلوبة لغوم دون قوم ، ولا مخصوص بها قوم دون غيرهم ، فإنها الاجارة على تعليمه اجارة البدن المستغل بذلك ، وليس ثمنا للقرآن (١٢٣) .

وكذلك ، نستدل على أن الأندلسيين قد قبلوا بالأجر : من مجموعة الوثائق والمعقود والآراء التشريعية الصادرة عن ابن حبيب وغيره من

(١٢١) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٢٣٦ .

(١٢٢) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٢٣٩ ، ننسلا عن :

ابن حوقل : صورة الأرض ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(١٢٣) أحمد فؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ، ص ٢١٨ .

تاريخ التعليم في الأندلس

عقهاء الأندلس ، تلك الوثائق المستخرجة من بعض كتب الفقه ، التي نشرها البروفيسور الأسباني خوليان ريبيرا ، ضمن كتابه عن تاريخ التعليم بين الأسبان المسلمين ، ونعيد نشرها ضمن هذه الرسالة بعد أن اطلعنا على الاصل المخطوط لها بمدرسة الدراسات العربية بمطريد ، بفضل تعاون الدكتور فرناندو دى لاجرانزا « مدير المدرسة » .

لكن على الرغم من كثرة البحث والتنقيب في المصادر التاريخية الأندلسية ، فأننى لم أتمكن من العثور على البيانات الكافية التي تمكنني من الحكم على المستوى الاقتصادي لمعلمي الكتاب في الأندلس بدقة وإافية ، وعلى العموم ، اذا كانت كتب الأدب أو التاريخ قد خدمت صورة مظلمة عن حياة معلمي الكتاب في المشرق وفي صقلية ، فأننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم في الأندلس ، لأن مصادرنا الأندلسية ، سواء الأدبية والتاريخية منها ، لم تشر إلى مثل هذه الأجوال السيئة ، بل إن ما يمكن أن توحى به ، قد يكون العكس من ذلك تماما .

في الأندلس لم تغفل كتب التراجم والتاريخ أخبار معلمي الكتاب بل ذكرت أسماء الكثيرين منهم ، مصحوبة بأطيب الألفاظ والصفات العلمية ، وسبق لى الإشارة إلى بعض هذه الأسماء (١٢٢) بل أننى أشرت إلى قيام بعض الشخصيات النبيلة بتعليم الأطفال مثلما قام به الخليفة المعطى .

أما من ناحية الأجر فقد بدأ المعلمون في قبوله في فترة مبكرة من تاريخ إسبانيا الإسلامية ، وأول المعلومات التي بين أيدينا في هذا الشأن هي التي أوردها الزبيدي ، عند حديثه عن الغازي بن قيس ، الذي كان ملتزما بالتأديب بقرطبة أيام دخول عبد الرحمن الداخل الذي حكم في الأندلس عام ١٣٨ هـ / ٧٥٧ م ، فيقول : ذكر محمد بن عمر بن لباية المتوفى ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، أن رجلا حاور بعض المؤدبين في اللحظة

(١٢٢) انظر للإشارات الواردة عند الحديث عن المعلم ، في نفس هذا

(والحذقة هي ما يدفع للمعلم عند تعليم الصبي القرآن) فمنعها المؤدب ، غناطره في ذلك : وتعجب له المؤدبون بقرطبة ، وأنفقوا أن ينفق عليهم في ذلك باب منع ، فأتوا غازي بن قيس ، فقالوا : يا سيدنا — نعرفنا له بالتأديب — عرض عرض لنا كيت وكيت ، فقال : يفرمها جابرا قميئا ، ونفى لهم بذلك ، إذ هو مما جرى عليه أمر الناس (١٢٥) .

وعبارة « إذ هو مما جرى عليه أمر الناس » تدل على أن دفع الأجر للمعلمين كان جاريا في الأندلس حتى قبل هذا التاريخ .

ومن ناحية أخرى ، لم أجد من البيانات ما أستطيع أن أحدد به بالضبط ما كان يدفع من أجر للمعلم ، ولكن الشائع هو أن ذلك كان يختلف من معلم إلى آخر ومن صبي إلى آخر حسب المكانة الاقتصادية لوالد الطفل وشهرة المعلم ، ويقول المستعرب الأسباني في ذلك الأمر :

والمعلم ، من الممكن أن يكون أي شخص يرغب في التخصص في المهنة ، يتفق مباشرة مع الوالد أو الصبي على المادة التي سيعلمها للطفل ، والوقت وطريقة التعليم وشروط الدفع . . الخ ، حيث أن العقد بينهما عقد حر وخاص .

وبصورة عامة — يواصل المستشرق الأسباني — فان العقد كان يبرم لمدة عام مع الوضع في الاعتبار مصلحة الطرفين ، أما المرتب وطريقة الدفع ، فقد كانت العادة أن يكون جزء منها نقداً ، وهذا يدفع شهريا واليضع عينا أي من الحبوب ، والعادة أنيا كانت تتراوح بين كيلتين أو ثلاث من القمح ، ونصف مكيال من الزيت ، وفي مقابل ذلك ، يعد المعلم ، ببذل كل طاقته في تعليم الطفل .

ولقد كان الشائع جدا تقديم الهدايا للمعلم في العيدين ، وأن تحمل ذلك المشرعين على الافصاح كثيرا بأن هذا ليس ضروريا

أو إجبارياً ، والحقيقة أنهم لم يكونوا يشترطون ذلك أو يطلبونه ، حقاً مسلماً .

وفي أحيان أخرى ، بدلاً من أن يتعاقد مع المعلم لمدة عام ، أو لعدة شهور ، فإنه كان يتعاقد على كمية محددة أو جزء محدد ، يتم تعليمه ، وهذا كان يحمل المعلم ، على أن يعلم الطفل مادة ، أو جزءاً من مادة ما ، وفي هذه الحالة يجب التأكيد على أهلية الطفل للتعلم حتى لا يتخدع في الثمن وبالتالي يتحصن الوالد ضد شكايات المعلم مستغنياً والتي قد يقدمها ، متعللاً بعدم قدرة الطفل على التعلم (١٢١) .

لكن هناك طريقة أخرى كان يتم بها دفع مرتبات معلمي الكتاب في الأندلس ، وإن كنا نجول كذلك الكمية أو النوعية التي كان يتم بها الدفع ، أقصد بذلك المرتبات التي كانت تدفع لمعلمي الكتاتيب ، من الأراضي أو العقارات المحبوسة على هذا السبيل ، فإذا كان الحكم المستنصر بالله قد أوقف حوانيت السراجين لدفع مرتبات معلمي الـ ٢٧ مكتباً التي أنشأها في قرطبة ، فلماذا وأن هناك كثيراً من الأغنياء قد قاموا هم أيضاً بتقليد الحكم في ذلك ، وأنهم تولوا دفع مرتبات المعلمين (١٢٢) .

وفي مقابل الأجر الذي كان يتقاضاه المعلم كان عليه أن يستأجر الكتاب ، وأن يتحمل كل تكاليف المكان .

هذا ولقد أفتى الفقهاء بجواز الشراكة في الكتاب ، بل فضلوها ذلك ، لأنه في حالة مرض واحد منهما يمكن للثاني أن يحل محله ، وهناك

(126) Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes Espanoles, pp. 24, 35.

(١٢٧) انظر :

Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes espanoles, p. 32.

من فضل الشركة على أن يكون أحد المعلمين للقرآن ، والآخر للغة العربية ، وفي حالة المشاركة حدد الفقهاء نصيب كل منهما من الدخل ، أما حسب عمله ، أو حسب علمه .

تعليم البنات في المكتب :

بالنسبة لتعليم البنات في المكتب في الأندلس لم أجِد من النصوص ما يؤكد ذهاب البنت إلى المكتب ، والآراء الفقهية التي نقلت إلينا عن ابن سحنون والقابسي لا ترى أن تذهب البنت إلى المكتب ، على أن النهي عن تعليم البنت في الكتاب لا يعنى أنها لم تكن تتعلم ، فقد ألزم القابسي بضرورة تعليمها ، لضرورة معرفتها الدين والعبادات وقد جرت العادة على تعليم البنات داخل الدور .

واننا لنجد أسماء كثيرة لنساء أندلسيات ، تلمع بعد ذلك في مجائس العلم وفي مجالات الأدب والشعر مما يدل على انتشار التعليم بينهن في الصغر .

لكن ما هو مؤكد لدينا هو قيام عدد من النساء الأندلسيات بممارسة مهنة التعليم ، ومنهن ابنة حزم المعلم ، التي كانت تؤدب مع والدها وأخيها في دار واحدة (١٢٨) .

وكذلك ذكرت لنا « معلمة » أخرى اسمها « خنر » ولم يشر إلى أكثر من أنها كانت معلمة ، وقال الرازي أنها توفيت سنة ٣١٧ هـ / (١٢٩) .

(١٢٨) ابن الأثير : تكملة المعجم - ج ١ ، ص ١٢ ، ١٣ .
(ممارسة تدريس) .

(١٢٩) نفس المصدر .

والعلمة الثالثة اسمها غالية بنت محمد ، العلة الأندلسية — على
 حد ما يسميها ابن بشكوال (١٣) .
 أما الدور الأكبر للنساء في هذه المرحلة ، فقد مارسنه في بيوت
 الأمراء والأغنياء على ما سبق أن وضحت ، في تعليم الخاصة

الفصل الخامس

المرحلة التعليمية الثانية

تختلف هذه المرحلة من التعليم الاسلامى فى العصور الوسطى عن المرحلة التعليمية الثانية ، المتبعة حاليا فى مراحل التعليم بالمعالم الاسلامى المعاصر ؛ كما أنها بالطبع تختلف عن المفهوم الغربى للمرحلة الثانية ؛ وان تشابهت مع هذه المرحلة فى بعض الامور .

تشابه المرحلة التعليمية الثانية فى العصور الوسطى مثيلاتها فى العصر الحديث فى أنها تتجه الى طلبية فى من المراهقة ومراحل الشباب الاولى ؛ وتشابه معها فى أن الطالب يخرج من بيئته متجهاً الى المكان الذى يتلقى فيه التعليم - لكنها تختلف عن هذه المراحل فى كونها ليست مرحلة ثانوية تعد الطالب للحياة الجامعية ، على ما هو الحال فى المراحل الثانوية الحالية ؛ لكنها تعد مرحلة ثانوية وخفائية فى ذات الوقت ، حيث يستكمل الطالب خلالها تكوينه الثقافى ويتهجه بعدها الى العمل ، فهى فى حالات الغالبية الشائعة من الطلاب تعتبر مرحلة نهائية ، وان كانت فى حياة الكثيرين ، مرحلة يمكن أن تتبعها مراحل التخصص الدقيق ، أى ما يمكن أن يطلق عليه اسم المرحلة التعليمية الثالثة .

اماكن التعليم فى هذه المرحلة

(١) المنزل :

واصل المنزل دوره فى هذه المرحلة . بينما يمارسه فى المرحلة التعليمية الاولى ، لكن دور المنزل هنا كان أكثر تأثيراً ، حيث قام كثير من الآباء بالتدريس لأبنائهم . بل ان بعض التلاميذ قد اكتفوا فقط بمسار تعليمهم الآباء ، مرتفعين بذلك الى درجة علمية كبيرة ؛ ومن شتى النواحي تعلموا على أيديهم شتى ، على سبيل المثال لا الحصر .

عبد الواحد بن محمد بن دينار ، من أهل قرطبة ، توفي ٢٨٢ هـ /
٨٩٥ م ، سمع من أبيه ومن أخيه ، ورحل معهما ، ويبلغ مبلغ أكابر
أهله في العلم (١) .

وأحمد بن مسعود بن مفرج ، المتوفى ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، روى
عن أبيه ونفعه عنده (٢) .

أحمد بن محمد بن طلي بن محمد ، المتوفى ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ،
أخذ عن أبيه ، وتفتت عنده (٣) .

وممن انتصر على السماع عن والده ، ومع ذلك حاز شهرة
واسعة وصل إلى أن يكون تلميذ قرطبة ، التفتيه أحمد بن بقي
ابن مخلد الذي يقول عنه ابنه الفرغى : كان تلميذ قرطبة ، لا أعلمه
سمع من غير أبيه ، وكان زاهدا غافلا . توفي ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م (٤) .

وكذلك يقول ابن الفرغى عن محمد بن محمد بن عبد السلام
ابن نعلبة الخنسي من أهل قرطبة ، المتوفى ٣٥٣ هـ / ٩٤٤ م ، أنه
سمع من أبيه أكثر علمه ولا أعلمه روى عن غيره ، وكان مشاورا
في الأحكام ، وانفرد عن أبيه برواية كتب لم يروها غيره (٥) .

أما عن استخدام المنزل كمكان للتدريس خلال هذه المرحلة ،
فلقد كان شائعا أن يتخذ بعض المعلمين مكانا متفضلا في منزلهم
لاستعماله مقرا لتلاميذهم ، فبعد ذكر بعض طلبة ابن وضاح المتوفى
٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، أنهم كانوا في السماع عنده في غرفة له دخل عليه
رجل وأخبره بوفاة ابنه ، فلم يكثر له ، وأقبل على ما كان فيه

(١) ابن الفرغى : طباء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٨١ .

(٤) ابن الفرغى : طباء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٥) ابن الفرغى : طباء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

من امسك كتابه ، وأمر القارئ أن يتمادى في قراءته (٦) .

وحكى بعض أصحاب الفقيه أبى اسحق بن ابراهيم بن محمد
ابن باز المعروف بابن الفراز ، من أهل قرطبة ، المتوفى ٨٢٤٧ هـ / ٨٨٧ م ،
قال : كنا نسمع عنده في غرفة له إذ صعدت امرأة عجوز تسأله أن
يعينها في فداء ولد مأسور لها ببلد العدو (ثم يواصل حكاية القصة
الى أن يصل الى قوله) وبعد شهر ونحن قعود في تلك الغرفة
إذ صعدت العجوز ومعها فتى وقالت هذا ابني (٧) .

أما ابن خير الأشبيلي ، فلقد ذكر أنه قرأ المخلص لمسند موطأ
مالك بن أنس ، لأبى الحسن على بن محمد بن خلف القابسي الفقيه
رحمه الله — قرأه عليه في منزله ، وكذلك حدثه به الشيخ الفقيه
القاضي محمد بن عبد الحق بن عطية الحاربي — قرأه عليه في منزله
بالرية في ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م (٨) .

وأنه قرأ كتاب «النقض» على نفس الفقيه بمنزله في الرية (٩) ،
كما أنه قرأ كتاب « تفسير غريب الموطأ » لأحمد بن عمران بن سلامة
على الشيخ أبى الحسن يونس بن محمد بن مغيث — قرأه عليه
في منزله (١٠) .

ويبدو أن مسألة اتخاذ مكان في سطح المنزل للتعليم كان شائعا
أيضا في شمال أفريقيا — يحكى ابن خرخون عن حاتم بن محمد
ابن عبد الرحمن التميمي القرطبي المتوفى ٤٦٩ هـ / ١١٠٢ م ، قوله :

(٦) ابن حاصم : جنة الرضى في التسليم لما تدر الله وتفى —
المخطوط رقم ٢٦٤٨ ، ص ١٧٨ ، وانظر :

عباس : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٠ .

(٧) ابن حاصم : المخطوط المذكور ، ص ٢٣٩ ، وانظر أيضا : ترتيب
المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .

(٨) ابن خير : النهرسة ، ص ٩٠ .

(٩) ابن خير : نفس المصدر ، ص ٩١ .

(١٠) ابن خير : النهرسة ، ص ٩١ .

كنا عند أبي الحسن التابسي نحو ثمانين رجلا من طلبة العلم ، وكنا في عليه له (والعلية هي الحبرية أو المشرقية ، وهي غرفة عليا فطما على الشارع بحيث تبرز عن جدران البيت) ، فحضرنا اليها الشيخ يوما وتحدث عن عليه الضعوف ، فقام قائما ، وتنفس الصعداء ، وقال : والله لقد فطعتم أبيهري (١١) .

(ب) المسجد :

يعتبر المسجد أهم مؤسسة تعليمية اسلامية على الاطلاق ودراسة هذه المؤسسة في أي منطقة من العالم الاسلامي ، هي دراسة المكان الرئيسي للحياة الثقافية الاسلامية في أي فترة من فترات تاريخها ، والمسجد هو أقدم مؤسسة تعليمية اسلامية ، فلتد أسس الرسول المساجد ، بعد هجرته مباشرة ، وتابعه الناس بعد ذلك ، ولعل السبب الرئيسي في اتخاذ المسجد مركزا ثقافيا يرجع الى أن الدراسات الاسلامية في تلك الفترة المبكرة كانت دراسات دينية تتضمن تعليم الدين الجديد وتفسيره وشرحه ، وتوضيح أسسه وأحكامه ، وتلك العلوم ترتبط بالمساجد أو توثق ارتباطا ، بل لعلها جزء من العبادة ، ومن هنا كان من السهل على المسلم التوجه الى المسجد للتعلم في الدين وأداء الفروض الدينية .

والحقيقة أن المسجد قد لعب دورا أكبر بكثير جدا من كونه مجرد بناء ، لأداء فروض الدين ، وأكبر من كونه مركزا للتعليم ، فهو علاوة على ذلك كان مقر القضاء ، وموطن بيت المال ، وساحة الاجتماعات العامة . . الخ (١٢) .

ويرى الدكتور شلبي أن الذي دعا المسلمين الى التركيز بإنشاء المسجد هو احساسهم بأن البيوت الخاصة تخيق باجتماعاتهم

(١١) ابن بكوال : المسئلة : ج ١ ، ص ١٥٧ - ١٦٠ .

ابن فرموز : الديماغ ، ص ٢٢٥ .

(١٢) محمود (عهد الخليم) : المسجد وأثره في المجتمع الاسلامي .

ولا تسحبهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا — فيما يبدو — أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » إشارة إلى أنه لا يحتاج الداخل فيه إلى استئناس ولا استئذان (١٣) .

وهناك من يرى أن المسلمين قد أسسوا المساجد تقليدا لليهود والنصارى الذين كانت لهم بيوع وكنائس يعبدون فيها ، لكن الأكثر صوابا هو أن العرب في بنائهم المسجد ، لم يفعلوا أكثر من مواصلة تقليد عريق لهم في شبه الجزيرة يتمثل في اللقاءات والعبادات التي مارسوها قبل الإسلام ، في البيت الحرام أو الكعبة المكرمة التي أسسها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام (١٤) ، ولقد صلى المسلمون في الكعبة قبل هجرتهم من مكة إلى المدينة بالرغم من عداوة خريش لهم ، وأبذائها إياهم .

وأول مسجد بني في الإسلام هو مسجد « قباء » ويقال أن الرسول قد أسسه أثناء هجرته من مكة إلى المدينة ، وهناك من يقول أن بعض المسلمين الذين سبقوا الرسول في الهجرة هم الذين تولوا تأسيسه . وعندما وصل الرسول — عليه السلام — إلى المدينة كان أول عمل قام به هو بناء مسجده الذي عمل فيه بنفسه وكانت حلقات العلم تعقد في مسجد قباء ، كما كان من عادة الرسول أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم (١٥) .

وكرثت بعد ذلك المساجد وزاد انتشارها بتوسيع الإسلام وأصبحت العادة أن يبنى مسجد أو أكثر في كل مكان فتحه المسلمون أو في كل قرية أو مدينة أسسوها — روى أنه لما فتحت البلدان ، كتب عمر إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره بأن يتخذ مسجدا للجماعة ، وأن يتخذ مساجد للقبائل فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد

(١٣) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ١٠٢ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢ .

(١٥) شلبي : التربية الإسلامية ، ص ١٠٤ .

الجماعة ، وكتب الى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة يمثل ذلك ، وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر يمثل ذلك (١٦) .

أما في الأندلس ، فإنه يقال ان أول مسجد تم بناؤه بها هو « مسجد الرايات » الذي أسسه موسى بن نصير في الجزيرة الخضراء ويقول الإدريسي « الجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس في صدر الاسلام وذلك في سنة ٩٠ من الهجرة (٧٠٩ م) - افتتحها موسى بن نصير (١٧) من قبل الروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله ابن ونمو الرناتى (طارق بن زياد) ومعه قبائل البربر ، فكانت هذه الجزيرة أول مدينة افتتحت في ذلك الوقت ، وبها على باب البحر مسجد يسمى « بمسجد الرايات » : ويقال انه هناك اجتمعت رايات القوم للرأى (١٨) .

أما في باقى مدن أسبانيا الأخرى التى فتحها المسلمون ، فاقدم قاموا في البداية ، وبسبب ظروف الحرب ، بمشاركة المسيحيين كنائسهم ، واتخاذ جزء من هذه الكنائس مكانا للعبادة ، مثلما حدث في قرطبة . حيث شارك المسلمون النصارى في كنائسهم الكبرى ، المعروفة باسم « شنت بيجنت » ، وأقاموا في شطرنج مسجدا ركز قبلته حثث الصنعانى التابعى (١٩) .

هذا ولقد انتشرت المساجد في الأندلس انتشارا كبيرا جدا فقام الخلفاء والأمراء ببناء المساجد الجامعة في كل مدينة وفي كل قرية ، كما قام الأغنياء والعلماء والفقهاء ببناء مساجد خاصة بهم ومن الصعب جدا حصر العدد الذى وصلت اليه المساجد في الأندلس ،

(١٦) نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

(١٧) أخطأ الإدريسي في تحديد التاريخ ، ولكنه خطأ من النسخ ، إذ من المعروف ان عبور موسى الى الأندلس كان في عام ٧١٢/٧١٣ م .

(١٨) الإدريسي : نزعة الشقاق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١٩) عبد العزيز سالم : المسيرة الدينية بالأندلس ، دائرة معارف

الشعب ، رقم ٢ ، ص ١٠٧ .

ولكن يكفى الفاء نظرة واحدة على « قائمة أسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب « الصلة » لابن بشكوال (٢٠) ، لنرى أن المؤلف أشار إلى المسجد الجامع في قرطبة ٧٣ مرة وإلى جامع الزهراء ١١ مرة ، وأن الكتاب قد تضمن أسماء ٧٥ مسجداً خاصاً بأقامتها الأفراد أو بنيتها الماثلاث (٢١) . وإذا علمنا أن فتح بن ابراهيم الأموي المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م قد بنى بطليلة مسجدين ، أحدهما بالجبل البارد والثاني بالدباغين (٢٢) ، وإذا علمنا أن بمنطقة قرطبة فقط كان يأتى لصلاة الجمعة مع عبد الرحمن الثالث أكثر من ٣٠٠ فقيه ، يضع كل منهم القصاص على رأسه (ولا يضع القصاص إلا من حفظ الموطأ أو المدونة) من القرى القريبة لكي يحيطوا بالخليفة علماً بما يحدث في قراهم (٢٣) ، أمكن لنا أن نتصور الرقم الكبير ، لسدد المساجد في الأندلس . ويذكر أحد المؤرخين أنه كان بقرطبة فقط ١٣٨٧٠ مسجداً ، وأن ريع شقندة فقط ، كان به ٨٠٠ مسجد (٢٤) ، وعلى الرغم من اتساقى مع الدكتور حسين مؤنس على أن ذلك وهم من المؤلف وأن المؤلفين القدامى كانوا يبالغون في الأرقام كثيراً ، إلا أن ذلك الرقم يعكس حقيقة عامة وواقعية ألا وهي كثرة انتشار المساجد ووفرته في قرطبة . كما أن هذه الأرقام تمثل بالنسبة لهؤلاء المؤلفين على الأقل رقماً مثالياً .

ولقد قصدت من التركيز على كثرة المساجد في الأندلس ، أن أبين كثرة انتشار مراكز التعليم في الأندلس ، فليست كل مسجد

(٢٠) رولف ستجر : قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب « الصلة » لابن بشكوال — مجلة المعهد العرفى رقم ٢٥ — عام ١٩٧٠ م .

(٢١) انظر منشآت القصاص المذكور ، ص ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٢٣) القسرى : تنجح الطبيب ، ج ١ ، ص ٤٥٨ (طبعة احسان عباس) .

(٢٤) حسين مؤنس : وصف جديد لقرطبة ، ص ١٦٦ .

منها مركزا للتعليم ، وإذا وضعنا في الاعتبار أن المساجد الجامعية كان يدرس بها أكثر من معلم واحد ، بدليل أن الدور كان يقسم في المسجد الجامع بين الفقهاء ، كما كان هناك أكثر من مجلس للمعلمين في أنحاء المسجد المختلفة — أمكن لنا أن نقول بكل اطمئنان ، أن عدد المجالس التعليمية ، وبالتالي حلقات المعلمين قد زادت كثيرا عن عدد المساجد التي كانت قائمة في الأندلس .

وحيث أنه من الصعب حصر كل المعلمين الذين تولوا التدريس في مساجدهم الخاصة أو كل المعلمين الذين جلسوا للتعليم في مسجد واحد في وقت واحد أو في أوقات متقاربة ، فأننى أقدم هنا بعض الأمثلة على سبيل المثال — لا الحصر :

مفرج بن يونس بن مفرج بن محمود ، المكتب ، سكن قرطبة وكان يعلم بمسجد سرور (٢٥) .

محمد بن يوسف بن محمد الأموي المتوفى ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م كان من أهل الضبط ، والاعتقان ، والعرفه بما يقرأ ، وكان معه نصيب وافر من علم العربية ، وعلم العروض والحساب ، وأقرأ الناس بقرطبة في مسجده ثم خرج عنها في الفتنة واستوطن الثغر ، وأقرأ الناس به دهرا ، ثم انصرف الى قرطبة (٢٦) .

على بن أحمد بن أبى بكر الكنانى القرطبى كان مقرئا للقرآن العظيم ، كثير الاعتناء برواياته ، مجودا متقنا ، التزم الامامة بمسجده والاقراء فيه ٦٦ سنة الى أن توفى ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م (٢٧) .

(٢٥) شكيب أرسلان : الحال السندسية ، ج ١ ، ص ٧٢ ، بالنسبة لمسجد سرور . وانظر مقالة قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة ، في كتاب « الصلة » لابن بشكوال ، مجلة المعهد الحبرى بدمريد ، رقم ١٥ (١٩٧٠) ، ص ١٧٦ .

(٢٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .
(٢٧) الراشدي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، ج ١ ، ص ١٥٠ — ١٥٢ .

أما في المسجد الجامع بقرطبة فأشير إلى :

عبد الله بن عمر بن أيا ، من أهل قرطبة ، كان متقدما في الفتيا ، متطوعا في المسجد الجامع بقرطبة مع أبي زيد عبد الرحمن ابن إبراهيم ، كان نظره في القدر والعلم ، وكان موصوفا بالفضل (٢٨) .

محمد بن يحيى بن خليل اللخمي ، من أهل قرطبة ، توفي ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، كان حافظا للمسائل ، معتنيا في السوق بالرأى ، وكان يقنى في قرطبة ، ويجتمع اليه في المسجد الجامع للمناظرة (٢٩) .

عبد الله بن محمد المقرئ ، من أهل قرطبة ، توفي ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ، كان يقرئ على باب المسجد الجامع بقرطبة (٣٠) .

سليمان بن عبد الرحمن بن سليمان ، المتوفى ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م قرأ القرآن على الأنطاكي وأتقنه ، كان يقرأ عليه على باب المسجد الجامع ، وكان أحد أئمة المسجد الجامع ، وأحد المؤذنين فيه (٣١) .

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي ، من أهل قرطبة المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، رحل الناس اليه من جميع كور الأندلس ، واختلفت اليه في سماع الموطأ عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وكانت الدولة فيه في أيام الجمع بالغدوات ، فتم سماعه منه ، وسمعت منه كتاب التفسير لعبد الله بن تافع ، ولم أشهد في قرطبة مجلسا أكثر بشرا من مجلسنا في الموطأ إلا ما كان من بعض مجالس يحيى بن مالك ابن عايد (٣٢) .

(٢٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٢٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

(٣٠) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(٣١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٣٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

يحيى بن مالك بن عايد « من أهل طرطوشة » (٣٠٠ - ٣٧٥ هـ / ٩١٢ - ٩٨٥ م) ، قدم طالبا سنة تسعة عشر (٣١٩ هـ / ٩٣١ م) ورحل الى المشرق سنة ٤٧ / ٣٤٨ هـ (٩٥٨ م) ، ورجع سنة ٤٨ هـ ، حدثني أنه سمع بيفداد من ٧٠٠ رجل ونيف وجمع علما عظيماء لم يجمعه أحد قبله من أصحابه الرحل الى المشرق ، وتردد بالمشرق نحو من اثنتين وعشرين سنة ، وكتب عن طبقات المحدثين وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق ، وقدم الأندلس في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات من طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملئ في المسجد الجامع في كل يوم جمعة (٣) .

وتشير هاتان الملاحظتان سؤالاً هاما ، وهو أنه اذا كان كل من هذين الأستاذين قد خصص وقتا معيناً لتدريسه ، أو لتدريس كتاب ما ، فهل وجدت هيئة حكومية أو أهلية للقيام بهذا التنظيم ؟ ان الأهمية التي كان يتمتع بها مسجد قرطبة ، وكثرة العلماء الراغبين في ممارسة التعليم في هذا المكان العظيم ، توحي بضرورة وجود سلطة ما تعمل على السماح لمعلم ما بالقيام بالتدريس في هذا المكان ، كما تعمل على تنظيم هذه المسألة بصورة لا تسمح بالتعارض فيما بينها .

واذا كانت هاتان الملاحظتان اللتان أوردهما ابن الفرضي عن أستاذه يحيى بن عبد الله ويحيى بن مالك تبين لنا أن الأستاذ قد خصص وقتا من كل أسبوع لتدريس كتاب معين ، أقصد بذلك تخصيص صباح الجمعة لتدريس كتاب الموطأ أو أنه قد خصص وقتا لتدريسه ، مثل تخصيص يوم الجمعة لأملائه فان الملاحظة التالية التي أوردها عن سعيد بن كرسلبن ، المتوفى في حدود عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، تبين لنا أنه كانت هناك مواضع مخصصة لتدريس معلم ما ، فيقول :

كان شيخا نقيها ، وكانت فيه دعاية ، سبغ بقرطبة ابن رضاء وابن باز وغيرهما ، وكان يتحلق في المسجد الجامع بموضعه ويقرأ عليه (٣٠) .

ويؤكد ذلك بما لا يدع مجالا للشك ، ما جاء في ترجمة عيسى ابن عبيد الرحمن بن عقاب العافقي ، من أنه كان مقرئا مجودا ، قرأ القرآن طويلا بجامع قرطبة ، وأتى يوما الى مصطبة اقراه ، فأخذ يتنفل ، فلما رفع رأسه من سجوده وأراد النهوض الى القيام ، عثر في ثوبه فسقط على الأرض ميتا (٣١) .

ملاحظة أخرى يمكن تبينها من دراسة المساجد الجامعة في مدن الأندلس ، ألا وهي ضرورة وجود أحد كبار الشيوخ المعلمين لتولي التدريس بالمسجد ، وأنه اذا ما خلا هذا المكان بسبب الموت أو الهجرة أو الانتقال الى بلدة أخرى ، فان أهل المدينة أو الدولة كانوا يسعون لاحضار معلم آخر لكي يحل نفسه المكان .

فيقال مثلا عن أحمد بن خالد (المتوفى ٣٢٢هـ / ٩٣٣م) . انه عزم عليه في الانتقال الى الجامع يأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بدا ، وعمارته بنشر العلم ، بعد موت محمد بن ليابة . فأجاب الى ذلك بعد اباية شديدة (٣٢) . وكان أبو محمد بن أبي طالب المتوفى ٣٧٠هـ / ١٠٤٥م قد دخل قرطبة أيام المظفر بن أبي عامر ولا يؤبه بذكره الى أن نوه بمكانه ابن ذكوان الفاسي ، وأجلسه في الجامع فشرع عليه (٣٣) .

(٣٤) ابن الرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٣٥) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص ٥٠٠ .

(٣٦) اليعقبي : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٧٧ .
(٣٧) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .
اليعقبي : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٧٢٧ .
ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
تاريخ التعليم

عمر بن عبد الغنى المتوفى ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م — وكان قد استدعاه أهل مالقة بعد ارتحال السهيلي — وقبل بعد موته — للتدريس بها والاقراء مكانه ، فأجابهم الى ذلك ، واستقر بها الى أن توفى (٢٨) *

أما محمد بن يحيى بن على بن مفرج الأنصارى المالقى المتوفى ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م ، فقد جلس للناس بالجامع الكبير بعد أبى عبد الله الطخالى (٢٩) *

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكتانى (٦٥٠ — ٧٢٠ هـ / ١٢٥٢ — ١٣٢٠ م) ، أوجد زمانه علماء وتواضعا وثقافتا ، ورد على غرناطة مستدعى عام ٥٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ لهنسونا من الصلح من قراءات وفقه وعربية وأدب (٣٠) *

وبالإضافة الى ذلك ، يقال عن أحمد بن ابراهيم بن الزبير ، المتوفى ٥٧٠ هـ / ١٣٠٨ م ، أنه أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة وغرناطة وغيرها ، كان كثير الانصاف ، ناصتا في الاقراء ، خرج من مالقة ومن طلبته أربعون يقرعون كتاب سيبويه ، ثم عرض له أن السلطان تغير عليه فجعل سجنه داره ، وأذن له في حضور الجمعة ، فلما مات شيوخ غرناطة وشغل البلد من عالم رضى عليه وقعد بالجامع يفيد الناس (٣١) *

نقطة أخرى مهمة جدا فيما يتعلق بدور المسجد في الحياة التعليمية في الأندلس ، فعلاوة على كونه مقرا لممارسة التعليم فإن دراسة عشرات من تراجم علماء الأندلس يمكن أن توحى لنا بأن بعض هذه الملاحظات واضحة جدا ، في أن العلم كان يكن المسجد ،

(٢٨) المراكشى : الذيل والتكملة : السقر الخامس ، القسم الثانى ، ص ٢٥٣ .

(٢٩) السبولى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(٣٠) المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(٣١) السبولى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

وبعضها يشير الى الاقامة بحومة المسجد ، فان ذلك يبين أنه كانت تلحق بالمسجد بعض الحجرات لاقامة هؤلاء بها ، وخاصة اذا كانوا ممن يعملون في خدمة هذا المسجد ، أو أن هناك بعض الدور والمسارح التي كانت تجلس على المسجد لتخصيصها لذلك الغرض .

فيقال عن أحمد بن خالد ، فقيه الأندلس وعالمها ، أنه عند وضع كتابا في حق العلماء قبول جوائز السلطان ، حمله على وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه في قبول جوائز عبد الرحمن الناصر اذ نقله الى المدينة بقرطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع ، وقربه ، وأجرى عليه الرزق ، من الطعام والادام والناض (٤٣) .

على بن معاذ بن سمعان الرعيني ، بجاني ، كان لغويا شاعرا استقدمه الحكم المستنصر بالله ليتتبع من علمه ، وكان عنده جميع كتب عبد الملك بن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد سلمة نحواً من سنة ثم عاد الى بجانة مسكنه (٤٤) .

خلف بن على بن ناصر بن منصور ، المتوفى ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، قدم الأندلس من سبته ، وفدّم قرطبة وسكن مسجد متعة ، وتبعد فيه ، وسمع منه جماعة من علماء قرطبة وغيرها (٤٥) .

خلف المقرئ ، من ساكني طليعة ، توفي بعد عام ٤٠٨هـ / ١٠١٧م ، كان يسكن المسجد ، ويقرأ عليه ، وكان يحاول عن خبزه بيده (٤٦) .

أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي ، المتوفى

(٤٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٥٩ .

(٤٣) الأراكشي : الذيل والتكملة ، القسم الخامس ، الجزء الأول ، ص ٤١٠ .

(٤٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٤٥) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

٨٣٩٥/١٠٠٤م ، أتى مع أبيه الى قرطبة وهو ابن ثمانى سنين ، وكان سكناه بمسجد سرور واسمعه في مسجد شريح (٤٦) .

أما من الناحية التشريعية فقد كان من المستحب أن يبنى بجوار المسجد بعض السقائف لكي يتمكن الغرباء من المبيت بها ، وأحيانا تمارس فيها النواحي التعليمية ، وفي ذلك يقول ابن عبدون :
ولو قدر على بناء سقائف لمبيت الغرباء حوله لكان من الفخر للرئيس ولأهل البلد بذلك .

يجب أن يجلس القاضى في السقائف رجلا فقيها خيرا يعلم الناس مسائل الدين ، ويعظهم ، ويعلمهم الخير ، ويسوم له القاضى في الوصايا اذا وقعت أو الصدقات نصيبا ، ويكون مأجورا ، ولا يترك أحيدا يأكل فيه ولا ينام ، ولا يجهر بصوت الا بالقرآن ، ولا يدخله أحد بسلح ، فانه لم يأت لحرب ، وانما يأتى متذلا خاشعا راجيا ثواب الله . لا يترك أحد يقرأ في البلاطات الا القرآن والسنة ، وغبر ذلك من العلوم في السقائف (٤٧) .

أما مسألة بناء المساجد والمحافظة عليها ، فانها انقسمت الى قسمين ، الأول منهما هو المساجد الجامعة ، أو المساجد التي أسستها الدولة ، فليس من شك في قيام حكام الأندلس ببناء المساجد في جميع البلدان والقرى الأندلسية — بدأ هذا مع بداية الحكم الاسلامى في أسبانيا وظل حتى نهاية هذا الحكم ، ولم تغفل المصادر الحديث عن نشاط الحكام في هذا المجال ، فلقد أفاضت الحديث عن مساهمة أمراء بنى أمية في تأسيس المساجد في كافة بلاد الأندلس وخاصة دورهم في التوسيعات التي طرأت على المسجد الجامع بقرطبة حتى أصبح أكبر مسجد في غرب العالم الاسلامى .

(٤٦) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٤٧) ابن عبدون : الجيبة ، ص ٢١٣ .

فيقال مثلاً عن عبد المؤمن بن علي : الخليفة الموحدي ، أنه عندما دخلت سنة خمسين وخمسماية (١١٥٥) أمر بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده (٤٨) .

والانفاق على هذه المساجد والمحافظة عليها كان يتم إما من بيت مال المسلمين مباشرة أو من الأعباس الموقوفة على هذه المساجد ، ولم يتمكن من العثور على الوثائق الكافية المتعلقة بالوقف أو ما خصص منها لبعض المساجد المعينة ، فيقال مثلاً عن غرح بن حديدة ، بطليوسى ، المتوفى عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، أنه كان عالماً بالقراءات ، متصدراً للاقراء بها ، جرى بينه وبين أمير بلده ، المظفر أبى بكر محمد بن عبد الله ابن مسلمة بن الأفضى ما أوجب انتقاله الى أشبيلية فقدمياً فى إمارة المعتضد بن عباد ، ووافى حينئذ اكمال أمه السيدة بناء مسجدها المنسوب اليها ، فأجلسه المعتضد للاقراء به ، بعد أن أجرى عليه راتباً ونفقة من الأعباس ، فلزم الاقراء به الى أن توفى (٤٩) .

ولقد كان كثير من الأهالى يجسسون كثيراً من أراضيمهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد مثلاً فعلى عبد الملك بن حبيب السلمى (٤٣٨هـ / ٨٥٢م) ، الذى كان له أرض وزيتون بقرية بيرة (٥٠) ، وهى إحدى قرى طوق غرناطة ، وكان بها مسجد قراءته ، وحسب جميع ذلك على مسجد قرطبة (٥١) .

أما خرج بن أبى الحكم المتوفى ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م فقد حبس داره على طلبه السنة (٥٢) .

(٤٨) ابن أبى زرع : الأئیس المطرب ، ص ١٥٤ .

(٤٩) المراكشى : الذيل والشملة ، السطر الخامس ، القسم الثانى ،

ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

(٥٠) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٥١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٤٨ - ٥٥٣ .

(٥٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

من ناحية أخرى فإن اسم « صاحب الأحباس » قد ظهر في أكثر من ترجمة ، مما يشير إلى كثرة هذه الأحباس إلى درجة تحتم اعتبارها مهمة يعهد بالإشراف إليها كما هو الحال في التنظيمات الإدارية الأخرى فيقال عن محمد بن عمرو بن العاصي المصوفي ٥٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ، أنه انصرف إلى الأندلس وشهر بالعلم ، وكان موسراً وتولى الأحباس بقرطبة (٥٣) .

محمد بن سليمان بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م ، وهو من تلاميذ أبي بكر ، ابن صاحب الأحباس (٥٤) .

ويشير ابن الخطيب عند حديثه عن القيرى المحيطة بغرناطة والأملاك التي تتبعها فيقول :

وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها ، في الأرملة ، في العام بتقريب ، ومعظمها السقى الغبيط الممين ، العالي ، مايتا ألف ننتان وستون ألفا ، يضاف إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية ، ومواضع أحباس المساجد ، وسبل الخير ما ينيف على ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط ، خمسمائة ألف وستون ألفا ، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطاني ، ثلاثمائة ألف قدح ويزيد ويشتمل سورها وما وراءه من الأرجاء الطاحنة بالماء ، على ما ينيف على مائة وثلاثين رحي (٥٥) .

ولعل السبب في اختفاء هذه الوثائق ، هو الظروف الخاصة التي عاشتها الأندلس ، وتكفي نظرة واحدة على اليبانات

(٥٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

(٥٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ .

(٥٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

Villanueva, Mo. : Habices de las mezquitas de la ciudad de Granada y sus Alquerias. Madrid, — 1961.

Y véase también su obra : Casas, mezquitas y Teindas de los Habices de las Iglesias de Granada. Madrid, 1966.

الوافرة التي بقيت لنا عن مملكة غرناطة ، وهي الفترة الأخيرة والواضحة أيضا لتغطي غكرة واضحة جدا عن الأقباس التي خصصت للخدمات العامة وخاصة للمساجد : ولست أجد داعيا للحديث عن الأقباس في هذه المملكة حيث قامت الأستاذة « كازمن بيا نوييا » بدراسة دراسة واسعة مستوعبة (٥٦) .

أما عن المساجد الخاصة فلقد تولى أصحابها الانفاق عليها ثم أنها تمتعت بنصيب من دخل الأقباس .

وبالإضافة الى المنزل والمسجد ، قام بعض العلماء بالتدريس لطلبتهم خلال قيامه بأعماله الخاصة : وربما قام الطلبة بمساعدته في عمله خلال ذلك — قال الفقيه محمد بن عمر بن لبابة : كنت يوما عند أبي وهب عبد الأعلى في حبابه بقرب مقبرة قريش ، وكان يعتمرها بيده في نفر من الطلبة تسمع عليه إذ حضر غداؤه ، فيقدمه اليها لتأكل منه (٥٧) .

وهناك من الأماكن الأخرى ما ساهم في الحركة التعليمية : ومن هذه الأماكن الرباطات التي كانت تتخذ للبعد عن العمران والدفاع عن الحدود ، وقد مورست خلالها حياة كاملة بكل مظاهرها : وانتشرت الرباطات بصورة كبيرة على عهد مملكة غرناطة ، ربما بسبب تقدم حركة الاسترداد مما أدى الى زيادة الرغبة في العزلة والزهد ، وربما بسبب انتشار المبادئ الصوفية ، ولقد اتخذ التعليم في هذه

(56) Villanueva, Mo. : Habices de las mezquitas de la Ciudad de Granada y sus Alquerias. Ma. 1961.

وانظر ايضا كتاب المؤلف :

Villanueva, Mo : Casas, mezquitas y tiendas de las Iglesias de Granada. Ma. 1966.

(٥٧) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

Villanueva, Mo. : Rabitas Granadinas. pp. 79—86.

الأماكن صيغة معينة تميل الى الدراسات الدينية عامة ، والصوفية خاصة (٥٨) .

المنهج الدراسي

لم يكن لهذه المرحلة التعليمية منيج محدد ، يمكن أن يسير عليه الطالب ، لكنها تميزت بأتاحة الفرصة أمام الدارسين لكي ينهلوا من عدد واسع من المواد التعليمية ، ودراسة كتب التراجم تبين لنا أن المواد التعليمية التي كانت معروضة أمام الطلاب لتعلمها قد اتسعت لتشمل كل مناحي الثقافة المعروفة في ذلك الوقت . وإذا كان الطفل في المرحلة التعليمية الأولى قد وجد منهجا محددا يتمثل في حفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ومعرفة شيء من اللغة العربية والشعر العربي الجاهلي ، فإنه بعد الانتهاء من هذه المرحلة لم يجد نفسه مقيدا بتعلم مواد معينة ، بقدر ما وجد أمامه الفرصة لكي يكون ثقافته ويواصل تعليمه في النواحي التي توافق ميوله وقدراته العقلية . وإذا كان الطفل في المرحلة الأولى ، قد وجد نفسه مرتبطا بالمكتب يغدو اليه يوميا ملتزما بساعات الحضور والانصراف فانه في هذه المرحلة قد تخلص من تلك القيود ، ووجد أمامه حلقات المعلمين في المساجد وفي غيرها يختار من بينها الأستاذ الذي يميل اليه والمادة التي يهواها والوقت الذي يناسبه ، ولست أقصد بذلك أن الحرية كانت مطلقة ، لا ، لأنه كان هناك أيضا من القيود الاجتماعية والأخلاقية ما يحد كثيرا من هذه الحرية ، ويعمل على عدم إساءة استعمالها ، ويمكن لنا أن نجمع العلوم والمواد التي كانت تدرس في هذه المرحلة في المجموعات التالية :

١ - العلوم الدينية ، وتشتمل على دراسة القرآن والحديث ، وما نجم عنهما من علوم مثل التفسير ، والقراءات ، والفقه ، والكلام . الخ .

(٥٨) حكمت على الأوسي : الألب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

٢ - العلوم اللسانية ، وهى العلوم المتصلة باللغة العربية
مثل النحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب ، وغير ذلك .

٣ - العلوم العقلية : وتتضمن الفلسفة والهندسة والرياضيات
والفلك والتنجيم والموسيقى والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ
والجغرافيا ... الخ .

١ - العلوم الدينية

تركزت الدراسات الدينية فى الأندلس ، كما كانت فى بقية أنحاء العالم
الإسلامى فى دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما أساس
الثقافة الإسلامية عامة . والحقيقة أن الدراسات القرآنية ودراسات
الحديث الشريف قد منحت العقل الإسلامى غرصة واسعة لإبداع
علوم جديدة متعلقة بها ، ولخلق مجالات واسعة للتفكير نفسه ، فمن
الدراسات القرآنية ما هو متعلق بالقرآن نفسه ومنها ما نجم عن
هذه الدراسات .

فمن الدراسات المتعلقة بالقرآن ذاته ما لخصه السيوطى المتوفى
١٠١١ هـ / ١٥٠٥ م فى كتابه الاتقان فى علوم القرآن على النحو
التالى :

- معرفة سبب النزول *
- معرفة المناسبة بين الايات *
- الفواصل *
- معرفة الوجوه والنظائر *
- علم التشابه *
- علم الجہمات *
- أسرار الفواتح *
- خواتم السور *

- المكي والمدني •
- أول ما نزل •
- على كم لغة نزل •
- كيفية انزاله •
- بيان جمعه ومن حفظه من الصحابة •
- معرفة تقسيمه •
- معرفة أسمائه •
- معرفة ما وقع فيه من غير لغة الحجاز •
- معرفة ما غيبه من غير لغة العرب •
- معرفة غريبه •
- معرفة التصريف •
- معرفة الأحكام •
- معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح •
- معرفة اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص •
- معرفة توجيه القرآن •
- معرفة الوقف •
- علم رسوم الخط •
- معرفة فضائله •
- معرفة خواصه •
- هل في القرآن شيء أفضل من شيء •
- في آداب تلاوته •
- في أنه هل يجوز في التصانيف والرسائل والخطب واستعمال بعض آيات القرآن •
- معرفة الأمثال الكامنة فيه •
- معرفة أحكامه •

- معرفة جدله •
- معرفة ناسخه من منسوخه •
- معرفة موهم المختلف •
- معرفة المحكم من المتشابه •
- في حكم الآيات المتشابهات الواردة في الصفات •
- معرفة اعجازه •
- معرفة وجوب متواتره •
- في بيان معاضدة السنة والكتاب •
- معرفة تفسيره •
- معرفة وجوه المخاطبات •
- بيان حقيقته ومجازه •
- في الكنايات والتعريض •
- في أقسام معنى الكلام •
- في ذكر ما تيسر من أساليب القرآن •
- في معرفة الأدوات •

ويعلق السيوطي على هذا بقوله : واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع الا ولو أراد الانسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره (٥٩) •

أما المواد الدراسية التي نجمت عن الدراسات القرآنية فهي كثيرة أيضا ، ولكن أهمها تركز في التفسير والقراءات والفقه • وأوجز هنا معنى كل علم من هذه العلوم ومكانته ضمن التعليم الديني في الأندلس وما ترتب عنه من العلوم الأخرى •

علم التفسير :

وجدت مدرستان من مدارس التفسير في الإسلام ، الأولى منها هي مدرسة التفسير بالمأثور ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير العقلي ، الذي يستمد أصوله مما أشرع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكبار صحابته ، والثانية هي مدرسة التفسير بالرأى ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير العقلي أو الفلسفي ، وكانت تستمد أصولها من الفكر العقلي المتحرر ، وأصحاب هذه المدرسة جلهم من المعتزلة (١٠) .

والمدرسة التي سادت في الأندلس هي المدرسة الأولى مع التفكير بوجود بعض بذور المدرسة الثانية ، وأشهر مفسريها ابن عباس وهو أول من وضع تفسيراً للقرآن الكريم ، مرتباً حسب السور والآيات - والسدي المتوفى ١٢٧هـ / ٤٧٦م ، وقد اعتمد تماماً على ابن عباس - ومقاتل بن سليمان الأسدي المتوفى ١٥٠هـ / ٧٦٧م ، ثم تفسير ابن جرير الطبري المتوفى ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، ويقع في ثلاثين مجلداً حسب طبعة القاهرة ١٩٠٤م .

وأشهر المفسرين في الأندلس : بقى بن مخلد المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ، ويقبول ابن حزم عنه ما يلي :

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقى بن مخلد فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً ، لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره (١١) .

ويذهب ابن حزم لأبعد من هذا حيث يقرر أن قواعد ابن مخلد صارت أسساً للإسلام وأنه أصبح صاحب مذهب خاص لا يقلد فيه

(٦٠) عبد الشافي غنيم : الحضارة العربية (مجموعة محاضرات بكلية التربية عام ١٩٧٠) .

(٦١) المتبري : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ١٦٢ .

أحدا » صارت تأليف هذا الامام الفاضل قواعد الاسلام ، لا نظير لها ، وكان متميزا لا يقلد أحدا ، وكان ذا خاصة من أحمد ابن حنبل رضى الله عنه « (٦٣) » .

وأبو محمد مكي بن أبى طالب المتوفى ٥٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، الذى كتب تفسيره المسمى « الهداية » وهو من عشرة أسفار ، ويعرف أيضا باسم تفسير القرطبي (٦٤) .

ثم هناك محمد بن عطية الغرناطى (من القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى) ، صاحب التفسير الكبير ، الذى ينشر حاليا بالمغرب ، ويقول عنه ابن سعيد ما يلى :

ولأبى محمد بن عطية الغرناطى فى تفسير القرآن الكتاب الكبير الذى اشتهر وطار فى المغرب والشرق ، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة (٦٥) .

علم القراءات القرآنية :

لقد وجه اهتمام الأندلسيين الأكبر فى مجال الدراسات الدينية الى حفظ القرآن الكريم وقراءاته ، ولقد كان من العادة أن يعين الأمراء فى المساجد بعض القراء لكى يقوموا بقراءة القرآن فيها ، ومن يقرأ لهم القرآن فى منازلهم ، وخاصة فى شهر رمضان . والموحدون قد أخذوا الناس بقراءة حزب من القرآن يوميا ، بعد صلاة الصبح ، كما أنه أكد على الموام ومن فى الديار بحفظ أم القرآن وما تيسر منه ، وألزم نوابه أن يقدموا علماء أمناء من قبلهم ليعلموا الناس ما ذكر (٦٥) .

(٦٢) انظر نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٥٢ — ١٧٧ وكذلك :

L'Espagne musulmane. pp. 53—103.

Pellat, Ch. Ibn Hazm bibliographe et apologiste de

(٦٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

(٦٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

(٦٥) المتنوى : العلوم والآداب ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

وعلم القراءات من أهم العلوم القرآنية على الإطلاق ، ويرى بعض العلماء أنه فرع من فروع علم التفسير ، بل هو الأساس لذلك العلم لأن التفسير لا يتم الا بصحة القراءة ، كما أن التفسير يتأثر بأسلوب النطق ، وطريقة الرسم ، أي طريقة الكتابة ، وعلى هذا يكون علم القراءات هو المرحلة الأولى ، أو المدخل الصحيح لعلم التفسير ، ولذلك كان اهتمام الأندلسيين بهذا العلم كبيرا تدرجته أنه لم تخل مدينة أو بلدة أو مسجد من مقرء يقوم بالقراءة الصحيحة للقرآن . ويقول ابن خلدون عن ذلك العلم ما يلي :

« القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المختوب بين دفتي الصحف وهو متواتر بين الأمة ، الا أن الصحابة روه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها ، وتنوّل ذلك واشتهر ، الى أن استقرت منها سبع طرق معينة ، تواتر نقلها أيضا بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير ، فصارت القراءات السبع أصولا للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع ، الا أنها عند أئمة القراءة ، لا تقوى قوتها في النقل » (٦٦) .

ولا يتسع المجال هنا لحصر قراء الأندلس على مدى القرون الطويلة ، ولكن تكفي الإشارة الى أن كتاب « معرفة القراء الكبار » ، الذي تناول أكبر طبقات القراء في العالم الاسلامي قد ضم من الأندلسيين ١٢٧ قارئاً مشهوراً ، وأشير فقط الى بعض المقرئين في مدن الأندلس المختلفة ، فمن قراء قرطبة مثلاً :

عبد الله بن محمد القضاعي الأندلسي ، نزيل بجاية ثم نزيل مالقة ثم نزيل قرطبة ، قدمها باستقدام الحكم المستنصر أمير المؤمنين بالأندلس ، في حدود خمسين وثلاثمائة (٩٦١م) - قال أبو عمر

(٦٦) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ٩٩٤ ، والترجمة الإسبانية ، ص ٧٨٥ .

الداني ، فأقرأ الناس بها بحرف ورش ، وكان ينحو في فرائده ،
نحو مذهب القرويين والمصريين ، وتوفي عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م (٦٧) .

محمد بن يوسف بن محمد أبو عبد الله الأموي ، كان من أهل
الضبط والانتقان ، والمعرفة بما يقري ، عن نصيب وأقر من العربية
وعلم الفرائض والحساب .

أقرأ الناس بقرطبة في مسجده بعد سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٣ م ، ثم
تزوج في الفتنة ، وسكن الشعر ، وأقرأ الناس به دهرًا ، ثم رد إلى
قرطبة ، وبها توفي في عام ٤٣٩ هـ / ١٠٣٧ م (٦٨) .

علي بن عبد الله بن فرج الطليطلي المتوفى ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ،
أقرأ الناس دهرًا ، وكان ثقة عارفا بالفن ، حليًا واعظًا ، قدم
قرطبة ، وتصدر بإمامها للأقراء ، فأقرأ الناس نحو شهرين ،
ثم توفي (٦٩) .

محمد بن خير بن عمر الأشبيلي المتوفى ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، كان
مكثرًا للنسابة ، تصدر بأشبيلية للأقراء والتسميع ، وكان قائمًا على
الصناعتين مبرورًا فيهما ، نحويا لغويا ثقة (٧٠) .

يوسف بن عبد الرحمن أبو الحجاج الأشبيلي المقرئ ، توفي في
حدود ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، تصدر للأقراء بأشبيلية وانفرد بعمله
الاستناد (٧١) .

محمد بن خلف بن عبد الله بن صاف الأشبيلي المتوفى ٥٨٥ هـ /
١١٨٩ م ، أحد الحذاق ، وأقرأ الناس نحوًا من خمسين سنة (٧٢) .

(٦٧) الذهبي : معرفة القراء ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٦٨) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٦٩) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٧٠) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٧١) الذهبي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .

(٧٢) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٤٢ .

عبد الملك بن مسلمة الأموي الدمشقي ، المتوفى عام ٥٤٠ هـ /
١١٤٥ م ، أحد الحفاظ ، وتصدر زمانا ببلنسية للاقراء والنحو . (٧٣) .

محمد بن أيوب بن محمد بن وهب البلنسي المتوفى ٦٠٨ هـ /
١٢١١ م ، لم يكن له في زمانه بشرق الأندلس نظير ، كان من الراسخين
في العلم ، وصدر في المشاورين من الفقهاء ، قد برع في علم القراءات
والعربية والفقه والفتيا ... الخ .

أقرأ القراءات ، ودرس الفقه ، وعلم النحو ، ورحل الطلبة
اليه (٧٤) .

محمد بن سعيد بن محمد الراوي المرسى ، تو في عام ٦٠٦ هـ /
١٢٠٩ م ، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هذيل ، وقال عنه
ابن الأبار : كان خيرا حاضلا ، أخذ الناس عنه كثيرا (٧٥) .

محمد بن إبراهيم بن الياس المعروف بابن شعيب اللخمي ، تصدر
بجامع الريه لاقراء القرآن والعربية والآداب (٧٦) .

على بن عبد الرحمن بن أحمد الشاطبي المقرئ المتوفى ٤٩٦ هـ /
١١٠٢ م ، أقرأ الناس دهرا ، وكان ثقة فيما رواه وتوفى بشاطبة (٧٧) .

محمد بن عبد الرحمن بن عبادة الجياني المتوفى عام ٥٦٤ هـ /
١١٦٨ م ، أقرأ الناس بجيان وشاطبة ، قال ابن الأبار : كان مقريا
ماهرا (٧٨) .

محمد بن عبد الله بن مالك الطائي ، من أهل جيان ، وتوفى
عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، أقرأ القراءات والنحو بجيان وغرناطة (٧٩) .

(٧٣) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٢٧ .

(٧٤) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٤ .

(٧٥) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٣ .

(٧٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٥٩ .

(٧٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٧٨) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٢٦ .

(٧٩) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

محمد بن علي بن عبد الرحمن الأندلسي البلياسي ، المتوفى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ولي قضاء بياسة وخطابتها ، وتصدر للاقراء والتحديث وكان حاذقا بالصناعة مجودا ماهرا (٨٠) .

كما تصدر للاقراء بمالقة أحمد بن محمد بن عبد الله بن العباس ، المتوفى عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م (٨١) .

أحمد بن علي بن أحمد بن زرقون المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، تصدر للاقراء بالجزيرة الخضراء (٨٢) .

ولقد ازدهرت القراءات كثيرا في شرق الأندلس على أيام ملوك الطوائف ، ويحدثنا ابن خلدون عن ذلك قائلا :

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها ، إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصارت صناعة مخصوصة وعلمًا مفردًا ، وتناقله الناس بالشرق والأندلس ، جيلًا بعد جيل ، إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين ، وكان معتنيا بهذا الفن من فنون القرآن ، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر ، واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته ، فكان سهمه في ذلك وافرا ، واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دائية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراء لما كان هو من أئمتهم ، وبما كان له من الغناية بسائر العبادات وبالقراءات خصوصا ، فظهر لعهده أبو عمرو الداني وبلغ النهاية فيها ، وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها ، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له . ثم ظهر من بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن خيرة من أهل شاطبة ، فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف

(٨٠) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٦٧ .

(٨١) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٤٤ .

(٨٢) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٠٩ .

(أ ب ج د) ، ترتباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار
وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها ، فاستوعب فيها الفن استيعاباً
حسناً ، وعنى الناس بحفظها ونقلتها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل
على ذلك في أمصار المغرب والأندلس (٨٣) .

ولقد كان من الواجب أن يتمتع المقرئ بصفات خلقية عالية ،
ومستوى علمي مرتفع ، حتى يثق به الناس وينصتوا إليه ، ولقد
حفلت كتب التراجم بالثناء على المقرئين في الأندلس ، وزُعت بعضهم
إلى مراكز الصدارة والمشيخة فيقال مثلاً عن أبي عمر الطلمنكي
المتوفى ٥٣٦٢هـ / ٩٧٣م ، أنه كان رأساً في علم القرآن ، قراءاته وأحكامه
وناسخه ومنسوخه ومعانيه ... الخ (٨٤) .

أما عن سليمان أبي القاسم المقرئ ، المتوفى ٤٩٦هـ / ١١٠٢م ،
فقد كان من جلة المقرئين وفضلائهم وأخبارهم ، عالماً بالقراءات
وطريقها حسن الضبط ثقة ديناً (٨٥) .

على بن خلف بن ذى النون الأشبيلي ثم القرطبي ، شيخ القراء
بقرطبة ، توفي ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ، كان من جلة المقرئين وعلمائهم ،
ثقة شهر بالخير والزهدي والتقلد والصالح (٨٦) .

خلف بن إبراهيم بن خلف بن سعيد القرطبي المتوفى ٥١١هـ /
١١٧م ، كان مدار الإقراء عليه بقرطبة ، وكان ثقة صدوقاً ، بليغ
الموعظة فصيح اللسان ، حسن البيان ، جميل المنظر والملبس (٨٧) .

(٨٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٤ ، ٩٩٥ .

(٨٤) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٠٩ .

(٨٥) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٨٦) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٨٧) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٧٧ .

الحسين بن محمد الحسين بن علي بن غريب الطرطوشي المتوفى
٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م - كان رأساً في الاقراء ذا حلقة عظيمة ،
وذا صلاح وتلف ولين ^(٨٨) .

الحسين بن يوسف بن أحمد بن يوسف المتوفى ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ،
انتسب اليه أستاذية الاقراء ، لاتقانه وتحقيقه ، وتجويده ،
وعلو أستاذته وتقنيته ، وذكائه وكان ضريراً ^(٨٩) .

ولكى نتبين الحساسية التي كان يعامل بها الأندلسيون أستاذة
الاقراء ، وعدم تساهلهم معهم حين يجول في صدورهم بعض الشك
نحوهم ، نرى ما يقوله ابن الأبار ، عن محمد بن أحمد بن مسعود
النشاطبي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م ، بأنه لم يأخذ عنه لتسمة
في الاقراء ، والاسماع ، سمح الله له ، ويضيف ابن الأبار ، قائلاً :
رأيت ما يدل على ذلك بخطه ، أن بعض القراء قرأ عليه في ليلة واحدة
ختمه برواية نافع ^(٩٠) .

ويقول ابن بشكوال عن محمد بن المفرج بن ابراهيم البطلبيسي
المتوفى ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م ، انه كان يكذب فيما ذكره (حين دون أستاذته) ،
وقد وقف على ذلك كله أمحابتنا ، وأنكروا ما ذكروا .
ويضيف أنه وقعت له بعض القراءات عن طريق هذا الكن
باسناد واه ^(٩١) .

وعن منصور بن الخير أبو علي المالقي المتوفى ٢٥٦ هـ / ١١٣٢ م ،
يقول ابن بشكوال ، سمعت بعض شيخنا يضعفه ، وتوفى بمالقة
وقرأ عليه خلق ^(٩٢) .

(٨٨) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٤٢ .

(٨٩) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٨ .

(٩٠) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٨٨ . نقلاً عن ابن الأبار .

(٩١) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .

(٩٢) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٢٨٩ ، ٣٩٠ .

ولقد ألف الأندلسيون في هذا العلم كثيرا ، وأثير الى بعض مؤلفيهم للدلالة فخط :

العاص بن خلف بن محمد الأسيلى ، المتوفى ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ،
صنف كتاب التذكرة في القراءات السبع وكتاب التهذيب (٩٣) .

أحمد بن محمد بن سعيد بن حرب ، توفى في حدود ٥٤٠ هـ /
١١٤٥ م ، صنف كتاب التقريب في القراءات السبع ، وتصدر للقراء
بأسيلىة (٩٤) .

محمد بن محمد بن عبد الله بن معاذ الأسيلى ، المتوفى عام
٥٥٣ هـ / ١١٣٨ م ، كان اماما في صناعة الاقراء ، مشاركا في العربية
له كتاب في القراءات سماه كتاب « الايماء » (٩٥) .

أحمد بن محمد القيسى القرطبي ، تصدر للاقراء والعربية ،
واختصر كتاب التبصرة لمكي في القراءات ، وتوفى سنة
٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م (٩٦) .

وأختتم بالعالم الأندلسى الكبير ، محمد بن يوسف بن على بن حيان
أثير الدين أبو حيان الأندلسى الجيائى الفرناطى المتوفى بالقاهرة
٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ، الذى كانت له اليد الطولى في الفقه والآثار
والقراءات واللغات ، وله مصنفات في القراءات والنحو ، وهو مفخرة
أهل مصرنا في وقتنا في العلم (٩٧) .

لقد نبغ الأندلسيون كثيرا في هذا العلم ، حتى أننا نجد أسماءهم
تلمع في كثير من مناطق العالم الاسلامى ، ومن ضمنها مدن الزاهرة
مثل بغداد أو القاهرة فيقال عن اليمسح بن عيسى بن حزم أبو يحيى

(٩٣) الذمى : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

(٩٤) الذمى : نفس المصدر ، ص ٣٩٧ .

(٩٥) الذمى : معرفة القراء ، ص ٤٢٥ .

(٩٦) الذمى : نفس المصدر ، ص ٥١٣ .

(٩٧) الذمى : نفس المصدر ، ص ٥٧٧ .

الغافقي الأندلسي الجياني ، المتوفى ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، بأنه رحل
فسكرن الاسكندرية ، وأقرأ بها ثم رحل الى مصر ، فاشتغل عليه
الملك الناصر صلاح الدين ، ورتب له معلوماً وافراً ، وكان صلاح الدين
يكرمه ، ويشفعه في مطالب الناس ، لأنه كان أول من خطب على منابر
العبيدية عند تقل الدعوة العباسية ، تجاسر على ذلك حين تهيئه
سواه (٩٨) . وفي ذلك الخبر أهمية كبرى ، لظهور حرص الأندلسيين
على السنة ، ودمجهم الى نشرها ، ومقاومتهم للأفكار الشيعية .

القاسم بن غيرة بن خلف الشاطبي الضريز ، المتوفى ٥٩٠ هـ /
١١٩٣ م ، استوطن مصر واشتهر اسمه ، وبعد صيته ، وقصده الطلبة
من كل النواحي ، وكان أماً علامة ، فكيفما كثير القسوس منقطع
القرين ، رأساً في القراءات ، حافظاً للحديث ، بصيراً بالعربية .

تصدر للاقراء بمصر ، فغظم شأنه ، وبعد صيته ، وانتهت اليه
الرياسة في الاقراء ، وتصدر للاقراء بالمدرسة الفاضلية (٩٩) .

القاسم بن أحمد بن الموفق المرسى المتوفى ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ،
فلقد أقرأ بالتربة المادلية بالقاهرة (١٠٠) .

على بن أحمد بن جبر القرطبي المتوفى ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م ،
أقام تسعة أشهر بقرى ببيت المقدس (١٠١) .

عتبة بن عبد الملك بن عاصم الأندلسي ، نزيل بغداد ، توفي
٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، كان موصوفاً بالدين والصلاح ، ومعرفة
القراءات ، عالى الاسناد ، عديم النظر (١٠٢) .

(٩٨) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٢٧ .

(٩٩) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(١٠٠) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٥١٦ .

(١٠١) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٣٨ .

(١٠٢) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٢٩ .

الحسين بن عبد العزيز البليسي ، مائتوت. ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ،
كان يكتب المصاحف ، سكن تونس وأثراً القراءات. (١٠٦) .

إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الأندلسي الأشبيلي المتوفى
عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، كان أديباً مدبراً ، ذا معرفة رجوه القراءات
واللغة ، كثير الترحال والتنقل ، أثراً بالموصل والشام (١٠٧) .

ولعله تجدر الإشارة الى ما يقال عن المتفري البليسي على
ابن محمد بن علي بن حذيل المتوفى ٥٧٨ هـ / ١١٦٨ م ، من أنه كانت
له خيعة يخرج لثمنها تصحبه الخالة ، فمن غارى ومن سامع ،
وهو منشرح لذلك ، طويل الاحتمال على غوط ملازمهم له ليلاً ونهاراً ،
انتهت له رياسة الاقراء عامة عمره ، لعلو روايته وامامتة في التجويد
والانتقان (١٠٨) .

الفقه :

يتحدث ابن خلدون عن علم الفقه قائلاً : الفقه معرفة أحكام
الله تعالى في أفعال المكلفين ، بالوجوب والحظر والنهي ، والكراهة
والإباحة ، وهي منلقاه من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة
من الأدلة ، فإذا استخرج الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ،
وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ،
ولا بد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالباً من النصوص وهي بلغة
العرب ، وفي اختصاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم
معروف ، وأيضاً السنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر
أحكامها ، فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضاً ، والأدلة من غير
النصوص مختلف فيها . وأيضاً خالفوا في التجدد لا توفي بها
النصوص ، وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على منصوص

(١٠٣) الذهبي : نسى المصدر ، ص ٤٩٥ .

(١٠٤) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٥٢٢ .

(١٠٥) الذهبي : نسى المصدر ، ص ٤١٧ .

إخبارية ، بينما ، وهذه كلها مبادئ للخلاف ضرورية الوقوع . ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم .

ثم أن الحجة عليهم لم يكونوا أهل فتيا . ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه ، وسائر دلالاته ، بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعته منه من عليتهم ، وكانوا يسمون لذلك القراء أى الذين يقرءون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاخص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم ، لعرايته يومئذ ، وبقي الأمر كذلك صدر اللة .

ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلم ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء ، وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة أهل الرأي والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز ، وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه ، فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه ، فذلك قيل أهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة ، وأما أهل الحجاز ، فראسهم مالك بن أنس والشافعى من بعده (١٠٦) .

ويرجع المستشرق الأسباني أنخيل غونثالت بالنسيا ظهور الفقه الى اتساع الاسلام وانتشاره من أسبانيا الى سمرقند واحتياج المسلمين الى معالجة قضايا شعوب ذات أصول متباينة ، وظهور قضايا لم يتعرض لها القرآن ولم ترد في السنة ، ومن هنا كان لجوء المسلمين الى الرأي والى القياس والى الاجماع ، فائلا أن أول المذاهب الفقهية ولد مع أبى حنيفة المتوفى عام ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ويصفه بأنه كان تمرريا غلبت فيه وأنه أخصص نصوص القرآن للمنطق والحدس

(١٠٦) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠١ - ١٠١٣ .

العقل مائلا الى الاستحسان (١٠٧) .

ثم جاءت مدرسة مالك بن أنس المتوفى ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ، وهي مدرسة جمعت بين التقليد عند الأوزاعي المتوفى ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م ، وحرية الرأي ، عند أبى حنيفة معطيا الأهمية الأولى للقرآن والحديث (١٠٨) .

ثم ظهرت الشافعية التي توفى مؤسسها ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، ثم بعدها مدرسة أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م (١٠٩) .

وحيث أنه ليس من غرضنا التأريخ للمذاهب الفقهية ، فلننتقل الى الأندلس التي ساد فيها المذهب المالكي ، وسبق لنا الإشارة الى انتشار هذا المذهب في الأندلس عند حديثنا عن عصر الأمير هشام في فصل « الدولة والتعليم » (١١٠) .

عكف الأندلسيون على دراسة المذهب المالكي ، وانتشرت بيوتهم كتيبه ومؤلفاته وخاصة موطأ مالك الذي أدخله الغازي بن قيس المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٤ م (١١١) ، فيقال مثلا عن عبد الملك بن حبيب المتوفى ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، أنه كان يخرج من الجامع ، وخلفه نحو من ثلاثمائة ، بين طالب حديث وغرائض وفقه وأعراب ، وقد رتب الدول عليه كل يوم ٣٠ دولة ، لا يقرأ عليه فيها شيئا الا كتيبه وموطأ مالك (١١٢) .

(107) González Palencia : Ha de la literatura, p. 271.

(108) González Palencia : op. cit., p. 271.

(١٠٩) سعيد غراب : المذهب المالكي عنصر اختلاف في المغرب الاسلامي ، ص ٢٣٧ .

(١١٠) راجع في انتشار المذهب المالكي في الأندلس المصادر التي أوردتها عند تناولنا لهذا الموضوع .

وانظر : الملاحظات القيمة التي أوردتها الأستاذ سعيد غراب في مقالته عن المذهب المالكي عنصر اختلاف ، ص ٢٤٥ - ٢٤٩ .

(١١١) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(١١٢) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ .

وَأَلَّفَ الأَنْدَلُسِيُّونَ كُتُبًا كَثِيرَةً جَدَا فِي الفقه المَالِكِي أَهْمُهَا
الرَّوَاضِحَةُ لِابْنِ حَبِيبٍ ، ثُمَّ الْمُسْتَخْرَجَةُ أَوْ الْعَتِيبَةُ ، لِلْعَبْدِيِّ الْمُتَوَفَّى
٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ، وَمِنَ الْمُسْتَحِيلِ حَصْرُ الْمُؤَلَّفَاتِ الأَنْدَلُسِيَّةِ فِي هَذَا
الْمَجَالِ أَوْ حَصْرُ أَشْهُرِ عُلَمَاءِ الأَنْدَلُسِ الْمَالِكِيِّينَ (١١٦) .

وَمِنَ دَلَالِلِ اِهْتِمَامِ الأَنْدَلُسِيِّينَ بِالفقه المَالِكِي ، أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْرَصَ
عَلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ أَىِ اِقْلِيمٍ إِسْلَامِيٍّ آخَرَ ، وَيُمْكِنُ لَنَا أَنْ نُنَبِّئَ ذَلِكَ
إِذَا وَضَعْنَا فِي الِاعْتِبَارِ تِلْكَ التَّرْجُمَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْغُبَرِيُّ
فِي دِرَاسَتِهِ لِمَدُونَةِ سَجْنُونٍ ، فَتَجِدُ أَنَّ سِلْسِلَةَ الرِّوَايَةِ مِنْ سَجْنُونٍ إِلَى
الْمَغْرِبِيِّينَ تَمُرُّ بِعَبْرِ ثَمَانِيَةِ أَسَاتِذَةٍ كُلِّهِمْ ، مَا عَدَا الْآخِرَ ، مِنَ الأَنْدَلُسِيِّينَ
وَهُمْ كَالْتِّسَالَى :

١ — عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ سَعِيدِ التَّنُوخِيِّ (سَجْنُون)

١٦٥ — ٢٤٥ هـ / ٧٧٦ — ٨٥٤ م .

٢ — مُحَمَّدُ بْنُ وَضَّاحٍ

١٩٩ — ٢٨٦ هـ / ٨١٥ — ٨٩٩ م .

٣ — مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي دَلِيمٍ

تَوَفَّى ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م .

٤ — عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سَفْيَانَ

٣١٧ — ٣٩٥ هـ / ٩٢٩ — ١٠٠٤ م .

٥ — أَبُو عَمْرِو أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَدَّاءِ

٣٨٠ — ٤٦٧ هـ / ٩٩٠ — ١٠٧٤ م .

٦ — يُونُسُ بْنُ الصَّفَّارِ

٤٤٧ — ٥٣٢ هـ / ١٠٥٥ — ١١٣٧ م .

(١١٢) ارجع الى كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض ، او الديباج

لابن فرحون .

٧ - محمد بن عبيد الله الجعفي

٥٠١ - ٥٩١ هـ / ١١١١ - ١١١٤ م

٨ - أبو بكر محمد بن محرز

٥٦٩ - ٦٥٥ هـ / ١١٧٣ - ١٢٥٥ م

٩ - عبد العزيز بن عبد القيسى (أفريقي)

٦٥٢ - ٦٨٢ هـ / ١٢٠٥ - ١٢٨٧ م

١٠ - أبو العباسي الغبريني (أفريقي)

٦٤٤ - ٧١٤ هـ / ١٢٦٦ - ١٣١٥ م (١١٤)

ولقد اعتمد الأندلسيون في أول الأمر على دراسة المصادر الرئيسية في الفقه ، وخاصة موطأ مالك ، ومدونة محنن ، والواضحة لابن حبيب ، والعتبية للعنبي . . . الخ ، ولقد سبق لى أن أشرت الى أنه في صلاة الجمعة كان يأتى الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ثلاثمائة فقيه متصل من قرى قرطبة لأداء صلاة الجمعة ولم يكن يلبس القالب من الفقهاء الا من كان يحفظ موطأ مالك (١١٥) ، ثم بعد ذلك انتقلوا الى الشروح والمختصرات ، وانخفض بذلك مستواهم العلمى ، ولعل ذلك هو السبب ، في أن الطرطوشى (٤٥١ - ٥٢٥ هـ / ١٠٥٩ - ١١٣٠) اتهمم بالجهل حين طالب منه تلميذه أبو بكر ابن العربى أن يرسل الى الأندلس ، فأجابه لا أحب أن أدخل بلدا غلب عليه كثرة الجهل ، وقلة العقل (١١٦) . ولقد أورد لنا المقرئ نصا ، يحذف فيه هذه الحالة ، على النحو التالى :

(١١٤) أعد هذا التسلسل الاستيعاذ الدكتور خوسيه ماري فورنياس ، الأستاذ بجامعة غرناطة ، ضمن بحث لم ينشر بعد عن انتشار الدعوة في الأندلس ، والتي البحث في الملتقى الاستيعاذى التونسى الرابع الذى عقد بجزيرة ميورقة في المدة من ٣ أكتوبر الى ٦ نوفمبر ١٩٧٩ م . وانظر الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣٧٥ .

(١١٥) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٥٨ (طبعة احسان عباس) .

(١١٦) الطالبى : آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ، ص ٥٨ .

فلقد تركوا كتب البراذعى على نيلها ، ولم يستعمل منها على كره من كثير منهم غير « التهذيب » الذى هو المدونة اليوم المشهورة مسائله ومواضعه فى أكثر ما خلف فيه المدونة لأبى محمد (سحنون) ، ثم كل أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات ، وشق الشروح والأصول الكبار ، فاختصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه وأنشؤ أعمارهم ، فى غمهم رموزه ، وحل لغوزه (١١٧) .

وظلت دراسات المذهب المالكى فى الأندلس حتى نهاية الدولة الإسلامية ، وبرز خلال هذه الفترة عدد جم من كبار الفقهاء والعلمين ، ويقول ابن الخطيب ضمن حديثه عن مملكة غرناطة : أن « مذاهبيهم على مذهب مالك بن أنس ، امام دار الهجرة ، جارية » (١١٨) .

ويقول المقرئ عن أهل الأندلس ، أنهم « لا مذهب لهم الا مذهب مالك » ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحضر من ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويعه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (١١٩) .

ولقد شهدت أسبانيا الإسلامية المذاهب الفقهية الأخرى بكافة مدارسها ، ولقد كانت قبل انتشار المالكية (١٢٠) : مقرا لمذهب الأوزاعى . وعاصر الفكر المالكى الشافعى أيضا ، ولقد ظهر هذا الفكر فى الأندلس مبكرا جدا ، ثم انها ازدهرت بها أحيانا دراسات المذهب الظاهرى الذى كان من أبرز رجاله فى الأندلس القاضي منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة على عهد عبد الرحمن الناصر ،

(١١٧) المقرئ : النسخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ (تحقيق احسان عباس) .

(١١٨) ابن الخطيب : الاطالة ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(١١٩) المقرئ : نسخ الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١٢٠) González Palencia : Ha. de la literatura, A.E. 6,7.

وابن حزم الظاهري على عهد ملوك الطوائف ، أما الفكر الشيعة فقد وجد له منفذا أيضا على الأرض الإسبانية ، وأشير في هذا المجال الى دراسة الدكتور محمود على مكي (١٢١) ، حيث أنه ليس من هدفنا هنا ، التأريخ للمذاهب التشريعية أو الخفية في الأندلس .

علم الحديث :

يعتبر علم الحديث المصدر الثاني من مصادر التشريع الاسلامي وهو الى جانب ذلك يعتبر أحد أعمدة الحياة الفكرية الاسلامية ، وأحد مناهل الثقافة الاسلامية عامة ، فلهذا أدى الاهتمام بعلم الحديث الى تعدد أساتذته ومدارسه في مختلف مراكز الحياة الفكرية في العراق ، كالكوكة والبصرة ، وفي الشام كصور وأنطاكية وصيدا وبيروت ودمشق وحمص ، وفي مصر كالفسطاط والاسكندرية ، وفي افريقية كالقيروان وتونس وفاس ، وفي الأندلس كقرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية ، وفي حقلية كبالرموا وسراقوسة وغير ذلك من منارات الحياة الفكرية العربية .

والحديث هو كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قول أو فعل أو تقرير شيء رآه ، وهو يأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم ، وذلك أن كثيرا من الآيات القرآنية جاءت مجملة أو مطلقة أو عامة ، فجاء قول الرسول أو عمله فبينها أو قيدها أو خصمها .

وكان الصحابة المعاصرون للنبي يسمعون منه ويشاهدون فعله ، ثم يروون ما يرون وما يسمعون ، ثم جاء التابعون من بعدهم فعاثروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ونقلوا عنهم كل هذا . ومن هذا كله نشأ علم الحديث . ويرى أستاذي الدكتور عبد الشافي غنيم ، أنه اذا كان القرآن الكريم قد نجا من كل ادخال أو تغيير ، الا أن

(١٢١) محمود على مكي : التشيع في الأندلس ، مجلة المعهد المصري بميدريد — ١٩٥٤ ، ص ٩٣ — ١٤٥ .

الحديث كان على العكس من ذلك حيث تعرض لكثير من عوامل الصناعة والخلق والاضافة مما جعل عملية التعرف على الصحيح من المدسوس عملا لا يطيقه الا الراسخون في العلم ، المتسلعون في النقد ، العارفون بتاريخ السير والأحداث والقدرة على تقييم المحدثين من النساء والرجال ، ويرجع السبب في تعرض الحديث للكثير من الادخال والزيف الى العوامل التالية :

١ - تأخر تدوين الحديث ، حيث أنه لم يدون الا في القرن الثاني من الهجرة .

٢ - الخصومات السياسية التي نشأت في الدولة الاسلامية ومحاوله كل طرف الحصول على نص من الحديث يؤيد موقفه .

٣ - الاسرائيليات ، ولقد لعب اليهود دورا بارزا في هذا المجال وذلك لتحقيق أغراضهم الخاصة .

٤ - الخلافات الكلامية والفقهية .

٥ - محاولات استرضاء أولى الأمر (١٣) .

ويرى صاحب كتاب « خلاصة تهذيب تهذيب الكمال » أنه في أواخر عصر التابعين ، حين انتشر العلماء في الأمصار ، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ، دونت الأحاديث ممزوجة بأقوال الصحابة والتابعين (١٣) .

ونتيجة لذلك كله فان العلوم المتشعبة عن الحديث كانت أيضا كثيرة جدا . وأستخلص مما كتبه ابن خلدون عن هذه العلوم ، الدراسات التالية :

(١٢٢) عبد الشافي غنيم : محاضرات في الحضارة العربية (الحديث) .

(١٢٣) الخزرجي : خلاصة تهذيب تهذيب الكمال ، ص ٧ .

- النسخ والنسوخ ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها (١٢٤) .
- النظر في الأسانيد .
- معرفة شروط السند .
- معرفة رواية الحديث .
- مراتب الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك .
- الألفاظ ، الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والشاذ والغريب .
- الخلافات بين أئمة الثنآن .
- الوفاق بين أئمة الثنآن ، وغير ذلك من الألقاب .
- كيف أخذ الرواة بعضهم عن بعض : قراءة أو كتابة أو مناوله أو إجازة ، وتفاوت رتبها .
- أحوال النقلة ... الخ (١٢٥) .

ولقد وضع المسلمون شروطا كثيرة لمن يقومون برواية الحديث ، أو الاشتغال بعلومه ، ووضعوا في ذلك المؤلفات الكثيرة (١٢٦) .

ومن ناحية أخرى ، فإن علم الحديث قد وضع الأساس ، أو أنه كان السبب الرئيسي في حركة الرحلات التي تميزت بها الحياة العلمية في العصور الوسطى ، حيث أن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بعد ذلك كانوا قد تشتمتوا في الأمصار ، كل منهم يحمل في صدره ما قد وعاه عن قبله ، وحين اتجهت جهود المسلمين لتدوين الحديث ، كان من

(١٢٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ .

(١٢٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ - ١٠١١ .

(١٢٦) اليعقوبي : الإلماع في معرفة الرواية وتقيد السماع .

البفدادي : الكتاية في علم الرواية .

ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة .

الزمخشري : الفائق في غريب الحديث .

ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

صبي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه .

الضروري التنقل من مكان الى آخر للقاء هؤلاء الذين يعقظون الأحاديث ويقومون بتدوينها عنهم .

ويرى الدكتور صبحى الصالح أن هذه الرحلات تعد وثقت الأواصر بين بلدان العالم الاسلامى ، وأن ذلك أمر واضح تفرضه طبائع الأشياء ، وما كانت النتيجة لتتم على غير هذه الصورة ، لأن طواف الكثير منهم بالأقاليم ربط بين المشرق والمغرب ، وألقى السدود والحدود ، وجعل هذا العالم الاسلامى أشبه بالمدينة الواحدة (١٣٧) .

بذل المسلمون جهودا جبارة فى سبيل تدوين الحديث وتنقيحه وكتبوا فى ذلك مؤلفات لا تحصى ، لكن أشهر الكتب التى وضعت فى ذلك المجال هى المؤلفات الست التى تعتبر من أهم المصادر الموثوق بها فى دراسات الحديث النبوى وهى :

- ١ - صحيح البخارى ، وقام بوضعه محمد بن اسماعيل البخارى ، واشتمل كتابه على سبعة آلاف ومائتى حديث .
- ٢ - صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج القشيري .
- ٣ - سنن أبى داود السجستاني .
- ٤ - جامع التفسير لأبى عيسى محمد الزننى .
- ٥ - تفسير النسائى .
- ٦ - سنن ابن ماجه .

وأخيرا علينا أن لا ننسى أن علم الحديث هو الذى خلق فكرة الاجازة ، وذلك لتسدهم فى عملية النقل والرواية .

هذا ولقد بدأت دراسات الحديث فى الأندلس منذ عهد مبكر جدا حيث أنهم قد عرفوا قيمة هذه المادة العلمية واعتبروها بحقها يقول ابن عبد البر القرطبي المتوفى ٥٤٦٣ / ١٠٧٠م :

(١٢٧) صبحى الصالح : علم الحديث ومطالعه ، ص ٥٠ ، ٥١ .

ان أول ما نظر فيه الطالب ، وعنى به العالم ، يعد كتاب الله عز وجل ، سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي المنبئة لمراد الله عز وجل من مجملات كتابه والدالة على حدوده والمفسرة له والهادية الى الصراط المستقيم (١٢٨) .

وليس من السهل الاشارة الى أشهر المحدثين الأندلسيين ونكتفى ببعضهم فقط :

بقي بن مخلد المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ، وهو الذى ملأ الأندلس حديثاً ورواية ، ولقد ووجه بمقاومة شديدة من علماء الأندلس حيث أنكروا عليه ما أدخله الأندلس من كتب الاختلاف وغرائب الحديث ، وأثروا به السلطان ، وأخافوه به ، ثم أن الله بمنه وفضله أظهره عليهم ، وعصمه منهم ، فنتشر حديثه وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ انتشر الحديث فى الأندلس . ثم تلاه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١٢٩) ، ورغم تلك الأهمية الكبرى التى لبقى بن مخلد فى دراسات الحديث وانتشاره فى الأندلس الا أن المشرق الأندلسى أنخبل غوثالث بالنسيا ام يذكره عند حديثه عن أئمة المحدثين فى الأندلس (١٣٠) . هذا ولقد وصل بقى بن مخلد الى درجة عالية من الشهرة وسعة العلم ، حتى كان يقال فى المشرق : وهل احتاج بلد فيه بقى بن مخلد ، أن يأتى الى هنا منه أحد ؟ وحملت تصانيفه فى الحديث الى المشرق فاعترف بفضلها وقيمتها (١٣١) .

محمد بن وضاح المتوفى ٢٨٧هـ / ٩٠٠م ، الذى رحل الى المشرق مرتين ، ولقى من العلماء ١٧٥ رجلاً ، وكان عالماً بالحديث ، بصيراً

(١٢٨) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ص ٢ .

(١٢٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٩١ - ٩٢ .

الأسنى : فصول فى الأدب الأندلسى ، ص ٤٦ .

(130) Gonzalez Palencia, A. : Ha. de la Literatura, p. 263

(١٣١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٩٢ .

يطرقه ، متكلماً على غلله ، وبه وببني بن مخلد صارت الأندلس دار حديث (١٣٢) .

قاسم بن أصبغ (٢٤٤ - ٣٤٠ هـ / ٨٦١ - ٩٥١ م (١٣٥) .
محمد بن عبد السلام الخثني (٢١٨ - ٥٢٨٦ هـ / ٨٣٣ - ٨٩٩ م) ، الذي عاد إلى الأندلس بكثير من الكتب الجديدة ، فإن معظمها في علم الحديث . يقول عنه السيوطي : أنه أدخل الأندلس كثيراً من حديث الأئمة (١٣٦) .

ومن محدثي الأندلس المشهورين ابن الفوطية المتوفى سنة ٨٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م (١٣٥) .

ويعد ابن عبد البر القرطبي المتوفى ٥٤٦٣ هـ / ١١٠٧٠ م من أكبر المحدثين في غرب الاسلام حسب شهادة ابن بشكوال وعلى الرغم من أنه لم يرحل إلى المشرق ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون ضليعا في الفقه والأنساب والأخبار (١٣٦) ، ومن أشهر مؤلفاته في هذا المجال « الاستيعاب » و « التمهيد » (١٣٧) .

هذا ولقد أورد المستشرق الأسباني انخيل غونزالث بالنسيا لائحة بأسماء أشهر المحدثين في الأندلس (١٣٨) .

-
- (١٣٢) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٥ - ١٧ .
 - (١٣٣) ابن ماكولا : الاكمال ، ج ١ ، ص ٤٤١ .
 - (١٣٤) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٤ .
 - السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
 - الأوسى : فصول الأدب الأندلسي ، ص ٤٦ .
 - (١٣٥) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٦ .
 - González, P. A. : Historia de la Literatura, 263.
 - (136) Gonzalez, P., A. : op. cit., p. 264.
 - (١٣٧) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .
 - ابن عبد البر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد .
 - (138) Gonzalez Palencia, A. : Ha da la literatura, 263, 264.
 - وترجمة حسين مؤنس ، ٢٩٤ ، ٣٩٥ .

علم الكلام :

يحدد ابن خلدون هذا العلم فيقول : انه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنصرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنة (١٣٩) ، أما كيف وجد هذا العلم وكيف خلق فيقول :

اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها إليه ، وأفرده به كما قدمناه ، وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا ، ولم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود ، إذ ذاك متعذر على أدراكنا ، ومن فوق طورنا ، فكلفنا أولاً اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين ، والا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ، ثم تنزيهه عن صفات النقص والا شابه المخلوقين ثم توحيد به بالإيجاد والا لم يتم الخلق للتمانع ، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق ، والا لم يتخصص شئ من المخلوقات ، ومقدر لكل كائن والا فالارادة حادثة ، وأنه يعيدنا بعد الموت ، تكميلاً لعنايته بالإيجاد الأول ، ولو كان للفناء الصرف كان عبثاً ، فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ، ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة ، وعدم معرفتنا بذلك وتسام لطفه بنا في الإيتاء بذلك ، وبيان الطريقين ، وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب .

هذه أمهات العقائد الايمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة ، وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء ، وحققها الأئمة .

الا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة ، خدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل

(١٣٩) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٣٥ ، والترجمة ،

زيادة الى النقل فحدث بذلك علم الكلام (١٤٠) *

وفي القرون الأولى من الاسلام ، قام السلف بقراءة آيات القرآن ، وآمنوا بعنا كما هي ، ولم يتعرضوا لعناها بحث أو تأويل ولكن عندما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث في مسائل الأنبياء ، حدثت يدعة المعتزلة ، وقالوا بخلق القرآن ، وتناظروا في كل شيء ، وخالفوا الأرائل ، وساندتهم بعض الخلفاء العباسيين في الشرق ، وحدثت فتن كثيرة ، كما سالت دماء غزيرة في هذا المجال .

وتولى الأشعرية الرد على المعتزلة حتى تمكنوا من القضاء عليهم تماما .

في أسبانيا الاسلامية ، تسربت آراء المعتزلة ، وظهر ابن مسرة القرطبي الذي ترك مدرسة كاملة (١٤١) . وقد سبق لي الحديث عن موقف الدولة من هذه الأفكار ، في الفصول السابقة ، وأود أن أؤكد هنا أن الدراسات الكلامية لم تنتشر في الأندلس انتشار غيرها من العلوم ، وأورد هنا هذه القصة التي تعبر تعبيراً صادقاً عن موقف أهل الأندلس ، من علم الكلام :

أحمد بن محمد بن سعدى أبو عمر ، فقيه فاضل مجتهد رحل قبل الأربعمائة بمدة فلفى أبا محمد بن أبي زيد القيرواني وأبا بكر محمد بن عبد الله الأبهري بالمراني وغيرهما ، ورجع الى الأندلس وحدث ، قال عبد الله بن الوليد : سمعت أبا محمد عبد الله ابن أبي زيد يسأل أبا عمر أحمد بن محمد بن سعدى المالكي عند وصوله الى القيروان من ديار المشرق — وكان أبو عمر دخل بغداد

(١٤٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ،
والترجمة ، ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .

(141) Asin Palacios , Ibn Masarra y su Escuela.
Gonzalez, p. A. : Ha de la Literatura, p. 232.

في حياة أبي بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري ، فقال له يوما : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ فقال بلى ، حضرتهم مرتين ثم تركت مجالستهم ولم أعد اليها فقال له أبو محمد : ولم ؟ قال : أما أول مجلس حضرته فرأيتهم مجلسا قد جمع الفرق كلها المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من الجوس والذهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر أجناس الكفر ، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ، ويجادل عنه ، فإذا جاء رئيس من أى فرقة كان ، قامت الجماعة اليه قياما على أقدامهم حتى يجلس فيجلسون بجلوسه ، فإذا تمضى المجلس بأهله ، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه ، قال قائل من الكفار : قد اجتمعتم للمناظرة ، فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم ولا بقول نبيهم فانما لا نصدق ذلك ولا نقر به ، وانما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس ، فيقولون نعم لك ذلك .

قال أبو عمر : فلما سمعت ذلك لم أعد الى ذلك المجلس ، ثم قيل لى ثم مجلس آخر للكلام ، فذهبت اليه فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم ، سواء ، ففطعت مجالس أهل الكلام فلم أعد اليها ، فقال أبو محمد بن أبي زيد : ورضى المسلمون بهذا من القول والفعل ؟ قال أبو عمر : هذا الذى شاهدت منهم ، فجعل أبو محمد يتعجب من ذلك وقال : ذهبت العلماء ، وذهب الاسلام وحقوقه ، وكيف يبيع المسلمون المناظرة بين المسلمين وبين الكفار ، وهذا لا يجوز أن يفعل لأهل البدع الذين هم مسلمون ويقررون بالاسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وانما يدعى من كان على بدعة من متخلى الكلام الى الرجوع الى السنة والجماعة ، فان رجع قبل منه ، وإن أبى ضرب عنقه ، وأما الكفار فانما يدعون الى الاسلام ، فان قبلوا كف عنهم وإن أبوا وبذلوا الجزية في موضع يجوز قبولها ، كف عنهم ، وقتل منهم . وأما أن يناظروا على ألا يحتج عليهم بكتابنا ولا بنبينا ، فهذا لا يجوز ، فاننا لله وانما اليه راجعون .

أخبرني غير واحد من أسيادى ، منهم القاضي أبو القاسم
 د. الرحمن بن محمد والراشد أبو محمد بن عبيد الله والأديب
 الحافظ أبو جعفر أحمد بن أحمد الأزدى وغيرهم عن أبي جعفر عن
 أبي عمر بن عبد البر أنه قال :

أجمع أهل الفقه والآثار ، في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل
 بدع وزيف ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء ، وإنما العلماء
 أهل الأثر والفقه فيه ويتفاضلون في الاتفاق والميز والفهم .

وقال أبو عمر في كتاب « بيان العلم » (١٤٦) ، له : أهل الأهواء
 عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل
 الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري ، ولا تقبل له شهادة
 في الإسلام ويفجر ويؤوب على بدعته ، فان تمادى عليها استتيب
 منها . قال أبو عمر ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه
 إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله أو صح عن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم أو اجتمعت عليه الأمة (١٤٧) .

وليست هذه كل العلوم الدينية التي كانت تدرس خلال هذه
 الفترة وإنما هناك علوم أخرى كثيرة ، قد تكون بالنسبة للعصر الحالي
 غير ملائمة مثل معجزات بعض آيات القرآن ، أو غير ذلك .

٢ - العلوم اللسانية

أقصد بالعلوم اللسانية العلوم الضرورية التي تساعد على تفهم
 اللغة العربية تفهما جيدا ، والحديث بها بطريقة صحيحة ، وإجادة
 التعبير بها نثرا أو شعرا ، وأركان هذه العلوم أربعة : اللغة
 والنحو والبيان والأدب .

(١٤٦) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله .

(١٤٧) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

الضبي : بقية المقتبس ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

Vernet, J. : La cultura hispanoárabe, pp. 16--17.

ولقد حظيت هذه المواد بعناية الأندلسيين كثيرا وخاصة الحكام والأمراء الذين ركزوا اختيارهم الناجب الكتاب والمؤلفين في المناصب عامة من بين البارزين في هذه العلوم *

ولعل هذا يرجع الى المجهود الذي كان من الواجب بذله لتعريب جموع سكان شبه الجزيرة ، راداً كانت مجسوة المواد الدينية قد وجدت اهتماما يعرض المحافظة على الدين ونشره ، فلا شك أن العلوم اللسانية قد عازت من النجاح في الانتشار بين المسيحيين الأسبان ، أكثر من العلوم الدينية ، والدليل على ذلك أن المستعربين الذين حافظوا على دينهم الأصلي ، كانوا يتكلمون العربية بنصاحة وطلاقة ، ألفوا مؤلفاتهم بالعربية ، ونظموا الشعر بها ، وأصبحت هي لغة الحياة والمناجاة بالنسبة لهم *

وقد يكون لذلك عوامله الأخرى المتمثلة في تعريب الدواوين والرسائل والمعاملات التجارية ، مما أجبر السكان جميعا على اختلاف أديانهم على تعلم العربية . ولعل شكوى الفديسي « ألفارو » القرطبي الخاصة بأن أبناء ملته يعشقون العربية ويتكلمون بها أكثر من اللاتينية تقدم دليلا واضحا على الجهود التي بذلت خلال عهد الإمارة لتعريب اللسان في أسبانيا الإسلامية *

اللمعة :

موضوع هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية ، ويحجج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الاندثار وما قد ينترب على ذلك من الجهل بالقرآن والحديث ، فقام كثير من أئمة اللسان ببذل جهود كثيرة في سبيل تأليف وإملاء الدواوين *

وكان سابق الحلية في ذلك الخليل بن أحمد ، الذي كتب كتاب « العين » ، فحصر فيه حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان

المعربى^(١٢٤) ، ولقد دخل هذا الكتاب الى الأندلس على يد ثابت ابن عبد العزيز السرقسطى وابنه تقاسم المتوفى سنة ٥٣٠هـ / ١١٤٠م^(١٢٥) . ولقد بدأت الدراسات اللغوية في الأندلس مبكرة جدا ، وقام نظامؤه بالرحلة الى المشرق للدراسة وإحضار الكتب الرئيسية من هناك فوجد أن عبد الرحمن بن موسى الهورارى ، أول من جمع ألفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس ، ورحل في خلافة الإمام عبد الرحمن ابن منبأوية ، فلقى مالكا ونظراءه من الأئمة ، ولقى الأخصمى وأبا زيد الأنصارى ونظراءهما ، ودخل الأعراب في مجاليا^(١٢٦) . أما محمد بن عبد الله بن الحارث بن عيسى الشرجاني ، المتوفى ٢٩٩ هـ / ٩٠٨ م ، فقد أدخل الأندلس علما كثيرا من المغرب والأندلسية والعبرية وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروجة^(١٢٧) .

وتطورت هذه المادة تطوراً كبيراً مع قدوم علماء من المصارفة وعردة من رحل من الأندلسيين ، ولقد كان مستوى أسبانيا الإسلامية اللغوية طيباً ، عند قدوم أبى علي النخلى (٢٨٨/٥٣٠٩ - ٩٠١/٩٩٧ م) ، والنخلى عالم كبير^(١٢٨) ، فقام بتدريس الحديث واللغة العربية وآدابها ، وأبلى كتابه المشهور « الأملى » ورفع مستوى أسبانيا الإسلامية من الناحية اللغوية الى أقصى حد ممكن ، ويحكى عن أبى علي النخلى أنه خلال رحلته الى الأندلس قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات في العبادة وثقة الفهم ،

(١٢٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٥٨ : الترجمة : ص ١٠١٩ .

(١٢٥) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٠٩ .

ابن فرحون : الديباج ، ص ٢٢٢ .

السيوطى : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(١٢٦) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣٤ (طبعة كوديرا) .

الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٥ .

السيوطى : البنية ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(١٢٧) السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(148) Riu, Manuel : Lecciones de Ho. Medieval, p. 196.

بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، حتى كأن منازلهم على الطريق هي منازلهم من العلم محاسة ومقايسة ، قال أبو علي : قلت أن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفسامهم ، مقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم ، فمحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان . قال ابن بسام : فيلغى أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم (١٤٩) .

وحينما وصل أبو علي إلى الأندلس وجد بها من يستحق تقديره واحترامه مثل محمد بن القوطية ، وينقل المقرئ عن ابن خلكان أنه كان يجتمع به ، وكان يباليخ في تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن : من أنبل من رأيت ببلدنا هذا في اللغة ؟ فقال : محمد بن القوطية (١٥٠) .

ويتحدث الدكتور نعمة زحيم عن المستوى اللغوي للأندلس مبينا أنها قد ازدهرت تماما وخاصة في القرن الرابع الهجري (المائت الميلادي) محددا ملامح ازدهارها كالتالي :

- ١ - ظهور العالم اللغوي المتخصص ، ونبوغه إلى درجة يماثل بها علماء المشرق ، مثل أبي بكر بن الزبيدي ، وتلامذة القالي .
- ٢ - استغناء الطلاب الأندلسيين عن الرحلة إلى المشرق ، لأن الأندلس أصبحت بيئة ثقافية ، ومركزا من مراكز العلم .
- ٣ - نشاط حركة التأليف (١٥١) .

ويعتبر أبو بكر الزبيدي قمة تطور هذا الفن في الأندلس ومن بعده ابن سيده المتوفى ٩٩٣ م (١٥٢) ، دون أن يعنى ذلك عدم

(١٤٩) ابن بسام : ذخيرة ، ج ١ ، ص ١٥ (تحقيق احسان هيلاس) .

- (١٥٠) المقرئ : النسخ ، ج ٤ ، ص ٧٣ .
- (١٥١) السزاي : أبو بكر الزبيدي الأندلسي ، ص ٤٩ ، ٥٠ .
- (١٥٢) الحبيدي : جذوة المنقبس ، ص ٣٨١ .
- ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .

وجود فهم شامخة في هذا العلم على مدار التاريخ الأندلسي بكامله ، ولقد اعترف ابن خلدون بمكانة أهل الأندلس في صناعة العربية بالذات ، وأرجع ذلك الى نظام التعليم الأندلسي الذي كان يعطى اللغة العربية المكانة الأولى من اهتماماته ، يقول ابن خلدون عند حديثه عن الفرق بين ملكة اللسان ، وصناعة العربية : « وأهل صناعة العربية بالأندلس ، ومعادوها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها عن سواهم ، لقيامهم عليها على شواهد العرب وأمثالهم ، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم ، فتقطع النفس لها ، وتستعد الى تحصيلها وقبولها » (١٥٣) .

ولقد بقي من العربية مزدهرا في الأندلس ، رغم انحطاط بعض العلوم الأخرى الى نهاية الحكم الاسلامي هناك ، ونعتمد أيضا على شهادة ابن خلدون حيث يقول : « وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والأدب ، اقتصروا عليه ، وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه » (١٥٤) .

التمهيد :

يتحدث ابن خلدون عن الأسباب التي أدت الى وضع قواعد اللغة العربية فيحدها على الشكل التالي :

اعلم أن اللغة : التعارف ، وهي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانی ، ناشئة عن القصد لاغادة الكلام ، فلا بد أن تتميز ملكة متقرة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان ، وهو في كل أمة يناسب اصطلاحاتهم ، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن

(١٥٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٧٨ (الترجمة الإسبانية ، ص ١٠٤٤) .
(١٥٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٨ (الترجمة الإسبانية ، ص ٧٧٧) .

الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد ، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني ، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من الجوز ، أعنى المضاف ، ومثل الحروف التي تنفي بالأعمال إلى الذوات ، ومن غير تكلف ألفاظ أخرى .

فلما جاء الاسلام ، وثاروا الحجاز نطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول ، وخالفوا المجمع ، فغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي كانت للمتعبين من المجمع ، والسمع أبو الملكات اللسانية فغيرت بما ألقى إليها مما يعايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع . وحسن أهل العلوم منهم أن تغد تلك الملكة رأساً ، وبطول العبد فيخلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة ، مطردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والفعل منصوب ، والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطاحوا على تسميته انحراباً وتسمية الموجب لذلك عاملاً ، وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصلحوا على تسميتها بعلم النحو . وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلى من بنى كتابه (١٥٥) .

وأشهر من كتب في هذا العلم الكسائى المتوفى ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م ، وسيبويه والزجاجى ٣٣٧ هـ / ٩٤٩ م .

وفي أسبانيا الاسلامية ، كان لابد من بذل جهود مضاعفة وذلك لغلبة العنصر العجمى والبربرى ضمن سكانها ، فحملت إليها كتب المشاركة في النحو ، ويقال ان جودى بن عثمان ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ،

(١٥٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، والترجمة الأسبانية : ص ١٠١٥ - ١٠١٧ .

هو أول من أدخل كتاب الكسائي (١٥٦) ، كذلك أحضرت إلى الأندلس كتب سيويه والزجاجي وغيرهما من المشاركة ، وبدأ الأندلسيون أنفسهم في التأليف في هذا الفرع من العلوم ، ويذكر الزبيدي أن نجودي بن عثمان تأليف في النحو (١٥٧) ، وتأتي بعد ذلك مؤلفات أبي علي الغالي في النحو ومن بعده الزبيدي (١٥٨) .

ويبدو أن الأندلسيين قد استغرقوا وقتا طويلا ، حتى أمكنهم الوصول إلى نوع من الاستقرار في تدريس هذه المادة ، وأنهم كانوا يخلطون بينها وبين علم اللغة حتى عاد محمد بن يحيى الرباعي ، المتوفى ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، من المشرق ، وعلمهم الطرق المشرقية السهلة في تعليم العربية ، يقول الزبيدي :

ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم من عني بالنحو كبير علم ، حتى ورد أبو عبد الله محمد بن يحيى الرباعي عليهم ، وذلك أن المؤدبين انما كانوا يمانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسايلها ، ثم كانوا لا ينظرون في امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا أبينية ، ولا يجيبون في شيء منها حتى نهج لهم سبيل النظر ، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في المشرق ، من استقصاء الفن بوجوهه ، واستيفائه على حدوده وأنهم بذلك استحقوا اسم الرياسة (١٥٩) .

وتطورت الدراسات النحوية في الأندلس تطورا عظيما ، ويصفهم المقرئ قائلا : والنحو عندهم في نهاية علو الطبقة ، حتى أنهم في هذا

(١٥٦) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

(١٥٧) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .

(158) Gonzalez Palencia : Ho. de la Literatura A.E., p. 136.

(١٥٩) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

العصر فيه كأصحاب الخليل وسيدويه لا يزداد مع تقدم الزمان
الا جدة ، وهم كثيرو البحث فيه ، وحفظ مذاهبه كمذاهب اللغة ،
وكل عالم في أى علم لا يكون متسكنا من علم النحو - بحيث لا ينشئ
عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا ينالهم من
الازدراء (١٦٠) .

وظهر من بينهم أسانذة متخصصون في تدريس النحو مثل احمد
ابن محمد بن هاشم القيسي المتوفى ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م ، الذى مال الى
النحو فغلب عليه وأدب به (١٦١) .

ومهاب بن ادريس العدوى ، المتوفى ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، الذى كان
عالما بالفرائض والحساب والاعراب ، وكان معلما باللغتين جميعا (١٦٢) .

ويبدو أن الأندلسيين كانوا يكتفون بتعليم أولادهم في المراحل
المتوسطة بعض كتب النحو البسيطة أو المختصرة ، بينما يتركون كتب
كبار النحاة الى مرحلة متقدمة ، فيقول ابن حزم القرطبي عند حديثه
عن ما يجب أن يدرس من النحو ، أن أتلى ما يجزىء منه « كتاب
الواضح » ، للزبيدي (٣١٦ - ٣٧٩ هـ / ٩٢٨ - ٩٨٩ م) ، أو ما نحا
تحوه « كالوجز » ، لابن السرج (المتوفى ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م) ، وما أشبه
هذه الأوضاع الحقيقية وأما التعمق في علم النحو فغضول لا منفعة
بها ، بل هي مشغلة عن الأوكد (١٦٣) .

(١٦٠) المقرئ : النسخ ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١٦١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(١٦٢) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(١٦٣) ابن حزم : براتب العلوم ، ص ٥٦ ، في كتاب النكر
التروي عند العرب) .

Asín Palacios : Un Códice desconocido del Cordobes

Ibn Hazm, pp. 48, 56.

Morales H. : Clasificación de las Ciencias segun Ibn Hazm.

من ناحية أخرى فإن كتاب سيبويه كان أساسيا في علم العربية في القرنين السابع والثامن ، حيث كان الناس يتسألون : هل يقرأ كتاب « سيبويه » غان قيل ، لا ، فيقولون لا يعرف شيئا (١٦٤) .
ويقول السيوطي : أن أحمد بن إبراهيم بن الزبير المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م ، أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة ، وأنه عندما خرج من مالقة ، وترك هناك من طلبته أربعين يقرعون كتاب سيبويه (١٦٥) .

ويصف المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا دراسة علم النحو في أسبانيا الإسلامية على النحو التالي :

لقد أعطى المسلمون الأسبان أهمية كبرى لدراسات النحو ولم يقتنعوا إلا بدراسة المؤلفات الأساسية ، وكان العالم منهم الذي لا يتعمق في النحو حتى أعماقه ويتفهم كل ثوابه وغرائبه ، لا يحظى باحترام كبير ، ومن أراد أن يسلم من المراتق والسقطات فلا بد وأن يدرس كتب المتخصصين المشاركة الضخمة ، وخاصة كتاب سيبويه الذي كان موضع الإعجاب الكبير .

والحقيقة أن الناس في الأندلس كانوا يقومون بهذه الدراسات ، بصورة تفوق كثيرا غيرهم في المناطق الإسلامية الأخرى ، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا يبدعون تعليم أطفالهم ببعض عناصر النحو الأولية إلى جانب بعض النصوص الشعرية والأدبية . ولقد كان ذلك يساعدهم على التأهيل في الدراسات التي يتلقونها في المراحل التالية ، أي أنهم كانوا يحوزون منذ بداية عمرهم التعليمي ملكة عملية في اللغة ، ولم يكن يجري مثل هذا في المغرب أو حتى في تونس ، حيث كان تدريس هذه المادة ، ينحصر إلى الناحية النظرية المحضة (١٦٦) .

(١٦٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

(١٦٥) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(166) Ribera, J. : Ho. da la Ensenanza entre los M. El.
p. 5-52.

وليس معنى ذلك كله أن الأندلسيين كانوا في حياتهم العادية يتحدثون العربية الفصحى ، وإنما كانت تجري بينهم إلى جانب معرفتهم اللغة الرومانشية التي كانوا يجيدونها أداة تامة ، حتى الخلفاء منهم (١٦٧) ، كلغة عامية . ويصف لنا المقرئ هذه الحالة فيقول : « مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لم أن شغفا من العرب سمع كلام الشلويني (عمر بن محمد بن عبد الله الأزدى النحوي ، المعروف بالشلويني) ، المسار إليه في علم النحو في عصرنا ، الذي غربت تصانيفه وشرقت ، وهو يقرئ دروسه لضحك ملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه ، والخاص منهم إذا تكلم بالاعراب ، وأخذ يجري على قوانين النحو ، استقلوه واستبدوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات والرسائل (١٦٨) » .

علم البيان :

يرى ابن خلدون أن « هذا العلم حادث في اللغة ، بعد علم العربية واللغة » وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تنفيده ، ويفقد بها الدلالة عليه من المعاني .

ولأن هذا العلم يقوم بالبحث عن هذه الدلالات ، التي للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف ، الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات ، والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة ، والصنف الثاني ، يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومة ، وهي الاستعارة والكناية ، ويسمى علم البيان ، والحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في ترتيب الكلام وتحسينه بنوع من التتميق ، أما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تنويعه عن المعنى المقصود بإبهام معنى

(١٦٧) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(١٦٨) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمى عندهم علم
البيديع ، وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين ، اسم
البيان (١٦٩) .

الأدب :

ازدهر الأدب في الأندلس بصورة لم يصل إليها أى نوع آخر من
العلوم ، ويقول ابن خلدون عن هذا العلم : أنه « لا موضوع له ينظر في
اثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته
وهي بالاجادة في فن النظم والمنثور على أساليب العرب
ومناحيهم » (١٧٠) .

ولقد ظل أهل الأندلس حتى عصر ابن خلدون على الأقل ، يقولون
أن « أصول علم الأدب وأركانه أربعة هي : أدب الكاتب لابن قتيبة ،
والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبى على القالى »
وان الأندلسيين كانوا يطلبون أعمال الأديباء المشرقين وأشعارهم
بمجرد ظهورها هناك وقصة ارسال أبى الفرج الأصفهاني نسخة من
كتاب الأغاني الى الحكم المستنصر بالله بمجرد ظهوره معروفة ،
وقد نقل ابن الأشج عن المتنبي ديوانه ، وقرأه في قرطبة على طلابه
وعشاقه ، كما نقل ديوان أبى تمام بمجهود شاعر أندلسى هو مؤمن
ابن سعيد ، عن أبى تمام نفسه ، وكان الطلاب يقرءونه عليه في
قرطبة (١٧١) .

وينقسم الأدب الى قسمين رئيسيين هما : الأدب النثرى والشعر ،
وكلاهما قد ازدهر في الأندلس بصورة كبيرة ، ووجد في كل فن منهما

(١٦٩) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٣٦٣ - ١٢٦٧ ،

والترجمة ، ص ١٠٢٤ - ١٠٢٦ .

(١٧٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٨ ، والترجمة ،

ص ١٠٢٨ .

(١٧١) انظر مقدمة كتاب رايات البرزين لابن سعيد التى كتبها

الدكتور النعمان عبد المصطفى ، ص ٩ .

المختصون الصالحون وبعض المعلمين الذين يتولون التدريس في كل فرع منهما على حدة ، وبعض المعلمين الذين يتولون تدريس الفتيين معاً ، فيقال عن عباس بن ناصح النقي (أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) ، غاضى الجزيرة الخضراء ، أنه كان يقد على قرطبية ويأخذ عنه أدباؤها (١٧٣) .

أما الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا المعروف بالاطيلي من أهل قرطبة المتوفى ٥٤٤١هـ / ١٠٤٦م ، فقد كان من أئمة النحو واللغة ، وله معرفة تامة بالكلام على معاني الشعر ، وشرح ديوان المتنبي شرحا جيدا ، وهو مشهور .

وكان متصدرا بالأندلس ، لأقراء الأدب وولى الوزارة للمكتفي بالله (محمد بن عبد الرحمن الذي حكم من ٤١٤ - ٤١٦هـ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥م) ، وكان حافظا للأشعار ، ذاكرة للأخبار ، وأيام الناس (١٧٣) .

وأحمد بن محمد بن يحيى الحميري المتوفى عام ٥٦١٠هـ / ١٢١٣م كان آخر من انتهى إليه علم الأدب في الأندلس (١٧٤) .

أما على بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري ، المتوفى عام ٥٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ، فقد كان متحققا بالنحو ، ذكيا ، بارع الخط والأدب ، درس العربية والأدب زمانا (١٧٥) .

والحقيقة أن غن النثر قد ارتقى في الأندلس في القرن السادس والسابع (الثالث عشر والرابع عشر) ارتقاء كبيرا ، وليست أجود دليلا على هذا أكثر من الإشارة إلى الرسائل النثرية التي توجد

(١٧٣) المتري : النفع ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(١٧٣) ابن حيان : المتن ، ص ٦١ - ٦٣ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٧٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠٠ .

(١٧٥) المراكشي : عبد الملك : النثر والتكلم ، السفر الخامس .

التبسم الأول ، ص ٢٣٢ .

بين عبد الله بن الجنان ، وعلى بن محمد بن علي ، أبو الحسن الرعيني (٥٩٢ - ٦٦٦ هـ / ١١٩٥ - ١٢٦٧ م) ، فليقد ورد إلى الأندلس الأديب أبو عبد الله بن عابد ، وتولى الكتابة فكتب إليه عبد الله ابن الجنان رسالة طويلة في حوالى مئتين ونصف ، التزم فيها حرف « العين » في كل كلمة من كلماتها سواء في النثر أو النظم ، ولما عجز عبد الله بن عابد عن الرد عليها ، رد الشيخ أبو الحسن الرعيني برسالة من أربع صفحات كاملة ، التزم فيها حرف العين في كل كلمة من كلمات الرسالة نظما أو نثرا . فكتب إليه أبو عبد الله بن الجنان رسالة أخرى ملتزما حرف العين في كل كلمة منها نثرا أو نظما في ست صفحات ونصف ، فرد الشيخ الرعيني ملتزما حرف العين في كل كلمة بقصيدة من ٢٣ بيتا وخمس صفحات ونصف صحة نثرا (١٧٦) .

ولقد أثارت هذه الرسائل حركة بين الأدباء في الأندلس ، فكتب أبو المطرف بن عميرة (٥٨٠ - ٦٥٨ هـ / ١١٨٧ - ١٢٦٠ م) (١٧٧) ، رسالة التزم فيها حرف النون ، وهو الحرف المشترك في اسمي عبد الله بن الجنان وأبي الحسن الرعيني ، في كل كلمة من كلماتها نثرا ونظما ، من ثلاث صفحات ونصف (١٨ سطر) ، في كل سطر ١٠ كلمات (١٧٨) .

أما من ناحية الشعر ، فهناك مؤلفات لا تحصى ولا تعد حول الأدب الأندلسي ، تتناول بالتفصيل مكانة الأندلس الشعرية (١٧٩) ، ويرى الدكتور حكيم علي الأوسى ، أن الشعراء الأندلسيين كانوا يصعدون عن سليفة وطبع ، كما أن الجو كان يساعد من له طبع وقافية

-
- (١٧٦) المراكشي : نفس المصدر ، ص ٣٢٣ - ٣٤٨ .
 (١٧٧) ترجمة أبو المطرف بن عميرة ، منشورة في كل كتب التراجم والآداب الأندلسية ، انظر د . حكيم الأوسى في كتابه الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٢٩ ، حيث أشار إلى عدد كبير من المصادر .
 (١٧٨) المراكشي : الذيل والكتلة ، السفر الخامس ، الجبل الأول ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .
 (١٧٩) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles. pp. 67-84.
 تاريخ التعليم

شعرية على أن يبدع ويجيد في الشعر الفصيح ، وإن لم يكن من الدارسين للشعر ولا للأدب ، كما هو شأن ابن مرج الكحل الذي كان شاعرا مبرزاً ، بارع التوليد ، رقيق الغزل ، مطبوع الشعر ، وكان مع ذلك ، أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة (١٨٠) ، على العكس مما يقوله غارثيا غومت ، من أن الشعر الأندلسي كان شعراً فقيراً (١٨١) .

ومن المستحيل هنا الإشارة إلى شعراء الأندلس ، أو إلى المؤلفات الأندلسية التي تناول هذا الشعر ، ويكفي القاء نظرة على الذخيرة لابن بسام (١٨٢) ، أو رايات البرزين لابن سعيد (١٨٣) ، أو الإحاطة لابن الخطيب (١٨٤) ، أو نفح الطيب وأزهار الرياض للمقرئ (١٨٥) ... الخ .

ولقد أنشأ المنصور بن أبي عامر ديواناً خاصاً بالشعراء ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على أقدارهم في الشعر ، وشاع بين الناس الميل إلى الشعر الجميل ، وشارك الأمراء أنفسهم في قول الشعر . وأشهر حكام الأندلس شعراً ، المعتمد بن عباد ، ملك ألبانيا (١٨٦) .

-
- (١٨٠) المقرئ : التنفح ، ج ٦ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .
 (١٨١) على الأوسى : الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ٤٤ .
 (١٨٢) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٨ أجزاء (تحقيق احسان عباس) .
 (١٨٣) ابن سعيد : رايات البرزين — تحقيق نعمان القاضي ، القاهرة . كذلك قام بتحقيقه وترجمته إلى الأسبانية غارثيا غومت .
 (١٨٤) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ٤ أجزاء — تحقيق عثمان .
 (١٨٥) المقرئ : نفح الطيب — ١٠ أجزاء ، تحقيق الشيخ محمد عفيف الحميد — و ٨ أجزاء ، تحقيق احسان عباس .
 أزهار الرياض ، أعيد طبعه في المغرب ، وحقق منه أيضاً الجزء ٤ .

(186) Schack, A. F. : Poesia y Arte de los árabes en Espan y Sicilia, 11.5—75.

Hagerty, M. J. : Poesia de la Muctamad.

ولقد كان تعليم الشعر يتم عفوا أثناء تدريس العلوم الأخرى
فحين يلاحظ الأستاذ موهبة تلميذه الشعرية ، فإنه يعمل على تنميتها
وصقلها حتى يمكن له أن يصل الى مكانة جيدة في الشعر فيجئ
أن عباس بن ناصح الثقفي ، قاضي الجزيرة الخضراء ، كان يفسد على
قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها ، ومرت عليهم قصيدته التي أولها :

لعمرك ما البلوى بعمار ولا العدم
إذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم

حتى انتهى القارئ الى قوله :

تجاف عن الدنيا فما المعجز
ولا عاجز الا الذي خط بالقلم

فقال له الغزال (المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) (١٨٧) ، وكان في
الخلقة ، وهو اذ ذاك حدث نظام ، متأدب ذكي القريحة : أيها الشيخ ،
وما الذي يصنع مفعل مع فاعل ؟ ، فقال له الشيخ : كيف تقول أنت ؟
فقال : كنت أقول : فليس لعاجز ولا حازم . فقال له عباس : والله
يا بني لقد طلبها عنك فما وجدها (١٨٨) .

كما أن هناك قصة أخرى حدثت للقاضي منذر بن سعيد مع أستاذه
أبي جعفر أحمد بن محمد بن النحاس النحوي ، وذلك أنه حضر مجلسه
في الأملاء ، فأملى الشيخ قول الشاعر :

خليلى هل بالثمام عين حزينه
تبكى على ليلى لعلى أعينها
قد أسلمها الباكون الا حمامة
مطبوقة باتت وبات قرينها

(187) Garcia Gomez, El La Poesia Arabigo-Andaluza,
p. 33.

على الأوسى : حكيت : فصول من الأدب الأندلسي ، ص ٩٦ ، ٩٧ .
(١٨٨) المقرئ : النسخ ، ٣ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

٢٤١

فقال منذر : أيها الشيخ ، أعزك الله ، باتا يصنعان ماذا ؟
فقال أبو جعفر : فكيف تقول أنت ؟ فقال منذر : بانت وبان قرينها هـ
فاستبان أبو جعفر ما قال ، وقال له : ارتفع ، ولم يزل يرفعه ، حتى
أدناه منه ، وكان يعرف ذلك له بعد ذلك ويكرمه (١٨٩) .

وأبو جعفر الحميري ، السابق الإشارة إليه ، كان يشجع تلميذه
« أبو يوسف » ، على قول الشعر ، ويقيم المناقسة بينه وبين ابنه هـ
ليساعد الاثنين على صياغة الشعر ، ويقول التلميد : لقد كنت أشده
من شعري على ركاكته وكثرة تكلفه ، وبعده عن الجودة أبياتا لا أعدها
شيئا ، يحملني على انشاده اياها ، فرط استدعائه ذلك مني ، فيلهج بها
ويستند استحصانا لها ، وربما درسها وحفظها (١٩٠) .

ويرى المستشرق الأسباني أنخيل غونثا ليث بالنثيا أن صاعد
الطبقى قد أدخل الى الأندلس طريقة جديدة في درس الشعر الجاهلي
تتلخص في أن يقرأ الطالب القصيدة ، ثم يسأله أستاذه عن معاني
الألفاظ فيقوم بالشرح معتمدا على قائمة من المعاني يكون قد
استخرجها من المعاجم العربية (١٩١) .

أما الدكتور جودت الركابي ف يرى أن الشاعر ، حتى يصبح شاعرا
كان لابد وأن يتمتع بثقافة أدبية عالية (١٩٢) .

ولقد تفوق الأندلسيون في الشعر التعليمي فوضعوا منظومات
علمية في التاريخ والنحو وغيره ، ومن ذلك أرجوزة ابن عبد ربه في
التاريخ وأرجوزته في علم العروض التي يبتدئها بقوله :

-
- (١٨٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
(١٩٠) انظر هذه النسخة الطويلة في المعجب للمراكشي ،
ص ٤٢٩ - ٤٣٤ .
(١٩١) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ،
ص ٦٦ .
(١٩٢) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ٦٢ - ٧٤ .

بالحمد لله نبدأ وبه التمسلم
وباسمه يفتح الكلام
وكذلك الأرجوزة التي صدرها الشيخ يوسف بن محمد البلوي
لكتابه « ألف باء » :

جملت ما أؤلف فيه وأبني

لعبد الرحيم أبني

ليقرأه بعد موتي

وينظر الى منه بعد فوتي (١٩٣)

٣ - العلوم العقلية

لا شك أن تعبير العلوم العقلية لا يدل دلالة واضحة على مجموعة العلوم التي نتناولها في هذا المجال ، لأنه ما من مادة علمية إلا وكان للعقل فيها نصيب ، قل هذا النصيب أو كثر . لكن العرب استخدموا هذا التعبير للتفرقة بين العلوم اللسانية والدينية من جهة ، وباقي العلوم الأخرى من جهة ثانية .

وفي الأندلس ، حظيت العلوم العقلية بمكانة طيبة ، لكنها لم تضارع ما وصلت اليه مجموعتنا العلوم السابقتان ، مثلما يقول المستشرق الأسباني خوان بيرنيت : بأن التعليم في العالم الاسلامي كان موجها في المقام الأول ، لاعداد الفرد للحياة الآخرة (١٩٤) . وهذا ولقد اعترفت كثير من العلماء بالمكانة العلمية لاسبانيا الاسلامية ، وتأثيرها القوي على الحياة في أوروبا الغربية ، أكتفى هنا بإيراد ثلاث شهادات لثلاثة من رجال الفكر الأسبان :

(١٩٣) البلوي : ألف - باء - طبعة القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٥٠ .

(195) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 97.

يقول خوان بيرنيت :

ان كميات هائلة من مترجمات اللغة العربية الى اللاتينية ، والتي تم القيام بها في أسبانيا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، قد أعيد طبعها مرات على مدار القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وعن طريق هذه الأعمال المترجمة كون العلماء ورجال الدراسات الانسانية صورة غضة ورائعة عن الحالة العلمية التي كانت تتمتع بها أسبانيا الاسلامية لدرجة أنهم قد نسبوا كل الأعمال المترجمة عن العرب ، بما في ذلك أعمال ابن سينا الذي لم يوطأ قدمه أرض شبه الجزيرة ، الى أسبانيا الاسلامية ، ولذلك لم يكن من الغريب أن لا يتردد ، ولو للحظة واحدة ، مؤرخ العلم الذائع الصيت « سارتون » ، في اعتبار أسبانيا الاسلامية أعظم مركز ثقافي وحضاري في عالم العصور الوسطى^(١٩٥) .

ويقول الدكتور غرنثاليس براتس عند دخوله الأكاديمية الملكية الطبية الأسبانية « هذا الأندلس ، مركز ومنار ، كان يوما مشرقا وزاهيا ، كان مطعم الأطماع ، ومحط الأبصار النهمة الراغبة في التعلم ، لأي فرع من فروع المعرفة ، في ذلك العصر الذي اتسم بالفخار ، وبالجهد المضيئة »^(١٩٦) .

أما البروفيسور سانثيت بيريت ، فإنه يعطى أهمية كبرى لوجود العرب في أسبانيا عند تأريخه للعلوم عند العرب ، قائلا :

ان للوجود العربي في أسبانيا أهمية كبرى ، فعلى الرغم من أن اقليم شمال شبه الجزيرة الايبيرية قد شهد صراعا بينهم وبين

(195) Vernet, J. : Ho. de la ciencia, espanola, p. 58.

Sarton : Introduction to the history of science.

Millas Valliorosa : Estudios sobre la historia de la ciencia espanola.

(196) Gonzalez Prats, . : Las Alturas en las ciencias medicas en el Reino de al - Andalus, p. 20.

المختارين وأهل نيرة وأشتوريه والأراغونيين ، إلا أن كل الأقسام الجنوبية قد عاشت عدة قرون تحت تنظيم سياسى محكم وثقافة عربية ارتقت بصورة مذهلة (١٩٧) .

ودراسة ما تقدمه لنا كتب التراجم الأندلسية الخاصة بالمشتغلين فى مجال العلوم العقلية تطعننا على موسوعة أصحابنا ، حيث نجد أن كلا منهم عالم متخصص فى أكثر من مادة واحدة ، ويمكننا من أجل التسهيل الدراسى لا أكثر ، أن نقسم العلوم العقلية الى أربع مجموعات رئيسية :

١ - المجموعة الطبية ، وتضم : الطب والصيدلة وعلم النبات .
٢ - العلوم البحتة ، وتضم الرياضيات والطبيعة والكيمياء والآنك .

٣ - العلوم الفلسفية ، وتضم : الفلسفة والمنطق .
٤ - العلوم الاجتماعية : الجغرافيا والتاريخ والتراجم . الخ .

(١) الموسوعة الطبية

١ - علم الطب والصيدلة :
اعتنى المسلمون بالطب عناية كبيرة منذ بداية الاسلام ومما يشهد لهذه الصناعة بعلو الشأن ، ورغبة المكان ، قوله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان » (١٩٨) .

ولقد عول الأندلسيون فى الطب على كتاب مترجم من كتب النصارى ، يقال له « الابريشم » « Aphorismi » ومعناه المجموع

(197) Sanchez Pérez, J. : La ciencia árabe en la Edad Media- p. 11.

Miolo, Aldo : Panorama general de la Ha. de las ciencias II, 48, (Traduccib (Traducción Espanola).

Millas Vallicrosa : Estudios sobre la Ha. de la ciencia espanola.

(١٩٨) ابن الخطيب : عمل من طب ابن حب ، ص ١ .

أو الجامع (١٩٩) *

ثم تطور العلم على يد أطباء أندلسيين عادوا من المشرق مثل
الحراني الأندلسي ، الذي عاد في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن
الأوسط (٢٣٨ - ٥٢٧٣ / ٨٥٧ - ٨٨٦ م) ، ويقول عنه صاعد
الطيطي : كانت عنده مجريات حسان في الطب ، واشتهر بفرضية (٢٠٠) *

ولقد شارك في هذه البوابة في الأندلس كثير من الأطباء النصارى
واليهود مثل ابن ملوكة النمراني ، كان في أواخر أيام الأمير عبد الله ،
وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وكان يصنع بيده ، ويقصد
المعروق ، وكان على باب داره ثلاثون كرسيًا لتعود الناس (٢٠١) *

ويحيى بن إسحق ، أحد وزراء الناصر ، ألف في الطب كتابًا ،
يشتمل على خمسة أسفار ، ذهب فيه مذهب الروم (٢٠٢) ، ولقد كان
والده من قبله ، على أيام الأمير عبد الله (وكانت سكناه بقرب
مسجد طاهر ، مسيحى النحلة ، وكان صانعًا بيده ، مجربًا) (٢٠٣) *

ومن أشهر الأطباء اليهود في تلك الفترة حسداى بن شبروط ،
وكان وزيرًا وسفيرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر (٢٠٤) *

ويعتبر عصر عبد الرحمن الناصر ، العصر الذهبي للطب في
الأندلس ، حيث (تتابعت الخبرات على أيامه ودخلت الكتب الطبية
من المشرق وجميع العلوم ، وقامت الهمم ، وظهر الناس ممن كان في

(١٩٩) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٢ .

(٢٠٠) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

صاعد الطيطي : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ .

التقطيني : أخبار العلماة بأخبار الحكماء .

(٢٠١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٧ .

(٢٠٢) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ .

(٢٠٣) ابن جلجل : نفس المصدر ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(204) Vernet, J. : Historia de la ciencia española, p. 59.

صدر دولته من الأطباء المشهورين (٢٠٥) .

وعلى عهد الحكم المستنصر أقيمت خزانة الطب ، أقامها الطبيب أحمد بن يونس (وهو طبيب رحل الى المشرق في عام ٥٣٣ / ١١٤١ م) ، الذي أقام ببغداد هو وأخوه عمر عشرة أعوام ، وتأديا بالطلب ، وخدما الرؤساء ، مع ثابت بن بشار بن ثابت بن قسرة ، الذي قرأ عليه كتب جالينوس ، عرضا . وقد خدما ابن وصيف في ظل العين ، وعادا الى الأندلس في عام ٥٣٥ / ١١٤٢ م ، ودخلا في دولة المستنصر ، وغروا معه غزاته الى شنت استين وانصرفا وألحقهما لخدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء ، واستخلصهما لنفسه دون غيرهم ممن كان في ذلك الوقت من الأطباء ، ثم مات عمر وبقي أحمد ، فأسكنه المستنصر في قصر بمدينة الزهراء ، وقد تولى إقامة خزانة بالقصر للطب . ولم يكن قط مثلها ، رتب لها اثني عشر صيدا صقليا ، طبّاخين للأشربة ، صانعين للمعجنات ، واستأذن أمير المؤمنين أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فأباح له ذلك (٢٠٦) .

ووجد على عهد الناصر والمستنصر ، ديوان للأطباء ، تسجل فيه أسماؤهم . وليس لدى تفصيلات عن هذا الديوان ، ولكن ابن جليل يقول عند ترجمته لأحمد بن حكم بن حفصون ، أنه خدم بالطب طول أيام جعفر بن عثمان المصفي ، فلما مات جعفر ، أسقط من ديوان المتطببين أو الأطباء ، وبقي مخمولا أخريات أيامه (٢٠٧) .

وازدهر الطب والصيدلة أيضا على عهدي الموحدين والناصرين ، وكان مادة تدرس ، يقال عن محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسي المتوفى ٥٧١٥ / ١٣١٥ م ، أنه أقرأ التعاليم والطب والأصول بقرنطة لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر من مدينة بجاية

(٢٠٥) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢٠٦) ابن جليل : نفس المصدر ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢٠٧) ابن جليل : نفس المصدر ، ص ١١٠ .

فانتفع الناس به (٢٨) .

أما عبد الله بن أحمد بن ضياء الدين الأندلسي البالقي المعروف بابن البيطار (٥٧٥-٦٤٦ هـ / ١١٧٩-١٢٤٨ م) ، فإنه حينما رحل إلى مصر ، كان هناك « رئيس العشابين » ولقد طاف تقريبا بكل البلاد الإسلامية ، وله مؤلفات في الطب (٢٩) .

ويبدو أن المهنة قد دخلها كثيرون من غير المؤهلين ، مما دفع إلى وضع شروط وقواعد قاسية للمستقبلين بالطب (٣٠) .

أما تعلم الطب فلقد كان يتم في الدرجة الأولى بين عائلات معينة احتفظت بسر المهنة بين أفرادها ، الذي لم يكونوا يقدمونه لغيرهم ، مثل أبي بكر سليمان ، الذي عالج أمير المؤمنين ، الناصر لدين الله من اليرقان ، وطلب منه نسخه بعد ذلك ، غابى أن يمليها (٣١) .

وكذلك الحراني الذي ورد من المشرق في أيام الأمير محمد ، أدخل الأندلس معجونا ، كان يبيع منه السقية بخمسين دينارا ، وحاول أطباء قرطبة معرفة السر منه ، حتى وصلوا إلى شراء شربة من الدواء وتحليلها (٣٢) .

وعلى بن هلال بن علي بن حسن البليسي ، المتوفى ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ، كان عدديا ماهرا مهندسا حاذقا ، طبييا بارعا فائقا ، متعرضا لذلك ، مقصودا فيه ولم يزل معظم عمره شديد الضمانة لما كان عنده من المعارف ، شرس الخلق عند التعليم ، متميزا على المتعلمين ، لا يتعلم له أحد ، عز أو هان ، إلا وافقا أسئل دكانه ، الذي تصدى فيه للفتاوى

(٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٩) مطلب : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣٠) العقباني : تحفة الناظر ، ص ٢٥٨ .

(٣١) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ١٠٢ .

(٣٢) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الطبية ، ثم سمح بآخره لبعض الطلبة وأسعفهم بالجلوس لاقرائهم في مسجد يقرب من موضعه ، فاغتنم ذلك منه وأخذ في تلك الحال (٢١٣) .

ولكن مع ذلك كان الطب يعلم ، وذلك بقراءة الكتب وصحبة الأطباء ، حيث يحكى أن أبا بكر بن زهر قد أتى اليه أثنان من الطلبة ، ليشتملا عليه بصناعة الطب ، ترددا عليه ولأزماء مدة ، وقرأ عليه شيئا من كتب الطب (٢١٤) .

٢ - علم النباتات :

يرتبط هذا العلم بعلم الطب والصيدلة ، من ناحية أنه يمدهما بالمادة العشبية اللازمة لاستخراج الدواء ، ولقد وصل هذا العلم في الأندلس الى مكانة طيبة ، وأشهر رجاله هم :

أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بابن وافد ، المتوفى في عام ٤٦٧ هـ / ١٠٤٧ م ، كان طبيبا وله في الطب كتاب الأدوية المفردة وكذلك له كتاب في الفلاحة ، وهو الذى تولى غرس حديقة المأمون بن ذى النون ، بطليطة (٢١٥) .

حسن بن أحمد بن عمر بن مفرج بن هاشم البكرى الاشبوني ، المتوفى ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ، ويعرف بالزرقالة ، فاق أهل عصره في تمييز النباتات والعشب (٢١٦) .

أحمد بن محمد المعروف بابن العشاب ، المتوفى ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ،

(٢١٣) المراكشى : الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الأول ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .
(٢١٤) محمد المنونى : المعلوم والآداب على عهد الموحدين ، ص ٢٦ .

(٢١٥) شبيب ارسلان : الحل السنيدي ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

Vernet, J. : La Cultura hispanoarabe, 39-40 y 254.

Vernet : Historia de la Ciencia Espanola, p. 63.

(٢١٦) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٢١ . (الترجمة ٤٧) .

كان حسن العلاج في طبسه ، وكان امام أهل المغرب قاطبة في مسرفة النبات وتمييز الأعشاب وتخليطها ، وعلم منافعها ومضارها ... رجل في سبيل ذلك الى جبل غرناطة وغيره من بلاد الأندلس ، وعين في وجهته المشرقية كثيرا مما لا يكون بالمغرب منه ، وفاوض هنالك كل من أمكسه ممن يشهد له بالفصل في معرفته ، ولم يزل باحثا عن حقائقه ، كاشفا عن غوامضه حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدم في الملة الاسلامية ، فصار أوجد عصره في ذلك ، فردا لا يجاريه أحد فيه باجماع من أهل ذلك الشأن .

وكان له دكان متسع يقعد فيه ليبيع الحشائش الطبية والنفح بها (٢١٧) .

ويقال عنه أيضا ، انه جال في الأندلس ، ومضرب العدوة ، واستوعب المشهور من أفريقية ومصر والشام والحجاز والعراق ، حتى صار أوجد عصره في ذلك ، لا يجاريه فيه أحد من أهل هذا الشأن (٢١٨) .

(ب) العلوم البحتة

تنقسم العلوم البحتة بدورها الى قسمين رئيسيين ، الأول منهما يتناول العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والفلك ، والثاني يتناول الكيمياء والطبيعة .

(أ) وجدت المجموعة الأولى من هذه العلوم مبكرة في الأندلس ، ولم تواجه أية مشاكل في دراستها أو تدريسها ، وذلك لارتباطها بالعلوم الدينية وتطبيق الشريعة ، مثل تقسيم الموارث ومعرفة اتجاه القبلة ، وكذلك فان هذه العلوم كانت مهمة أيضا لحل بعض مشاكل الحياة الدنيوية ، يقول أبو عمران المورقي في قصيدة له :

(٢١٧) الأراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الأول ، ص ٥١٢ ، ٥١٣ .
ابن الخطيب : الاطحة - ج ١ ، ص ٢١١ - ٢١٤ .
(٢١٨) أحمد شوكت الشطبي : حول علم النبات عند العرب ، ص ٢٤٨ .

لولا الحساب وعلم كل فريضة
لم يعرف التحليل والتحريم (٣٩)

ويرى مؤرخ العلوم الأسباني خوان بيرنيت ، أنه على الرغم من أن العلوم البحتة كانت قليلة نسبيا في العالم الاسلامي بسبب اتجاه حركته التعليمية الى اعداد الفرد لحياة الآخرة ، ومن هنا كان تطور هذه العلوم بطيئا في فترات الضغط الديني ، والذي لم يكن يسمح الا بالشروح الضرورية لحل المشكلات المعقدة ، الناجمة عن تطبيق الشرائع القرآنية في حالات تقسيم الميراث وعليه يمكن القول بأن نظام الأرقام قد انتشر دون صعوبة تذكر في المشرق في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، منتقلا بأسرع مايمكن الى الأندلس ، ومنها بسرعة كبيرة الى الأراضى المسيحية ، فان مجموعة الرياضيات التجارية والهندسة المساحية لما يجدا الا صعوبات تافهة على طريق تطورهما ، وذلك لأهمية الأولى في الحياة اليومية ، والثانية ، الى جانب علم النجوم ، شكلت الأساس للتوجيه الشرعى للمساجد ووضع الجداول الشمسية (٢٢٠) *

ويرى صاعد الطبقي أن منتصف القرن الثالث من الهجرة (التاسع الميلادي) هو بداية نهضة هذه العلوم في الأندلس وبالتحديد على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن *

وأول من يشير اليه صاعد ، ممن برزوا خلال هذا القرن هو أبو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسى ، المتوفى ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م (٣١) *

أما عصر الخلافة في الأندلس فلهذا شهد تطورا ضخما في هذه

(٢١٩) ابن القاضى : درة الحجال ، ص ٢٣٨ .
(220) Vernet, J. : Los Musulmanes espanoles, pp. 97, 98.
Millas Vallieroca : Estudios sobre la ciencia, p. 23.
(٢٢١) صاعد الطبقي : طبقات الأمم ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

المعلوم ، ولعب الحكيم المستنصر دورا بارزا في تشجيعها (٢٢٢) .

وأبرز الشخصيات في هذا المجال هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالجريطي ، المتوفى ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، فهو كما يقول عنه صاعد الطبقي ، كان امام الرياضيين في الأندلس في وقته ، وأنجب تلاميذ جلة (٢٢٣) ، وترك في الأندلس ما يمكن أن نسميه بمدرسة الجريطي الرياضية (٢٢٤) .

ولقد كان لتعليم الحساب جوانب تربوية مهمة جدا ، منها مثلا تعليم التفكير ، والتأني ، والصدق ، ولقد أعجب أبو بكر بن العربي بطريقة تعليم الحساب التي كان يتبعها المعلمون في مكة المكرمة حيث يقول : كنت أحضر عند الحاسب بنك الديار المكرمة ، وهو يجعل الأعداد على المتعلمين الحاسبين وأخواهم مملوءة بالماء ، حتى اذا انتهى القاءه ، وقال ما يريد ، رمى كل واحد بما في فيه ، وقال ما معه ، وذلك ليعودهم خزل اللسان عن تحصيل المفهوم عن المسموع (٢٢٥) .

والظاهرة التي نتجلى لنا من دراسة عشرات من تراجم معلمى الرياضيات بالأندلس ، أن الغالبية العظمى منهم كانوا يتداولون علم النجوم ، وأنهم كانوا يتعاطون أيضا الطب والفلسفة — فمثلا :

أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون ، المتوفى في ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، من أشرف أهل أشبيلية في علوم الفلسفة ، مشهورا بعلم الهندسة والنجوم والطب (٢٢٦) .

(٢٢٢) نفس المصدر ، ص ٨٨ .

(٢٢٣) صاعد الطبقي : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

الفتي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٣٢٦ .

(224) Burckhardt : La Civilizacion hispanoárabe, p. 213.

(٢٢٥) ابن العربي : أحكام القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .

(٢٢٦) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

أبو بكر عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى ، أحد الراسخين فى علم
العدد والهندسة ، درس الهندسة والطب فى المشرق ، وعاد إلى
الأندلس ، مستوطناً مدينة سرقسطة ، وهو الذى أدخل إلى الأندلس
رسائل اخوان الصفا ، لا نعلم أحداً أدخلها إلى الأندلس قبله (٣٢٧) .

أبو جعفر أحمد بن خميس ، من أهل طليطلة ، توفى ٤٥٤ هـ /
١٠٦٣ م ، وأخذ المعتنن بعلم الهندسة والنجوم والطب ، برع فى ذلك ،
وقعد لتعليمها زماناً طويلاً (٣٢٨) .

ومن هؤلاء من مال أكثر ، إلى دراسة علم الأفلاك وهيئتها ،
وحركات الكواكب وأرصاها ، مثل محمد بن عمر بن محمد المعروف
بأبن البرغوث المتوفى عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ (٣٢٩) .

وفى علم الفلك يحسن أن نشير إلى العالم الكبير إبراهيم
ابن حبيب أبو اسحق ، المعروف بولد الزرقى الأندلسى (ت ٤٩٣ —
١١٠٥) ، يقول عنه القفطى ، أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب ،
وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ، وله صفحة « الزرقىال »
المشهورة فى أيدي أهل هذا النوع التى جمعت من علم الحركات
الفلكية كل بديع مع اختصارها ، ولما وردت على علماء هذا الشأن
بأرض المشرق حاروا فيها وعجزوا عن فهمها إلا بعد التوفيق (٣٣٠) ،
ويقول عنه صاعد الطبقي : أنه أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب ،
وهيئة الأفلاك ، وحساب حركاتها (٣٣١) . ويصفه أحد مؤرخي

(٢٢٧) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٣٣ .

(٢٢٨) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٩ .

فكيك إرسالان : الحل السندسية — ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢٢٩) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٥ .

(٢٣٠) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٥٧ .

(٢٣١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٠ .

محمد عبد اللطيف مظهر : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

العلوم الأسبان بأنه أكبر شخصية علمية عربية تركت تأثيراً على العلوم الأروبية اللاتينية (٢٣٢) .

(ب) أما عن مجموعة العلوم الخاصة بالكيمياء والطبيعة فانتشرت أيضاً في الأندلس ، ولكن بصورة أقل ، وتحدثنا المصادر عن عباس بن فرناس الذى سبقت الإشارة اليه عند الحديث عن الدولة والتعليم ، أنه كان أول من تعاطاها هناك ، كما أن الذخيرة لابن بسام تحتفظ لنا بنص يفهم منه وجود معمل كيميائى يشرف عليه الوزير خالد بن يزيد المخزومي (٢٣٣) .

(ج) العلوم الفلسفية

من الصعب القول بأن العلوم الفلسفية كانت ضمن المواد المعروضة للاختيار أمام الطلبة الأندلسيين ، حيث أن الفلسفة عانت كثيراً من الاضطهاد من علماء المالكية ، ولكن ذلك لا يعنى اختفاءها ، بل على العكس ، فأننى أرى أن الاضطهاد الذى صبه المالكيون فى الأندلس على الفلسفة قد جعل الاقبال عليها سرا أمراً شائعاً ، وأدى الى انتشارها على مستوى واسع . ويجب التفريق فى البداية بين علم المنطق وعلم الفلسفة ، حيث واجه الأول منهما مقاومة أقل مما واجه الثانى ، ووجد معلمون يقومون بتدريس المنطق عبر فترات طويلة من التاريخ الأندلسى .

أما الفلسفة فالتقت شهدت فترات ازدهار وفترات اضطهاد . ازدهرت على عهد الحكم المستنصر ، ثم تعرضت لاضطهاد على يد المنصور بن أبى عامر ، وعادت الى الازدهار على عصر الطوائف

(232) Millas Vallicrosa : Estydios sobre Alzarquil, p. 1.

Vernet, J. : La Cultura hispanoárabe, pp. 40, 41 y 138.

Vernet, J. : Ho. de la Ciencia Española, pp. 64, 65.

Burckhardt : la civilización hispano árabe, p. 213.

(٢٣٣) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ،

ص. ١٨٣ - ١٨٧ .

ثم خدمت علي عبد المرابطين ، وعاشت أزهى أيامها على الأرض
الأندلسية ، على عهد الموحدين .

ولقد أنجبت الأندلس المسلمة عددا كبيرا نسبيا من رجال
الفكر الفلسفى ، أهمهم : ابن حزم القرطبى (٩٩٤ هـ - ١٠٦٤ م) ،
وأبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة المتوفى
٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م ، وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (١١٠٠ -
١١٨٥ م) ، ثم ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م) .

ويرى الدكتور جودة عبد الرحمن فى مقدمته لموصية القاضي
أبى الوليد الباجى أنه يمكن القول بأن الفلسفة قد عاشت فى الأندلس
على الرغم من فرض الحصار الشديد عليها ، وأنها قد ظهرت أحيانا
فى ثوبها الجميل وأخذت حصتها من التطور والازدهار ، وذلك حينما
كان يقدر لها التأييد من ملك أو أمير ، وأحيانا أخرى تنكمش بعيدة
عن قصور الخلفاء وبيوت الوزراء (٣٤) .

وليس هنا المجال للتأريخ للفلسفة فى الأندلس ، ولذلك أقتصر
الاشارة الى بعض المراجع التى يمكن الاطلاع عليها (٣٥) .

٤ - العلوم الاجتماعية

تطورت العلوم الاجتماعية فى الأندلس المسلمة تطورا كبيرا ،
ساعد على ذلك أن ذلك الفرع خاصة ضمن العلوم العقلية ، يتصل
اتصالا وثيقا بالعلوم الدينية ، فالتاريخ مثلا يرتبط مباشرة بكتابة
السيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين ، والعلماء ، أما الجغرافية
فلقد دعا الى الاهتمام بها ، اتساع الدولة الاسلامية ، وضرورة تحديد
الطرق والاتجاهات ، وحيث أن الأندلس كانت تقع فى أقصى الغرب ،

(٢٣٤) عبد الرحمن : جودة : وصية القاضي أبى الوليد الباجى ،
ص ٢١ .
(٢٢٥) محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام فى المشرق
والمغرب .

تاريخ التعليم

أو في أقصى الشمال الغربي من هذه الأمة الإسلامية ، وقيام الأندلسيين بالرحلات إلى المشرق سواء للفتح أو للدراسة ، قد أعطاهم الفرصة للاهتمام بعلم الجغرافيا . أما التراجم والسير فأنها أيضا تتصل اتصالا وثيقا بالعلوم الدينية ، وبدأت بالاهتمام بالسيرة النبوية وسيرة الصحابة ومن جاء بعدهم ، ثم ظهرت المدارس الفكرية ، وكتابة سير رجالها وتراجمهم .

وقد اتخذت كتابة التاريخ في الأندلس اتجاهين عامين ، أولهما كتابة تاريخ الأندلس في مجمله أو كتابة عصر معين أو تاريخ دولة ما من دوله ، ثم الكتابات المتخصصة عن شتى نواحي الأندلس وبلادها أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء ... الخ .

ومن الصعب جدا الإلمام بكل المؤرخين الأندلسيين ، أو من كتبوا كتباً تاريخية ، كما أنه أكثر صعوبة الإحاطة بكل المؤلفات ذات الصبغة التاريخية — وسأشير فقط إلى أهم المؤرخين الأندلسيين :

عبد الله بن حبيب ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، هو أول مؤرخ أندلسي ، حاول أن يكتب تاريخاً عاماً للعالم ، وذلك قبل أن يكتب الطبرى تاريخه بحوالى قرن من الزمان (٣٣٦) .

أحمد بن محمد الرازى ، المتوفى ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، ويعتبر أحمد بن محمد الرازى — على ما يقول الدكتور حسين مؤنس — أباً الجغرافيا والتاريخ في الأندلس في آن واحد . ولقد أخذ اهتمامه بالتاريخ عن والده محمد بن موسى ، المتوفى ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وعن أسناده قاسم بن أصبغ البليانى .

(٢٣٦) المثرى : النفع — ج ٢ ، ص ٢١٥ .
وانظر المقدمة التي كتبها الدكتور محمود على مكي لتحقيقه للسفر الثانى من مكتسب ابن حيان ، ومقاتله عن ابن حبيب في :
Makki, M. A : Egipto y los origenes de la historiografia
Arabigo — Espanola.

وكان أحمد هذا ميلا بطبعه الى التعرف على أحوال الدنيا والبشر وانصرف الى الجغرافيا والتاريخ انصرافا تاما ، أرسى به أسس هذين العلمين في بلاده (٢٣٧) .

ويقول عنه ابنه عيسى ، وهو مؤرخ كبير أيضا :

توفي الجد في البيرة عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وابنه أحمد والذى يومئذ طفل ابن ثلاثة أعوام ، فأقره أهله بالأندلس ، ونشأ فيها ، فطلب العلم ومال الى الأدب ، فغلبه عليه حب الخبر والتشغير عنه ، ولم يكن من شأن أهل الأندلس ، فالتقطه عن لحنه من مشيختهم ، ورواتهم ، ودونه ، ووضع قواعد التاريخ بالأندلس ، مبتدئا ، فأرلغه السلطان واعلنت به منزلة ولده من بعده ، وأكسبوا أهل الأندلس علما لم يكونوا يحسنونه (٢٣٨) .

ولاشك أن الرازى هو أول من كتب تاريخا موضوعيا للأندلس المسلمة ، وعليه اعتمد كثير من المؤرخين والمؤلفين ، لكن الأعمال الأصلية للرازى فقدت ، ولم تصلنا منها الا شذرات مترجمة الى البرتغالية والأسبانية ، وما حفظ ضمن نقول المؤلفين الآخرين .

محمد بن القوطية المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، الذى كان حافظا لأخبار الأندلس ، ولما برواية سيرة أمرائها (٢٣٩) ، لقد ترك لنا كتابا عن افتتاح الأندلس (٢٤٠) .

(٢٤٧) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،

ص ٥٦ .

(٢٣٨) ابن حيان : القتيبي (طبعة مكي) ، ص ٢٦٩ .

Levi Provencal : Ho de la Espana Musulmana, 1176.

(٢٣٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس — ج ٢ ، ص ٧٦ .

(240) Ribera, J. : Ho de la conquista de Espana de Ibn al Qutiyya de Cordoba.

Chalmeta, P. : Una historia discontinua e intemporal.

ابن حيان القرطبي ، المتوفى ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، « الذى يتفق الكثيرون على أنه من أعظم مؤرخى الإسلام ، وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس بل والغرب كله — الاسلامى والمسيحى منه على السواء — طوال العصور الوسطى » (٢٤١) .

أهم مؤلفات ابن حيان كتاباه : المقتبس والمئين . والمقتبس يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى فى سنة ٩١ هـ / ٧١١ م ، حتى عصر المؤلف تقريبا ، ولقد أشار اليه ابن حزم ضمن رسالته فى فصل الأندلس قائلا :

« ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس تأليف أبى مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، أجل كتاب ألف فى هذا المعنى » (٢٤٢) .

ويتألف المقتبس لابن حيان من عشرة أسفار ووصلت اليها بعض قطعها ، علاوة على النصوص التى نقلها منه المؤرخون الذين جاءوا بعده والقطع التى وصلت من المقتبس هى :

— قطعة كبيرة فى حدود ١٨٨ ورقة ، تتناول عصر الأمير الحكم ابن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٧ — ٨٢١ م) وشظايا كبيرا من إمارة عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٢ هـ / ٨٢١ — ٨٤٦ م) ، وكانت فى حوزة المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ثم غقدت منه فى عام ١٩٥٧ ولم تظهر بعد (٢٤٣) .

(٢٤١) محمود على مكى : مقدمته للجزء الثانى من مقتبس ابن حيان ، ص ٧ و ص ١٠٤ .
جمال الدين : عبد الله : ابن حيان الأندلسى — أبو مروان بن حيان :
أهم مؤرخى الأندلس — مجلة أوراق — العدد الثانى ١٩٧٩ ، الصفحات من ١٤ الى ٣٧ .

(٢٤٢) المقبرى النفع — ج ٤ ، ص ١٦٧ .

(٢٤٣) محمود مكى : مقدمته للسفر الثانى من المقتبس ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ (وقد ظهرت فى الاسكندرية بعد ذلك) .

— قطعة ثانية تتناول السنوات الأخيرة من عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد ، وتشتمل على خمس وسبعين ورقة قام بنشرها الدكتور محمود علي مكي في بيروت عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

— قطعة تتناول عصر الأمير عبد الله (٣٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٣ م) . وتبلغ حوالي مائة وسبع وثلاث ، نشرها الألب هيلشور أنطونيا بياريس عام ١٩٣٧ .

— الجزء الخاص بالسنوات الثلاثين الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث : قام بنشره الدكتور بدرو شاميتا وآخرون تحت عنوان الجزء الخامس من مقتبس ابن حيان ، وذلك بالمعهد الأسباني العربي للدراسة بمدريد عام ١٩٧٨ .

— جزء آخر صغير يتناول خمس سنوات من عهد الحكم المستنصر بالله من ٣٦٠ — ٣٦٤ هـ / ٩٧٠ — ٩٧٤ م ، قام بنشره باللغة العربية في بيروت عام ١٩٦٥ . الدكتور عبد الرحمن الحجى ، ثم قام الدكتور غارثيا غوميت بنشر ترجمة باللغة الأسبانية في عام ١٩٦٧ بناء على مخطوط الأكاديمية الملكية للتاريخ تحت عنوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba al Hakam 11
por Isa b. Ahmad al Rāzi.

أما عن كتاب المتين لابن حبان فلم يصلنا منه أية قطعة متكاملة ، لكن كتاب الذخيرة لابن بسام ، قد احتفظ بنصوص كثيرة قيمة ، كانت موضوعا لرسالة دكتوراه ، قام بها الباحث المصري الدكتور

(٢٤٤) انظر أيضا :

Levi Provencal : Textos Inéditos del Muqtabas de Ibn

Hayyan sobre los origenes del Reino de Pamplona.

Chalmers, O. : Historiografia Medieval Hispano-Arabe.

Chalmers, O. : Treinta anos de nuestra historia hispana del Muqtabas de Ibn Hayyan.

عبد الله جمال الدين حيث جمع النصوص وترجمها الى الأسبانية (٢٤٥) .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله القفصاعى ، المعروف بابن الأبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٨ م) (٢٤٦) ، وهو من كبار مؤرخى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وأهم مؤلفاته التى خلفها : الحلة السراء (٢٤٧) .

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلمانى ، المعروف بابن الخطيب ، المولود فى لوثة فى الخامس والعشرين من رجب عام ٧١٣ هـ ، ١٦ نوفمبر ١٣١٣ م ، والمقتول فى عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

كان القرن الثامن الهجرى فى مملكة غرناطة ، بالنسبة لمجال الفكر والأدب قرن النضج والازدهار ، وفيه ظهرت مجموعة من كبار المفكرين والشعراء والكتاب مثل ابن خاتمة الانصارى (٢٤٨) ، وأبو الحسن بن الجياب (٢٤٩) ، وابن جزى (٢٥٠) ، ولسان الدين ابن الخطيب ، وابن زمرك (٢٥١) ، وأبو سعيد بن لب (٢٥٢) .

ولقد كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت ضمن هذا العدد الضخم من العلماء والأدباء والمفكرين ، كما أنه كان شخصية

(٢٤٥) ابن حيان : المتن ، تحقيق عبد الله جمال الدين .

(٢٤٦) أنظر فى ترجمات ابن الأبار :

المغبرنى : عنوان الدراية ، ص ٣٠٦ - ٣١٢ (الترجمة ٩٥) .

(٢٤٧) أنظر الكتاب والمقدمة التى أعدها الدكتور حسين مؤنس لطبعته فى القاهرة ١٩٦٣ ، وكذلك رسالة الدكتوراه التى قدمها الدكتور عبد الله الطباع بجامعة مدريد عن هذا الكتاب .

Gibert, C. : el Diwan de Ibn Jatima de Almeria. (248)

ابن الخطيب : الاطاعة - ج ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٥٣ .

(٢٤٩) المقرئ : نفع الطيب - ٧ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٤ .

(٢٥٠) ابن الخطيب : الاطاعة - ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢٥١) ابن الخطيب : الاطاعة - ج ٢ ، ص ٣٠٠ - ٣١٥ .

(٢٥٢) ابن الخطيب : اوصاف الناس فى التواريخ ، ص ٣٢ .

موسوعية ، برزت مواهبه في كل مجالات المعرفة ، وكان كما يصفه الأستاذ محمد عبد الله عنان أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى (٢٥٣) .

ولقد ترك لنا ابن الخطيب مجموعة كبيرة من الكتب أهمها الإحاطة في أخبار غرناطة الذي انتهى من تحقيقه ونشره في ٤ أجزاء المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان (٢٥٤) ، كما أنها كانت في جزء منها موضوعا للدكتوراه ، قدمه الباحث الكويتى يوسف الحشاش : بجامعة مدريد المركزية (٢٥٥) .

وأكتفى في هذا المادة ، بالإشارة الى الدراسة القيمة التى نشرها الأستاذ بونس بوجسى (٢٥٦) ، مع التأكيد بأن التاريخ كان مادة تدرس وتقرأ كتبه ، أشار الى ذلك ابن خير في فهرسته ، مستعرضا الكتب التاريخية التى درسها على أساتذته (٢٥٧) .

ولقد تطور علم الجغرافيا أيضا في الأندلس المسلمة ، بدرجة عظيمة ربما بسبب الموقع الجغرافى ، وربما بسبب المستوى الثقافى المرتفع الذى عاشته الأندلس ، ولذلك فلدينا من الجغرافيين الأندلسيين مجموعة كبيرة أشهرهم :

أحمد بن أنس العذرى ، ولد في المرية عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م ، وتوفى في بلنسية ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، ترجم له الكثيرون من رجال التراجم الأندلسيين ، وألف مجموعة كبيرة من الكتب ، ووصلنا بعض

(٢٥٣) عنان : مقدمة الإحاطة — ج ١ ، ص ١٨ .
(٢٥٤) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان — القاهرة — ١٩٧٣ — ١٩٧٧ م .
(٢٥٥) يوسف الحشاش : المحيدون في الإحاطة ، رسالة دكتوراه ، بجامعة مدريد المركزية — قسم اللغات السامية ، ١٩٧٩ م .
(256) Pons Boigues : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géógrafos arábigo españoles .
(٢٥٧) ابن خير : الفهرسة ، ص ٤٧٨ .

أجزاء من كتابه عن جغرافية الأندلس قام بنشرها وتحقيقها العالم
المصرى الكبير الدكتور عبد العزيز الأهوانى (٢٥٨) .

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ، المعروف بأبى عبيد البكرى
المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، الذى ألف مجموعة كبيرة من المؤلفات ،
يهمنا منها فى هذا المجال ، كتاب « المسالك والممالك » الذى قام بتحليل
أهميته ومادته الجغرافية الدكتور حسين مؤنس ، ونشر فى بيروت
عام ١٩٦٨ م (٢٥٩) .

عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، المتوفى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م ،
وتنضح لنا أهمية هذا الجغرافى الكبير ، اذا علمنا أنه يندر أن تجد
مؤلفا أندلسيا كتب بعده دون أن يشير إليه مما يدل على أن كتابه كان
مرجعا وحجة ، وأنه أضاف الى المكتبة الأندلسية شيئا جديدا (٢٦٠) .

أما قمة الجغرافية فى الأندلس ، بل قمة الجغرافيا فى الاسلام ،
فهو الشريف الإدريسى (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ / ١١٠٠ - ١١٦٤ م) ، الذى
ألف كتابه العظيم فى الجغرافيا ، المسمى « نزهة المشتاق » (٢٦١) ،
وأحيل الى الدراسة القيمة التى قام بها المؤرخ المصرى الدكتور حسين
مؤنس فى كتابه عن تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس (٢٦٢) .

مادة أخرى تطورت فى الأندلس المسلمة تطورا كبيرا - أقصد بذلك

(٢٥٨) الحميدى : جذوة الاقتبس ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .
العذرى : نصوص عن الأندلس ، تحقيق الدكتور عبد العزيز
الأهوانى .

مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ٨١ - ٩٦ .
(٢٥٩) البكرى : المسالك والممالك ، تحقيق الحجى - بيروت -
١٩٦٨ .

مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٠٨ - ١٤٨ .
(٢٦٠) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٤٩ - ١٦٤ .
(٢٦١) الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .
(٢٦٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ،
ص ١٦٥ - ٢٨٠ .

علم التراجم ، حيث ترك لنا المؤلفون الأندلسيون سلسلة متواصلة
الحلقات من كتب التراجم ، التي تناولت تاريخ حياة علماء الأندلس
وأدبائه وشعرائه ومؤرخيه وجغرافيينه وفلاسفته ... الخ .

ويقول الدكتور عبد العزيز الأهواني عن هذا العلم ، انه نشأ
في أول أمره متصلاً بعلم الحديث أو علم الرواية ، وكان هدفه الأول
علم معرفة رجال الأسانيد ، وحالهم من الثقة أو عدم الثقة ، وما يتصل
بأسانيدهم وبلادهم ورحلاتهم ، ومن لقوه وأخذوا عنه ليعرف من ذلك
الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الزائفة التي دخل أسانيدنا
الخلال (٢١٣) .

وهناك كتب عامة في هذا المجال ، أهمها :

تاريخ علماء الأندلس ، لمحمد بن حارث بن أسد الخشني المتوفى
بقرطبة عام ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، ويضم تراجم الأندلسيين حتى القرن
الرابع الهجري وما زال مخطوطاً حتى الآن بالخزانة الملكية بالرباط (٢١٤) .

تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي
المتوفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وهو من أشهر كتب التراجم الأندلسية ،
وطبع عدة مرات ، وأحصى فيه حوالي ١٧٦٦ عالماً من علماء
الأندلس (٢١٥) .

جذوة المقتبس لمحمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى ، المتوفى
٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، وهو أيضاً قد طبع عدة مرات ، وجاء به
٩٨٧ ترجمة (٢١٦) .

(٢١٣) عبد العزيز الأهواني : صلة الصلة لابن الزبير والذيل
والتكملة لابن عبد الملك ، ص ١٤ (مجلة المعهد المصرى للدراسات
الإسلامية - العدد الثالث - المجلد الأول ، ١٩٥٥ م .
(٢١٤) الفاسى : عبد الرحمن : منتخبات من نواذر المخطوطات
بالخزانة الملكية ، ص ١٢٦ .
(٢١٥) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس .
(٢١٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت -
القاهرة .

الصلة لخلف بن عبد الملك بن بشكوال ، المتوفى ٥٥٧٨ هـ / ١٨٢٠ م ،
وتوجد له عدة طبعات أيضا ، وبه حوالى ١٤٤٠ أسما (٢٦٧) .

كتاب تكملة الصلة لابن الأبار ، المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وهو
أيضا مطبوع ، وأورد فيه ابن الأبار حوالى ٢٥٠٠ أسما (٢٦٨) .

كتاب الذيل والتكملة لمحمد بن محمد بن عبيد الملك المراكشى
المتوفى ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، ويوجد من هذا الكتاب الضخم مجموعة
من الأجزاء قام بتحقيقها الدكتور احسان عباس والدكتور محمد
ابن شريفة وأورد به أكثر من ٣٠٠٠ ترجمة (٢٦٩) .

صلة الصلة لابن الزبير (٢٧٠) ، ولقد نشر بعض أجزاءه والباقي
ما زال مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وتوجد صورة منه في جامعة
غرناطة .

ثم تأتى بعد ذلك مؤلفات ابن الخطيب وهى تغطى تراجم علماء
القرن الثامن حتى وفاة ابن الخطيب فى عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م (٢٧١) .

وهناك كتب تراجم خاصة اهتم بها الأندلسيون ، وتناولوا فيها
فئات معينة من العلماء مثل طبقات الأطباء لابن جليل (٢٧٢) ، وكتاب
ترتيب المدارك للقاضى عياض الذى تناول فيه علماء المالكية فى
الأندلس (٢٧٣) .

(٢٦٧) ابن بشكوال : الصلة .

(٢٦٨) ابن الأبار : التكملة .

(٢٦٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، لكتاى الوصول والصلة .

(٢٧٠) ابن الزبير : صلة الصلة .

(٢٧١) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة .

ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة .

(٢٧٢) ابن جليل : طبقات الاطباء .

(٢٧٣) اليعصبى : ترتيب المدارك .

وأختتم هذا العرض المختصر للعلوم التي كان يمكن للدارس تناولها في المرحلة التعليمية الثانية ، مشيراً إلى أن هناك الكثير من المواد الأخرى التي لم أرغب في التطرق إليها ، مثل علم الأنساب^(٢٧٤) ، والبرامج والفهرسات التي كانت متداولة بين أيدي الدارسين على مدار التاريخ الأندلسي ، وكفى الفضاء نظرة على فهرسة ابن خير أو على برنامج التجيبي^(٢٧٥) ، أو برمجة الرعيشي^(٢٧٦) ، لنحاط علماً بخضامة عدد الكتب وتنوع المواد التي كان يسعى الطلاب لدراستها في الأندلس .

طرق التعليم في المرحلة الثانية

تمايزت طرق التعليم في هذه المرحلة ، من معلم إلى آخر ، حسب مستوى التلميذ ، وحسب المادة التي تدرس ، ولكن من الممكن إجمالها في الطرق التالية :

١ - الإقراء :

وهو أشهر طرق التعليم في هذه المرحلة ، ويتلخص في أن يمسك المعلم كتاباً ويقرأ منه ، ويقوم الطلبة بكتابة نسخهم ، أو أن يقوم طالب من المجموعة بالقراءة في حضرة الأستاذ ويقوم الطلبة الآخرون بالكتابة ، ويعمل الأستاذ على تصحيح القراءة وتقديم النطق السليم للكلمات والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء ... الخ . وهذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في تعليم القراءات القرآنية ، كما أنها تستخدم عامة في العلوم الدينية واللسانية ، مع بعض الطرق الأخرى . يقول ابن بشكوال مثلاً عن أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخرجي المتوفى في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م : أنه أقرأ الناس مدة طويلة ،

(٢٧٤) ابن خزم : جوهرة انساب العرب - وانظر أيضاً مقالة :

Teres, E. : Linajes - arabes en al - Andalus.

(٢٧٥) كان موضوعاً لرسالة دكتوراه السيدة انا راموسى ، جامعة

الأوتونوما - مدريد .

(٢٧٦) قام بتحقيقه ونشره الدكتور ابراهيم شبوح ، ونشر بدمشق

عام ١٩٦٢ .

وعمر وأسن وجالسته وأنا صغير السن (٢٧٧) *

عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الأشبيلي المعروف
بـ ابن الخراط ، المتوفى ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م ، كان فقيها محدثا ، وكان
رحمه الله متواضعا ، وكان اذا صلى الصبح في الجامع ، أقرأ حتى
الضحى ، ثم يعود بعد ذلك الى منزله ليستغل بالتأليف ، وكان لا يدخل
بجاية أحد من الطلبة الا سأل عنه ، ومضى اليه ، وآنسه بما يقدر
عليه (٢٧٨) * ويقول الضبي عن نفس الأستاذ ، ان له تواليف حسنا ،
قرأت عليه بعضها (٢٧٩) *

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى المتوفى ٤٢٩ هـ /
١٣٠٧ م ، كان أحد الأئمة في علم القرآن العظيم ، قراءاته وعرابه
وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه ، سكن قرطبة وأقرأ الناس بها
محتسبا (٢٨٠) *

ويحكى أبو الحسن بن مغيث عن أستاذه أحمد بن عبد الله
التميمي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م . أنه كان يختلف عليه ، ليقرا
عليه كتب الأدب بالمسجد الجامع ، حيث كان له موضع مخصص
لأغراضه (٢٨١) *

٢ - الأملاء :

وهي طريقة مشابهة للاقراء ، لكنها تميل أكثر الى القول من
الذاكرة حيث يملئ المعلم على طلبته ما يعرفه من علوم ، فمثلا ،
يحيى بن ملك بن عايذ بن كيسان ، المتوفى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، عاد
من رحلته في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع من بعض ضروب من الناس

(٢٧٧) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٧٤ .

(٢٧٨) الضبي : بفيحة الملتبس ، ص ٣٩١ .

(٢٧٩) الضبي : بفيحة الملتبس ، ص ٣٩١ .

(٢٨٠) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢٨١) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٦٢ ، ٦٤ .

وطبقات طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملأ في المسجد الجامع ، في كل يوم جمعة (٢٨٢) .

ويمكن لنا تبين الطريقتين ، الاقراء والاملاء ، من الترجمة التي أوردها ابن بشكوال لأحمد بن عبد الله بن طريف ، المتوفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، حيث يقول : قرأت على أبي مروان الطنبلي قال : قرأت على أبي الحسن علي بن عمر الحراني بمصر ، قال : أملئ علينا حمزة ابن محمد الكنانى (٢٨٣) .

٣ - المناظرة أو الحوار :

وهي طريقة تبدأ فيها المسألة ، بطرح سؤال من الطالب على الأستاذ . ثم يبدأ الأستاذ في الاجابة على السؤال مبينا كل جوانبه ونواحيه ، وخفاياه وما يترتب عليه . أو أن الأستاذ نفسه يفترض السؤال كما لو كان موجها اليه ، ثم يبدأ هو في الاجابة على هذا السؤال ، ولدينا كثير من التراجم التي اعتمد فيها الأساتذة على طريقة المناظرة في تعليمهم فيقال مثلاً عن أحمد بن محمد بن رزق الأموى : المتوفى ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، انه كان مدار طالبة الفقه في قرطبة في المناظرة والمدارسة ، والتفقه عنده (٢٨٤) .

أحمد بن محمد بن عمر التميمي ، من أهل المرية ، توفى ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، ناظر عند الفقيهي ابن رشد وابن العواد (٢٨٥) .

وهناك طرق أخرى كثيرة ، يمكن لنا أن نستخرجها من كتب التراجم ، وهي :

الأخذ عن ، الرواية عن ، الملاقاة ، السطوح ، الجلوس الى الدرس على ، الاختلاف الى الشيوخ . . . الخ .

(٢٨٢) ابن الفرضي : علماء الأندلس - ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

الضبي : بغية المنتس ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٢٨٣) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢٨٤) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢٨٥) ابن بشكوال : الصلة - ج ١ ، ص ٨٦ .

ومن أهم سمات التعليم في هذه المرحلة ملازمة الشيوخ ومصاحبتهم وكلما طالت المدة كلما كان ذلك في صالح التلميز حتى أن بعض هؤلاء لكثرة ملازمة شيوخهم ، يصبحون متخصصين في نفس مواد هؤلاء الشيوخ فنجد أن علي بن أحمد بن أبي قسوة المتوفى ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ، قد لازم أستاذه أبا القاسم بن حبيش عشرين سنة كاملة (٢٨٦) .

عثمان بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم العبدري المتوفى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م ، لازم شيخه عبد الرحمن بن يوسف بن الحسن خمسة عشر عاما (٢٨٧) .

ويقال عن أحمد بن محمد بن أحمد بن بقي بن مخلد المتوفى ٥٣٣ هـ / ١١٣٧ م ، أنه صحب أبا عبد الله محمد بن مفرج الفقيه ، وانتفع بمصنعه (٢٨٨) .

أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمي ، المتوفى ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، صحب أبا علي حسين بن محمد الغساني ، واختص به ، وأخذ منه معظم ما عنده (٢٨٩) .

أحمد بن صارم النحوي الباجي ، عني بكتب الأدب واللغة ، أخذ ذلك عن أبي نصر هارون بن موسى الجريطي ، وقيّد عنه واختص به (٢٩٠) .

أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد ، قاضى قرطبة ، المتوفى ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، أخذ عن أبيه ولازمه طويلا (٢٩١) .

(٢٨٦) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — الجزء الأول ، ص ١٥٤ .

(٢٨٧) المراكشي : نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

(٢٨٨) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٩ .

(٢٨٩) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٠ .

(٢٩٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٥١ .

(٢٩١) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٢ .

ويقوم الطالب بدراسة مادة ما أو أكثر على أستاذ معين ثم ينتقل إلى أستاذ آخر ليمسح منه مادة أخرى أو عدة مواد ، وفي كل مادة يقوم الطالب بدراسة كتاب معين أو عدة كتب وقد يقرأ على أستاذه كتاباً واحداً فقط أو يقرأ عدة كتب ، فلقن قرأ ابن خير على معلمه أبي الحسن بن شريح أكثر من اثني عشر كتاباً في علم القراءات (٢٩٢) . كما أنه سمع من أستاذه عيسى بن أبي البخر الزهري أكثر من عشرة كتب في القراءات واللغة .

والحفظ هو الأساس في العملية التعليمية ، حيث يجب أن يحفظ الطالب الكتاب الذي يقرؤه ، كما أنه من الضروري أن يكون الأستاذ حافظاً لمبادئه وخاصة في مجال العلوم الدينية والعلوم اللسانية والتكرار هو أفضل وسيلة لكي يتمكن الطالب من حفظ دروسه ، فإذا كان محمد بن يحيى بن هاشم يحفظ الموطأ والبخاري ويقرأ من حفظه كتاب البخاري على الناس (٢٩٣) فإن عبد الله بن محمد بن عيسى كان يفتنم كتاب سيبويه كل خمسة عشر يوماً (٢٩٤) .

والأستاذ العالم : سعد بن أحمد بن ليون التجيبي (من رجال القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي) يقول :

من لم يكن علمه في صدره نشبت
يداه عن السؤالات التي ترد

المعلم ما أنت في الحمام تحضره
وما سوى ذلك التكليف والكد (٢٩٥)

كما يقول محمد بن عبد الرحيم الغرناطي :

تكتب العلم وتلقى في سلف
ثم لا تحفظ ؟ لا تفلح قط

-
- (٢٩٢) أنظر الفهرسة - الصفحات ٢٣ - ٢٦ و ص ٢١ .
 - (٢٩٣) أرسلان : الطال السندسية - ج ٢ ، ص ١٢٨ .
 - (٢٩٤) السيوطي : بنية الوعاة - ج ٢ ، ص ٥٩ .
 - (٢٩٥) المقرئ : نفع الطيب - ج ٨ ، ص ٥٩ .

انفسا يفلح من يحفظه
بعد فهم وتسوق من غلط
ويقول :

العلم في القلب ليس العلم في الكتب
فلا تكن مفرما باللهو واللعب (٢٩٦)
وتتجلى أهمية الحفظ ، في حالات احراق الكتب الأصلية أو ضياعها
ولقد جور لنا هذه الأهمية المفكر القرطبي العظيم ابن حزم
حين يقول :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير ممي حيث استقلت ركائبي
وينزل ان أنزل ويدفن في قبوري

دعوني من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

والا فعودوا في المكاتب بداءة
فكم دون ما تبغون لله من ستر (٢٩٧)

أوقات التعليم

ليس هناك وقت محدد بالخط لحضور الدروس في هذه المرحلة،
حيث يرتبط ذلك غالبا بوقت الأستاذ ، وغالبا ما يكون الصباح هو أكثر
الأوقات ملائمة لكي يقوم المعلم بالفاء دروسه ، فمثلا عبد الحق بن
عبد الرحمن المشار إليه من قبل ، كان اذا صلى الصبح في الجامع

(٢٩٦) القسري : نفح الخليل - ج ٢ ، ص ٦٠٥ .
(297) Gozalbez Busto : El Libro y las Bibliotecas en
la Espana Musulmana, p. 24.
Vermet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 81.

أقرأ حتى الضحى (٣٩٨) •

كما أن هناك قصة أوردها الضبي ضمن حديثه عن أحمد بن خلف ابن عيشون المتوفى ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م ، مفادها أن هذا حينما أراد القراءة على الشيخ محمد بن شريح ، وطلب منه أن يعين له وقتاً للقراءة ، قال له ابن شريح : « إذا سمعت أول الأذان غائتني — أى أنه خصص له وقت الفجر ليقراً عليه » (٣٩٩) •

وليس معنى ذلك الاقتصار على الفترة المباحية فحسب لأن بعض المعلمين كان يجعل وقت إقراءه بعد صلاة العصر ، وقبل صلاة المغرب (٣٠٠) • ولكن بما أن الطالب يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة في ذات الوقت ويذهب الى أكثر من معلم في نفس اليوم ، فإن الوقت الدراسي كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله •

ويحرص الطلبة على الوصول الى مكان أستاذهم مبكرين فنجد أن عبد الله بن حمود بن مذجع الزبيدي ، المتوفى ٣٧٣ هـ / ٩٨٢ م ، ينام في مزود دابة أستاذه ليكون أول وارد عليه في الصباح (٣٠١) •

وهناك بعض الحالات الخاصة ، لا يتقيد فيها بوقت معين ، وخاصة عند حضور أحد الغرباء الى المدينة ، فعند مرور أبي علي الصدقي بسبقة الى الأندلس في عام ٤٩٠ هـ / ١١٠١ م ، قرىء عليه اذ ذاك جامع الترمذي ولازم الناس سماعة بالجامع ليلاً ونهاراً ، وكانوا يبيتون بالقصورة ، حتى كمل في مدة يسيرة ، لفرط استعجاله (٣٠٢) •

(٢٩٨) الضبي : بغية المتيسر ، ص ٣٧٨ .

(٢٩٩) الضبي : بغية المتيسر ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٣٠٠) المقرئ : ازهار الرياض — ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٣٠١) المراكشي : الذيل والكملة — القسم الرابع ، ص ٢٢ ، ٢٢١ .

(٣٠٢) المقرئ : النفع — ج ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٣٠٣) ابن الأثير : المعجم ، ص ٥٤ .

حلقات التعليم

كان المعلم يجلس الى جوار عمود من أعمدة المسجد ، أو في صدر المكان الذي اتخذته لتعليم طلبته ، ويطلق على المكان اسم المعلم الذي يشغله ، وخاصة إذا ما استمر فيه مدة طويلة ، وبعد وفاة المعلم ، يقوم بشغل المكان ابنه ، أو أحد أشقائه النجباء ، ولدينا بعض البيانات التي تنص على أن الابن يخلف أباه في حلقته ، منها :

أن أبا القاسم بن الامام القاضي أبي الوليد الباجي المتوفى ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م ، قد سكن سرقسطة وغيرها ، وروى عن أبيه معظم علمه ، وخلفه في حلقته بعد وفاته (٣٠٣) .

عياش بن محمد بن عبد الرحمن الأنشيلبي ، المتوفى ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، كان قد أحكم القراءة على أبيه ، وتصدر للاقراء بعده ، وخلفه في حلقته (٣٠٤) .

سعد بن محمد بن عبد الرحمن بيباسي ، أخذ عن أبيه وغيره ، وتصدر بعد أبيه للاقراء (٣٠٥) .

غالب بن عبد الله بن أبي اليمين ، المتوفى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أقرأ بمجلس أبيه في حياته ، وبعد وفاته ، وأسمع الحديث ، ودرس العربية ، والآداب (٣٠٦) .

عصام بن أحمد بن محمد بن ابراهيم ، قرطبي ، توفي ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ، كان باهرا في علوم اللسان ، رشحه أبوه للاقراء

(٣٠٣) المقرئ : النسخ - ج ٣ ، ص ٤٠١ .

(٣٠٤) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - القسم الثاني ، ص ٤٨٨ .

الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٥٥ .

(٣٠٥) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الرابع ، ص ٤٣ .

(٣٠٦) المراكشي : نفس المصدر - السفر الخامس - القسم الثاني ، ص ٥١٩ .

بمجلسه فأقرأ فيه مدة (٣٠٧) *

أحمد بن محمد بن عبد الله المافري ، توفي بعد عام ٤٨٧ هـ /
١٠٩٤ م ، تصدر للتدريس ما كان عنده من فنون المعارف بعد جده (٣٠٨) *
ومن ناحية أخرى فقد يقوم الأستاذ باختيار أحد طلبته ليتولى
التدريس في مكانه بعد وفاته ، مثلما حدث مع علي بن حسين بن إبراهيم
ابن يحيى ، المتوفى ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، حيث كتب بموضع أبي عبد الله
ابن عبدون بعد وفاته بتنبئيه عليه وشهادته له بالافتقار (٣٠٩) *

ولقد وجدت المجالس في الأندلس منذ فترة مبكرة ، ومن المحتمل
استخدام الكراسي لجلوس المدرس ، حيث نجد أن محمد بن الحسن
الزبيدي المتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، يكتب رسالة شعرية الى أبي مسلم
ابن غهد ، يبين له فيها أن الفتى إنما هو بعقله وليس بشيابه ، وأن طول
الجلوس على الكرسي لا قيمة له إذا لم يكن الإنسان عالما (٣١٠) *

وكان من العادة أن يكون في الحلقة معيد أو قارئ يقوم
أما بشرح بعض ما غمض من كلام الأستاذ أو أن يتولى قراءة النص
الذي سيتولى الأستاذ شرحه وتفسيره ، فيقال عن أحمد بن طلحة
الأشبيلي ، المتوفى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أنه أخذ عن أخيه وكان
معيدا في حلقاته (٣١١) *

-
- (٣٠٧) المراكشي : نفس المصدر — القسم الأول ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٣٠٨) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .
(٣٠٩) المراكشي : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم الأول ،
ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٣١٠) الحميدى : الجنوة ، ص ٤٣ . والأبيات هي :
أبا مسلم ان الفتى بجناحه
ومقوله لا بالراكب واللبس
وليس ثياب المرء تفنى قلامة
إذا كان مقصورا على قصر النفس
ولييس ينفذ العلم والطم والحجا
أبا مسلم طول التمود على الكرسي
(٣١١) السيوطي : بغية الوعاة — ج ١ ، ص ٣١٣ .

ومن المحتمل أيضا أنه كان يعهد للمعيد بحفظ النظام في الحلقة وخاصة أثناء غياب الأستاذ ، يقول ابن بشكوال عن أحمد بن أفلح ابن حبيب بن عبد الملك الأموي أنه شاهد حين سماعه من وهيب ابن مسرة في المسجد الجامع ، وقوع لفظ وكلام في المسجد بين أصحابه ، وارتفاع الصوت بينهم ، وكان أحدهم يعرف بالبنرلى ، فأنكر عليهم ذلك بعض القومة ، حتى أخذ عليهم الدرة ، وكان أبو بكر بن عذيل الشاعر الأديب بالحضرة فقال في ذلك على البديهة :

ان وهيب بن مسرة

بين أهل العلم درة

كان في مجلسه لليو

م على العلم مصرة

إذا على القيم رأ

س البثرلى بدره (٣١٢)

أما عن عدد الطلبة في كل حلقة فلم يكن هناك تحديد لذلك واختلف الزعم حسب سمعة الأستاذ ، وحسب المادة التي يقوم بتدريسها وحسب المكان الذي توجد به الحلقة ، فعبد الملك بن زيادة الله الضبي (توفي ٢٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) حينما رجع إلى قرطبة ، وجلس ليروي ما احتقبه من العلوم ، اجتمع اليه في المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة قال :

انبرى إذا حضرتى ألف مجبرة

يكتبن حديثى طورا وأخبرنى

نادت بمفخرتى الأقلام معلية

هذى المفاخر لا قبعان من لبن (٣١٣)

(٣١٢) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣١٣) الحميدى : الجذوة - ص ٢٦٥ . ابن بشكوال : الصلاة -

ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

ابن سعيد القرطبي : المغرب في خلق المغرب - ج ١ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

القرطبي : نفح الطيب - ج ٩ ، ص ٢٥٩ .

ولقد وضعت قواعد أخلاقية وأصول يجب أن يتبعها الطلبة في هذه المجالس ، وتحدث عن ذلك العالم الأندلسي الكبير ابن حزم القرطبي في كتابه (الأخلاق والسير) ، حيث خصص فصلا في حضور مجالس العلم ، أورد بعضه فيما يلي :

— اذا حضرت مجلس علم ، فلا يكن حضورك الا حضورا مستريدا علما وأجرا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها ، فهذه أفعال الأردال ، الذين لا يفلحون في العلم أبدا .
فاذا حضرتها على هذه النية ، فتد حصلت خيرا على كل حال ، فان لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك •

— فاذا حضرتها كما ذكرنا غالترم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها ، هي :

اما أن تسكت سكوت الجبال فتحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء عليك بقله الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس •

— فان لم تفعل فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع محاسن وعلى خامسة ، وهي استزادة العلم •

وصفة سؤال المتعلم هو أن يسأل عما لا يدري / لا عما يدري •
فان السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى الى اكتساب العداوات ، وهو يعد عين الفضول • فيجب عليك أن لا تكون فضوليا ، فانها صفة سوء •

فان أجابك الذي سألت بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام ، فان لم يجبك بما فيه كفاية ، أو أجابك بما لم تفهم فقل له : « لم أفهم » ، واسترده ، فان لم يزدك بيانا وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه والا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريده من الزيادة •

— والوجه الثالث : ان تراجع مراجعة العالم . ومنه ذلك ان تعارض جوابه بما ينتقسه نقضا بينا : فان لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك الا تكرار قولك : أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة : فأمره ، لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا تعلم . بل على العيظ لك ولخصمك والعداوة التي ربما أدت الى المضرات .

— وإياك وسؤال المعنت ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة بغير علم فهما خلقا سوء ، دليان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقسوة السخف ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

— وإذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام في كتاب فإياك أن تقابله مقابلة المخاضة الباعثة على المبالغة قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع .

وأیضا فلا تقبل عليه اقبال المصدق به المستحسن إياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع فتظلم . — في كلا الوجهين — نفسك ، وتبعد عن ادراك الحقيقة ، ولكن اقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى بالترديد به علما ، وقبوله ان كان حسنا ، أو رده ان كان خطأ ، فمضمون لك ، اذا فعلت ذلك ، الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العظيم .

— من اكتفى بقليله عن كثير ما عندك فقد ساواك في الغنى ولو أنك قارون ، حتى اذا تصاون في الكسب عما تشيره أنت اليه ، فقد تحصل أغنى منك بكثير .

— ومن ترفع عما تخضع اليه من أمور الدنيا فهو أعز منك بكثير .

— فترض على الناس تعلم الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين جميعا ، فقد استوفى الفضلين معا ، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعلم وأساء في ترك العمل به ، فخط عملا صالحا وآخر سيئا ، وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به ، وهذا الذي لا خير فيه ،

أمثل حالة وأقل ذما من آخر ينهى عن تعلم الخير ويصد عنه (٣١٤) •

المعلمون في المرحلة الثانية

تبين دراسة كتب التراجم أن معلمى المرحلة الثانية ، كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى عال ، وبمعرفة موسوعية ، قاموا بتحصيلها عن طريق الدراسة التى تلقوها فى بلادهم ، أو كتبوها من خلال رحلاتهم الى البلاد الأخرى ، وتشهد بذلك الألقاب الكثيرة التى أطلقت عليهم والتى تبين فى ذات الوقت مستواهم الثقافى ، ومن الألقاب التى كانت تطلق على هؤلاء ما يلى :

- كان له حظ ..
- كان من أهل المعرفة ..
- أو عنده اهتمام ..
- أو عنده مشاركة فى أشياء من العلم ..
- كانت عنده عناية ..
- كان كثير السماع ..
- له مشاركة فى الحديث ..
- نفذ فى القراءات ..
- بز أهل زمانه ..
- خاق فى ..
- أعلم الناس ..
- أفهم الناس ..
- كان من أهل الأدب ..
- كان من أهل العلم ..
- كان فى حفظه آية من آيات الله ..

- كان بحرا من بحور العلم ..
- كان لا نظير له في العلم ..
- ثقة ..
- حاذقا ..
- محدثا ..
- مقربا ..
- حافظا ..
- عارفا ..
- متفنتا ..
- فقيها .. الخ *

ولعل لقب الفقيه كان أسمى هذه الألقاب ، ولم يكن هينا أن يطلق على أحد ، فالشيخ محمد بن عبد الله المتوفى ٣٧٢هـ / ٩٨٢م ، كان لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيها حتى يكتهل ، ويكمل سنه ، ويقوى نظره ، ويبرع في حفظ الرأي ، ورواية الحديث ، ويتميز فيه ، ويعرف طبقات رجاله ، ويحكم عقد الوثائق ، ويعرف علما ، ويطلع الاختلاف ، ويعرف مذاهب العلماء والتفسير ، ومعاني القرآن ، فحينئذ يستحق أن يسمى « فقيها » والا فاسم الطالب أليق به إلى أن يلحق بهذه الدرجة (٣١٥) *

ولذلك كان من الضروري لمن ينتصب للتدريس في هذه المرحلة أن يكون عالما بمادته ، معتمدا على أصول وروايات صحيحة ، والا تعرض للنقد الشديد ، فيقال مثلا عن أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني (توفى ٥٠٨هـ / ١١٤م) ، انه لم يكن عنده كبير علم ، أكثر من روايته عن هؤلاء الجهلة ، ولا كانت عنده أيضا أصول يلجأ إليها أو يعول عليها (٣١٦) *

(٣١٥) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣١٦) ابن بشكوان : الصلة — ج ١ ، ص ٧٦ .

أحمد بن عبد الله بن طريف ، من أهل قرطبة ، توفي ٥٤٠هـ / ١١٢٦م ، كان كثير السماع من الشيوخ والاختلاف إليهم ، ولم تكن له أصول (٣١٧) .

وابن الفرغى يؤكد كذب كل من الفقيه عثمان بن محمد بن يوسف قائلًا عنه : كان كذابا ، أخبرني بذلك من أتى به ممن وقف على كذبه ، وما كان يستأهل أن يحدث عنه (٣١٨) . وكذلك الفقيه محمد بن عيسى ابن رفاعة الخولاني المتوفى ٤٣٧هـ / ٩٤٨م ، قائلًا عنه أنه شهير بالكذب (٣١٩) .

كما أن هؤلاء المعلمين أيضا كانوا موضع النقد في أساليبهم التعليمية فهناك من حمى طرائقه في التعليم ، وهناك من كان شديد الضجر عند تتبع البحث والمساءلة ، حتى أنه كان يترك الحلقة وينصرف ، مثلما كان يحدث مع على بن محمد بن على بن خروف المتوفى ٦٠٩هـ / ١٢١٢م (٣٢٠) ، ومن كان عسر الأخذ نكد الخلق ، مثل أحمد ابن عبد الله بن المطرز ، المتوفى ٥١٤هـ / ١١٢٠م (٣٢١) .

أما من الناحية الاجتماعية ، فلقد تمتع هؤلاء بمستوى طيب سواء بين الناس أو بين الحكام وساعدتهم علمهم على الانسحاب إلى طبقة اجتماعية متميزة ، هي طبقة الفتاة ، التي أصبح لها وزنها وقيمتها في نظر الدولة والمجتمع من القرن الثاني من الهجرة / الثامن الميلادي .

ولقد كان اختيار معظم التائمين على الأمور العامة من رجال العلم وهؤلاء بدورهم حاولوا أن لا تشغلهم الوظيفة عن أعباء القيام

(٣١٧) ابن بشكوال : نفس المصدر - ج ١ ، ص ٨٠ .

(٣١٨) ابن الفرغى : علماء الأندلس - ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٣١٩) ابن الفرغى : نفس المصدر - ج ٢ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣٢٠) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - ج ١ ،

ص ٣٢٢ .

(٣٢١) ابن بشكوال : الصلاة - ج ١ ، ص ٧٨ .

بمهمة التدريس فأصبح من السهل أن ترى وزيراً أو غيره من رجال المناصب العليا يمارسون التدريس ، بل من الممكن القول بأن جميع من شغلوا وظائف عامة كان لهم دور في نشر العلم والتعليم .

أجر المعلمين في المرحلة الثانية

من الناحية الاقتصادية تشير كل الدلائل ، الى أن دخل هؤلاء المعلمين كان مرتفعاً .

وفي تناولنا لمسألة أجر التعليم ، يمكن لنا أن نقسم المعلمين الى ثلاث فئات :

(أ) فئة تتقاضى أجرها من الجراية التي كانت تجريها عليهم الدولة أو من الأجر الذي يدفع من الأعباس .

والجراية نظام عمل به على مدار فترة طويلة من التاريخ الأندلسي ووجدت دواوين العطاء منذ عهد مبكر ، ولقد سبق لى أن أوردت الكثير من الأمثلة على ذلك عند تناولى الفصل الخاص بالدولة والتعليم ، وبعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم .

(ب) فئة أخرى ، تتقاضى أجرها من الطلبة أنفسهم ، بناء على عقد يعقد بين المعلم ووالد التلميذ أو وليه ، وفي آخر هذا الفصل أورد صيغة من صيغ العقود المعمول بها حينذاك منذ القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، ولقد كان العمل في مهنة التدريس مربحاً جداً يدل على ذلك ما ورد في ترجمة على بن يوسف بن محمد ابن أحمد ، وهو دانى ، سكن مرسية ، توفي في ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، كان نجاراً ، فلما كف بصره ، انقطع الى طلب العلم فبرز في النحو ، ونال من الاقراء وتعليم العربية مالا جسيماً (٢٢٢) .

(٢٢٢) المراكشى : الذيل والتكملة - السفر الخامس - الجزء الاول ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

أما الشيخ أبو علي الشلوين ، فقد قام بالتدريس في أئبيلية مدة تزيد على ستين عاما ، وكان اكتسابه من الطلبة أكثر من ٤ آلاف درهم في الشهر (٣٢٣) •

الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي ، المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م : كان في أول أمره يسكن في الفندق ويعلم الحساب والنحو ، ويأخذ الأجرة على ذلك (٣٢٤) •

(ج) ومجموعة ثالثة كانت تتقاضى أتعابها من الوظائف التي تبسند إليها ، مثل الامامة أو الصلاة أو الأذان في المساجد ، أو وظائف الدولة الأخرى مثل الشورى أو الفتوى •

وهناك مجموعة من المدرسين ، كانت تقوم بالتدريس مجانا على أساس أنه عمل خيرى ، ولقد وردت عبارة « أقرأ الناس محتسبا » في كثير من تراجم علماء الأندلس ، وأكتفى في هذا المجال بالإشارة الى كل من :

أبى علي الغساني (من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) ، الذى حينما دفع اليه تلميذه محمد بن عبد الرحمن جملة من المال فى مقابل اقراءه ، أخذه ووضع على رأسه وقال : لا آخذ على هذا شيئا أبدا ، ولو أخذت من أحد لأخذت منك (٣٢٥) •

عتيق بن علي بن خلف ، المتوفى ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، كان لا يبتغى على اقراءه أجرا الا من الله تعالى (٣٢٦) •

(٣٢٣) المراكشى : تنس المصدر — السفر الخامس — الجزء الثانى ، ص ٤٦١ — ٤٦٢ •

(٣٢٤) القزى : فنج الطبيب — ج ١ ، ص ١٢٥ •

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٦١ •

(٣٢٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٢٧ •

Ribera, J. : He de la Ensenanza entre los Espnoles musulmanes, p. 72.

(٣٢٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسم

الأول ، ص ١٢٢

ملابس المعلمين

يقول المقرئ أن أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يثوته يومه شيطوبه صائما ، ويتنازع صابونا يغسل به ثيابه . ولا يظهر غيرها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

ويقول أيضا :

وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لاسيما في شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تنكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا إليه الا وهو بعمامة والذؤابة لا يرخيها الا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن الصغرى (٣٢٧) .

ويؤكد ابن الخطيب أن العمائم ثقيل في أهل هذه الحضرة (غرناطة) ، الا ما شاء ، في شيوخهم وقضائهم وعلماهم (٣٢٨) .

ولم يكن للمعلمين زى خاص بهم ، ولكنهم كانوا يعتنون بملابسهم وخاصة حين قيامهم بالتعليم ، فعبد الملك بن حبيب كان يلبس الخز والسعيدى ، وإنما كان يفعل ذلك اجلالا للعلم وتوقيرا (٣٢٩) .

وحبيب بن الوليد ، كانت له حلقة في جامع قرطبة يسمع الناس فيها . وهو يلبس الوشى الشامى (٣٣٠) .

خلف بن ابراهيم بن خلف ، توفي ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، كان جميل

(٣٢٧) المقرئ : نزع الطيب — ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٣٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٣٢٩) اليحصى : ترتيب المدارك — ج ٤ ، ص ١٢٤ .

Ribera, J. Ho. de la Ensenanza entre p. 70.

(٣٣٠) ابن حيان : القتبس ، طبعة مكى ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

ابن الأبار : النكتة — ج ١ ، ص ٣٢ .

المنظر والثياب (٣٣١) *

قاسم بن خيرة ، المتوفى ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م ، كان لا يجلس للأفراء
الاعلى طهارة ، وفي هيئة حسنة (٣٣٢) *

والشيخ على بن أحمد بن على ، المتوفى ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، كان أكثر
لباسه جبة صوف لا شمار لها (٣٣٣) *

أما الشيخ محمد بن فرحون (توفى ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م) ، فكان
يلبزم الطيلسان على العمامة ، ولا يلبس الثياب المقتولة (٣٣٤) *

واعتناء المعلم بنظافته وثيابه أمر واجب نصت عليه كافة الكتب
التي تحدثت عن العلماء والمعلمين ، فانه اذا عزم على مجلس التدريس
تطهر من الحدث والخبث ، وتنظف ، وتطيب ، ولبس أحسن ثيابه ،
اللائقة بين أهل زمانه ، قاصدا بذلك تعظيم العلم (٣٣٥) *

العلاقة بين المعلم والطالب

اختلف أسلوب العلاقات بين المعلم والتلميذ في هذه المرحلة عن
سابقتها ، فهنا قد أصبح التلميذ واعيا ، ويمكنه أن يعرف مسؤولياته ،
ولذلك فقد اختلف أسلوب العقاب نوعا ما ، وتحول الى أساليب أخرى ،
كالنصح والارشاد ، وأقصى ما يمكن أن يصل في العقوبة ، هو حرمانه
من حضور دروسه فترة معينة ، أو منعه من الدراسة عليه *

ولقد كان على الأستاذ تحمل المسؤولية كاملة في ذلك فينبغي
عليه « أن يعتنى بمصالح الطالب ، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده
من الحنو والشفقة والاحسان اليه ، والصبر على جفاء ربما وقع منه »

-
- (٣٣١) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٢٧٧ .
(٣٣٢) ابن فرحون : الديباج - ج ٢ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٣٣٣) المراكشي : الذيل والتكملة - السفر الخامس - القيم
الاول ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .
(٣٣٤) التليكي : نيل الابتهاج ، ص ٣٠ .
(٣٣٥) ابن جماعة : تذكرة الساع والمنكلم ، ص ٣١ .

ونقص لا يكاد يخلو الانسان منه ، وسورة غضب في بعض الأحيان ،
فيوقف على ذلك بنصح وتلطف لا بتعنيف وتعسف قاصداً بذلك حسن
تربيته : وتحسين خلقه ، واصلاح شأنه « (٣٣١) » .
ويشير ابن خلدون الى ذلك قائلاً : فينبغي للمعلم في متعلمه
والوالد في ولده ، أن لا يستبد عليهم في التأديب (٣٣٧) .

كما أن على المعلم أن يحرص على تعليم التلميذ ، « وتفهمه
ببذل جهده ، وتقريب المعنى له من غير اكثار لا يحتمله الذهن ، أو بسط
لا يضبطه حفظه » (٣٣٨) .

كذلك عليه أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده
في مودة أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة
أو تحصيل أو ديانة فإن ذلك ربما يوحش الصدر ، وينفر القلب ،
ولقد أصر ابن خلدون على أنه من الواجب في التعليم ، أن لا يخلط على
المتعلم علمان معاً ، حتى لا يسبب ذلك انشغال بال التلميذ وعدم
اجادته لأحدهما ، وطالب « بأن ينفرع الفكر لتعلم ما هو بسبيله ،
مقتصر عليه ، قربما كان ذلك أجدر بتحصيله » (٣٣٩) .

ولقد طلب من المعلم اختيار التلميذ قبل أن يبدأ معه ، وأن يعرف
مستواه ، فإذا وجد من الصعوبة على الطالب أن يواصل دراسة
كتاب ما ، أشار عليه بأن يقرأ كتاباً أسهل حتى يدرب ذهنه ، وبعد ذلك
يعود الى نقله الى كتاب آخر وهكذا ، كما أنه بعد الانتهاء من الدرس
فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة يمتحن بها فهمهم وضبطهم
لما شرح (٣٤٠) .

-
- (٣٣٦) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٣٣٧) ابن خلدون : المقدمة - ج ٤ ، ص ١٢٤٤ .
(٣٣٨) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .
(٣٣٩) ابن خلدون : المقدمة - ج ٤ ، ص ١٢٣٥ .
(٣٤٠) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .

وإذا كان المعلم قد طوّل بكل ذلك ، فليقد طوّل الطالب أيضا بأشياء كثيرة حتى يمكن له أن يتعلّم وأن يصبح يوما ما معلما ، فكان ينبغي على طالب العلم أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى من حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل الى بلد آخر من غير ضرورة ، فان ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ، ويضيع الأوقات ويؤذى المعلم (٣٤١) .

كذلك يوحى الطالب ، بالألا يذم ما جهل منه ، فهو دليل على نقصه ، وقوله بغير معرفة ، وألا يعجب بما علم فيطمس فضيلة علمه (٣٤٢) ، والاشارات الى هذه التوصيات كثيرة جدا ، وتكفي الاشارة الى كتاب الغزالي « أيها الولد » أو ملخص في التربية الاسلامية « لآسبن بلاثيوس » (٣٤٣) .

ولقد نمت العلاقة بين المعلم والتلميذ ، الى درجة أنه كان يسمح للمعلم بأن يصطحب طلبته للتنزه في أيام العصور ، وهناك في هذه المواضع الجميلة يمنحهم من الحرية ما لا ينعمون به أثناء الدرس (٣٤٤) .

كما أن الطلبة تعلقوا بأسانذتهم ، وأحبوهم حبا شديدا لدرجة أنه بموت الأستاذ ، يقوم الطلبة بمرافقة نعشه وقراءة القرآن على قبره ، مثلما حدث عند وفاة محمد بن أحمد بن عبيد الله المعروف بابن العطار المتوفى في عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، حيث كان الجمع في جنازته عظيما ، وانتاب قبره طلاب العلم أياما ختم قراؤها فيها محضرته القرآن عدة ختمات (٣٤٥) .

- (٣٤١) الزرنوجي : تعليم المعلم ، ص ١٨ .
(٣٤٢) الفارابي : احصاء العلوم ، ص ١٠٧ .
(٣٤٣) الفزالي : أيها الولد ، طبعة بيروت ، ١٩٥١ .
Asin Palacios : Un Compendio de Pedagogia musulmana.

- (٣٤٤) انظر ترجمة محمد بن حسين في بغية المتتبعين ، ص ٦٠، ٥٩ .
(٣٤٥) ابن بشكوال : الصلة - ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

تعليم النساء في المرحلة الثانية

لا نتحدث المصادر كثيراً عن طريقة تعليم النساء ، ولكن بعض الفتاوى الواردة في بعض ترجمات شهرات النساء الأندلسيات أو في ترجمات بعض العلماء يمكن أن تلقى ضوءاً على هذه المسألة ، وتبين لنا أن البنات كن يتلقين العلم على أيدي بعض المعلمين الرجال أو النساء وأن النساء كن يذهبن إلى المسجد للتعلم ، فيقال عن محمد ابن علي بن محمد الفخار المتوفى ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م ، أنه استوطن مالقة ، وتصدر للاقتراء بها فكان يدرس من صلاة الصبح إلى الزوال ، ويقرأ القرآن ، ويفتي النساء بالمسجد إلى ما بعد العصر (٣٤٦) .

محمد بن أحمد بن أبي القاسم الأنصاري ، المتوفى ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، ثابر على الاكتاب ، وتأديب النساء (٣٤٧) .

عثمان بن سعيد بن عثمان المقرئ ، توفي ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، أقرأ بالمرية مدة وكانت ريجانه تقرأ عليه القرآن بها ، كانت تقعد خلف ستر ، فتقرأ ، ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف ، فأكملت السبع عليه ، وطلبته بالإجازة ، فامتنع ، ولكنه كتبها لها فيما بعد (٣٤٨) .

كما أن نزهون بنت القليعي كانت تقرأ على أبي بكر الخزومي الأعمى (٣٤٩) .

ويقول القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله عن أستاذه الوليد ابن بكر بن مخلد ، المتوفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م ، أنه كان « مؤدبى » .

(٣٤٦) ابن الخطيب : الإحاطة - ج ٢ ، ص ٩١ - ٩٥ .
السبوتى : بغية الزعامة - ج ١ ، ص ١٨٧ .
(٣٤٧) المراكشى : الذيل والتكملة - السيرة الخامسة - القسم الثانى ، ص ٥٨٩ .

(٣٤٨) القسبى : بغية المتوسم ، ص ٣٩٩ .
(٣٤٩) ابن سعيد : رايات البرزين ، ص ٩١ .
ابن الخطيب : الإحاطة - ج ٢ ، ص ٣٢٤ .
المقرئ : نفع الطيب - ج ٦ ، ص ٣٣ .

ومؤدب أخى ، وابنة أخى » (٣٥٠) .

أما عن دور المرأة كعالمة للنساء ، فيمكن أن نشير الى مريم بنت يعقوب الشلبى ، فقد كانت أدبية شاعرة ، وكانت تعلم النساء الأدب (٣٥١) .

وكذلك حفصة الركونية ، توفيت ٥٥٨١ / ١١٨٥ م ، كانت أستاذة وقتها وانتهت الى أن علمت النساء في دار المنصور (٣٥٢) .

وكذلك كانت ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله ، أستاذة مهجة بنت التينانى القرطبية (٣٥٣) .

ومن ناحية أخرى ، فقد حفظ لنا التاريخ بعض الملاحظات التى تبين أن بعض الأندلسيات لعبن دورا هاما في الحياة العلمية وقمن بنقل علومهن الى الرجال ، وأكتفى بالإشارة الى أمه الرحمن بن عبد القاهر العيسى (٣٥٤) — راضية ، مولاة الامام عبد الرحمن الناصر (٣٥٥) — واشراق السويدية العروضية ، توفيت بداية ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وكانت تسكن بلنسية ، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة ، وفاقته في كثير مما أخذت عنه ، وأتقنت العروض .

قال أبو داود سليمان بن نجاح : أخذت عنها العروض ، وقرأت عليها النوادر لأبى على القالى ، والكامل للمبرد ، وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا وتتكلم عنهما (٣٥٦) .

-
- (٣٥٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٤٢ .
 - (٣٥١) ابن بشكوال : نفس المصدر — ج ٢ ، ص ٦٩٤ .
 - الحبيدى : جذوة القتبس ، ص ٣٨٨ .
 - المقرئ : نوح الطيب — ج ٦ ، ص ٢٣ .
 - (٣٥٢) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
 - (٣٥٣) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب — ج ١ ، ص ١٤٣ .
 - (٣٥٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٤ .
 - (٣٥٥) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ٦٩٤ .
 - (٣٥٦) السيوطى : بغية الوعاة — ج ١ ، ص ٤٥٨ .
 - عجيل حسن : الحياة العلمية ، ص ٤٥٢ .

الفصل السادس

المرحلة التعليمية الثالثة

أكدت أكثر من مرة أن تقسيم التعليم في هذا العصر ، إلى مراحل متعددة ليس إلا لغرض الدراسة فحسب ، لأن الطالب يبحر الانتهاء من الكتاب ، كان يبدأ مرحلة منسلة من سماع الشيوخ ، والانتقال من معلم إلى آخر ومن كتاب إلى آخر ، ومن مكان إلى آخر ، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الانتهاء من سنة دراسية معينة ، أو مرحلة محددة .

ومن هنا فالمرحلة التعليمية الثالثة ليست إلا امتدادا للمرحلة الثانية ، لكنها تتميز عنها ، بارتفاع سن طلبتها ، ومكانة الشيوخ الذين يتولون التدريس فيها .

والمرحلة التعليمية الثالثة يمكن أن تتميز أيضا بأنها استكمالية إذ أنها خلقة يحاول فيها المتعلم أن يستكمل دراساته التي قد يعتقد أنه لم يستكملها من قبل كما أنها عملية تجديد مستمرة لمعلومات المتعلم ، ولذلك فهي لا تتميز بسن محددة ، أو حتى بمكان معين .

وأكثر سمات هذه المرحلة تتمثلان في التعليم المدرسي والمرحلة .

فالمدرسة وخاصة في الأندلس ، لم تكن تضم بين مدرستها إلا كبار علماء العصر ، أما الطلبة فانهم كانوا يسعون إليها ، عندما يرغبون في تحصيل درجة عالية من العلوم ، بدليل أن الشيخ ابن الفخار ، حين انتهى من تدريسه لهذا منهج من مشهور الرواوي ، كتب له بالاجازة والاذن له في التخليق بموضع شجوده من المدرسة بعده (١) .

(١) ابن الخطيب : الاطاسة ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

أما الرحلة ، فلقد كانت أبرز مساعي الطلاب المتقدمين للحصول على أقصى ما يمكن تحصيله من العلوم ، التي كانت تدرس في مساجد ومدارس البلاد المشرقية .

وهناك أماكن أخرى كثيرة ، ساهمت في تطور الحركة التعليمية في الأندلس ، وأثرت فيها تأثيرا كبيرا ومنها :

المجالس العلمية ، سواء التي كان يعقدها الأمراء منذ بدايات الأسرة الأموية ، حتى سقوط غرناطة ، أو التي كان يعقدها كبار العلماء والشخصيات الأندلسية ، هذا ولقد تناولت تلك المجالس بالدراسة ، في الفصل الخاص بالدولة والتعليم (أنظر الفصل الأول) .

أما المكتبات فلقد انتشرت انتشارا واسعا في أسبانيا الإسلامية فظهرت مكتبات التصور الخلافية ، وكانت أعظمها مكتبة الحكم الثاني ، ثم مكتبات أمراء الموحدين . ومن ناحية أخرى ، اهتم كبار الناس وعامتهم بالحصول على الكتب ، وإقامة مكتباتهم الخاصة ، ونتيجة لذلك حدثت حركة إغارة للكتب نشطة جدا ، ويتم تبادل الكتب بين المعلمين والطلاب بصورة واسعة ، وأجد أنه ليس من الضروري تناول هذا الموضوع بالدراسة حيث سبقني إلى هذا المجال ثلاثة من الأساتذة ، قاموا بدراسته دراسة مستوعبة (١) .

وثمة أماكن أخرى ساهمت بصورة فعالة في النشاطات التعليمية ، وفي اللقاء بين المعلمين والطلبة ، مثل حوانيت الوراقين ، أماكن تجليد الكتب ، كما أن مصانع الكاغد التي نشأت بشاطبة ، والتي لم يكن لها نظير في معمور الأرض ، والتي عمت المشارق والمغارب على

(2) Ribera, J. : *Bibliofilos y Bibliotecas en España Musulmana* (Disertaciones y Opúsculos) 181—228.

Gozalbez, Busto : *El libro y las Bibliotecas en E. M.*

الحجى : الكتب والمكتبات في الأندلس : مجلة كلية الدراسات

الإسلامية ببغداد ، العدد الرابع (١٣٩٢ — ١٩٧٢) .

سطح المعمورة ، كما يقول الادريسي (٣) .

وهناك جانب مهم جدا ، كان يجب تناوله في هذه الدراسة ، ولكنني فضلت ارجاءه الى دراسة مستقلة ، ألا وهو الصناعات التعليمية ، أقصد بذلك صناعة الألواح والأقلام وأدوات القبر والمحابر ، وغير ذلك ، وقد حظت كتب الأدب بالاشعارات الأدبية الى الأدوات المكتبية ، وخاصة القلم والمخبرة .

كما أن التجارة قد لعبت دورا رئيسيا ، في هذا المجال ، فكثير ممن تنقلوا بين المدين الأندلسية ، وبين الأقطار الإسلامية ، كانوا ممن يعملون في التجارة وحملوا معهم بالافسافة الى تجارتهم علوم بلادهم ، وكتبها الى البلاد التي قصدوها .

وسأكتفي هنا بدراسة المدارس في الأندلس والرحلات ، وما يتبع ذلك من الحصول على الاجازة .

نظام المدرسة في الاسلام

يذهب بعض الباحثين الى أن كلمة مدرسة انما هي في الأصل كلمة عبرية دخلت الى اللغة العربية قبل الاسلام (٤) ، وبعضهم يرى أنها من الألفاظ المولدة المشتقة عند العرب (٥) ، وهي مكان خصص للتعليم ، ويكاد يجمع كافة المؤرخين على أن المدارس في بداية أمرها قد بنيت لكي تتولى العناية بالدراسات التشريعية (٦) ، وخاصة المذاهب السنية (٧) ومنها ما تخصص في تدريس مذهب واحد أو كان يجمع في مبناه بين المذاهب السنية الأربعة (٨) .

والمدرسة مبنى يتفاوت من ناحية الحجم ، حيث هناك المدارس الصغيرة التي لا تتجاوز كونها منزلاً صغيراً يخصصه صاحبه لهذا الغرض ويقوم مدرس بالتدريس فيه ، ويعرف هذا النوع من المدارس عادة بالمدارس الأهلية ، ومن أولى هذه المدارس ، المدرسة المنسوبة الى أبى حاتم بن حبان البستي (٩) ، المتوفى ٣٥٤هـ - ١٠٦١م ، حيث قال عنه ياقوت الحموي : وقد كان أبو حاتم سبيل كتبه وأوقفها

(٤) منصور فهمي : قاعات البحث ، ص ١٠٧ (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ج ١ ، عام ١٩٣٥) .

محمد غنيم : تاريخ الجامعات ، ص ٦٣ .

(٥) حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٠ .

(٦) Makdese; G. : Madrasa and University in the Middle Ages.

Makdese; : The Scholastic method in Medieval Education.

Makdese; G. : Muslim Institutions of Learning in Eleventh century, p. 10-12.

(٧) شلبى : تاريخ التربية ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٨) ناجى مصروف : نشأة المدارس المستقلة في الاسلام ، ص ١٠ - ١٧ .

(٩) ياقوت : معجم البلدان - ج ١ ، ص ٤١٨ (وبست من أعمال كابول بأفغانستان) .

وجمعها في دار رسمها . وقال الخافظ أبو عبد الله الحاكم « أبو حاتم ابن حبان داره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه ، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفهمة ولها جرايات يستنفقونها دارة ، ومنها خزانة كتبه في يدي صبي ، سلمها إليه ، ليبدلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة من غير أن يخرجها عنها (١) » . كما أن أبا بكر محمد بن الحسين بن قورك ، المتوفى ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م ، أقام له أهل نيسابور مدرسة ودارا (١١) .

أو أن تكون مبنى كبيرا يضم علاوة على الايوان الرئيسي ، مسجدا ، ومسكن للطلبة والمدرسين ، وقد تقوم الدولة بإنشائها .

ويجمع كافة المؤرخين على أن أول احتضان للدولة لنظام المدارس في الاسلام قد تم على يد نظام الملك ، المتوفى ٤٨٦ هـ - ١٠٩٣ م ، الذي كان وزيرا للألب أرسلان في بغداد ، يقول الدكتور طلس : ويعتبر عمل نظام الملك هذا أول عمل رسمي قامت به الدولة الاسلامية لتنظيم الدراسة وترتيبها بتهيئة الأسباب ، وإيجاد المواد الضرورية (١٢) .

ولقد كان لجهودات نظام الملك أثر كبير ، حتى أن كثيرا من

(١٠) ياقوت : معجم البلدان - ج ١ ، ص ٤١٨ .

ناجي معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ .

محمد طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٢ .

(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان - ج ٣ ، ص ٤٠٢ .

الكتبي : الوافي بالوفيات - ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ .

غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٧١ .

(١٢) طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٦ .

Dodge; Bayard : Muslim Education in Medieval Times

p. 20.

Tritton; A. S. : Muslim Education in the Middle Ages;

p. 103.

المؤرخين قد زعموا أنه أول من أنشأ المدارس في الاسلام (١٣) ، وقام
عيرهم بالرد عليهم وتبيان الحقيقة القائلة بوجود المدارس قبل نظام
الملك بأكثر من قرن من الزمان (١٤) .

ولكن أهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد
من الأزدهار للمدرسة : إذ أصبح السلطان ، ورجال الدايقة العالية
مولعين بتأسيس المدارس كما أن تكوين المدرسة ، كما أنشأها نظام
الملك وما جعله بها من أقسام داخلية للطلاب ، أصبح فيما بعد نموذجا
يجتذى في سائر المدارس التي أنشئت في الأزمان التالية (١٥) .

ولا شك أن مولد المدارس في الاسلام كان في مدينة نيسابور
وذلك في القرن الرابع الهجري ، وأنها أول من عرف المدرسة بمبناها
ووضعها الاصطلاحي المعترف به ، كمعهد متخصص للدرس والتعليم .
وبعد ذلك بأن مدينة نيسابور كانت مركزا من مراكز أهل السنة
والشافعية منهم بوجه خاص ، وظهر من بينهم طائفة كبيرة من كبار
أصحاب الحديث كالبيهقي ، المتوفى ٤٥٤ هـ - ١٠٦٣ م ، والحاكم
النيسابوري ، ولذلك لا بد من القول بأن حركة بناء المدارس قد نشأت
في كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم (١٦) .

ويعتقد أن أول مدرسة ببغداد هي المدرسة الحنفية التي أنشأها
أبو سعيد وفتحتها للتدريس في عام ٤٥٩ - ١٠٦٧ م (١٧) ، وإن كانت

(١٣) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los musulmanes
Espanoles; p. 17.

أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢١ .
(١٤) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
Tritton, A. S. : Op Cit., pp. 98-129.
Makdese; G. : Muslim Institutions of learning, p. 10.

محمد غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٧٦ .
(١٥) نفس المصدر ، ص ٧٦ .
(١٦) البيهقي ، أبو طاهر : المدارس في الاسلام ، ص ٢٠ ، ٢١ .
حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٢ .
(١٧) نفس المصدر ، ص ٢٢ .

النظامية هي أول مدرسة شرع فيها ، وقد بدأ بناؤها في بغداد سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥ (١٨) ، وفتحت أبوابها للتدريس في عام ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م ، ولقد أحصى مدارس بغداد وواسط الأستاذ ناجي معروف (١٩) .

ويرى الأستاذ غنيمه ، أن أول المدارس في البلاد المصرية قد ظهرت خلال الدولة الفاطمية حيث أنشئت مدرستان أولاهما مدرسة الوزير رضوان التي أقامها سنة ٥٣٢ هـ - ١١٣٧ م ، والثانية للوزير ابن السلار التي أنشأها قبل عام ٥٤٤ هـ - ١١٥٠ (٢٠) . وبناء على دراسته فإن هذه المدرسة هي التي قام بالتدريس بها أبو الطاهر السلفي . وقد لعبت هذه المدرسة دورا مهما في حركة التعليم بالأندلس ، حيث قصدوا عدد كبير من طلبة الأندلس ، وعاشوا فيها مددا متفاوتة ، ولقد ذكر مدرس المدرسة في معجمه أسماء كثيرة من طلبة الأندلس وتم استخراج أسماء هؤلاء من المعجم ونشر ذلك ضمن كتاب نشر بعنوان : أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي (٢١) .

ومن ناحية أخرى يؤكد السيوطي ، نقلا عن ابن خلكان ، المتوفى ٦٨١ هـ - ١٢٨٢ م ، أنه لما ملك صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، وأنه أول من قام بإنشاء عدد كبير من المدارس ، انتشرت واستمرت بعده على عهد دولتي الأيوبيين والمماليك (٢٢) .

-
- (١٨) غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٧٩ .
 حسنى عبد الوهاب : بيوت الله ، ص ٥ .
 (١٩) معروف : المدارس المستقلة ، ص ٢٠ - ٢٤ .
 معروف : مدارس واسط ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٦٦ .
 معروف : المدارس الثرائية ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٦٥ .
 (٢٠) غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٨٣ .
 عطية على : التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول ، ص ١٦٧ .
 (٢١) قام بأعدادها وتحقيقها الدكتور أحسان عباس - بيروت - ١٩٦٢ .
 (٢٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ص ٢٥٦ - ٢٧٣ .
 غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ .

وانتشرت المدارس في بلاد الشام ابتداء بما قام به الملك السلجوقي العادل نور الدين محمود الى مدارس الأيوبيين والمماليك (٣٢) .

وفي بلاد الحجاز أيضا ، وبالذات في مكة ، انتشرت المدارس ، وخاصة بجوار الحرم المكي (٣٣) .

كما انتشرت المدارس أيضا في شمال أفريقيا ، وتضاربت الآراء حول بداية انتشار هذه المدارس في هذه المنطقة ، فبينما يرى الأستاذ غنيمه أنه يرجع الفضل في انتشارها في هذه المناطق الى الدولتين الحفصية في تونس والمرينية في المغرب الأقصى ، نافيا بشدة ما قاله ابن أبي زرع من قيام يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م ، بإنشاء المدارس في بلاد أفريقية والمغرب والأندلس (٣٥) يرى الأستاذ عبد الهادي التازي أنه بعد ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظامية عرفت مدينة فاس مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدرس من سائر أطراف البلاد ، وجدد وجود مدرسة للمرابطين سنة ٤٦٢ هـ - ١٠٩٦ م ، بناها يوسف بن تاشفين بعد دخوله المدينة في حوالى التاريخ المذكور ، وأن طلاب هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتى قتلوا جميعا ، ولذا سميت بمدرسة الصابرين ، وأن أطلال هذه المدرسة ما زالت ماثلة الى الآن . كما يتحدث أيضا عن وجود مدارس على عهد الموحدين (٣٦) ، ويؤيده في هذه الفكرة الأستاذ المنونى في كتابه عن العلوم والفنون على عهد الموحدين (٣٧) .

(٣٢) النعمي : المدارس في تاريخ المدارس .

غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ٩٩ - ١٠٧ .

(٣٤) معروف : مدارس مكة - مطبعة الارشاد ، بغداد - ١٩٦٦ .

(٣٥) غنيمه : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ .

(٣٦) عبد الهادي التازي : مسجد القرويين ، ج ٢ ، ص ١٢١ -

١٢٣ .

(٣٧) محمد المنونى : العلوم والآداب ، ص ٢٠ - ٢٢ (نسخة

الرباط المصورة - ١٩٧٧) .

تعد دراسة المدرسة في الأندلس من أصعب الأمور وأعظمها حيث تباينت حولها آراء المؤرخين بصورة شديدة ، ويساعد على هذا الغموض قلة البيانات وسكوت المراجع ولستعرض قليلا من هذه الآراء :

يرى الأستاذ غنية في تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ، أن الأندلس لم يتح لها أن تستفيد من هذا النوع من التعليم إلا متأخرا جدا ، وكانت أول مدرسة بها في غرناطة سنة ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م ، أنشئت في زمن يوسف الأول تقليدا للمدارس المغربية ، وبضيف بعد ذلك قائلا : كان التعليم بالأندلس طيلة حياة الاسلام بها مسجديا ، وفي حالات قليلة كان العلماء يقومون بالتدريس في منازلهم (٢٨) .

أما خوليان ريبيرا فيذهب الى أن تأسيس المدارس في أسبانيا الإسلامية قد أتى من ناحية الشمال أى بتأثير من أوروبا ومن أسبانيا المسيحية واضعا نظريته في الكلمات الآتية :

في أسبانيا الإسلامية ، تجلت واحدة من الظواهر العكسية التي يخدمها التاريخ أحيانا ، وذلك أن تأسيس مدرسة حكومية وعلى نفقة الدولة لم يكن تأثيرا شريقيا مباشرا ، وإنما على العكس من ذلك جاء التأثير من الجانب الأوروبي ، بل هو أكثر غرابة حتى الآن فان ذلك يرجع الى أمير مسيحي ، وهو الفونسو العاشر الذي أسس في مرسية أول مدرسة إسلامية ، ذلك الشباب المحب لكافة العلوم مهما كان مصدرها . لقد سلم لأحد العلماء المسلمين : الذي كان في الحقيقة عالما خليعا ومبرزا في معارفه ، نعم ، لقد كان هذا العالم متعمقا في كافة العلوم ، ولا يقصد بذلك العلوم العربية فحسب ، وإنما تلك التي يطلق عليها اسم العلوم القديمة : الهندسة ، الطب ، الموسيقى ، المنطق ، وباقي فروع الفلسفة . بل ان ما هو أكثر غرابة في هذا

العالم الكبير أنه كان أستاذا قادرا على تعليم طلبة أرض شبه الجزيرة ، على اختلاف أديانهم بلغتهم أى بلغة كل مجموعة منهم ، لقد أعجب الأمير بالعالم ، وأنشأ له مدرسة ، حيث قام الرقوطة بتقديم علومه ، الى المسلمين واليهود والنصارى . لقد كان ألفونسو العاشر يعامله معاملة ممتازة ، ويفيض عليه بكرم وسماحة ، على أمل أنه باغراقه بالعطايا والهدايا يمكن له تحت ضغوط الكرم والأريحية أن يجعله يعتنق المسيحية فى يوم من الأيام .

ووصلت الأخبار مدينة غرناطة : هناك ملك مسيحي أقام مدرسة لعالم مسلم لكى يتولى فيها تعليم أبناء الديانات الثلاثة ، وهنا تحرك سلطان غرناطة ، ودعاه لكى ينتقل الى مدينته ، وبعد الحاح شديد لم يجد العالم المسلم بدا من مغادرة مرسية ، وترك خدمة الملك النصراني ، وانتقل الى غرناطة (٢٩) .

ويقول الدكتور الطوخى ، ولم تعرف غرناطة نظام المدارس الذى كان معروفا فى المشرق الاسلامى فى أول الأمر ، ومن المعروف أن أول مدرسة بمعناها التقليدى أنشئت بالأندلس على عهد أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) ، فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وهى المدرسة النصرانية (٣٠) .

أما غارثيا غوميث فإنه حين يتحدث عن يوسف الأول ، يقول : افتتحت المدرسة بغرناطة ، مقلدا المدارس الشهيرة على الشاطيء الآخر من مضيق جبل طارق ، ومغايرا للتقاليد الأندلسية فى مجال التعليم (٣١) . ولقد اعتمد كل من قال بهذا الرأي على عبارة لابن سعيد أوردها القرى يقول فيها :

(29) Ribera, J. La enseñanza entre los Musulmanes Españoles, pp. 18, 19.

(٣٠) أحمد الطوخى : الحياة الثقافية فى غرناطة (رسالة دكتوراه) ،

ص ٣٠٢ .

(31) García Gómez, E : Cinco Poemas Musulmanes; p. 190.

« وليس لأهل الأندلس مدارس تعيينهم على طلب العلم ،
بل يقرعون جميع العلوم في المساجد ، بأجرة » (٣٢) .

ومن ناحية أخرى ، هناك بعض المؤرخين الذين لا يتسرب اليهم
الشك في قيام المدارس في الأندلس — يقول الأستاذ اليفتي : « وأما
فهضة المدارس بأسبانيا العربية فلا يتسرب الشك إليها » (٣٣) .

أما الأستاذ الحسيني عبد العزيز فيقول : « أولى حكام بني أمية
في الأندلس العلم أكبر رعايتهم ، وجعلوا من قرطبة حاضرة دولة
عريقة تجذب الطلبة من كل فج ، فمدارسها ومعاهدها مصدر إشباع
شكري ، وقد كانت قرطبة تضم ثمانين مدرسة عامة ، وسبعة عشر
معهدا عدا أشياء أخرى » (٣٤) .

أما الدكتور حسن محمود فيشير الى أن كل مدينة بالأندلس
كانت تحتوى على مدرسة (٣٥) .

وينضم الى هذه المجموعة أرنت كوتل ، في كتابه عن الفن
الإسلامي قائلا : وكما أدخل صلاح الدين نظام المدرسة في مصر
أدخله الموحد يعقوب المنصور في أسبانيا والمغرب (١١٨٤ — ١١٩٩) ،
مع غارق بلا شك هو أن الأمر هنا يتعلق بالمعهد كمعهد ، لا تحدد
أقطار معمارية معينة . والواقع أن هذا النموذج الجديد من الأبنية
العربية الدينية ، قد بقى عديم الأهمية من حيث تطور الهندسة
المعمارية ، في الغرب الإسلامي (٣٦) .

(٣٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los Musulmanes
Espanoles, p. 11.

(٣٣) اليفتي : المدارس في الاسلام ، ص ٢٢ .
(٣٤) الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ١٤١ .
(٣٥) محمود (حسن) : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٢ .
(٣٦) كوتل : الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، ص ١٢٩ .
Kuhncl; Ernest : Maurische Kunst; p. 129 (T.A.)

وأختتم هذه المجموعة من الآراء بما يورده الأستاذ المنونى عن قيام الوحديين ببناء كثير من المدارس في شمال أفريقية والأندلس (٣٧) *

ويزيد الأمر صعوبة أن المستشرق الهولندى دوزى ، يرى أن كلمة « مدرسة » في أسبانيا الإسلامية لم تكن تعنى مكانا تعليميا ، وإنما تعنى مكتبة (٣٨) *

أن تحقيق دراسة منطقية علمية في وسط هذا التيار ، ليس بالأمر الهين أو البسيط ، والسؤال الذى يفرض نفسه منذ البداية هو : لماذا لم تظهر المدرسة في الأندلس إلا في نهاية الدولة الإسلامية على أرضها ، حسب ما يقول الفريق الأول ؟ وإذا كانت قد ظهرت ، على ما يقول الفريق الثانى ، فأين هى الوثائق الكافية للدلالة عليها ؟

ولم أستطع ، رغم كثرة محاولتى ، الوصول الى رأى نهائى أتمكن به من تأييد إحدى الفكرتين تأييدا تاما أو رفضها رفضا نهائيا ، لأنه كيف يمكن أن تظهر المدارس في الشرق في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ولا تظهر في أسبانيا قبل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ونحن نعرف أن الأندلسيين كانوا مولعين بتقليد المشاركة ، وعلى علم تام بكل ما يجرى في بلادهم ؟

قد يقول قائل بأن المدارس قد ظهرت في مناطق مليئة بالصراع العقائدى وأن المدارس قد بناها أهل السنة في تلك البلاد الشرقية ، وذلك لكى يتلبوا على الشيعة مثلما حدث في العراق وفي مصر بينما في أسبانيا الإسلامية لم تكن هناك حاجة الى مثل هذه المؤسسة ، وأن الأندلس نتيجة لوحدة المذهب فيها ولتمسكها بالسنة لم تشأ أن تدخل تقليدا لم يكن موجودا في المصور الإسلامية الأولى *

(٣٧) المنونى : العلوم والفنون والآداب ، ص ١٥ ، ١٦ ،

ص ٢٠ ، ٢١ .

(38) Dozy : Suppliment aux Dictionnaires Arabes, I (Madrassa)

لكن الرد على ذلك ، أن المدارس وإن بدأت مدفوعة بهذا
الفرض إلا أن بناءها استمر بعد ذلك وانتشر في مناطق ليست موددة
بالشيعة مثلما حدث في مصر على عهد المماليك ، وفي شمال أفريقيا
التي كانت تدين بالذهب المالكي ، مثلها مثل أسبانيا ، وقد دخلتها
المدارس في القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) ، على ما يؤكد
الدكتور عبد الهادى التازى (٣٩) ، وانتشرت بكل تأكيد منذ بداية
القرن السابع الهجرى (الثالث الميلادى) . وعلاوة على ذلك ، فإن بناء
المدارس قد أصبح عملا فخريا للذكرى مثله تماما مثل بناء القصور
والمستشفيات .

وأما إذا قلنا بوجود بعض المدارس وتساءلنا عما يؤكدنا فقد
يقول قائل ، انه ربما وجدت هذه المدارس ثم اندثرت ، واختفت
باختفائها الوثائق الدالة عليها .

لكن الأمر ليس كذلك لأنه إذا ما اندثرت البناء أو اختفى بسهولة
فمن الصعب جدا أن تختفى بياناته التي يمكن أن توجد ضمن تراجم
المعلمين الذين تولوا التدريس فيها أو ضمن أعمال من تولوا القيام بها
أو أنشأها ، على ما هو الحال في المدارس الشرقية أو مدارس الأندلس
في القرن الثامن .

إن البيانات التي استخرجتها من دراستى للمراجع التاريخية ،
تجملنى أميل إلى القول بوجود بعض المدارس في الأندلس اعتبارا
من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، دون أن أصلا
إلى حد التأكيد المطلق لهذه القضية وسأطرح هذه البيانات ، تاركا
للمستقبل أو للصدفة تأييد هذه المسألة تأييدا نهائيا أو رفضا
رفضاً باتا — معتمدا في ذلك على عدد من الملاحظات ، التي وردت
في المراجع :

(أ) الملاحظة الأولى أوردها ابن فرحون المتوفى ٧٩٩ هـ - ١٣٩٧ م ، عند حديثه عن أبي على الصدفى المتوفى ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م ، يقول فيها : ثم عاد الى الأندلس واستقر بمدرسة مرسية ، ورحل اليه الناس (٤٠) . ولقد رجع الصدفى الى الأندلس في عام ٤٩٠ هـ - ١٠٩٦ م (٤١) .

وعلى الرغم من أن ابن فرحون موضع ثقة المؤرخين ، إلا أنه هو المصدر الوحيد الذى أشار الى هذه المدرسة ، والفرق الزمنى بينه وبين الصدفى كبير جدا .

(ب) الملاحظة الثانية ، أوردها ابن أبى زرع المتوفى ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م ، عند حديثه عن السلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن على ، الذى تولى الحكم فى ١٩ ربيع الآخر عام ٥٨٠ هـ ، ٢٠ يولية ١١٨٤ م ، وتوفى فى ٢٢ ربيع الأول عام ٥٩٥ هـ / ٢٣ يناير ١١٩٩ م ، حيث يقول عنه :

انه « حصن البلاد ، وضبط الثغور ، وبنى المساجد والمدارس فى بلاد أفريقية والمغرب والأندلس ، وبنى المرستان للمرضى والمجانين ، وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة ، على قدر مراتبهم وطبقاتهم » (٤٢) .

(ج) أما الملاحظة الثالثة ، فلقد جاءت ضمن القصائد الشعرية التى قيلت فى رثاء مدينة بلنسية ، ومماولة حث الحفصيين على انتقاذها من أيدي الأراغونيين الذين استولوا عليها فى عام ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م ، ففى قصيدة ابن الأبار التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
أن الطريق الى منجاتها درسا

(٤٠) ابن فرحون : الديباج ، ص ٣٣١ .

(٤١) المقبرى : ازهار الرياض - د ٣ ، ص ١٥٢ .

Makdese; G. : The Madrasa in Spain, p. 151.

(٤٢) ابن أبى زرع : روض القرباس ، ص ٢١٧ .

يقول :

يا للمساجد عادت للعدا بيما
وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها الى استرجاع فائتها
مدارسا للمثاني أصبحت درسا (٤٣)
ويقول شاعر آخر لم يسمه المقرئ ، في رثاء بلنسية :

بأبى مدارس كالطلول دوارس
نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها
غيخاله الرائي اليه مساءها (٤٤)

ولعل هذه البيانات تكتسب أهمية ما ، اذا ما علمنا أن المؤرخين
الأسبان ، يجمعون على وجود مدارس مسيحية في مدينة بلنسية بعد
أيام من سقوط المدينة على يد خايمي الأول في عام ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م ،
وأنة في عام ١٢٤٠ م (٣٦٨ هـ) ، كانت هذه المدارس مؤكدة ، بل أن
بعضهم وصل الى القول بوجود مدرسة مسيحية في مدينة بلنسية
الاسلامية (٤٥) .

(٤٣) المقرئ : نفع الطيب - ج ٦ ، ص ١٩٩ .
عبد النعم خليفة : قصة الأدب في الأندلس ، ص ٢٨٨ .
الأوسى : الأدب الأندلسي في العصر الموحدى ، ص ١٢٤ .
De Schach ; Poesa y Arte dee los Arabes en Espana
y Sicilia ; -162-163.

(٤٤) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٢٤ .
حكيت الأوسى : الأدب الأندلسي ، ص ١٢٨ .
(٤٥) أنظر الدراية القيمة عن مدارس بلنسية على عبد خايمي الأول
التي أعدها :
Gallego Salvadores : Las Escuelas de Valencia en los
dias de Jaime el Conquistador.
Gallego «Perspectivas Pedagógicas» XXXXVII-
XXXXVIII, pp. 117-132.

ومما يجعلنى أميل أكثر الى هذا الرأي أن هذه الملاحظات لا نقل شأننا عما يقدمه المؤرخون على أنه مدارس مؤكدة مثل مدرسة مرسية أو مالقة أو غرناطة التى سنتناولها فيما بعد .

أما من ناحية ما يمكن أن يشبه المدارس الخاصة فاننى توقفت أمام ملاحظتين : الأولى منهما أن هرج بن غزلون العسال اليعصبى الطليجلى ، الذى توفى فى عام ٤٤٨ هـ - ١٠٥٦ م ، قد حبس داره على طلبة السنة (٤٦) ، مما يدفع الى التساؤل : لماذا طلبة السنة ؟ ومن هم ؟ وأين هم ؟ والثانية أن الفقيه أحمد بن جعفر الخزرجى ، أبو العباس السبتى ، كان يقيم فى فندق ، ويعلم الحساب والنحو ، ويأخذ الأجرة على ذلك ، ويقال أنه بات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالذاكرة ، وجاء الحرس لمنعهم (٤٧) .

المدارس المؤكدة

١ - مدرسة مرسية :

وهى مدرسة أقامها الأمير المسيحى ، ألفونسو العاشر ، حينما دخل مرسية ووجد بها العالم محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، ويحكى ابن الخطيب قصة هذا العالم ومدرسته على النحو التالى :

محمد بن أحمد الرقوطى المرسى (٤٨) : كان حجة فى المعرفة القديمة ، المنطق ، والهندسة والعدد والموسيقا والطب ، فيلسوفا ، وطييبا ماهرا - آية الله فى المعرفة بالآلسن ، يقرئ الأمم بالسنتهم غنونهم التى يرغبون فى تعلمها ، شديد البأس ، مترفعا ، متعظما .

(٤٦) أرسلان : الحل السندسية - ج ٢ ، ص ٢١ .

(٤٧) المقبرى : نفح الطيب - ج ١٠ ، ص ١٣٥ .

(٤٨) نسبة الى رقوطة ، وهى بلدة صغيرة فى شرق الأندلس ، تتبع على مقربة من شمال غربى مرسية ، على الضفة الغربية لنهر شتورة .

عرف طاغية الروم حقه ، لما تغلب على مرسية (٤٩) ، فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين ، والنصارى ، واليهود ، ولم يزل معظماً عنده . ومما يحكى من ملحه معه ، أنه قال له يوماً وقد أدنى منزلته ، وأثساد بفضلته : لو تنصرت وحصلت الكمال ، كان عندي لك كذا ، وكنت كذا ، فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده ، قال لأصحابه : أنا الآن أعبد واحداً ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما أراد منى .

وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر (السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ - ٧٠١ هـ (١٢٧٢ - ١٣٠٢ م) ، واستقدمه ، وتلمذ له (٥٠) . هذا ولقد نقل المقرئ نفس الترجمة تقريباً (٥١) .

٢ - مدرسة مالقة :

لا شك أن مالقة كانت مركزاً فكرياً ، غاية فى الأهمية ، على مدار تاريخها الإسلامى ، وكان مسجدها الجامع من أكثر مساجد المملكة النصرية شهرة ، حيث درس فيه كبار علماء هذه المملكة .

ويشير كل من المؤرخين الأسبانيين سيمونت وجين روبلس الى وجود « مدرسة عظمى » أو جامعة مالقة ، وأنها كانت مقامة فى صحن البرنتقال بالمسجد الجامع بالمدينة ، ويصران على أن الفقيه محمد بن

(٤٩) تم احتلال مرسية فى ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م .

(٥٠) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana ; pp. 109 — 110.

Martinez Ripoll; Aportaciones a la vida cultral de Murcia en el S. XIII, pp. 36 , 37.

(٥١) المقرئ : نقح الطبيب ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ .

محمد بن يوسف الطنجالي (٥٢) ، المتوفى في عام ٧٣٣ هـ - ١٣٣٢ م ، قد قام بالتدريس بها وأنها كانت مستقلة تماما عن المسجد الجامع بمالقة (٥٣) .

وأقيمت في مالقة أيضا مدرسة أخرى قبل قيام المدرسة النصرية في غرناطة أنشأها الصوفي محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري أبو عبد الله الساحلي الذي عاش بين عامي ٦٧٨ - ٧٥٤ هـ / ٢٧٩ - ١٣٥٣ م (٥٤) - بناها من مال أعطاه إياه بعض الأغنياء ، من وزراء الدول بالمغرب ، وأقامها في الجانب الغربي من المسجد الأعظم ، وأوقف عليها الرباع ، وابتنى غيرها من المساجد ، ويبدو أن صاحب هذه المدرسة ووالده الشيخ الصوفي أبو عبد الله الساحلي (٥٥) ، المتوفى ٧٣٥ هـ - ١٣٣٤ م ، كانا على صلة طيبة بابن الخطيب حيث كان يندبهما في بعض المهمات السياسية الى المغرب .

وحينما توفي الوالد ، حاول ابنه أن يواصل مكانته ، وأن يترقى في مدارج الصوفية مثله ، ولكنه حصل جاها عريضا ، ومالا كثيرا ، جعله ينحرف عن ما يجب أن يتحلى به ، ولعل ذلك مما سبب تساؤلات كثيرة عن مصدر هذه الأموال ، وأثار غضب أتباعه ، فاضطره ذلك الى الرحيل الى الشرق ، ثم عاد الى الأندلس ، مليح الثبينة ، يادي الوقار ، نبيه الرتبة فتولى الخطابة الى حين وفاته (٥٦) .

وترى الدكتورة ماريّا خيسوس روبيرا في هذه المدرسة ، المكان

(٥٢) ابن القاضى : درة الحبال - ج ١ ، ص ٢١٠ (الترجمة ٥٤٩) .
(٥٣) Gullen Robles : Historia de Malaga Musmana; p. 318.

(٥٤) أشارت الى هذه المدرسة الدكتورة ماريّا خيسوس روبيرا ، اعتيادا على بعض أئمة لابن الجيئاب يهنيء فيها أبا عبد الله الساحلي لاقامته أول مدرسة في الأندلس : انظر :

Rubiera Mo. J. : Datos sobre una madrasa en Malaga anterior de Granada.

(٥٥) انظر ترجمة الوالد في الاحاطة - ج ٣ ، ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٥٦) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

الذى مارس فيه الأساتذة التعليم لأول مرة بعيدا عن المسجد في الأندلس ، وأنها لم يكن لها الصفة الرسمية التى كانت للمدرسة غرناطة أو لمدارس الشرق الإسلامى ، وتعتقد أنها كانت ذات صفة صوفية بحتة مما قد يفسر لنا الاختفاء الغامض لكل ما يشير إلى هذه المدرسة ، حيث اختفت تماما واختفى كل ما قد يشير إليها بعد ذلك (٥٧) .

٢ - بدايات المدارس في قرطبة :

شهدت قرطبة أول محاولة لاقامة مدرسة ، عندما خصص السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، سلطان قرطبة من سنة ٦٧١ الى ٧٠١ هـ (١٢٧٢ - ١٣٠٢ م) منزلا للفقيه محمد ابن أحمد الرقوطى بعد أن أخصره من مرسية ، لكن يتولى فيه تعليم الطلبة العلوم الطبية والفلسفية وغيرها ، بل أنه كان - أكثر من ذلك - يقوم باختبار من يرد على قرطبة ، للتعرف على مستواهم ، ومكانته . يقول ابن الخطيب عن ذلك الرجل :

وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر ، واستقدمه وتنازل له ، وأسكنه فى أعبدل البقع من حضرته ، وكان الطلبة يفتشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطب والتعاليم وغيرها ، إذ كان لا يجارى فى ذلك ، وكان قوى العارضة ، مضطجعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابى حضرته ، ممن يقدم منتجلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم لتمكنه ودالته (٥٨) .

ويرى خوليسان ريبيرا ، أنه بوفاة الأستاذ الرقوطى ، أغلقت بذلك أبواب أول محاولة لتدخل الدولة فى نظام التعليم فى الأندلس (٥٩) .

(٥٧) Rubiera, Mo. Jesus : Datos sobre una madras en Malaga anterior a la de Granada, p. 226.

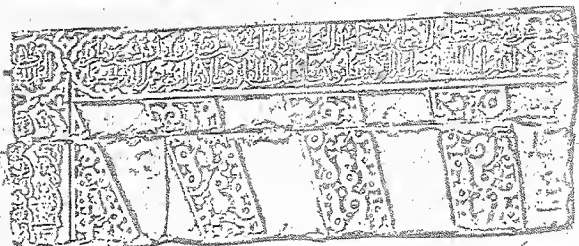
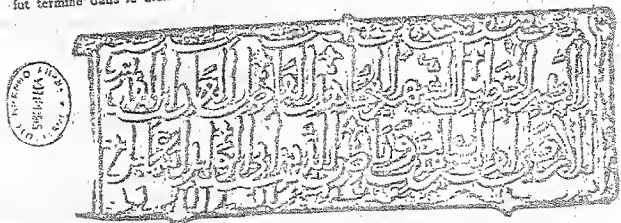
(٥٨) ابن الخطيب : الإحالة ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٥٩) Ribera, J. : Ho. de la ensenanza entre los Espanoles Musulmanes, p. 20.

مرسوم بالدرسة النصرية بفوناطة على ما نقله ليفي
بروفينسال ، والنقطة الموجودة في متحف الآثار بفوناطة

أمر بنا هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونورا وأدامها في علوم الدين على الأيام آمين
المسلمين أمك الله عز وجل العلى النهر الكرم السعد الطاهر الرفيع الهيام السلطان المؤيد
أبو الحجاج يوسف ابن العلى الكرم الكبر الخطير النهر المجاهد النازل المائل المقدس
الأرضي أمير المسلمين وناصر الدين أبي الوليد إسماعيل بن قرج بن نصر كافي الله في الإسلام
صائمه الزاكية وتبلى أعماله الجهادية وتم ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة

A. ordonné la construction de cette demeure (consacrée) à la science — qu'Allah en fasse un établissement de droiture et de lumière et qu'il la fasse durer au long des jours pour les sciences de la religion! — l'émir des Musulmans — qu'Allah le protège par son aide! — l'élevé, le célèbre, le noble, le fort, le haut, le héros, le sultan assisté par Dieu, ABU 'L-HAGGAG YUSUF, fils de l'élevé, du noble, du grand, du considérable, du célèbre, du guerrier pour la foi, de l'excellent, du juste, du sanctifié, du très agréé, l'émir des Musulmans et le défenseur de la religion, ABU 'L-WALID ISMA'IL IBN FARAG B. NASR. Qu'Allah récompense pour l'Islam ses actions vertueuses et accepte favorablement ses hauts faits de guerre sainte! Et cela fut terminé dans le mois de mubarram de l'an 750 (22 mars—20 avril 1349).



N^o 172. Grenade (750 H.) Fragments épigraphiques de la Mecaersa. Détail.

ولتحدث الآن عن أشهر المدارس التي ظهرت في غرناطة :

(١) المدرسة النصرية :

أشهر المراكز التعليمية في الأندلس ، بعد مسجد قرطبة ، بنيت على عهد السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٨٠٧٥٥ = ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) ، بناء على مبادرة من الحاجب رضوان النصرى ، ولقد حازت هذه المدرسة شهرة واسعة حتى أجمع كافة المؤرخين تقريبا على اعتبارها أولى المدارس في الأندلس ، كما أنها هي المدرسة الوحيدة التي وصلت بعض أجزائها الى أيامنا هذه .

ولسوف أعتد على ترجمة ابن الخطيب التي أوردها لمعاصره ومديقة الحاجب رضوان ، مؤسس هذه المدرسة ، لأن فيها ما قد يسمح لنا بإيضاح بعض النقاط ، ونص الترجمة كالآتي :

رضوان النصرى الحاجب المعظم

حسنة الدولة النصرية ، وفخر موالينا :

رومى الأصل ، أخبرني أنه من أهل القلصادة ، وأن انتسابه يتجاذبه القشتالية من طرف العمومة ، والبرجلونية من طرف الخؤولة ، وكلاهما نبيه في قومه . وأن أباه ألجأه الخوف بدم ارتكبه في محله أمالته من داخل قشتالة الى السكتى بحيث ذكر ، ووقع عليه سباء في سن الطفولية ، واستقر بسببه بالدار السلطانية ، ومحق أحرار رقة ، السلطان داي قومه ، أبو الوليد المار ذكره ، فاختص به ، ولازمه قبل نصير الملك اليه ، مؤثرا له معتبطا بمخائل فضله وتمائل استقامته ، ثم صير الملك اليه فتدرج في معارج حظوته ، واختص بتربية ولده ، وركن الى فضل أمانته ، وغلظه في قرب الجوار بنفسه ، واستجلى الأمور المشككة بصدقه ، وجعل الجوائر السنية لغطاء دولته على يده ، وكان يوجب حقه ، ويعرف فضله ، الى أن هلك ، فغلق يكف ولده ، وحفظ شمله ، ودبر ملكه ، فكان آخر الخلفاء ، وستر

للحرم ، وشجى للعدا وعدة في الشدة ، وزينا في الرخاء ، رحمة الله عليه .

كان هذا الرجل مليح الشبهة والهيئة ، معتدل القند والسحنة ، مرهب البدن ، مقبل الصورة ، حسن الخلق ، واسع الصدر ، أصيل الرأي ، رصين العقل كثير التجمال ، عظيم الصبر ، قليل الخوف في الملمات ، ثابت القدم في الأزمات ، ميمون النقيية ، عزيز النفس ، على المهمة ، بادى الخشمة ، آية في الحفة ، مثالا في النزاهة ، ملتزما للسنة ، دعوبا على الجماعة ، جليس القبلة ، شديد الادراك من السكون ، شاقب الذهن مع اظهار الغفلة ، مليح الدعابة مع الوتار والسكينة مستظها لعيون التاريخ ، ذاكر للكثر من الفقه والحديث ، كثير الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد ، عارفا للسياسة ، مكرما للعلماء ، مدركا للموادة ، قليل التصنع ، ناخرا من أهل البدع ، متساوي الظاهر والباطن ، مقتصدا في المطعم والملبس .

اتفق على أنه لم يعاقر مسكرا قط ، ولا زل بهناة ، ولا لطح بريسة ، ولا وصم بخلة تتقدح في منصب ، ولا بأثر عقابا جاز ، ولا أظهر شفاء من غائظ ، ولا اكتسب من غير التجر والفلاحة مالا .

أحدث المدرسة بغرناطة ، ولم تكن بها بعد ، وسبب اليها الفوائد ، ووقف عليها الرباع الخلة ، وانفرد بمنقبها ، خجاعت نسيجة وحدها بهجة وضدرا وظرفا وفخامة ، وجلب الماء الكثير اليها من النهر ، فأبد سقيه عليها ، وأدار السور الأعظم على الرضى الكبير المنسوب للبيازين ، فانتظم منه النجد والغور ، في زمان قريب ، وشارف التمام الى هذا العهد ، وبنى من الأبراج المنيرة في مثالم الشور وروابي مطالعها المنذرة ، ما ينيف على أربعين برجاً ، فهي مائلة كالنجوم ما بين البحر الشرقى من شغل بيرة الى الأحواز الغربية ، وأجرى الماء بجبل مورور ، مهتديا الى ما خفى على من تقدمه وأغذاذ أمثال هذه الأنقاب يشقى بسداده .

غزا في السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة
بجيش مدينة باغة ، وهي ما هي من الشهرة ، وكرم البتعة ، فلتخذي
بمفتنقها ، وثبت حصارها وعلق الصريح منها ، فتملكها عنوة وعمرها
بالحماء ورقيها بالرابطة ، فكان الفتح فيها عظيما ، وفي أوائل شهر
المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عسكو المشرق ،
وطوى المراحل مجتازا على بلاد قشتالة ، لورقة ومرسية ، وأمن
فيها ، ونارل حصن الدور ، وهو حصن أمن غائلة السدو (مكتنف
بالبلاد ، مد بالبسيني موضوع على طية التجارة ، ونائبه القتال ،
فاستولى عنوه) ، عليه منتصف المحرم من العام المذكور ، وآب مملوء
الحقائب سبيا وغنما .

وغزواته كثيرة ، كمظاهرة الأمير السشير أبي مالك على منازلة
جبل الفتح ، وما اشتهر عنه فيه من الجند والصبر وأثر عنه من
المنقبة ، الدالة على صحة اليقين ، وصدق الجهاد ، إذ أصابه سهم
في ذراعه وهو يصلي ، فلم يشغله عن صلاته ، ولا حمله توقع الاغارة
على ابطال عمله .

لما استوثق أمر الأمير المخصوص بتربيته ، محمد ، ابن أمير
المسلمين أبي الوليد نصر ، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله
محمد بن المحروق ، ووقع بينه وبين المترجم عهد على الوفاء والمناصحة ،
ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين
وسبعمائة وبعثه ليلا الى مرسى المنكب ، واعتقله في المطبق من
قصبته ، بغيا عليه ، وارتكب فيه أشنوعة أساءت به العامة ، وأخذت
باختلال الحال ، ثم أجاز به البحر ، فاستقر بتلمسان ، ولم يلبث أن قتل
المذكور ، وبادر سلطانه الموتور بفرقة عن سنته ، فاستدعاه فلقق
معه من هفصبة الملك مقلما ما شاء من عز وعناية ، قصرقت اليه
المخاليد ، ونيطت به الأمور ، وأسلم اليه الملك ، وأطلقت يده في المسال ،
واستمرت الأحوال الى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، والثالث الأمر ،
وظهر من سلطانه التكرار عليه ، فمات له الحمام فخلصه الله منه ،

وزار أخوه أبو الحجاج من بعده ، فوقع الاجتماع على اختياره للوزارة
 أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، فرضى الملك به ، وفرحت
 العامة والخاصة للخطبة ، لارتفاع المناصبات بمكانه ، ورضى الأصدا
 يتوسلده ، ومالبت النفوس بالأمن من غائلته ، فتولى الوزارة وسحب
 أذيال الملك ، وأنفرد بالأمر واجتهد في تنفيذ الأحكام ، وتقدم الولاة ،
 وجواب المخاطبات ، وقواد الجيوش الى ليلة الأحد الثاني والعشرين
 من رجب عام أربعين وسبعمائة ، فكتبه الأمير الذكور ، فكتبه ثقبلة
 البرك ، هائلة الفجأة من غير زلة مأثورة ، ولا سقططة معروقة ،
 الا ما لا يعدم بأبواب الملوك من شرور المناقشات ، وديبب السعايات
 الكاذبة ، وتقبض عليه بين يدي محراب الجامع من الحمراء اثر صلاة
 المغرب ، وقصد شهر الرجال سيوفهم غوقه يحفون به ، ويقودونه
 الى بعض دور الحمراء ، وكبس ثقات السلطان منزله ، فاستوعبوا
 ما استقبل عليه من نعمة ، وضم الى المستخلص عقاره ، وسوغ الخبر
 عظيم غلاته ، ثم نقل بعد أيام الى قصبة المرية محمولا على الظهر ،
 فشد بها اعتقاله ورتب الخرس عليه الى أوائل شهر ربيع الثاني
 من عام أحد وأربعين وسبعمائة ، فبدا للسلطان في أمره ، واضطر الى
 اعادته ، ووجد فقد نصحه ، وأشفق لما عدم من أمانته ، والانتفاع
 برأيه ، وعرض عليه بما لنوم الكف والاقصار عن ضره ، فغضا عنه ،
 وأعادته الى محله من الكرامة ، وصرف عليه من ماله ، وعرض الوزارة
 فتابها ، واختار برد العافية ، وآنس لذة التخلي ، فقدم لذلك من سد
 الثغور ، فكان له اللفظ ، ولهذا الرجل المعنى ، فلم يزل مفرعا للرأى ،
 مجلى في العظة على الولاية ، كثير الآمل والغاشى الى أن توفي السلطان
 المذكور غرة ثوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فثعب
 للأشأى ، وحفظ البلوى ، وأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد
 أبي عبد الله ، وقام خبر قيام بأمره ، وجسرى على معهود استيرائه ،
 وقد تحكمت التجربة ، وعلت السن ، وزادت أنه الخشبة وقربت
 من لقناء الله الشقة ، فلا تسأل عما حظ من خل ، وأفاض من عدل ،
 وقبيل من مداراة ، وحاول عقد السلم ، وسد أمور الجند على القلعة ،

ودامت حاله متملة على ما ذكر ، وسنه تتوسط عشر التسعين الى أن
 لحق بربه ، وقد علم الله أنى لم يحملنى على تشيير بسيرته ،
 والاشادة بمنقبتة داعية ، وانما هو قول بالحق ، وتسليم لحجة
 الفضل ، وعدل في الوصف ، والله عز وجل يقول : « وإذا
 قلتم فاعدلوا » .

في ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين
 وسبعمائة طوق منزله بعد فراغه من احياء ثلث الليل ، متبدل اللبسة ،
 خالص الطوية ، مقتضيا للأمن مستشعرا للعافية ، قائما على المسلمين
 بالكل ، حاملا للعظيمة ، وقد بادره الغادرون بسلطانه ، فكسروا
 غلقه بعد طول معالجة ، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده ، وذهبوا
 الى الداييل برأسه ، وفجعوا الاسلام ، بالسائس الخصيب المتغاضى ،
 راكب متن الصبر ومطوق طوق النزاهة والعفاف ، وآخر رجال الكمال
 والستر ، الصافي على الأندلس ، ولوئثم من الخد بين رأسه وجسده ،
 ودفن بازاء لحود مواليه من السبيكة ظهرا ، ولم يشهد جنازته
 الا القليل من الناس ، وتبرك بعد بقبوره (١) .

ودراسة هذه الترجمة تطرح أمامنا سؤالا هاما حول الوقت الذي
 بدأ فيه الحاجب رضوان ببناء هذه المدرسة والمدة التي استغرقها
 التنفيذ . يرى المستشرق الأسباني لويس شيكو دى لوئينا أن العمل
 قد انتهى في عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م حيث تشير الى ذلك اللوحة
 التذكارية التي كانت منصوبة على واجهة المدرسة ، والباقية حتى اليوم
 في متحف الآثار بغرناطة . كان العمل قد بدأ منذ مدة طويلة -
 ترجع الى عشر سنوات على الأقل ، حيث أننا نعرف أن يوسف الأول
 قام بعزل الحاجب رضوان وسجنه في ٢٣ يناير ١٣٤٠ م ، وأن هذا
 لم يعد الى سلطته الا في ١٩ أكتوبر ١٣٤٩ م ، وحيث أن المدرسة

كانت بدايتها على يد الحاجب رضوان ، فمن الضروري أن يكون ذلك العمل قد بدأ قبل الثالث والعشرين من يناير عام ١٣٤٠ (٦١) .

وليس من السهل مجازاة الباحث الأسباني في هذا الرأي ، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمؤسسة ليست من الضخامة بحيث تستغرق كل هذه المدة الزمنية ، علاوة على أن الكتب التاريخية لم تشر إلى ذلك أية إشارة ، يستدل منها على بدء البناء في المدرسة قبل ذلك بعشر سنوات وخاصة أن النظامية في بغداد لم يستغرق بناؤها أكثر من عامين فقط .

إن التعبير الذي استخدمه ابن الخطيب للدلالة على ذلك ليس واضحاً جداً ، فالكلمة « أحدث المدرسة » لا تعنى بالضرورة « بنى المدرسة » بقدر ما تعنى « أوجد المدرسة » ؛ خاصة إذا كان ابن الخطيب قد استعمل الفعل « بنى » عند حديثه عن مدرسة مالقة ، ومن المحتمل أن المبنى كان قائماً ، وأن الحاجب رضوان قد قام بتخصيصه لهذا الغرض مدخلاً عليه التعديلات اللازمة من زخرفة أو غير ذلك ، وبالتالي فالأمر لا يحتاج إلى وقت طويل ، ويكون ذلك قد تم خلال عامي ٧٤٨ و ٧٤٩ هـ ، حيث كان الحاجب في تلك الفترة يتمتع بسلطة حقيقية ، فنراه قائداً لجيوش غرناطة ، في حملتها ضد حصن قنيط (٦٢) .

أما الاحتمال الثاني ، فهو حيث أن كلمة « أحدث » لا تستبعد قيامه بالبناء ، فأننى أميل إلى اعتبار عام ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م ، العام الذي بدأ فيه الحاجب مشروع المدرسة ، وبالتالي من المعقول أن يستمر البناء فيها عاماً أو عامين .

أما تاريخ الانتهاء من بناء المدرسة فهو أيضاً مثير للتساؤل ،

(61) Seco de lucena : El Hayib Ridwan y Granada; p. 295 — al Andalus XXI (1956) 285—296.

(٦٢) شبانة : يوسف الأول « الرسالة الثانية » ، ص ٢٢٧ .
Seco de Lucena : Op. Cit., p. 293.

على الرغم من اللوحة التذكارية التي تصدد افتتاح المدرسة في عام ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م (٦٣) ، وهنا سبيان لمثل هذا الشك : السبب الأول أن أبا الحسن بن الجياب ، المتوفى في شوال من عام ٧٤٩ هـ / يناير ١٣٤٩ م ، قد كتب الأبيات التالية ، التي يؤكد المقرئ ، أنها كتبت على باب المدرسة العلمية بقرنائة .

يا طالب العلم هذا بابه مفتحا
فادخل تشاهد سناء لاح شمس ضحى
واشكر مجيرك من حل ومرتمحل
اذ قرب الله من مرمك ما نرحا
وشرفت حضرة الاسلام مدرسة
بها سيل الهدى والعلم قد وضحا
أعمال يوسف مولانا وثبتته
قد طرزت صفحا ميزانها رجحا (٦٤)

لم تظهر هذه الأبيات ضمن ما نقله الموريسكى الونسو ديل كاسنليو ، مما يسبب مشكلة التناقض مع قول المقرئ ، بأنها كانت على باب المدرسة وعدم ظهورها ضمن ما نقله هذا الموريسكى - والاشكال الثانى يتجلى في قول المقرئ بأنها كانت على باب المدرسة العلمية ، فهل يعنى ذلك وجود مدرستين ؟ ان ذلك قد يحل مشكلة التناقض المشار اليه ، لكن نص مرسوم افتتاح المدرسة الفائل : « أمر بناء هذه الدار للعلم » ، يمكن أن يفسر قول المقرئ بأنها على باب المدرسة العلمية دون أن يعنى ذلك وجود أخرى ، وتبقى المشكلة مطقة ، بالضبط كما شرحها البروفيسور كابانيلاس .

(63) Levi Provencal : Inscripciones Arabes de Granada
pp. 158, 159.

(٦٤) المقرئ : نفع الطيب - ج ٧ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ؛
Rubiera; Mo. Jesus : Ibn al Yayyab y su época (Tesis
Doctoral inédita; Madrid 1972).

والسبب الثاني هو ما جاء في ترجمة محمد بن محمد بن مطارب الصريحي المتوفى في عام ٥٧٥٠ م - ١٣٤٩ م ، من أنه دخل غرناطة مرات متعاقبا وخاجبا ودعى للاقراء بمدرستها النصيرية عام ٥٧٤٩ م - ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطاني ، واعتذر بما قبل فيه عذره (٦٥) .

ونستفح من هاتين الملاحظاتين ، أن المدرسة كانت قد تمت تماما خلال عام ٥٧٤٩ م - ١٣٤٨ م ، وإن كان افتتاحها الرسمي قد تأجل حتى الشهر الأول من عام ٥٧٥٠ م (٢٢ مارس - ٢٠ أبريل ١٣٤٩ م) .

أوقف الحاجب رضوان على المدرسة الرباع المغلة ، وسبب لها الفوائد ، وجلب إليها الماء من النهر ، حتى جاءت نسيجة وحدها ، بهجة ومصدرا وظرفا وفخامة .

ويبدو أن أوقاف المدرسة كانت كثيرة حتى أن الأمر قد استدعى أن يعين لها مسئول مخصوص هو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري (توفي بعد عام ٥٧٧٠ م) ، الذي يقول عنه ابن الخطيب :

وهو الآن مستوطنا حفرة غرناطة ، وتاليا للأعشار القرآنية بين يدي السلطان ، أعزه الله ، مرفع الجانب ، معزز الجراية بولايته أحباس المدرسة (٦٦) .

ولابد من الإشارة أيضا الى وجود بعض الفنادق المجاورة للمدرسة والتي كانت محبسة على بعض مساجد غرناطة ، مما يعطي الاحتمال في استعمالها لصالح المدرسة لمبيت الطلبة والغريباء (٦٧) .

(٦٥) ابن الخطيب : الاطلة : ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

الشكوى : تيل الابتهاج ، ص ٢٤٩ .

(٦٦) ابن الخطيب : الاطلة : ج ٣ ، ص ١٩٦ - ١٩٩ .

(67) Seco de Lucena : Notas de Arqueología de Granada

(Cuadernos de Alhambra No. 6 MCMLXX) .

Vellaneuva; C. : Habices de las Mezquitas la ciudad de Granada y sus Alquerías, pp. 27, 28.

ولقد زخرغت المدرسة بالآيات الشعرية والآيات القرآنية ،
فحملت على بابها كثيرا من الآيات الشعرية ، فعلاوة على أبيات
ابن الجباب الأربعة التي يؤكد المقرئ أنها كتبت على باب المدرسة ،
نقلنا أيضا الموريسكي « أوفسو ديل كاستيو » ، المترجم الرسمي لبلاط
الملك الأسباني فيليب الثاني (٦٨) ، ثلاثة أبيات من الشعر وجدت على
الباب الرئيسي للمدرسة ، وهي :

انظر الى روض عجيب المنظر
قد راق حسنا لامعا في المحجر
وتأمل الباب النسيج صناعته
تبدي الجلال بوضعه المتخير
وادخل عليه للصلاة مبادرا
لتفوز انعاما بيوم العشر (٦٩)

أما في الرواق الداخلي فقد وجد نفس الرجل الأبيات التسعة
التالية :

ألا هكذا تبنى المدارس للمعلم
وتبش عهود المجد ثابتة الرسم
ويقصد وجه الله بالعمل الرضا
وتجنى ثمار العز من شجر العزم
تفاخر منى حضرة الملك كلما
تقدم خصم في الفخار الى خصم
فلجدي اذا ضن الغمام من الحيا
وأهدى اذا جن الظلام من النجم

(٦٨) انظر :

Cabanelas; D. : Inscricion Poetica de la Antigua Ma-
drasa granadina, pp. 14, 15.

(٦٩) نقلت المختصر ٢ من ١٢٨ .

فيما ظاعنا للعلم يطلب رحلة
كفيت اعتراض الببد أو لجج الليم
بباسبى حظ الرحل لا تنو وجهة
فقد فزت في حال الاقامة بالغنم
فكم من شهاب في سمائي ثاقب
ومن هالة دارت على قمركم
يفيخون من نور مبین الى هدى
ومن حكمة تجلو القلوب الى حكم
جزى الله عنى يوسف خير ما جزى
ملوك بنى نصر عن الدين والعلم (٧٠)

هذا ولقد حاول المستشرق الأسباني داريو كابا نيلاس ،
التعرف على مؤلف هذه الأبيات الاثنى عشر ، لكنه لم يصل الى
نتيجة محددة (٧١) ، ولم أستطع أنا أيضا التعرف على شخصية مؤلف
الأبيات الثلاثة الأولى ، التي أوردها ألونسو دل كاستيو ، في حين يؤكد
المقرئ أن الأبيات التسعة الأخرى ، هي لابن الخطيب ، وأنها كتبت على
المدرسة النصرية بقرنطة (٧٢) .

وليست لدينا بيانات كافية ، تساعد على رسم صورة لما كانت عليه
المدرسة ، ولكن يمكن أن نتخيل البناء من واقع الحال ، ومما تقدمه لنا
مدارس شمال أفريقيا ، بأنه كان محتويا على بهو واسع تحيط به
رواقات جانبية تستخدم للتدريس ، وأنه يحتوى على طابق علوى

(٧٠) المتري : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ١٨٦ .

ازهار الرياض — ج ١ ، ص ٢٧٢ .

P. Cabanelas, D. : Inscripcion Poetica, p. 20.

(٧١) Cabanelas, D. : Inscripcion Poetica de la antigua

Madrassa, pp. 23, 24.

(٧٢) المتري : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ١٨٦ .

ازهار الرياض — ج ١ ، ص ٢٧٢ .

يستخدم لبيت الطلبة الغرباء الواردين الى المدرس * وعلاوة على ذلك ، وفي نواية الفناء الكبير ألحق بالمدرسة محلى صغير لاقامة الصلاة . وهذا الجزء من المدرسة هو الذى تبقى على صورته الأصلية حتى يومنا (٧٢) * وتؤكد الوثائق وجود مساكن للطلبة الى جوار المدرسة (٧٣) *

وعلاوة على ذلك ، ألحق بالمدرسة مكتبة خاصة بها ، وتمديد سلاطين غرناطة هذه المكتبة بامدادها بالكتب — ومن الكتب التى وصلت الى هذه المدرسة فى فترات لاحقة ، كتاب الاحاطة لابن الخطيب ، حيث أمر سلطان غرناطة بوقفه على المدرسة فى عام ٨٢٩ هـ ، ولقد كتب صيغة هذا الوقف الفقيه الغرناطى الكبير ابن عاصم (٧٥) ، وهناك كتاب آخرى تم وقفها على المدرسة مثل كتاب « الاشارات والتنبيهات » وكتاب « ابن معط » (٧٦) *

ولقد قام بالتدريس فى المدرسة مجموعة من كبار الأساتذة مثل : قاسم بن لب ، حامل لواء التحصيل ، ومحمد بن على الخولانى أستاذ الجماعة وشيخ النخاعة فى عصره ، ويحيى بن أحمد بن هذيل ، آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس . الخ *

ويلاحظ أن مدرسة غرناطة تختلف عن بعض المدارس المشرقية من حيث عدد المدرسين الذين يعملون بها فى وقت واحد فبينما نجد أن النظامية يتولى التدريس فيها مدرس واحد هو الشيخ الشيرازى ، نرى أن مدرسة غرناطة مختلفة أيضا ، ففى الوقت الذى كان التجيبي (توفى ٧٥٣ هـ — ١٣٥٢ م) يدرس العلوم العقلية ، كان الخولانى

(٧٣) عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال ،

ص ١٧٢ .

(٧٤) ميانوفس : احباس المساجد بمدينة غرناطة ، ص ٢٧ .

(٧٥) ابن الخطيب : نوح الطيب — ج ٩ ، ص ٣٠٨ — ٣١١ .

النسرى : ازهار الرياض — ج ١ ، ص ٥٥ .

(٧٦) الطوخى : الحياة الثقافية فى غرناطة ، ص ٣٠٢ .

(رسالة دكتوراه لم تطبع بعد) .

(توفي ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣ م) يدرس النصوص والآداب ، والبياري
(٧٥٣ هـ - ١٣٥٢ م) يدرس الفقه ، والحقيقة أن مدرسة غرناطة
قد ضمت بين جدرانها كبار الشيوخ على عهدهما ، ولم يكن من
المسجل القيام بالتدريس فيها فهي أنه مواضع التدريس بالحضرة
كما يقول ابن الخطيب فالسلطان شخصيا يتدخل في ذلك ، ولا بد
من توصية أحد كبار العلماء مثلما حدث مع منصور الزواوي الذي
أوصى به شيخ النحلة الخولاني (٧٧) ، وأقدم فيما يلي ترجمة لبعض
أساتذة المدرسة ، الذين أمكنني التأكد من قيامهم بالتدريس فيها :

ابراهيم بن علي بن محمد الربيعي التونسي
(توفي في عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ - ١٤٧٠ م)

ذكره جورج مقدسي من بين مدرسي المدرسة النصرية ، ضمن
مقاله عن المدرسة في أسبانيا .
ويقول عنه السخاوي انه من تلاميذ القاضي عبد القادر المالكي ،
درس الفقه وأصوله ، وأذن له في تدريسهما (٧٨) .

ابراهيم بن محمد بن فتوح العقيلي الأندلسي
توفي : ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م

هناك اختلاف كبير في تاريخ وفاته حيث ورد في نيل الابتهاج وفي
الضوء اللامع أنه عام ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م ، وفي درة الحجال ، أنه
عام ٨٦٩ هـ - ١٤٦٤ م .

(٧٧) ابن الخطيب : الاطاحة - ج ٣ ، ص ٢٢٨ .

(78) Makdese, George : The Madrasa in Spain, Some
Remarks, p. 154.

Revue de L'Occident Musulman et de la Mediterranée
Numeros 15-16 2o. Semestre 1973.

تاريخ التميم

ويقال عنه ، انه كان مفتي غرناطة المالكي ، وكان اقراءه بالمدرسة ،
وهو أنه مواضع التدريس بغرناطة (٧٩) .

أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن هاشم الأنصاري

توفي : ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م

يقول عنه الدكتور شبانة ، انه من أشهر أساتذة المدرسة (٨٠) ، ثم
يعود ليؤكد من جديد ، أنه أوقف جزءا من حياته على خدمة مدرسة غرناطة ،
حيث درس لتلاميذها (٨١) ، وفي موضع ثالث يقول : أنه قضى شطرا
هاما من حياته بمدرسة غرناطة (٨٢) ، لكن لم يتبين لى من أى مصدر
آخر أن ابن خاتمة عمل بالمدرسة ، وإنما عمل كثيرا في مسجد المرية .

وأورد ابن الخطيب ترجمة طويلة جسدا من ٣٠ صفحة كاملة ،
عن صديقه ابن خاتمة ، لم يشير فيها الى أنه عمل بالمدرسة ، وإنما
أشار الى أن مجيئه الى غرناطة ، كان لمجرد الزيارة في بعض
الأيام (٨٣) . كما أن ابن الأحمر لم يشير الى ذلك اطلاقا (٨٤) .

وفي درة الحجال لم يشير اطلاقا الا أنه عمل بمدرسة غرناطة (٨٥) .

هذا ولقد كتبت السيدة سوليداد خيلبرت ، مقدمة قيمة لتحقيقها
لديوان ابن خاتمة ، أشارت فيها الى كافة المصادر التي تناولت حياة هذا
المعلم الالري : تاريخ ميلاده ، وفاته : أعماله الأدبية ، علاقته بابن

(٧٩) ابن القاضي : درة الحجال ، ص ١٠٥ .

السخاوي : الضوء اللامع - ج ١ ، ص ٣٠ .

التنكي : نيل الابتهاج ، ص ٥٤ .

(٨٠) كمال شبانة : يوسف الأول ، ص ٩٩ .

(٨١) شبانة : نفس المصدر ، ص ١٥٧ .

(٨٢) انظر تعليقه على ترجمة المؤلف ضمن كتاب « أوصاف الناس »

لابن الخطيب ، ص ٦٩ .

(٨٣) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٥٩ .

(٨٤) ابن الأحمر : نشر الجمان ، ص ١٧٥ .

(٨٥) ابن القاضي : درة الحجال - ج ١ ، ص ٤٠ .

الخطيب ، ترجمة لنصوص الرسائل المتبادلة بينهما ، ولم تشر في أى موضع من دراستها الى أنه قد عمل مدرسا بالمدرسة الغرناطية ، وأن أهم ما قبله من مناصب هو الاقراء بجامعة المرية ، وأنه ربما قد شغل منصب كاتب لفترة قصيرة جدا (٨٦) .

الفقيه أبو محمد بن عبد الله بن أبى القاسم بن جزى

من اهل غرناطة

توفى : ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م

أديب ، حافظ ، قام على فن العربية ، مشارك في فنون لسانية تسواه ، طرف في الادراك وهو اليوم بمدرسة الحضرة ، يعرب غيغرب ، يباهى به على المشرق والمغرب (٨٧) .

فرج بن قاسم بن لب التعلبي

من اهل غرناطة

توفى : ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م

حامل لواء التحصيل ، عليه مدار الشورى ، واليه مرجع الفتوى ببلده لغزارة حفظه ، وقيامه على الفقه ، واخطلاعه بالمسائل ، الى المعرفة بالعربية واللغة ، والمران في التوفيق ، والقيام على القراءات ، والتبريز في التفسير ، والمشاركة في الأصول والفرائض والأدب ، جيد الحفظ ، قدم ببلده للتدريس على وقور المسجد ، ثم استقل بعد ، وولى الخطابة بالمسجد الأعظم ، وأقرأ بالمدرسة النصرية في ٧٥٤ هـ -

(86) Gibert, Soledad : El Diwan de Ibn Jatima de Almeria. el prologo (Barcelona 1975) .

(٨٧) ابن الخطيب : الكنية الكامنة ، ص ٩٦ .

ابن الخطيب : الاحاطة - ج ٣ ، ص ٣٩٢ .

البغدادي : هدية العارفين - ج ٢ ، ص ١٦٠ .

١٣٥٣ م ، معظمًا عند الخاصة والعامة (٨٨) .

محمد بن إبراهيم بن محمد السيارى

وبصرف بالبيسانى

يكنى أبا عبد الله

من أهل غرناطة

توفي ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

أقرأ الفقه ودرسه عمره ، وانتصب للفتيا ، وتكلم للجمهور .
وكان مرجعا في المشكلات ، ومستشارا في الأحكام ، يقوم على الفقه
أحسن قيام ، عاكفا على تدريسه مكبا على تبينه ، سهل الألفاظ ، حسن
التعليم ، يشارك في العربية والفرائض والأصول .

قرأ على الأستاذ الكبير أبى جعفر بن الزبير ، وعلى الخطيب
المحدث أبى عبد الله بن رشيد ، وأخذ عن أبى الوليد الحضرمى .

وتوفى ، رحمه الله ، مدرسا بالمدرسة النصرية ، وخطيبا بمسجد
النصورة (٨٩) .

(٨٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

أوصاف الناس في الفوائض والصلوات ، ص ٣٢ .

التبكي : قيل الابتهاج ، ص ٢١٩ .

ابن فرحون : الديباج - ج ٢ ، ص ١٣٩ .

السيوطى : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

ابن الأحمر : نثر الجمان ، ص ١٨٦ - ١٩٦ .

ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

ابن القاضى : درة الحجال ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٤ .

المفسرى : النفع ، ج ٨ ، ص ٢٦ .

شبانة : يوسف الأول ، ص ١٦٤ .

(٨٩) ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

ابن القاضى : درة الحجال ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل البسطي

أشار لويس سيكو دي لوشينا في مقالة له عن شهادة طبية في صالح أحد أطباء غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر بأن هذا الرجل كان مدرسا بالمدرسة الغرناطية قائلا بالحرف ما يلي :

« الفقيه المشهور ، المدرس بالمدرسة الغرناطية » ، لكن المقرئ يشير إلى الرجل بلقب « المدرس » فقط دون تحديد ما إذا كان مدرسا بالنصرية أو المسجد الجامع . لكن إذا كان ذلك حقيقة وأن البسطي كان مدرسا بالمدرسة النصرية فهو ، إذن ، آخر مدرسي هذه المدرسة قبل وقوعها في أيدي الملكين الكاثوليكيين لأن هذا الرجل كان شاعرا البلاط المفضل ، لدى أبي عبد الله ، آخر ملوك غرناطة (٩٠) .

محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر

ابن مرزوق

من أهل تلمسان

توفي : ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م

قدم الأندلس ، موفدا من أبي الحسن المريني ، واجتذبه سلطانها وخمسه الله ، وبقي في غرناطة ، قلده السلطان الخطبة في مسجده هام ٧٥٣ هـ - ١٣٥٢ م ، وأقعدته للإفراء بالمدرسة في حضرته ، ثم انصرف بعد ذلك من الأندلس في أواخر عام ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣ م (٩١) .

(٩٠) المقرئ : ازهار الرياض ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

Seco de Lucena : El título profesional de un médico del S. XV, p 25 .

(٩١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

التبكي : نيل الابتهاج ، ص ٢٦٨ .

المقرئ : النسخ ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

ابن تينفذ : شرف الطالب في اسمي الطالب ، ص ٨٦ .

محمد بن علي بن أحمد الخولاني

توفي : ٧٥٤ هـ / ١٢٥٣ م

كان أستاذ الجماعة ، عاكفا على العلم ، ملازما للتدريس ،
امام الأئمة غير مدافع ، مبرزاً ، امام أعلام البصريين من النحاة ، منتشر
الذكر ، بعيد الصيت ، عظيم الشهرة ، مستبحر اللفظ ، يتفجر بالعربية
تفجر البحر ، لا يشكل عليه معلوم شكل ، ولا يعوزه توجيه ، جدد
بالأندلس ما كان قد درس من لسان العرب ، من لدن وفاة أبي علي
الثلوبين (٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م) ، وكانت له مشاركة في غير صناعة
العربية من قراءات وفقه ، وعروض ، وتفسير ، وتقدم خطيباً بالمسجد
الأعظم ، وقعد للتدريس بالمدرسة النصرية ، وقل في الأندلس من
لم يأخذ عنه من الطلبة ، وخرج ودرّب وأجاز ، لا يأخذ على ذلك أجراً ،
وخصوصاً فيما دون البداية ، إلا الجراية المعروفة (١٢) .

محمد بن محمد بن محارب الصيرفي

المتوفى : ٧٥٠ هـ / ١٢٤٩ م

كان اماماً في الفرائض والحساب ، قائماً على العربية ، مشاركاً
في الفقه والأصول وكثير من العلوم العقلية ، قعد بمالقة للإقراء .

دخل غرناطة مرات متعلماً وطالب حج ، ودعى للإقراء بمدرستها
النصرية عام ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطاني ، واعتذر
بما قبل فيه عذره .

توفي في مالقة في ربيع الآخر من عام ٧٥٠ / ١٣٤٩ م ، بعد
أن تصدق بمال كثير ، وعهد بريح مجيد لطلبة العلم وخيس عليهم

(١٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

المصري : نفع الطيب ، ج ٧ ، ص ٢٧٥ - ٢٨٠ (الخامس ص ٢٨٣)

طبعة احسان عباس) .

البغدادي : هدية المسافرين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

كتبه (٩٣) .

منصور بن علي بن عبد الله الزواوي

له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية ، ونظر في الأصول والمنطق والكلام . ودعوى في الحساب والهندسة والآلات .

تقدم الأندلس في عام ٨٧٥٣ / ١٣٥٢ م ، غلقى رحبا ، وعرف قدومه ، فغندم مقرئا بالمدرسة تحت جراية نبية وخلق للناس متكلما على الفروع الفقهية والتفسير ، وأخرج من الأندلس في عام ٨٧٦٥ / ١٣٦٣ م (٩٤) .

يحيى بن أحمد بن هذيل النجيبى

توفى : ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس ، وخاتمة العلماء بها من طب وهندسة وهيئة وحساب وأصول وأدب ، الى امتاع الحاضرة وحسن المجالسة وعموم الفائدة .

خدم أخيرا باب السلطان بصناعة الطب ، وقعد بالمدرسة بقرنطة يقرئ الأصول والفرائض والطب (٩٥) .

-
- (٩٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
 التنبكى : نيل الابتهاج ، ص ٢٤٩ .
 (٩٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .
 التنبكى : نيل الابتهاج ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
 (٩٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ .

(ب) مدارس غرناطية أخرى في النصرية :

يتقدم لنا ابن الخطيب في كتابه الإحاطة بملاحظة هامة ، وذلك عند حديثه عن ما أنجزه سبطانه محمد الخامس « الغنى بالله » ، وذلك بعد عودته من المنفى في المغرب ، في عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م ، مفادها أن السلطان قد أعطاء تمريها ببناء مدرسة وزاوية وتربة فيقول :

... إلى موافقته أيأى ، وتنسيغته ما اخترعته بأذنه ، وأجريت به بطيب نفسه من اتخاذ المدرسة والزاوية وتعين التربة ، مغيرا في ذلك كله على مقاصد الملوك (٩٦) .

وفي نص آخر ورد بالإحاطة أيضا ، نرى ابن الخطيب ، بعد محنته ، ينوئ أن يغير من أسلوب حياته ، وأن يتتعد عن السياسة ، وأن يعكف على حياة أخرى فيقول : ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه العظة (٩٧) .

ولكن : هل وصل الأمر بابن الخطيب إلى تحقيق أحد المشروعين ؟ اننى أعتقد أن هذه المشروعات لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، حيث لم يشر إلى ذلك أى كتاب تاريخى أو معمارى عن غرناطة ، هذا ولقد قام الدكتور مختار العبادى بدراسة عصر محمد الغنى بالله ، وتردد اسم المدرسة اليوسفية في بحثه ثلاث مرات ولم يشر إلى أية مدرسة أخرى تم انشاؤها على عهد هذا السلطان (٩٨) ، كما أن الدكتور أحمد الطوخى قد قدم رسالة دكتوراة عن الحياة الثقافية في غرناطة ولم يشر إطلاقا إلى أية مدرسة أخرى (٩٩) غير المذكورة .

(٩٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٩٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(98) Al Abbadi, M., El Reino de Granada, pp. 170, 171. Y 203.

(٩٩) الطوخى : الحياة الثقافية بمملكة غرناطة (رسالة دكتوراة بجامعة الاسكندرية) .

وكذلك كتاب المستشرق الأسباني سيكو دي لوثينا « غرناطة في
القرن ١٥ » (١٠٠) ، لم يقدم لنا أية معلومات في هذا المجال ، مما يؤكد
أن هذه المدارس لم تصل الى حيز التنفيذ .

كما وجدت في أسبانيا بعد انتهاء حروب الاسترداد ، بعض
المدارس الخاصة بالموريسكيين والمذجنين ، وهناك وثائق مؤكدة عن
وجود هذه المدارس في سرقسطة وغرناطة ولكن لن نتناولها هنا
بالدراسة ، وسنقدم فقط الوثيقة الدالة على وجود مدرسة سرقسطة
وبقائها حتى سقوط غرناطة تقريبا .

الرحلات

الرحلة سمة من أهم سمات التعليم الاسلامي في العصور
الوسطى ، وتتلخص في قيام الطلاب بالانتقال من مكان الى آخر بحثا
عن مزيد من العلوم ، وعن أفضل المعلمين ، المنتشرين في كافة بلاد
العالم الاسلامي .

وتعتبر الرحلة من أعلى مراحل التعليم ، كما أنها لعبت دورا
هاما جدا في توحيد ثقافة العالم الاسلامي وتنشيطها ، حتى وصل
بعض المؤرخين الى وصف هذا التعليم بالحركة ، يقول الدكتور
ميكل دي ابالسا « الحركة هي أهم مميزات التعليم الاسلامي ، ويتجلى
هذا في الرحلات ، من أجل اقتناء العلم » (١٠١) .

ولقد كان الحج ، وهو فرض ديني أساسي ، عاملا أساسيا
في تشجيع الرحلات من كافة أنحاء العالم الاسلامي في اتجاه مكة
والحجاز ، ومساعدة على الاجتماع واللقاء بين المسلمين من كافة أنحاء
المعمورة .

(100) Seco de Lucena. L. : La Granada Nazari del Siglo XV.
(١٠١) ابالسا : التعليم العالي في القرون الوسطى الاسلامية
ومشارفته بالتعليم الحاضر — محاضرة القاها في ملتقى الامام الموزري بتونس .

ولكن لم يقتصر الأمر فقط على التوجه في رفقاء بتواجبات الدينية ، إذ أنه في مرحلة لاحقة ، أصبح من مرض العلم ، عذرا في حد ذاتها . ويرى الدكتور محمود على مكي : أن الحماس للحصول على علوم جديدة كان واحدا من أهم دوافع التأثير في القيام بهذه الرحلات ، حقيقة كان هناك رحالة يهدفون إلى أداء الفرض الديني — كما بينا — أو الحصول على منافع مادية — كما سنبين — لكن الاهتمام الأكبر لهؤلاء كان بغرض ضم التعليم المشرقي (١٠٢) .

وهناك نوعان من الرحلات : رحلات الأساتذة ورحلات الطلاب ، وتختلف دوافع النوع الأول عن الثاني ، فالأساتذة يرحلون من مكان إلى مكان طلبا للشهرة أو الجاه ، أو فرارا من الاضطهاد ، أو بحثا عن مكان أكثر ملاءمة لأفكارهم وآرائهم ، وهذه الرحلات قد أخذت أكثر من اتجاه حتى بداية الأمر كان انتقال المعلمين يتم من وسط العالم الإسلامي إلى أطرافه ، وفي مرحلة لاحقة حين نهضت هذه الأمصار وظهر بها كثير من العلماء أصبحت اتجاهات الرحلات متعددة فمن الأطراف الشمالية إلى الوسط وإلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشرق وإلى الشمال ، ومن الشرق إلى المغرب ومن العرب إلى الشرق وبالعكس .

أما رحلات الدارسين فهي أيضا ارتبطت بحركة رحلات المعلمين وتأثرت بها ، لأن العامل الأساسي المحرك لها كان في شهرة معلم أو شهرة مدينة ما .

أما بالنسبة لطلاب الأندلس ، فإن ظروف الأندلس الجغرافية قد حكمت اتجاهها نحو المشرق ، مروراً بالشمال الأفريقي وتونس ومصر وبلاد الشام ثم الاتجاه إلى العراق وبلاد الحجاز ، أو ركوب البحر إلى مصر ومنها إلى بلاد الشام ، عبر سيناء ، أو إلى بلاد الحجاز

نهر البحر الأحمر دون أن يعنى ذلك اقتصر هذه الرحلات على هذه الأماكن وإنما تجاوزتها إلى المناطق الشرقية من العالم الاسلامى .

وتنقسم الرحلات إلى قسمين رئيسين : الرحلات الداخلية ، والرحلات الخارجية ، والداخلية منها تنقسم فى نفسها ، إلى رحلات داخل الاقليم ذاته ، أو داخل المصر بأكمله ، والرحلات الخارجية أيضا تتنوع ، فهناك الرحلة إلى بلد معين أو إلى بلاد كثيرة ، وهناك الرحلة إلى أقطار غربية أو إلى أقطار بعيدة جدا .

والرحلات الداخلية تنتم فى داخل الاقليم الواحد ، أو المصر الواحد ، وفى هذه الحالة يكون الاتجاه دائما من موطن الطالب إلى المدن الرئيسية ، وخاصة عاصمة الاقليم ، التى كانت تتمتع دائما بكناز المعلمين ، كما تيسر فيها أحوال المعيشة ، ولقد وجدت فى الاندلس عواصم أقاليم ذات شهرة عظيمة جدا مثل أشبيلية ، طليطلة ، سرقسطة ، مرسية ، غرناطة ، جيان ، بطليوس ، بلنسية .

ومن عاصمة اقليم إلى عاصمة اقليم آخر ، ومن هذه العواصم كلها إلى حاضرة مصر ، وفى الاندلس ، كانت قرطبة على عهد الخلافة ، محط الرحال ومطمح كافة الطلبة الأندلسيين . أما فى عصر ملوك الطوائف ، فإن كل عاصمة من عواصم الملوك تمتعت بمميزات لم تنعم بها غيرها حسب قدرة كل ملك ، على أن يجذب لعاصمته من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء ، فقد احتلت أشبيلية مكان الصدارة على عهد الموحدين ، ثم غرناطة على عهد أسرة بنى نصر .

أما الرحلات الخارجية فكانت تتجه دائما إلى عواصم الأمصار الاسلامية المشهورة مثل القيروان فى تونس والاسكندرية والقاهرة بمصر ، وبغداد والكوفة والبصرة بالعراق ، ومكة والمدينة بالحجاز ، ولقد اتجه الأندلسيون دائما إلى هذه المدن للتعلم على أساتذتها ولجلب الكتب منها .

ولكن في فترة لاحقة ، حينما أصبحت قرطبة إلى مستوى يضاهي المدن الشرقية ، فأنما نجد أن من الأندلسيين من يكفي بنا يتعلمه في هذه المدينة — مثلا : يوسف بن عبد الله بن متمد بن عبد البر النمسري ، وهو من أكبر علماء الأندلس خلال القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، لم يخرج من الأندلس ، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ، ومن الغرباء القادمين إليها (١٠٣) .

ولقد تحولت قرطبة إلى مركز جذب ، حيث جاءها الطلاب والدارسون من كافة أنحاء العالم الاسلامي ، فيقال عن عبد الرحمن ابن محمد بن وليد الأموي : أن سكناه بقرب دور بني هاشم ، ويصل إلى المسجد الحيني (١٠٤) ، مما يدل على اتجاه بعض الرحلات من أقصى المشرق الاسلامي إلى الأندلس .

وتتميز الرحلات سواء الداخلية أو الخارجية بطول المدة وكثرة الشيوخ ، الذين يمكن مقابلتهم خلالها ، فنجد أن :

ابراهيم بن هرون بن خلف ، المتوفى ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ، قد أقام بقرطبة في طلب العلم أربعين سنة (١٠٥) .

وبقي بن مخلد ، لقي وسمع من مائتين وأربعة وثمانين رجلا ، وابن وضاح من مائة وخمسة وسبعين ، وابن غطين من أكثر من مائتين ، أما ابن حبيب فقد جال في الأرض ، وقطع طولها والعرض ، وجال في أكنافها ، وانتهى إلى أطرافها (١٠٦) .

ولقد كانت الرحلات الداخلية ، تتم عادة ، قبل الرحلات الخارجية حيث يقوم الطالب بالدراسة على أهل بلده ، وينتقل منها إلى المدن

(١٠٣) الحميدى : الجذوة ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(١٠٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٣٨ .

(١٠٥) ابن الفرضي : علماء الأندلس — ج ١ .

(١٠٦) النمسري : التتبع ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

القريبة أو الى عواصم الاقليم ثم الى الحاضرة ، وبعد ذلك يسعى الى السفر للبلاد البعيدة •

ولقد تكفلت الأوقاف ، وأعمال الخير في كافة البلاد الاسلامية باعانة الطلاب ورعايتهم ، وتمكينهم من التحصيل الدراسي ، وفي الأندلس ، كانت أوقاف المساجد كثيرة جدا ، ومما لا شك فيه أن جزءا منها كان يوجه لخدمة الغرباء الذين هم في غالبيتهم من الدارسين •

ولم يكن الطالب يرحل الى مدينة ما بغرض التعلم على معلم واحد فقط فيها ، مهما علت شهرته ، ولكنه كان يسعى لاغتياز هذه الفرصة ، للسماع من أكبر عدد ممكن من الشيوخ في هذه المدينة ، كما أن الطلبة من كلقة المدن قد تسعى الى مدينة ما بسبب وجود معلم ما بها •

وفي رسالتي للدكتوراه قمت بتحليل كتابين هما المعجم لابن الأبار حيث استخرجت طلبة كل مدينة ممن رحلوا الى مدينة مرسية للتعلم على الشيخ أبي علي الصدفى وكتاب فهرسة ابن خير حيث استخرجت الأساتذة الذين رحل اليهم ابن خير في مدنهم لتلقى العلم عنهم •

وقد قصدت من تحليل الكتابين ، أن أبين حركة الطالب ، أو الطالب الى أستاذ معين في مدينة ما ، أو الى أكثر من أستاذ في أكثر من مدينة ، ولقد رأيت حذف هذين المحققين حتى لا أزيد صفحات الكتاب — ويمكن للمتخصصين العودة الى المصدرين — أو رؤية أصل الرسالة •

الاجازات العلمية :

عند انتهاء الطالب من دراسة كتاب ما مع أستاذ معين ، فإن الأستاذ كان يقوم بمنحه اجازة ، تشهد للمطالب فعلا بدراسة الكتاب .

والاجازة نوعان ، شفوية وتحريرية ، والأولى أقدم عيسا من الثانية . وأول من منحها هو أبو هريرة الى بشير بن مهتك ، حسب ما قال : كتبت عن أبي هريرة كتابا ، فلما أردت أن أفارقه قلت : يا أبا هريرة : انى كتبت عنك كتابا ، فأرويه عنك ، قال : نعم اروه عنى (١٠٧) .

أما الاجازة التحريرية ، ففيها قد يبين الشيخ بالتحديد ما يجيزه للطالب أو أن يجيزه باطلاق ، وهنا قد يحدد الأستاذ تاريخ مولده ومكانه وأسماء شيوخه ، وما يجب أن يروى عنه بصفة عامة .

وهناك أيضا اجازات سماع جماعية ، تعطى لمجموعة من الدارسين عند سماعهم كتابا معينا . ويقبول الدكتور صلاح المنجد عن هذا النوع من الاجازات « بأنه فى الحقيقة ، صورة من الصور التى عرفها العلماء القدامى عن الشهادات العلمية التى تمنح اليوم ، والفرق بين السماعات والشهادات أن الأولى شهادات فردية تثبت عند سماع كتاب واحد وأن الثانية تمنح لمجموعة من الدارسين » (١٠٨) .

والاجازة فى أصلها ضمان بعلم الطالب ، وقدرته على نقل هذا العلم ، ولقد بدأت مع علم الحديث ، وهو العلم الذى تشدد فيه المسلمون كثيرا بسبب ما ناله من تحريف ودس وتزييف ، ولذلك وضعت له من القواعد الشديدة أكثر من غيره من العلوم للتأكد من صحة الحديث ، ومن هنا كانت الاجازة للدلالة على صحة نقل الناقل من المنقول عنه ، ثم انتقلت بعد ذلك الى باقى العلوم الأخرى .

(١٠٧) عبد الله فياض : الاجازات العلمية عند المسلمين ، ص ٢١ .

(١٠٨) المنجد : اجازات السماع فى المخطوطات ، ص ٢٣٢ .

ولقد وافق مالك بن أنس على منح هذه الاجازات ، دون أن يتركها للهوى ، أو غيره من الميول الشخصية ، وإنما انطلاقاً من اعتبارات محددة ، أهمها :

١ - أن يكون المدرس صحيح العقيدة ، بين العلم .

٢ - أن تكون النسخة المقرؤة قد روجت بدقة شديدة على نسخة الأستاذ حتى تصبح صورة منها .

٣ - أن يكون الطالب عاكفا على طلب العلم (١٠٩) .

ولكن مع تطور الأيام غقدت الاجازة هذا المضمون الهام ، أقصد بذلك كونها ضماناً لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه ، وأصبحت مجرد شهادة باللقاء أو السماع ، دون أن تغنى إطلاقاً مدى تعمق حامل الشهادة أو معرفته ، بما حدد له في الشهادة ، حتى لقد ظهرت بعض الاجازات العامة ، التي تبيح « لمن أحب الرواية عنى من جميع المسلمين من أهل السنة ، ممن هو موجود في هذه السنة » (١١٠) ، فإن محمد بن عبد الرحمن ، المعروف بابن الوزان ، صاحب الصلاة بجامع قرطبة ، قد سأله أحد أصحابه : أن يجيز له جميع ما يحمله بأي وجه حمل ذلك ، وما ألفه أو وضعه أو أجاب فيه في القديم والحديث ، ولجميع أصحابه أهل المجلس وغيرهم من طلاب العلم ، ولكل من أحب أن يحمل عنه من المسلمين ممن ضمه وإياه حياة في ذلك العلم ، فتبسم الشيخ واستغرب هذا السؤال ، ثم قال له منشرح الصدر ، طلق الوجه ، ظاهر التبسم ، نعم ، أنا قد أجزت لك ذلك كله ، ولجميع من سألت ، ممن أحب الحمل عنى من جميع المسلمين حيث كانوا (١١١) .

(109) Ribera, J. : Ho. de la ensenanza... p. 89.

(١١٠) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٦ .

ابن خير : الفهرسة ، ص ٤٥٥ .

(١١١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ولقد أصبحت الإجازة شيئاً شرفياً ، غالباً يدعى لكي يحصل
لأبنائه على إجازات من كبار الشيوخ الذين يلتقى بهم في بلده
أو في خلال أسفاره ، كما سنتبين من المخطوط المنصور كملق لهذا
الفصل ، والسلطان لا يمانع في الحصول على الإجازة من كبار
العلماء ، مثلما حدث مع سلطان مصر : المظفر غازي ، الذي أرسل
له ابن عربي المرسى إجازته (١١٢) .

وهي أيضاً وسيلة للمهاداة والتقدير ، والاعتراف بعلم
الآخرين ، ومن هنا منح كثير من العلماء والفقهاء إجازاتهم
لزملائهم وأقرانهم من كبار العلماء والفقهاء فنجده مثلاً أن
ابن الخطيب حينما يلتقى بابن صفوان يطلب منه إجازته : فكتبها له .
ونجد نص الإجازة في الإحاطة (١١٣) .

ويكتب ابن الأحمر الى الشيخ أبي القاسم عبد الله بن يوسف
يسأله الإجازة فيمنحه إياها (١١٤) .

كذلك طلبت الإجازة بالمراسلة من كبار العلماء حيث يقوم
راغب الحصول على الإجازة بالكتابة إليهم ، يسألونهم منحهم إياها .
يقول ابن الفرضي عند حديثه عن يوسف بن يحيى يوسف الأزدي :
المتوفى ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م ، بأن أحد أصحابه قد رآه ، وقد جاءته
كتب كثيرة نحو المائة كتاب من جماعة من أهل مصر بعضهم يسأله
الإجازة ، وبعضهم يسأله في كتاب الرجوع إليهم (١١٥) .

وأكثر الأمور غرابة في مجال الإجازة هو أن يقوم بعض الفقهاء
أو العلماء ، أثناء قيامهم بالرحلة بالحصول على إجازات لأصدقائهم

(١١٢) ابن عربي : إجازة ابن عربي للملك المظفر غازي ، الأندلس ،
العدد ٢٠ (١٩٥٥) ، ص ١٠٧ - ١٢٨ .
(١١٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(١١٤) ابن الأحمر : مستودع العلامة ، ص ٥٣ ، ٥٤ .
(١١٥) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ومعارفهم وعائلاتهم من الأساتذة المشرقين ، هذا وتحتوى مكتبة الأوسكوريال على أغرب نموذج في هذا المجال ، غفى المخطوطة رقم ١٩١٩ مكرر ، حزمة أوراق تحتوى على اجازات أساتذة من المشرق ، لمجموعة من الطلبة والفقهاء الأندلسيين والمغاربية ، والجزء الأول منها قام بكتابته محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن إدريس بن رشيد الفهرى فى ١٤ رجب عام ٦٨٤ هـ / أكتوبر ١٢٨٥ م ، بفسطاط مصر ، ويتضمن الاجازة لحوالى مائة طالب وفقهه علاوة على عائلة كاتب الاجازات ، وأولهم أبو عبد الله بن المهيمن ، وآخرهم رحمة ، أخت ابن رشيد .

ويتجلى من قراءة المخطوط أن طالب الاجازة كان ينتقل من مكان الى مكان لكي يحصل على اجازات المعلمين ، فنراه فى ١٤ رجب فى فسطاط القاهرة ، وفى ١٦ رجب بالقاهرة المزنية ، ولكن بعد شهر تقريبا يحصل على الاجازات ، من مشايخ القدس ، وذلك فى ٢٥ شعبان من نفس العام .

ويتضمن الجزء الثانى من المخطوط أسماء بعض الطلبة المشرقين ، والثالث أمضه الشيخ أبو عبد الله بن رشيد ، وهو يتناول طلبة من الأندلس وشمال أفريقيا .

وفى المخطوط يحدد بعض العلماء تاريخ ومكان ميلادهم والعلوم التى يجيزونها ، وبعضهم يحدد الاسم الأول والآخر من أسماء القائمة التى يجيزها .

وتتجلى فى المخطوط أيضا أسماء بعض السيدات العالمات اللاتى يمنحن اجازتهن لنفس المجموعة .

وكافة الاجازات تم الحصول عليها على مدار عام ٦٨٤ و ٦٨٥ هـ / ١٢٨٥ و ١٢٨٦ م .

تاريخ التعليم

ومن الأسماء البارزة التي يحتويها هذا المخطوط نجد
ابن عبد الملك صاحب كتاب الذيل والتكملة ، وأبا حيان الأندلسي ،
وغيرهما .

وللمخطوط أهمية كبرى حيث يمكنه تقديم المساعدة للدراسين
في تقصى مسار بعض العلماء الأندلسيين والمغاربية إلى المشرق أو أنواع
دراساتهم ، وسأكتفي هنا بنشر صورة زنكوغرافية للصفحة الأولى ،
أملا العودة إن شاء الله إلى تحقيقه ودراسته ونشره إن أمكن
ذلك (١١٦) .

(١١٦) تمت بنشر قراءة للمخطوط ضمن نص رسالتي الأولى سواء
باللغتين العربية أو الأسبانية وقد رايت أن أحذفه هنا خوفا من انتقال
الكتاب أكثر مما يجب . ويمكن للمتخصصين رؤيته في نص الرسالة الودعة
بالمعهد المصري بهدريد والمعهد الأسباني ومكتبة جامعة غرناطة ومدير
مكتبة كلية التربية بالقاهرة .

الباب الثالث
التعليم الخاص



يقتصد بالتعليم الخاص ، ذلك النوع من التعليم الذى يتلقاه أبناء الأمراء والخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء ، وبصفة عامة قيام الآباء باستئجار المعلمين لى يتولوا تعليم أبنائهم . ويقتصد بالتعليم الخاص أيضا ذلك النوع من التعليم الذى ليس تعليمًا عامًا مما يقدم لأبناء الشعب ، وإن كان لا يختلف عنه كثيرًا من ناحية المحتوى ، ولكن قد يتميز فى بعض جوانبه مثل من البداية ، أو مكان تلقى العلم ، أو فى بعض مناحى المنهج بغرض الإعداد لمستقبل معين ، ولقد احتفظت لنا كتب التراجم الأندلسية بمجموعة وافية من أسماء الرجال الذين سعوا الى تأديب أولاد حكام الأندلس وكبار رجالهم . وعرف هؤلاء المعلمون فى أغلب الأحيان باسم المؤدبين ، وإن كان ذلك لا يعنى بالضرورة قصور هذا اللقب عليهم ، لأننا نجد أن اللقب « مؤدب » انما ينسحب أيضا على كثير من المعلمين العاديين ، بل إن اللقبين « مؤدب » و « معلم » ، قد تبدلا المواضع فى بعض الأحيان .

وكلمة الأدب قد تكون خلقت أو رواية والقائم بها يسمى المؤدب ، والمعلم هو أصل كل خير ، ويرى الجاحظ انما اشتق اسم المعلم من العلم ، واسم المؤدب من الأدب ، وأن العلم هو الأصل والأدب هو الفرع (١) .

ولقد اعتاد الباحثون إطلاق لقب المؤدب على من يتولى تعليم النواص ، واسم المعلم على من يقوم بالتعليم فى الكتاب بصفة عامة . لكن دراسة كتب التراجم الأندلسية توحى بأن كلمة مؤدب فى الأندلس قد اتسعت لتشمل أناسا من غير الذين تولوا التدريس للخاصة ، بل أنها وصلت الى حد إطلاقها على معلم كتاب ، فقيل عن أحمد

(١) النجار ، ابراهيم : الفكر التربوى عند العرب ، ص ١٢٧ .

ابن شاب ابن عيسى المتوفى ٨٣١٧ / ٩٣٩م ، من أهل قرطبة ، « كان مؤدب كتاب » (٦) .

محمد بن أحمد الشاذلي المتوفى ٨٣٥٥ / ٩١٧م المؤدب ، سكن قرطبة وكان معتنيا بالعلم (٦) .

عبد الله بن نصر الصوفي المتوفى ٨٣١٥ / ٩٢٧م كان مؤدبا في مسجد أبي علاقة (٤) .

عيسى بن سعيد بن سعدان الكلبى المتوفى ٨٣٩٠ / ٩٩٩م من أهل قرطبة قرأ القرآن بمصر ، وانصرف الى الأندلس ، فلزم التأديب ، وكان يقرأ عليه القرآن (٥) .

محمد بن خليفة بن عبد الجبار المتوفى ٨٣٩٢ / ١٠٠١م ، المؤدب من أهل قرطبة ، رحل الى مكة ثم انصرف الى الأندلس فلزم التأديب (٦) .

محمد بن أحمد بن محمد بن طالب بن أيمن بن مدرك المتوفى ٨٣٩٢ / ٩٧٢م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا خيرا ، وكان مؤدبا سمع منه الناس كثيرا (٦) .

محمد بن عبد الله بن محمد البهراني المتوفى ٨٣٨٥ / ٩٩٥م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، وكان معلما مجاهدا (٨) .

(٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٣) ابن الفرضى : نفس المصدر — ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٤) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(٥) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٦) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

الضبي : البقية ، ص ٤١ — ٤٢ .

(٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

عبد الميز بن مهلب بن معلل ، المؤدب ، من أهل قرطبة (٩) .

ومن ناحية أخرى فاننا نجد أن كلمة « معلم » قد شاعت كثيرا في الألقاب الأندلسية ، وأنها انسحبت على كثير من طبقات المعلمين حتى أننا نطلق أحيانا على مؤدبي الأمراء . يقول ابن الخطيب عند حديثه عن الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل ابن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، والذي حكم من ٧٦٠ إلى ٨٧٦ / ١٣٥٩ إلى ١٣٦٠ م ، أنه :

« استدعى له ولأخيه ، المعلم الذي كان السبب في إغاة أرماتهما ، واعداد حياتهما ، الشيخ السفلة ، محمد البطروجي البائس » (١٠) .
ويقول ابن حيان ، أن الأمير الحكم قد عهد بعقد استثمار الفقيه أحمد بن يوسف « معلم الأمير أبي الوليد هشام » (١١) .

(٩) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(١١) ابن حيان : المتنبس ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ،

الفصل السابع

مظاهر الاهتمام بتعليم الخاصة

أولى الأندلسيون تربية أولادهم عناية كبيرة ، وإذا كان ذلك الاهتمام قد تجلى لدى كافة الأندلسيين (١) ، فمن الأولى أن يكون لخاصتهم ولأهل الوجاهة منهم قصب السبق في هذا المجال ، كما أن كتب التراجم والتاريخ الأندلسيين قد اهتموا بتسجيل تراجم المعلمين والمؤدبين ، ولذلك فاننا نمك بين أيدينا سلسلة من أخبار هؤلاء تمتد تقريبا من بداية الدولة الأموية في الأندلس حتى سقوط الدولة النصرية في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٣م .

ومن دراسة هذه التراجم يمكن استخلاص الحقائق التالية :

٦ أولا : اهتمام خاصة الأندلس بتعليم أبنائهم :

وقد تجلى هذا الاهتمام في عدة مظاهر ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

(١) اختيار المؤدب عليا وخلقيا :

غقد حرص الآباء على أن يكون مؤدبو أولادهم من أعلى الرجال درجة في العلم ، ومن المشهود لهم بذلك ، فمؤدب الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢م) ، سوار بن طارق ، قد لقي الأصمعي ونظراءه (٢) ، وجودي بن عثمان النحوى العيسى (توفي ١٩٨هـ / ٨١٣م) ، لقي الكسائي ، والفراء ، وأبا جعفر الروائى وغيرهم ، وهو أول من أدخل الأندلس كتاب الكسائي ، وله تأليف في النحو يدعى منبه الحجازة (٣) .

(١) انظر عبارة المقرئ الواردة في النسخ ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) المقرئ : النسخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٨ (الترجمة رقم ٦) .

أرسلان : الطلل السندية - ج ٢ ، ص ٣٣ .

وأبو محمد عبد الله بن بكر الكلاعي ، كان مؤديا بالنحو ، عالما
باللسان ميرزا في الشعر ، أدبيا بليغا ، أدب أولاد الأمير عبد الرحمن
ابن الحكم (١) .

ومحمد بن أرقم السبائي ، من أهل قرطبة ، كان ممن ينصر العربية
والحساب ويشتغل فيه ، أدب القاسم وأصبح وعثمان ، أولاد الأمير
محمد بن عبد الرحمن (٢) .

وأيوب بن منصور بن عبد الملك الأنصاري ، من أهل قرطبة ،
كان عالما بالأعراب ، موصوفا بالمعدالة أدب بعض أولاد الخلافة ،
قال لي سليمان بن أيوب : كان الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ /
٨٨٨ - ٩١٢ م) ، « يسميه بالفقيه » (٣) .

أما قاسم بن أصبغ (متوفى ٨٣٤ هـ / ٩٥١ م) ، فقد « انصرف الى
قرطبة بطم كثير ، وسكن قرطبة » فكان له بيتا قدر عظيم ، وسمع
منه الناصر لدين الله أمير المؤمنين قبل ولايته ، وولى عهده
الحكم (٤) .

ومحمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي (المتوفى ٨٣٥ هـ / ٩٦٨ م) ،
« كان الغالب عليه العربية ، وكان قتيها أماما موثوقا ، أخذ كتاب سيبويه
رواية عن ابن النحاس ، وكان جيد النظر ، دقيق الاستنباط حاذقا
بالقياس ، نظر الناس عنده في الأعراب ، وأدب أولاد الملوك ،
واستأذبه أمير المؤمنين الناصر لابنه المعيرة » (٥) .

-
- (٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ص ٨٤ .
ابن سعيد : المغرب في طلي المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .
(٥) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٩٢ .
(٦) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٨٧ .
(٧) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .
اليحصي : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .
حسن مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين العرب ، ص ٣١ .
(٨) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٦٩ .
السيوطي : بنية الوعاة ، ص ١١٣ .

محمد بن اسماعيل النحوي المعروف بالحكيم القرطبي (المتوفى ٤٣١ هـ / ٩٤٣ م) ، كان الغاية في علم العربية والحساب والبطيق ، دقيق النظر ، لطيف الاستخراج ولم يكن أحد من أهل زمانه يتقدمه في علمه ونظيره ، وقال ابن الفرضي : كان عالماً بالنحو والذباب دقيق النظر ، مثيراً للمعاني ، مولداً للأبحاث (٩) .

حسين بن وليد بن نصر (توفي ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م) ، من أهل قرطبة ، كان نحوياً عالماً بالعربية ، متقدماً فيها ، أخذ بقرطبة عن ابن القوطية وغيره ، ثم رحل إلى المشرق ، ثم انصرف إلى الأندلس فاستأدبه المنصور ابيه ، وقربه من صحبته ، وكان شاعراً كثير المدح ، له حظ من علم الكلام ، إلى أدبه (١٠) .

عبد الله بن سليمان بن دارود بن عبد الرحمن (٥٤٨ - ٦١٢ هـ / ١١٥٣ - ١٢١٥ هـ) ، كان غريباً جليلاً متفتناً في العلوم ، وللك ملوك الموحدين به اعتناء عظيم (١١) .

عبد الله بن محمد الشراط (توفي بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م) ، من أهل مالقة ، يتقون على الأدب ، والعريضة ، وله تقدم في الحساب ، والبرهان على مسائله (١٢) .

ولقد حرص الأبناء على أن يتحلى معلموا أولادهم ببطبة عالية من التدين والأخلاق القويمية ، لأن ذلك كان يترتب عليه نتائج سيئة في مستقبل هؤلاء الأبناء ، سواء العملية أو الخلفية ، ومن هنا يمكن لنا أن ننسب لماذا تفرغ كتب التراجم دائماً بين العلم والأخلاق عند حديثها عن هؤلاء المؤدبين - فجابر بن غيث (المتوفى ٢٩٩ هـ - ٩١١ م) ،

(٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

السيوطي : بغية الوعاة ، ص ٢٢ .

(١٠) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(١١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(١٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

مؤدب ولد الوزير هاشم بن عبد العزيز كان مشهورا بالفن والفن
متدينا (١٢) * وأيوب بن منصور كان موصوفا بالعدالة (١٣) * وعثمان
ابن نصر بن عبد الله (٣٣٥ هـ - ٩٣٦ م) كان ذا سمعة وعدالة (١٤) *
أما عن محمد بن أحمد بن أبي العافية الأيادي (٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م)
فلقد كان رجلا فاضلا من أهل العلم والصلاح (١٥) *

وكما قلت فإن أهمية حرص الآباء على اختيار مؤدبي أولادهم
من يتمتعون بالعلم العالي وبالأخلاق الحميدة تكمن في أن هؤلاء
يتركون تأثيرا قويا على طلبتهم سواء من النواحي الخلقية أو العلمية ،
فاللؤدب هنا ليس مسئولا عن تلقين الأولاد علمه ، أو تحفيظهم الأدب
أو الشعر ، أو تعليمهم قواعد اللغة وغريبتها فحسب ، لكنه قبل ذلك
وبعده مثال يتطلع اليه الأولاد في تصرفاتهم ، ونموذج يحتذى
في كلماته وأفعاله ، فمحمد بن هشام المرواني حينما دخل على الخليفة
الناصر ليذكره استحسنه ، وأمره بالتزام بنيه ليؤدبهم بحسن أدبه ،
فيتخلقوا بخلقته (١٦) *

أما أبو مروان بن حبيب السلمي (المتوفى ٢٣٨ هـ - ٨٥٢ م)
فلقد كتب إلى معلم ولده رسالة يقول فيها : « بسم الله ، أما بعد ، فلنكن
أول ما تؤدب نفسك ، فإن عيني متعلقة بك وأعينهم متعلقة بك ، فالحسن
عندهم ما استحسنته ، والقبيح عندهم ما استقبحته ، وعلمهم كتاب
الله ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تخرجهم من غن إلى غن حتى
يحكموه ، فإن ازدحام العلوم مقللة للفهوم وعلمهم من الشعر أعفه
ومن الحديث أشرفه ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يضع الدواء

-
- (١٢) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
(١٣) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٧ .
(١٤) ابن الفرضي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .
(١٥) المراكشي : الذيل والنكلة - السفر الخامس - القسم
الأول ، ص ٥٨٦ .
(١٦) الأقرى : فتح الطبيب ، ج ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

الا في موضع الداء ، وهددهم دوني يزدادوا بذلك صلاحا ،
والسلام » (١٨) .

ولقد ترك بعض المؤدبين تأثيرا سيئا على طلبتهم ، قد يصل
بهم الى التمرد على الآباء . ويتسبب في مأساة عائلية ، مثلما حدث مع
معلم الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل بن فرح بن نصر ، سلطان
غرناطة الذي حكم من ٧٦٠ / ٧٦١ هـ - ١٣٥٩ / ١٣٦٠ م (١٩) .

ومن قبل ذلك هناك حادث مشابه قد وقع في أسرة بني عباد
حكام أشبيلية (٢٠) .

ولهذا ما أن يكتشف الآباء فجرة في أخلاق معلمى أولادهم حتى
يعللوا على تلافيها ، ومنعهم من الدراسة عليهم ، ويحكي أن أبا بكر
محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي المتوفى ٥٦٧ هـ -
١١٨٠ م ، كان يحضر مجلس عبد المؤمن بن علي ، الخليفة الموحدى ،
مع مجموعة من العلماء ، ويروي ما عنده من المعارف ، معظمها موقرا ،
الى أن أفتشد يوما في المجلس أبياتا ثلاثة قالها تغزلا في شاب من
أهل أغمات ، فكان ذلك سببا لأن هجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور
في مجلسه بل وصرف بنيه عن القراءة عليه (٢١) .

(١٨) المزاوى ، أحمد بن أبى جمعة : جامع جوامع الاختصار
والتيبان ، ص ٣٩ .

أعراب ، سعيد : دور المغاربة في تربية الطفل ، ص ٣٨ .
وهذه النصيحة أوردها الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين »
ج ٢ ، ص ٥٣ ، من كلام عتبة بن نافع بن أبى سفيان لمؤدب ولده .
(انظر التربية الاسلامية للدكتور الأهواني ، ص ٢٠١ ، والفكر التربوى
عند العرب ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ . وكذلك اقتبسها الخزالي ضمن حديثه
عن آداب الصبيان (الخزالي : الأدب في الدين ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨) .

(١٩) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢٠) ابن بسام : الذخيرة ، ج ٢ ، ص ٦٢٤ ، طبعة بيروت .

(٢١) السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

النسوى : العلوم والآداب على عهد الموحدين ، ص ٤٠ .

تاريخ التعليم

(ب) الاهتمام براحة المعلمين وكرامتهم :

ينقل الدكتور أحمد فؤاد الأهواني عن الجاحظ قوله : ان المعلمين على ضربين : رجال ارتفعوا عن تعليم العصابة الى أولاد الخاصة ، ورجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة (٣٣) * وفي الأندلس حظى هؤلاء المعلمون وبالذات من وصل منهم الى تعليم أولاد الخلفاء بمكانة اجتماعية عالية جدا ، يقول ابن الخطيب عن محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله الخولاني ، من أهل غرناطة ، المولود عام ٧١٨ هـ - ١٣١٨ م ، بعد أن ذكر علومه وفصائله وكتبه ومشيخته : انه ترقى الى هذا العهد باشارتي الى التي لا فوقها من تعليم ولد السلطان ، والرياسة القرآنية بباب الامارة ، والامامة بالمسجد الجامع من القلعة (٣٣) *

ويقول ابن وضاح ، انه لما قدم الثمر بن نجد الى الأندلس في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن (حكم من ١٧٣ الى ١٨٠ هـ - ٧٨٨ - ٧٩٦ م) ضمه الى تاديب ولده ، وأنزله بالدار المعروفة بشبلار بدار ابن الثمر (٣٤) *

حسين بن وليد بن نصر ، المعروف بابن العريف (توفي ٣٩٠ هـ - ٩٩٩ م) ، كان قويا عالما بالعربية ، متقدما فيها تشا بقرطبة ، ورحل الى المشرق ثم انصرف الى الأندلس ، فاستأذنه المنصور لبيته وقربه من صحبتته (٣٥) *

أما الحكم المستنصر فلقد ضرب في الاهتمام بمعلمي ابنه بباغ عريض ، فكان قيام أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (توفي

(٢٢) الأهواني : التربية الاسلامية ، ص ٢٠٢ ، وانظر أيضا تاريخ الفكر التربوي عند العرب ، ص ١٠٧ .

(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٢٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٢٥) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٤ .

٣٧٩ - ٩٨٩ م) بتعليم الأمير هشام الثاني سببا في أن ينال أبو بكر هذا دنيا عريضة ، فقد تولى قضاء أشيلية وخطة الشرطة ، وحصل له نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زمنا طويلا (٣٦) .

سعيد بن الناكوري المتوفى ٣٩٢ هـ - ١٠٠١ م ، كان من أهل المعرفة والفهم استأذبه المنصور بن أبي عامر لولده ، وولاه الصلاة والخطبة بجامع الزاهرة (٣٧) .

وعبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن الأنصاري (٥٤٨ - ٦١٢ هـ / ١١٥٣ - ١٢١٥ م) ، كان للملك الموحد بن به اعتناء عظيم ، وقد كان أستاذ الناصر وأخوته ، وكان له عند المنصور والدمم بذلك أكرم أثره (٣٨) .

عبد المولى بن أحمد بن محمد الأصبحي (توفي ٦٧٥ هـ - ١٢٧٦) ، كان فقيها فاضلا اماما في النصوح حتى كان يسمى «سيبويه» زمانه . وكان معلما لأدريس الحيوصى ، فلما صار الملك إليه استوزره ، وكان يتبرك برأيه ، ولا يكاد يفعل أمرا دونه (٣٩) .

(هـ) الاحتفال ببدايات جلوس ابنائهم الى العلم ومتابعة تعليمهم :

يحكى المستعرب الأسباني خوسيه أنطونيو كوندى ، عند حديثه عن عثمان وإبان ، ابني الأمير عبد الرحمن الحكم ، أنهما كانا يتميزان بالأدب والفصاحة ، علاوة على ذكائهما الطبيعي ، لأن الأمير قد عهد بتربيتهما الى والى « سيدوفيا » ، محمد بن سعيد الغمرى ، الذى اجتهد في تعليمهما وأنهما استفادا كثيرا من المناقشات التى كانا

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧ ، ٨ .
(ترجمات الزبيدى كثيرة جدا في كافة كتب التراجم والادب الاندلسية وسبق الإشارة الى بعضها) .
(٢٧) المراكشى : الذيل والنكيلة ، ج ٤ ، ص ٤٦ .
(٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .
(٢٩) السيوطى : بنية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

يحضرانها مع رجال العلم آنذاك ، وأن الأمير في كثير من الأحيان ، كان يسعد بالاستماع إليهما ، واختيار أنتاجهما الأدبي (٣٠) .

لكن المثل الأكبر في هذا المجال نجده عند الحكم المستنصر بالله ، وربما كان السبب في ذلك يرجع الى شدة الشغف الذي كان يكنه الخليفة لابنه ، باعتباره ابنه الوحيد وولي عهده ، وأنه قد رزقه على كبر . ولقد احتفظ لنا ابن حيان بوصف تفصيلي لاهتمام الحكم بالاحتفال بقيام معلم ما يبدأ الدراسة مع الأمير هشام فيقول عند الحديث عن عام ٣٦١ هـ - ٩٧١ م :

« وفي عشي يوم الأحد ، أول أيامه (أول أيام شهر رمضان) ، أوصل الخليفة الى نفسه الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف الملقب بالقسطلي (٣١) ، فأمره بالتأهب لتعليم ولده الأمير أبي الوليد هشام . وأحسن وصاته به ، ورسم له في تعليمه وتدرجه رسوما أفاده عليها ولم يعد عنها ، نفق الله الولد بها ، وكان قد أمر بتطرية الدار المروضة بدار الملك بقصر الزهراء ، وتجهيدها ، وإقامة كل ما يحتاج الى إقامته ، وإعدادها بها ، وفي الطريق إليها ، وفتح باب غربي في فصل النيران بها ، يقرب عليه الخروج منها الى هذه الدار ، فيكون مقبوده مع مؤدبه المذكور في المجلس الشرقي منها ، بأيسن طائر ، فغضى ذلك كله ، وأحكم شأنه ، فكان جلوس الأمير أبي الوليد مع معلمه في المجلس المذكور من الدار المحدودة يوم الخميس لخميس خلون من شهر رمضان ، واستخف الخليفة الحكم السرور بما هياه الله من ذلك ، الى أن برز الى هذا المجلس نهاره هذا فتقع عينه

(٣٠) كبرى : خوسيه انطونيو : تاريخ الحكم العربي في اسبانيا :

ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٣١) أبو التمام أحمد بن محمد بن يوسف الملقب (٣١٠ - ٣٦٧ / ٩٧٢ - ٩٧٧) ، رحل الى المشرق سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م . وعاد ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، واستأديه المستنصر ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، وولى أحكام الشرطة (المقتبس - طبعة الحجى : ص ٧٦) .

على ابنه ، وشاهد حبره على الثفاف الذي لزمه ، فعابن من ركانه مجلسه واطلاقة وجهه ، واقباله على معلمه وسكون جأشه ما قرت به عينه ، وتجددت معه مبرته ، فبادر باخراج مال واسع الى صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بعينه ، ليقرقه على الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل ، سكرًا لله تعالى على جليل منته عليه في قرة عينه وسلالة مجده ، وعهد بعقد استثمار الفقيه أحمد بن يوسف معلم الأمير أبي الوليد هشام ، باجراء الرزق عليه : الرواتب والحملان والعلوفة ، وعهد باقامة علوفة للأمير أبي الوليد ، محدودة العدد ، موصوفة الأطعمة ، تقدم اليه والى من معه من صبيانه ، كل يوم بموضع حضاره ذلك ، وأمر بتقديم ذكاء ، الوصيف الكبير الخصى ، ناظرًا للأمير أبي الوليد ، فيوما على جميع صبيانه متكفلا لشأنه » (٣٢) .

وفي موضع آخر تحدث عنوان « ذكر ادناء الزبيدي النحوى » (٣٣) ، يواصل ابن حيان قائلا :

« وفي يوم الأحد ، للنصف الثاني من ذى القعدة منها (يشير الى سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م) نفذ العهد الى محمد بن حسن الزبيدي ثم الأتشيلى النحوى بالترام مدينة الزهراء لجالسة الأمير أبي الوليد هشام بن أمير المؤمنين ، ومفاتخته النظر في العربية ، وقد اعتمدت لنزوله منها الدار التي كان يسكنها صاحب الشرطة أحمد بن سعيد الجعفرى في حياة والده ، وأجريت الأرزاق الواسعة عليه ، واستقبل في هذا اليوم بضلة سنية ، وخلعة فاخرة ، جزاء على الذي تولاها من اختصاره لكتاب العين للخليل بن أحمد ، واقامته على الترتيب

(٣٢) ابن حيان : القتبس ، تحقيق الحجي ، ص ٧٦ ، ٧٧
Garcia Gomez : Anales Palatinos del Califa de Cordoba
AL-Hakam II, Por Isa ibn Ahmad Al-Razi, pp.
98, 100.

(٣٣) سبقت الاشارة اليه ، وترجمته مذكورة في كافة كتب التراجم والادب الاندلسى .

والصنيف ، اللذين حددهما له أمير المؤمنين فيه ، فارتضى عمله فيه عدد نصفه له ؛ وأجزل صلته ، وأدنى مكانه وأوصله إلى نفسه يومه هذا . ففاوضه في عمله الذي برع فيه ؛ واستشار له من غوامض فنونه ؛ وبناظره بين يديه يومئذ الوزير الكاتب الأديب جعفر بن عثمان في غرائب من غنه في النحو واللغة والشعر . فثباريا في الشأو وشابقا في ميدان الأصابة . غمر بها يوم المعرفة وانتظم اتصال الزيدى يومئذ بالخليفة الحكم ، وابنه الأمير هشام ، ونال حظوة » (٢٤) .

وفي موضع آخر ، وتحت عنوان « ذكر أسماع الأمير أبي الوليد العلم والخديث » يحدثنا ابن حيان قائلا :

« وفي يوم السبت لليلتين خلتا من شعبان منها (يقصد بذلك سنة ٣٩٤ هـ - ٩٧٤ م) أمر الخليفة الحكم في الإرسال في طلب الشيخ الفقيه الراوية يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى اللبثي (٢٥) ، أرفع مسندى الحديث وقتئذ ذلك بقرطبة ، لاجلاسه عند الأمير أبي الوليد هشام ولده المرشح لولاية عهده ، ومشاهدته إياه للسمع منه والأخذ عنه لسمو درجته في العلم ، واعتلاء منزلته في الرواية إذ روايته عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس رضى الله عنه ، فكان المرسل فيه من قبل الخليفة المستنصر بالله ، مؤدب الأمير أبي الوليد أحمد ابن يوسف المعروف بالقسطلي ، فأسرع الاستجابة وأقبل إلى القصر ، مع ابن يوسف ، وتوصل إلى الأمير أبي الوليد بمكان قعوده للحضار في الدار المعروغة بدار الأولاد ، وكان بين يديه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، فأعلم الفقيه يحيى عن أمر المؤمنين ، بحسن رأيه فيه ووعود اختياره عليه لاسماع أعز الناس عليه ،

(٢٤) ابن حيان : المتنبس ، تحقيق الحجي ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

Sanchez Albornoz : Ho. de la Espana Musulmana 1.423.

(٢٥) يحيى بن عبد الله : توفي ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، انظر ترجمته

بند ابن الفرضي ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

مجتهدا في افادته واعلاء درجته ، فشكر الشيخ وأثنى وأقعد ، فقرأ أحمد بن يوسف ، مؤدب الأمير مبتدئا بالجزء الأول من موطا مالك ابن أنس في كتاب الفقيه يحيى بن عبد الله ، وهو كتاب الصلاة منه رواية يحيى بن يحيى ، وضبط الأمير أبو الوليد كتابه سامعا فيه ، ومقابلا بكتابه الذي لا يتنزع عنه ، كتاب لجدّه الخليفة الناصر لدين الله ، قرأه - رضى الله عنه - على عبيد الله بن يحيى بن يحيى في زمانه ورواه عنه عن أبيه عن مالك بن أنس ، وقرأه بعده ابنه الخليفة المستنصر بالله ، أيام طلبه على أحمد بن مطرف المعروف بابن المشاط ، حامله عن عبيد الله بن يحيى عن يحيى عن مالك ، فلما تم مجلس السماع وحان انقلاب الشيخ يحيى بن عبد الله ، نفذ عهد الخليفة بأن يكون ركوبه ونزوله في الفصيل ، بفصيل المسجد ، تشريفا وترغيبا عنه فجرى أمره على ذلك مدة اختلافه ، وعاود الحضور يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان ، فاستمع الأمير على رسمه بمساعدة الوزير الكاتب جعفر بن عثمان أثير الخليفة والده ، ونفذ العهد بأن يكون اختلاف الشيخ الفقيه الى الأمير أبي الوليد يومين في الأسبوع ، يوم السبت والخميس على الاطراد الى أن يكمل اسماعه الموطأ وجميع ما رواه من الدواوين عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى وغيره من الشيوخ الذين لقبهم وأخذ عنهم ، أن أنسأ الله مدته ، فجرى الأمر على ذلك ، وأحرز الأمير به الفضيلة « (٣٦) » .

وأبو بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ / ١٠٧٦ - ١١٤٨ م) يقول : « كنت يوما مع بعض المعلمين فجلس إلينا أبى رحمة الله عليه ، يظالم ما انتهى اليه علمى ، في لحظة سرقها من زمانه ، مع عظم اشتغاله » (٣٧) .

(٣٦) ابن حبان : المتنبس : تحقيق الحجى ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .
Garcia Gomez : Anales Palatinos de Califa de Cordoba .
Al-Hakam, II, pp. 256—258.

(٣٧) ابن العربي : قانون السواويل - وانظر أيضا : الفكر التربوى عند العرب ، ص ٢١٦ .

(د) المساهمة في وضع المنهج التعليمي لأبنائهم :

هذا ولقد سبق أن أشرت الى وصية عبد الملك بن حبيب : لمعلم ولدم^(٣٨) ، كما أن الحكم المستنصر : أحسن وصاة معلم ولده ، ورسم له في تعليمه وتدريبه رسوما أفاده عليها . ولم يعد عنهما (٣٩) . والأمير عبد المؤمن بن علي الموحدي الذي حكم من ٥٤٢ الى ٥٥٨ هجرية / ١١٣٠ - ١١٦٣ م وقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو و « كتاب اعز ما يطلب » . وغير ذلك من تواليات المهدي (٤٠) . أما ابن الخطيب فإنه لم ينس في رسالته في السياسة أن يركز على ما يجب نحو الأبناء فيقول :

« وأما الولد : فاحسن آدابهم : واجعل الخير دأبهم : وخفف عليهم من استغفارك وحنانك ، وأكثر من غلظة جنانك ، واكتم عنهم ميلك ، وأقض عنهم وجودك ونيلك ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك ، وأنهم على حسن الجواب ، وسبق اليهم خوف الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم الصبر على الضرائر والمهلة عند استخفاف الجرائر وخذلهم بحسن السرائر ، وجب اليهم مراس الأمور الضعيفة المراس : وحسن الاستمطاع والاعتراض : والاستنكار من أولى المراتب والعلوم : والسياسات والعلوم : والقسام العلوم ، وكره اليهم مجالسة الذين : ومصاحبة الساهين . وجاهد أهواءهم عن عقولهم . واحذر الكذب على مقلولهم ، ورشعهم أن أنست منهم رشدا أو هديا . وأرضعهم من المؤازرة والمشورة نديا : لتتربهم على الاعتقاد . وتعلمهم على الازدياد ، ورشعهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم ، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ،

(٣٨) أرجع الى تلك الوصية ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ من الكتاب : والاعليق عليها في الإشارة رقم (١٨) بياض ص ٤٢٢ .
(٣٩) ابن حبان : الفتيق - تحقيق الحجى ، ص ٧٦ ، وترجمة تاريخ غوث بنقوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba Al-Hakam II.
par Isa ibn Ahmad.

(٤٠) مجهول : الخلل الموشية ، ص ١٥٠ .

وتدارك الحلق الذميمة كلما نجمت ، واخذعها اذا هجمت ، قبل أن يظهر
تضعيفها ، ويقوى ضعيفها فاذا أعجزتك في صغرهم الحيل ، عظم الميل .
أن الغصون اذا قومتها اعتدلت
ولن تلين اذا قومتها الخشب

واذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، فلا توطنهم
في مكانك ، جهد امكانك ، وفرقهم في بلدانك تفريق عيدانك ،
واستغلهم في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فان
حضرتك تشغلهم بالتحاسد والتبارى والتفاسد ، وانظر اليهم بأعين
الثقات ، فان عين الثقة تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقة » (٤١) .

ثانيا : اماكن التعليم الخاصة :

كان تعليم الخاصة يتم في أكثر من مكان حسب المكانة الاجتماعية
والسن والجنس .

(أ) بالنسبة للمكانة الاجتماعية ، فانه اذا ما كان الطفل
من أبناء الخلافة فان المعلم كان يذمب اليه في منزله ، وكان على
الخليفة أو الأمير أن يعد لمؤدب ولده مكانا مناسباً يتولى فيه تعليمه ،
وتستدل على ذلك من الملاحظات التالية :

أبو عبد الله عثمان بن المثنى القيسى (توفي ٢٧٣ هـ - ٨٨٦ م)
قد زاره بعض اخوانه في مكتبة قصر الخلافة وهو يعلم ولدا للأمير
محمد ، جميل الصورة ، فقال له : « كيف حالك مع هذا الرشأ ؟ » (٤٢) .

أما بالنسبة لعبد الرحمن الناصر فلقد وضع له جده الأمير
عبد الله أشهر المعلمين ، وعنى عناية تامة بتربيته ، منذ فطامه الذي

(٤١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٤٢) ابن سميذ : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

وإلى تلك المينة الشنيعة لوالده الأمير محمد (٢٢) .

عبد الله بن سليمان بن المنذر المكفوف من أهل قرطبة (٣٣٥ هـ - ٩٣٦ م) أسنأديه الناصر عبد الرحمن بن محمد لولده ، وقيل اختلف إلى أولاد الناصر ، وعلم داخل القصر (٢٣) .

ويحكى ابن عذارى ، عن جعفر بن عثمان ، الوزير المشهور ، أنه قد كتب في محنته الأخيرة إلى محمد بن أبى عامر المنصور يعرض نفسه عليه لتأديب ابنه عبد الله وعبد الملك فقال ابن أبى عامر :

« أراد أن يستجهلى ، ويسقطنى عند الناس ، وقد عهدونى ببابه مؤملا ، ثم يرونه اليوم بدهليزى معلما » (٢٤) .

أبو محمد عبد الله بن يحيى الحضرى ، المعروف بابن عبدون (القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى) ، « كان الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد هو الذى نقله من شاطبة إلى بلنسية ، وأسنأديه لبنيه لما كان عليه من التصاون والمعدالة ، وأباح له الاقراء ، فكان يعلمهم العربية بالقصر ، فإذا انفصل عنهم ، علم الناس أيضا بمسجد رجة القاضى (٢٥) من بلنسية إلى أن توفى (٢٦) .

أما الحكم المستنصر ، فقد « أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء » وتنجيدها ، وإقامة كل ما يحتاج إلى إقامته وإعداده

(٢٣) Condé J. A. : Ho. de la dominacion árabe, I, 365,366.

(٢٤) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٤٣٦ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٤٠٠ .

Sanchez Albornoz : Ho. de Espana Musulmana I.

454, 455. r

(٢٦) عبارة عن مكان متسع للاجتماعات الشعبية ، وكان خارج بلنسية ، انظر تفصيلات ذلك فى كتاب « الحياة الطلية فى بلنسية » لمجبل حسن ، ص ٧٥ .

(٢٧) ابن الأبار : المتقضب من تحفة القادم ، ص ٦٩ .

بها ، وفي الطريق إليها ، وفتح باب غربى فصيل الفتيان بها ليقترّب
عليه الخروج منها الى هذه الدار — يقصد بذلك انصراف المعلم —
فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور في المجلس الشرقى منها » (٤٨) .

أما الشيخ يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثى ،
فقد توصل الى الأمير أبى الوليد بمكان قعوده للحضار في الدار المعروفة
بدار الأولاد (٤٩) .

يقول أبو بكر بن أبى ليلى ، وكان كاتب أبى على الصدفى
(٥١٤ هـ — ١١٢٠ م) أنه كان يوما عند الصدفى اذ جاءه وزير
ابن تاشفين (يقصد وزير الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذى
كان وليا على مرسية من قبل أخيه على بن يوسف تاشفين ، الأمير
المرابطى الذى حكم من ٥٠٠ الى ٥٣٧ هـ الموافق ١١٠٧ — ١١٤٣ م) ،
فقال : « ان الأمين يريد أن يسمع عليك الحديث ، يعرض له بالمشى
اليه ، فقال : لهذا جلست ، فكرر ذلك عليه ، فأجاب بمثله ، ثم رغب
اليه ، بعد أن تكون له منه دولة فى منزله ، فأسعه على أن يصل اليه
بعد الفراغ من اسماع أصحابه ، والقيام من مجلسه » (٥٠) .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن بعض أبناء الأمراء والخلفاء كانوا
يخرجون الى حلقات المعلمين الكبار ، حيث نرى ابنى الأمير عبد الرحمن
ابن معاوية ، أبان وعثمان ، يحضران المحاضرات مع رجال العلم فى ذلك
الوقت (٥١) . ولقد أمر الأمير أيضا بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر
بليمان المجلس العلمى للقاضى بالمسجد الجامع (٥٢) .

(٤٨) ابن حيان : المتنبس (تحقيق الحجى) ، ص ٧٦ .
Garcia G. El., Anales Palatinos, p. 99.

(٤٩) ابن حيان : المتنبس (تحقيق الحجى) ، ص ٢١٦ .

(٥٠) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(51) Conde J. A. Ho. de la dominacion arabes, I. 269.

(52) Op. Cit., I. 200.

قاسم بن أصبغ بن محمد (توفي ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م) رحل إلى المشرق ، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير ، وكتب كثيرة ، « وسمع منه كثير من هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد - رضي الله عنه - قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولي عهده الحكم واخوته » (٥٣) .

كما أن المستنصر - في حياة والده - قد سمع من سعيد بن جابر ابن موسى الكلاعي التوفي (٣٣٥ هـ - ٨٣٩ م) (٥٤) .
وتردد أبو علي الصدفى في الذهاب إلى بيت الأمير ، يعنى أنه رأى أن من الممكن ذهاب الأمير إليه .

(ب) أما إذا كان من أبناء رجال الدولة فأنهم ينتسبون تقريبا ، من ناحية المكان ، مع أبناء الخلفاء والأمراء ، أى أن المؤدب يذهب إليهم في منازلهم ، ولكن نلاحظ من خلال دراسة التراجم التى بين أيدينا كثرة ترددهم على المعلمين في مجالسهم والمساجد أو بالمنازل ، فالنسبة لاحتضار المعلمين إلى المنزل فإن أول خبر لدينا في تاريخ الأندلس ، هو قيام هاشم بن عبد العزيز (وزير الأمير محمد الذى حكم من سنة ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) باحضار جابر بن غيث ، المقوفى ٢٩٩ هـ (٩١١ م) إلى قرطبة ، لكى يقوم بتأديب ولده (٥٥) .

أما زيد بن ربيع بن سليمان الحجرى ، فلقد كان أديبا جامعا ، حسن الضبط للغة والعناية بها ، واستأدبه الوزير أبو عثمان عبد الله بن محمد بن أبى عبيدة ، لولده جهور بن عبيد الله (٥٦) .

-
- (٥٣) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .
اليحصى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .
مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٢١ .
(٥٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٧ .
(٥٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، طيمة مدريد ، ص ٩٠ .
السيوطى : بنية الوعاة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .
(٥٦) ابن حيان : المختصر (تحقيق انطونيا) ، ص ٤٨ .

أما الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير المتوكل على الله ، أمير بطليموس في عهد الطوائف (٤٦١ - ٤٨٧ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٩٤ م) ، فإنه يحكى أنه كان يوما جالسا بين يدي مؤدبه الشيخ أبي الوليد بن ضابط النحوى المالفى (٥٧) .

ويتم اخصار معلمى أبناء الخاصة الى منازلهم ، خاصة في الفترة الأولى من حياتهم ، ولكن عندما يتقدمون في السن ، فإنه من الممكن أن يحضر اليهم المعلم في المنزل ، أو قد يذهب الطلبة الى معلمهم في مساجدهم أو منازلهم أو أماكن تعليمهم ، كما أشيرت في السطور الماضية الى المؤدبين الذين قاموا بتعليم أولاد كبار رجال الدولة في الأندلس ، ويؤكد ذلك لنسأ مقالة تركها لنا أبو بكر بن العربي ، حيث يؤكد أنه (عند ريعان النشأة رتب لى أبى - رحمه الله - حتى حفظت القرآن في السام التاسع ، ثم قرأ بي ثلاثة من المعلمين يتعاقبون على من صلاة الصبح الى صلاة العصر ثم ينصرفون عنى ، وأخذ في الراحة الى صبح اليوم الثانى فلا تتركنى نفسى فارغا من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بخرارة الشباب) (٥٨) .

أما ذهاب هؤلاء الأولاد الى مجالس المعلمين فنؤكدده كثير من البيانات والملاحظات الدالة على ذلك ، أشير هنا الى بعضها فقط :

محمد بن خطاب أبو عبد الله النحوى الأزدي (عاش في القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى) كان من الأدباء المشهورين ، والنحاة المذكورين ، وكان يختلف اليه في علم العربية أولاد الأتاب و ذوى الجلالة . وله مع ذلك شعر مأثور (٥٩) .

(٥٧) الأراكشى : المسجب في بلخيس اخبار المغرب ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(٥٨) ابن العربى : العواصم من القواصم ، ص ١١ ، وانظر النص في كتاب الفكر التربوى عند العرب ، ص ٥١ - ٥٢ ، نقلا عن قانون النساويل .

(٥٩) الحميدى : جذوة القتبس ، ص ٥٠ .
الغيبى : بغية الشمس ، ص ٦٤ .

على بن جابر بن علي بن يحيى اللخمي الأسبيلي (توفي ٦٤٦ هـ -
١٢٤٨ م) ، يكنى أبا الحسن الدباج . عكف على اقراء القرآن ،
وتدريس العربية والأدب ، نحواً من خمسين سنة ، لم يتعرض لسواه
ولا عرج على غيره

وكانت لأبي الحسن الدباج - رحمه الله - أثناء اقراءه نواذر ،
فتد كان يقرأ عنده صبي من أعيان الجنيد ، كانت
له شارة وفحة ، فصاح ذات يوم يا أسناذ . . . كما انه
كان يلزم مجلسه بعض الطلبة والأعيان (١٠) .

أما ابن حيان ، مؤرخ الأندلس الكبير ، وابن وزير المنصور
ابن أبي عامر ، فلقد درس وحده كتاب الفصوص على يد مؤلفه
العالم اللغوي الشهير صاعد البغدادى ، على الرغم من أن مؤلف
الكتاب قد أسمعه للناس في حلقات عامة - يقول ابن الفرضي
عن ذلك :

وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر ، كتاباً سماه
الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار . . وأمره (أى المنصور)
بأن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة ٣٨٥ هـ
(أوائل ٩٩٦ م) ، واحتشد له جماعة من أهل الأدب ووجوه الناس
أمة ، قال ابن حيان : وقرأته عليه منفرداً في داره سنة ٣٩٩ هـ
(١٠٠٨ - ١٠٠٩ م) (١١) .

أما بالنسبة للبنات من أبناء الخلفاء أو من أبناء الخاصة ، فإن
تعليمهن كان يتم في المنازل ، ويتولى تعليمهن سيدات من أهل البلاط
أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح أو التقوى ، وفي بعض الحالات
يقوم الآباء بذلك ، فالخليفة المنصور (الذى حكم سنة ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ /

(٦٠) المراكشى : الذيل والسكلة ، السفر الأول ، ص ١٩٩ (التعليق) .

(٦١) ابن حيان : التنبس (تحقيق مكى) ، ص ٢٠ ، المقدمة .

ابن بشكوال : الصلة (الترجمة رقم ٥٤٠) - ج ١ ، ص ٢٢٦ .

١١٨٤-١١٩٩م) ، حينما استمع الى على بن محمد بن يوسف بن عبدالله ،
 الفهرى وهو يقرأ بمقبرة على جارى عادته ، أخذ بقلبه طيب نغمته ،
 فقربه واستخلصه ، وأمره بتعليم أولاده ، وقراءة حزب من التراويح
 فى رمضان ، ثم خبر أحواله ، وعرف صوته وعقائه ، فأمره بتعليم
 بناته ، فاستعفاه من ذلك معتذرا ، بأنه لا يدرك بعض التفرقة بين
 الألوان ، فأحظاه ذلك عنده ، لما تحقق من صدق نصحه ، وألزمه
 تعليمهن ، وكان سبب اثرائه وسعة حاله (١٣) .

أما أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى من أهل لوشة ،
 فلقد كانت نبيلة حسنة ، تجيد قراءة القرآن وتشارك فى غنون الطلب
 من مبادئ غريبة وأقراء ، ووسائل الطلب ، وتنظيم أبيات من الشعر .

نشأت فى حجر أبيها ، لا يدخر عنها تدريجا ولا سهما ، حتى
 نهض أركانها ، وظهر فى المعرفة حراكها ، ودرسها الطب ، ففهمت
 أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه (١٤) .

تعليم الوصفاء :

وهناك بعض الطوائف الخاصة قد جرى تعليمها ، أما فى القصور
 أو فى أماكن إقامتهم ، ومن هؤلاء وصفاء القصور حيث تخصص
 فى تعليمهم أحمد بن مضا بن عبد الجبار بن مضا ، القرطبي ، ونقول
 ترجمته : كان أديبا متفنا فى علوم اللسان العربى ، أدب طويلا
 للخاصة والعامة ، ثم قصر على تأديب الوصفاء بالقصر (١٥) .

تعليم الرهائن :

أما الرهائن ، فلقد كانوا دائما من أبناء حكام الأقاليم وكبار
 العائلات التى يخشى تمردوها على السلطة المركزية ، فلقد كان يتم

(١٢) المراكشى : الذيل والتكيلة ، السفر الخامس ، القسم الأول ،
 ص ٢٩٩ ، ٤٠٠ .

(١٣) ابن الخطيب : الاحاطة - ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(١٤) المراكشى : الذيل والتكيلة ، السفر الاول ، ص ٥٤٣ .

تعليمهم في دار اقامتهم • هذا ولقد حفظت لنا كتب التاريخ الأندلسي القديمة نصا غريدا في هذا المجال ، يشار اليه أيضا ضمن الحديث عن تدخل الدولة في شؤون التعليم بالأندلس ، والنص يتحدث عن أن القاضي أمية بن عيسى بن شهيد وزير الخليفة عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٧ م) ، « حضر يوما بدار الرهائن المجاورة لسباب الفنطرة بقرابة ، ورهائن بنى قيس وغيرهم من أبناء التوار ينشدون تسمر عنزة أمام مؤدب ، فقال لبعض الأعوان : على بالمؤدب ، فلما وصل الى القصر ووافاه المؤدب قال له : لولا أنني أعزرك بالجهل لأدبتك أدبا موجعا ، تعمد الى شياطين أبناء شياطين قد شجى بهم الخلفاء فتروبيهم شعر عنزة والشعر الذي يزيدهم بصيرة في الشجاعة ! كف عن هذا ، ولا تزوهم الا خصريات الحسن ابن هاني ، وشبهها من الأهرال ، ومثل شعر عمر بن أبي ربيعة وجميل ، وغيرهما من أمثالهم » (٦٥) •

وعلاوة على ذلك ، فان بعض الخلفاء قد جعل لمؤدب ولده مسكنا خاصا فلقد أمر الخليفة الحكم المستنصر في عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م بأن يلزم ممشد بن حسن الزبيدي ، مدينة الزهراء لاجالسته الأمين أبي الوليد هشام ، ابن أمير المؤمنين ، ومفاتيحه في العربية ، وقد اعتمدت لثروله منها ، الدار التي كان يسكنها صاحب الشرطة ، أحمد ابن سميد الجعفرى في حياة والده ، وأجريت عليه الأرزاق الواسعة (٦٦) •

أما الأمير هشام بن عبد الرحمن فلقد أنزل مؤدب ولده في الدار المعروفة بشلار بدار ابن التمر (٦٧) •

(٦٥) اخذت هذا النص بالذات من : ابن السماك : الزهرات المنثورة ، ص ١٠ ، ما زال تحت الطبع ، تحقيق الدكتور محمود مكى ، بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بوجريد ، العدد العشرون ، ولقد ورد النص مع اختلافات بسيطة في أكثر من كتاب (انظر تفصيلات ذلك في الفصل الخاص بتدخل الدولة في التعليم في الاندلس ، ص ١٩٦ ، ١٩٧) •

(٦٦) ابن حيان : المتنبس ، طبعة الحجى ، ص ١٣٤ •

(٦٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ •

شلار : ريش من ارباض قرطبة الشرقية ، التفتيح ، ج ٢ ،

ص ١٣ •

ثالثا : المنهج التعليمي لتلك الفترة :

سبق لى أن أشرت في بداية هذا الفصل الى أن المنهج التعليمي لأبناء الخاصة ، لا يختلف كثيرا عن المنهج التعليمي العام في الأندلس ، وأن شباين عنه في بعض الجزئيات ، النابعة من طبيعة الطبقة الاجتماعية ، أو الاعداد لمستقبل معين ، أو غير ذلك من الأمور . ولذلك كان أسهب في ذلك المكان كثيرا عن البرنامج التعليمي ، لأننى تناولته في مكانه المناسب من الرسالة وسأكتفى بالإشارة الى بعض النصوص التاريخية التى أشارت الى تواهى محددة من تعليم الأمراء وأبناء كبار رجال الدولة في الأندلس .

والمستعرب الأسباني خوسيه أنطونيو كوندى ، يصف لنا ما كان ي تلقاه ابن الرحمن بن محمد من تعليم فيقول :

وضمع له أشهر المؤدبين ، الذين علموه أحسن تعليم ، فحينما بدأ مرحلة الطفولة علموه قراءة القرآن ، وحفظه بكل طرائقه ، وفى الثانية عشرة ، تعلم الحديث والسنة وأيام العرب والنحو والتشعر ، والأمثال العربية ، وحياة الأمراء ، وكذلك علوم الادارة والحكم ، وعلوم انسانية أخرى .

وبعد ذلك تدرب على الفروسية ، والتحكم برشاقة وأناقة في حركات حصانه ، والتصويب بالسهم وهدف الرماح ، واستعمال كافة الأسلحة ، والدراية بالحيل العسكرية ، ولقد تدرب على هذا كله وعمره احدى عشرة سنة ، عندما كان يلعب مع أقران صباه (١٨) .

وثمة برنامج آخر ، أعده الأمير الموحدى عبد المؤمن بن على ، نقله فيما يلى :

ووقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو « وكتاب أعز ما يطلب »

(١٨) كوندى : تاريخ الحكم العربى ، ج ١ ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، طبعة ١٨٢٠ .

وغير ذلك من تواليف المهدي ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر ، فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة ، من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده ، فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب ، ويوما بالرمي بالقوس ، ويوما بالعموم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة ، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع . ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة ، فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بالعطاء ، وتارة بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده ، وخليهم وعدتهم كذلك .

ولما كمل له هذا المراد غيهم ، عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة ، وقال : العلماء أولى منكم ، غسلوا لهم (٦٩) .

أما النص الذي يوضح لنا محتوى التعليم الذي كان يتلقاه أبناء الأندلس عامة ، وأبناء الخاصة منهم ، خاصة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فلقيد قصه علينا العالم الأندلسي الكبير أبو بكر بن العربي ، المتوفى ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م ، قائلا :

كان من حسن قضاء الله تعالى ، أني عندما كنت في عنفوان الشباب وريان الحداثة وعند ريعان النشأة ، رتب لي أبي رحمه الله حتى نحذقت القرآن في العام التاسع ، ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التي جمعها الله فيه ، ونبيه الصادق صلى الله عليه عليها في قوله : « أنزل القرآن على سبعة أحرف في تفصيل فيها » ، والثاني لعلم العربية ، والثالث للتدريب في الحساب ، فلم يأت على ابتداء الأئسد في العام السادس عشر من العدد ، الا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحواً من عشرة ، بما يتبعها من أضغام واطهار وقصر ومد وتخفيف وشد وتحريك وتشكين وحذف وتنميم وترقيق وتفخيم ، وقد جمعت من العربية فنونا ،

بوتصرغت فيها تمرينا : منها كتاب الواضح (٧٠) و « الجمل » (٧١) ،
وكتاب النحاس (٧٢) و « الأصول » لابن السراج (٧٣) ، وسمعت
كتاب النعماني (٧٤) وكتاب الصناعة الأصلية الذي أنشأه الخليل (٧٥)
الى سيبويه (٧٦) ثم تولى سيبويه نظمه وترتيبه ، وقرأت من
الأشعار جملة منها « السنة » (٧٧) ، وشعر الطائي (٧٨)
والجعفي (٧٩) ويسيرا من أشعار العرب والمحدثين ، وقرأت
في اللغة كتاب ثعلب (٨٠) وأصلح المنطق (٨١) والأمالى (٨٢) ،
وغيرها ، وسمعت جملة من الحديث على المشيخة ، وقرأت من علم
الحسبان : المعاملات والجبر والفرائض عملا . ثم كتاب أوقليدس
وما يليه الى الشكل القطاع (٨٣) ، وعدلت بالازياج الثلاثة ونظرت
في الاسطرلاب في سقط النقطة ونحوه ، يتعاقب على هؤلاء المعلومون
من صلاة الصبح الى صلاة العصر ، ثم ينصرفون عني ، وأخذ في
الراحة الى صبح اليوم الثاني . فلا تتركني نفسي فارغا من مطالعة
أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بفراة الشباب (٨٤) .

- (٧٠) لأبي بكر محمد بن الحسن الاندلسي (توفي ٢٧٩هـ / ٩٨٩م) .
- (٧١) لعبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (المتوفى ٣٢٧هـ / ٩٤٨م) .
- (٧٢) لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس ، توفي ٣٣٨هـ / ٩٤٩م .
- (٧٣) محمد بن السري بن سهل ، توفي ٣١٦هـ / ٩٢٨م .
- (٧٤) أبو العباس المبرد ، صاحب كتاب الكامل ، توفي ٢٨٥هـ / ٨٩٨م .
- (٧٥) الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٠ هـ / ٧١٩ - ٧٨٧ م) .
- (٧٦) سيبويه (١٤٨ - ١٨٠ هـ / ٧٦٧ - ٧٩٧ م) .
- (٧٧) وهي اشعار امرئ القيس ، والناطقة وعلقمة وعنبرة وزهير وطرفة ، وكلهم من شعراء العرب البارزين .
- (٧٨) أبو تمام الطائي (١٩٠ - ٢٣١ هـ / ٨٠٧ - ٨٤٥ م) .
- (٧٩) المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م) .
- (٨٠) ثعلب ، من رواد مدرسة الكوفة في اللغة ، توفي ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م .

- (٨١) لابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤ هـ / ٨٠٣ - ٨٥٨ م) .
- (٨٢) لأبي علي القاسمي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠٠ - ٩٦٦ م) .
- (٨٣) الشكل القطاع : قطعة من دائرة ، رأسها اما على مركزها ، واما على محيطها ، انظر مفتاح العلوم للخوارزمي .
- (٨٤) ابن العربي : العاضد من القواصم ، ص ١١ .
- القسري : فتح الطيب - ج ٢ ، ص ٢٥٠ ، والفكر التربوي عند العرب ، ص ٥١ - ٥٣ .

ولقد احتفظت لنا كتب التاريخ بما يمكن أن يلقى ضوءاً من
من الداخل على الرغبة المعنوية داخل نفوس الحكام في أعداد بعض
أبنائهم أعداداً خاصاً يتناسب ومسئولية الحكم ، حتى أصبح من أهم
الأهداف الرئيسية التي تلقن لهؤلاء الأولاد كيفية إدارة شؤون الحكم ،
وجاءنا هذا النص ضمن أول مذكرات شخصية ، سجلها تاريخ الأدب
الأندلسي ، وهي التي كتبها الأمير عبد الله سيف الدولة بن بلكين من
باديس ، أمير غرناطة على عهد الطوائف والذي حكم من ٤٦٦ إلى
٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٩٠ م ، يقول النص : وقد كنا - معشر أصل
بيت المملكة - نرى أن أكثر ما نتأدب به أعمال السياسة في طلب
الرياسة ، والسعي لها بكل الوجوه واحضار الأذهان ، ما لو أن المفرط
في بعض ذلك منا يكون أفقه الناس في سائرها من العلوم ، لكن
عندنا ناقصة ، لا يصلح لهذا الشأن ، حتى وقع التنافس عليه *

وقتلناها نحن علماً لرياضة أنفسنا لها ، وما أجزانا عليه آباؤنا ،
وبصرونا فيه من أولى شأننا *

وتلك صناعة وجب تعلمها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي
منها معاش الناس ، ولابد لهم من اتقانها . ولعمري أن الوالي أكثر
علماً وأحسن عقلاً : فإن جميع عقول الناس تفرغ لديه واليه تهدي
الأخبار ، ويتخاصم الناس ، وعنده يقع الطلب ، وترفع الحاجات
وتقع العنايات ، فيري ويستمع كل يوم جديداً لم يره أمس ...

ويواصل الأمير عبد الله قائلا :

ولما كان المظفر جدي - رضى الله عنه - قد أوتي من
الدعاء والتميز لأحوال الزمان ما لا حفاء به ، وأنه من أكد ما يجب
النظر فيه ترشيح أحد بنيته للولاية بعده ، وأن ذلك لا يتم إلا بتمرينه ،
وأعماله في جميع خدمته ، كي يتدرب ، ولا يخفى عليه أمر من أمور
الدولة ما يحتاج إليه غبه نفسه ، كنت ممن وقفه الله لبوه والأنساع
لوصيته - فأمر بإخراجي من المكتب إلى التفرقة بين يديه ، وقال لي

— تقرر الله وجهه — معك من الكتاب وتلاوة القرآن ما يكفيك ١
وهذا أولى ما نتعلم ، فعليك باحضار ذهنك لجميع ما يكون مني
وما ينتقضي في دولتي أيام هذه الفتن ، فان الزمان أثر والأيام أقصر
من أن تدرك ، تعلم كل شيء يعني به الملوك لأبنائهم •

فامتنات حبه ، وأخذت نفسي أولا بالتواضع له ، واختصار
كل شيء يقع منه في نفسه أنى أشره به الى تعجيل الولاية أو الحرص
على الرياسة ، بل كنت أتأبى له عن ذلك ، ولا أحكم بين اثنين الا عن
مشورته ومشاركة أهل السن والعمل من وزرائه ، وأنزل نفسي لهم
بمنزلة الابن ، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعا أرتضوني به للخلافة
من بعده • واتفق في ذلك رأيهم مع رأى الجد ، رحمه الله •

ولم يكن من نهار الا وأستفيد خيه فائدة من تجربة وحكمة (٨٥) •

وقبل ذلك نجد إشارة الى نفس المعنى ضمن قصة طويلة قد
وقعت بين الأمير عبد الرحمن بن محمد وجده الأمير عبد الله أوردها
لنا ابن حبان ، تستخلص منها أن الأمير قد تفرس في حفيده عبد الرحمن
النجابة فخرجه بأدبه ، وأجهد في تعليمه (٨٦) •

دور النساء :

يبدو أن النساء قد لعبن دورا هاما في تربية الأمراء والخاصة
في الأندلس ، وخاصة في المراحل الأولى من حياة هؤلاء ، ومن الطبيعي
أن تتولى النساء ذلك بحكم قيامهن بالأعمال المنزلية الخاصة بالحضانة
والرعاية لأطفال الخلفاء وكبار رجال الدولة ، ولذا كانت النساء اللاتي
كن يعشن في هذه الأماكن ممن يتبعن بالسمة الطيبة والأخلاق الحميدة ،
والعلم والثقافة الواسعين ، ولست أجيد داعيا لأن أذكر هنا كثيرا
من أسماء النسوة ، اللاتي كان يعج بهن بلاط الخلفاء والأمراء ، ومكانتهن

(٨٥) عبد الله (الأمير) : مذكرات ، ص ١١ — ١٣ •

(٨٦) ابن حبان : المتنبس (تحقيق أنطونيا) ، ص ٣٩ ، ٤٠ •

من الناحية العلمية غلبت خصص المقرئ فصلا كاملا للحديث عن نساء الأندلس (٨٧) . ويمكن لمن يرغب في المزيد ، الرجوع إليه - وانما أشير فقط كمثال على ثقافة تلك النسوة ، التي ما يقال عن «لبنى» ، كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، حيث وصفها الصدي بأنها كانت نحوية ، كاتبة ، شاعرة ، بصيرة بالحساب والعروض ، حاذقة ، توفيت سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . وفي موضع آخر قيل : انها كانت تكتب الخط الجيد ، تحوية شاعرة ، عروضية ، بصيرة بالحساب ، مشاركة في العلم ، لم يكن في عصرهم أنبل منها ، خطاطة خطاطة جدا (٨٨) .

وأكثر النصوص دلالة على قيام النساء بمهمة تعليم أبناء الخاصة خلال مراحل عمرهم الأولى قد قصه علينا ابن حزم القرطبي حيث يقول :

ولقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ، ما لا يكاد يعلمه غربي ، لأنني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وأنا في حد الشباب وحين تنقل وجهي ، وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الأشعار ودربنني في الخط (٨٩) .

وننقل هنا ثقافة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الموحد كدليل آخر على التعليم الذي يتلقاه أبناء الخلفاء والأمراء

(٨٧) المتري : نفع الطيب ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٨٨) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

السيوطي : بقیة الوعاة ، ص ٣٨٣ .

(٨٩) ابن حزم : طوق الحمامة (تحقيق برشيرا) ، ص ١٢٦ ، والترجمة الفرنسية ، ص ١٢٧ .

Asin P. : Ibn Hazm de Cordoba, I. 39.

Gomez Nogales : Teoria u clasificacion de las ciencias segun Ibn Hazm, p. 66.

أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٣١ .

Garcia Gomez, E. : El Collar de La paloma. غارثيا غومت :

في ذلك الحين - يقول عبد الواحد المراكشي ، انه كان : حلو اللفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والاسلام ، صرفة عنايته الى ذلك أيام كونه بأشبيلية واليا عليها في حياة أبيه ، ولقي بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه .

أخبرني من لقيته من ولده ، كآبي زكريا ، وأبى عبد الله ، وأبى ابراهيم اسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكة ، بعيد المهمة ، سخيا جوادا ، استعنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال ، هذا مع إيتار العلم شديد ، وتعطش اليه مفرط صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منى ، اما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى ، حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن ، هذا مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة في علم الأدب ، واتساع في حفظ اللغة ، وتبحر في علم النحو حسبما تقدم ، ثم طمح به شرف نفسه ، وعلو همته الى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيرا من أجزاءها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروفة بالملكي أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى (٩٠) .

(٩٠) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٤٦ .

كان لتعليم الأمراء ، بعض الجوانب المؤثرة اما على حياة المعلمين أنفسهم أو على طلبتهم ، ولا شك أن القيام بمهمة مؤدب الأولاد الخلفاء كان يحمل المؤدب الى مكانة اجتماعية عالية جدا ، حتى لقد قيل ان الحاجب جعفر بن عثمان ، أشهر الوزراء على عهد هشام الثاني ، قبل أن يقتله المنصور بن أبي عامر ، وصل الى ما وصل اليه ، لأن والده كان معلم الخليفة الحكم في صباه (٩١) . والوزير عيسى بن سعيد من أكثر وزراء الدولة العاصمية شهرة وجاها ، وقد نال ذلك لأن والده كان معلما (٩٢) . لكنها من جانب آخر قد تكون سببا في خلق بعض المشاكل للمعلمين مما جعل بعضهم يتفادى القيام بهذه المهمة ، فقد رفض محمد بن هشام المرواني صاحب كتاب « أخبار الشعراء » أن يقوم بتأديب أولاد عبد الرحمن الناصر قائلًا : أن الفتيان لا يتعلمون الا بشدة الضبط والفيد والأغلاظ ، وأنا أكره أن أعامل بذلك أولاد الخليفة فيكرهوني ، وقد يجحد علي بعضهم ذلك الى أن يقدر على النفع والضرر (٩٣) .

وبعض الأساتذة كان يرغب ذلك اعتزازا بنفسه ، ويعلمه ، فيقال أن داود بن يزيد الغرناطي انتقل الى باغة من أجل أن السلطان دعاه لاقراء بنييه ، فقال : والله لا أهنت العلم ، ولا مشيت به الى الديار (٩٤) .

وهناك أيضا بعض الجوانب التربوية الهامة التي روعيت في تربية الأمراء ، وخاصة أولئك الذين كانوا يتلقون تربيتهم في منازلهم ، وأقصد بذلك محاولة اقامة اتصال بينهم وبين الأطفال الذين هم في سنهم

(٩١) ابن الفرضي : علماء الاندلس ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(٩٢) ابن حيان : المتين (تحقيق عبد الله جمال الدين) ،

ص ٣١ .

(٩٣) المقرئ : النفع ، ج ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٩٤) السيوطي : بقية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .

بعض الجوانب الأخرى :

من أبناء الأمراء أو البلاط حتى لا ينمو لديهم شعور العزلة ، فنجد أن عبد الرحمن الناصر كان يتلقى تعليمه مع أقرانه ، وأن الحكم المستنصر ، قد جعل بعض الصبيان مع ابنه هشام ، في موضع حضاره (٩٥) - هذا في الوقت الذي يشكو فيه ابن حزم من تأثير عزلته وحيدا بين النساء - يصف ذلك المستعرب الأسباني الكبير آسين بلاثيوس ، قائلا :

إن هذه التربية الأولية المنزلة ، وذلك الانغلاق ، قد أثرا دون شك في تكوينه الخلقى وفي مزاجه النفسى (٩٦) .

انه لم يكن يقتصر في تأديب الأمير على مؤدب واحد ، وإنما من المحتمل أن يكون له أكثر من مؤدب ، فنجد أن الحكم بن هشام قد وضع له من المعلمين : سوار بن عبد الرحمن (٩٧) وكيبة بن ربيعة (٩٨) . علاوة على أن الثمر بن نمير حينما وصل الى الأندلس على عهد الأمير هشام ضمه الى تأديب ولده (٩٩) .

أما الأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد استأدب لأولاده كلا من عبد الملك بن أيمن بن فرحون (١٠٠) ، وأبى بكر محمد عبد الله بن بكر الكلاعى (١٠١) وعثمان بن المثنى (١٠٢) ، وعبد الله بن سليمان المنذر (١٠٣) . والحكم المستنصر بالله قد وضع لابنه أكثر من معلم ، كما سبق أن بينا خلال صفحات هذا البحث .

(٩٥) ابن حيان : المقتبس (تحقيق الحجبى) ، ص ٧٧ .
Garcia Gomez, Anales Palatinos p. 100.

(٩٦) Asin Palacios : Ibn Hazm de Cordoba, I. 38.

(٩٧) القسرى : النسخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٩٨) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٩٩) ابن الفرغى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(١٠٠) الراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ١٥ .

(١٠١) ابن الفرغى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

ابن سعيد : المغرب فى جلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(١٠٢) ابن الفرغى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(١٠٣) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٢٣٦ .

ومن جانب آخر ، فإنه من الممكن أن يختار الخليفة معلما لكل واحد من أبنائه ، أو معلما واحدا ، لأكثر من واحد من أبنائه .

فبالنسبة للحالة الأولى ، نجد أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، يختار الفقيه محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي ليكون مؤدبا لابنه المغيرة (١٠٤) .

(١٠٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٦٩ .
السيوطي : تنقيح الوعاة ، ص ١١٣ .

الفصل الثامن اهتمام الخاصة بالتعليم

أشارت بعض كتب تاريخ التربية التي تناولت تاريخ التربية الإسلامية إلى أن أهل الأندلس لم يقدموا كثيرا للعلماء أو لطلبة العلم ، وأن مسجد قرطبة ، على عظمته ، وكثرة ما قيل فيه ، لا نجد بين أيدينا ، ما يفيد ما أوقف على هذا المسجد من أموال ومن أوقاف : فيقول الأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمه في كتابه « تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى » : ويبدو أن حياة الطلاب بالأندلس كانت أشق من غيرها في بلاد الإسلام الأخرى ، وبينما كانت رواتب الطلاب بالشرق منتظمة ثابتة ، ظلت حياة الطالب الأندلسي قائمة على الكسب الشخصي أو الصدقات ، التي يجود بها أهل الخير ، « وقليل هم في تلك الديار » .

ولعل قيمة نقلناه من قول بقى بن مخلد ، تصويرا واضحا لبعض الطلاب الأندلسيين ومعيشتهم .

وعلى كثرة ما قيل في وصف الجامع الأعظم بقرطبة فاننا لا نجد فيما كتب ذكرنا لأي نوع من الرواتب للأساتذة أو الطلاب ، وسبب ذلك ، هو تأخر الحركة الدراسية بالأندلس ، وغلبة الحرص والبخل على أهلها . وربما كان لاختلاطهم بالعناصر الأوروبية ، أثر في تغلغلهم بأخلاق بعيدة عن الكرم العربي والشرقي الذي تميزت به بلاد المشرق فاذا رأوا شخصا قادرا على الخدمة سبوه وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، وهذا أمر محمود ، ولكنه دليل على مبلغ حرصهم على المال ، بالنسبة للمشاركة (١) .

(١) محمد غنيمه : تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ، ص ٢٦٨ .

وتلك فكرة طيبة ، ولكن من شأنها أن تجعل التعليم مقصورا على الفادرين فقط ، أرستقراطيا لا يقدر عليه الا أهل الثراء ، وهذا ما يدفعنا الى القول بأن التعليم عند أهل المشرق كان أكثر ديمقراطية وأرحب مجالا من التعليم الأندلسي وأكثر رعاية للمذاهب والكفايات الانسانية التي قد يقضى عليها العجز ويقتلها الفقر .

والحقيقة ، أن الغالبية العظمى ممن أرخوا للتعليم أو للتربية في الاسلام ، هم من الباحثين المشاركة : أى أن معظمهم من بلاد المشرق الاسلامى ، ولذلك لم يتيح لأى منهم التعمق الكافى فى المراجع الأندلسية خاصة ، مما جعل الأندلس فى كثير من المؤلفات ، لا تحظى الا بأقل القليل من الدراسة والبحث .

ان هذه هى أول مرة يحظى فيها تاريخ التعليم فى الأندلس بدراسة جامعية متخصصة ، تسعى لالقاء الضوء على جوانبه المتعددة . ولقد أتيح لكاتب هذه الدراسة أن يعيش من حياته ستة أعوام كاملة على الأرض الأسبانية - أى على نفس المسرح الجغرافى الذى جرى عليه هذا التاريخ الأندلسى ، كما أنه قد أتيح له أن يطلع على أكبر قدر ممكن من المراجع والمصادر التى تتناول كافة مظاهر الحياة فى الغرب الاسلامى عامة والأندلس بصفة خاصة ، ويمكن لى أنؤكد بأن الحقيقة التى لا خفاء فيها ، أن أهل الأندلس قد قدموا للعلم والعلماء وللطلبة كل الوسائل التى ساعدتهم على أن يرتفعوا بالأندلس فى مجال العلم والتعليم ، الى أعلى درجة ممكنة ، مما جعل من الأندلس عامة ، وعواصمه الكبرى خاصة مشعلا للثقافة ، ومركزا للتعليم خلال العصور الوسطى .

لقد حاولت فى بداية الرسالة أن أبين اهتمام حكام الأندلس بالعملية التعليمية ، واقتصرت على تناول مجهودات الأمراء والخلفاء والملوك والسلاطين فقط ، وهنا سأتناول فى ايجاز دور بعض الخاصة فى الاهتمام بالعلم والتعليم ، والانفاق على الطلبة والعلماء ومراكز

التعليم في الأندلس ، حيث قاموا برعاية الفقراء ، وتسهيل سبل العلم لهم ، ومساعدتهم ماديا حتى وصلوا الى درجة من العلم ، لا بأس بها ، وهناك من حبس داره على الطلبة ، ومن حبس كتبه عليهم — والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فلنستعرض بعضها منها :

تحدث كتب التراجم عن « أبى عبد الله محمد بن سليمان ابن الخطاط الرعيني الأعمى القرطبي (المتوفى ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م) (١) أن أباه كان يبيع الخطبة بقرطبة ، ونشأ هذا الأعمى نشأة أعانتته على أن بلغ غاية من العلم الحديث والعلم القديم .

وكان بنسب ذكوان (٢) ، هم الذين كفوه مؤونة الدهر ، وفرغوه للاستغفار بالعلم ، وكان الغالب عليه النطق (٣) .

أما فرج بن أبى الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم اليخسبي ، من أهل طليطلة (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) ، فقد غات أهل زمانه في العلم والعقل والفهم ، وحبس داره على طلبة أهل السنة (٤) .

وأبو العباس أحمد بن رشيق (المتوفى بعد سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، الذى تولى جزيرة ميورقة « فكان ينظر في أمور الجهة التى كان فيها ، نظر العدل والسياسة ، ويشتمل بالثق والحديث ، ويجمع العلماء والعالمين ويؤثرهم ، ويصلح الأمور جيده » (٥) .

(٦) الحميدى ، ص ٥٣ ، والضبي ، ص ٧٧ ، يذكر أن عام الزفاة في حدود ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وينس ابن حبان على أن ولماة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، انظر المتن ، ص ٨٨ ، والمغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٧) انظر عن بنى ذكوان بن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٨) المصادر المذكورة في الملاحظة رقم (٢) .

(٩) ابن بشكوال : النبلة ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٠) الضبي : بنسبة الملنس ، ص ١٧٨ — الحمى : التاريخ

سى ، ص ٢٦٠ .

سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف (المتوفى ٦٨٠هـ / ١٢٧١م) ،
كان والى ميورقة في عام ٦٢١هـ / ١٢٢٣م ، انتسابه أهل العلم
وطلبته من بلاد الأندلس وبر العدو ، فكان يحسن إليهم ويستجلب
ودعهم ، ويجيد القيام بهم ما أقاموا لديه ، ويحسن صرف من أحب
الانصراف منهم (٧) .

محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي
(المتوفى ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) كان فاضيا ، وكان محبا لأهل العلم ،
مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ، ليحب إليهم العلم
والتمسك به ، ما رأينا بعده في هذا مثله (٨) .

سعدون بن مسعود المرادي (المتوفى ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) ،
كان متقدما في علم العربية والأدب ، حسن المشاركة في الفقه كثير
البر بطلبة العلم ، واسع الصدر لهم ، حسن الخلق (٩) .

أبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج بن اسحق التجيبي
المغامي : كان إماما في القراءات ، ومن أهل الإصلاح ، توفي في أشبيلية
في منتصف ذي القعدة (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) ، وحبس كتبه على
طلبة العلم الذين بالعدوة (١٠) .

محمد بن محمد بن محارب الصريحي ، توفي بمالقة في أوائل
عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ، بعد أن تصدق بمال كثير ، وعهد ببيع مجيد
لطلبة العلم ، وحبس عليهم كتبه (١١) .

(٧) الراكشي : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٣١ .

(٨) ابن فرحون : الفيحان المذهب ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

ابن عياض : التعريف بالتفاضي عياض ، ص ٥ .

(٩) الراكشي : الذيل والتكملة ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

(١٠) ارسلان : الحلال السنديسية ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(١١) ابن الخطيب : الاطاعة في أخبار غرناطة ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

ويقول ابن الفريسي عن قاسم بن سعدان بن عبد الوارث ،
(الموفى ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م) أنه : لم يزل في نسخ ومسايلة إلى أن
مات ، ولم يحدث ، وحبس كعبه ، فكانت موقوفة عند محمد بن محمد
ابن أبي الدليم ، وكثير من سماعنا عليه منها (٣١) .

وعلاوة على ذلك ، فهناك في التاريخ الأندلسي ، ما هو أكثر دلالة
من ذلك كله . هناك الفقهاء المعلومون الذين كانوا يقومون باطعام
طلبتهم ، ومشاركتهم في الطعام ، واعداد مكان الدراسة بما يحقق
الراحة الكاملة لهؤلاء الطلبة ، ولتضرب مطلبين على ذلك فقط ، يبينان
اهتمام الفقهاء بطلبتهم اهتماما كبيرا ، واعطاءهم اياهم عناية خاصة .
يجكي لنا ابن الأبار ، في ترجمته للنعمان بن المنذر ، ما يلي :

أنه من أهل قرطبة ، صاحب أبا عبد الله محمد بن عمر بن لجابة ،
وحكى عنه . قال ابن حبان : قرأت بخط عبيد بن عبد الله الشاعر قال :
حدثني أبي عن النعمان بن المنذر ، عن الفقيه محمد بن عمر بن لجابة
قال : كنت يوما عنيد أبي وهب عبد الأعلى في حجابة بقرب مقبرة
قريش ، وكان يعمرها بيده في نشر من الطلبة نسمع عليه ، اذ حضر
عداؤد هيئته اليينا بأكل معه ، اذ استأذن عليه هاشم بن عبد العزيز
صاحب الأمير محمد وزيره الأثير فأذن له على تكسره ، ودخل ونحن
نأكل فبزا قدمه الشيخ أدمه من بقل الجنان ، فجعل يداعب الشيخ
بنصناعة طرفه ، ولا يندلق الشيخ معه ، ثم قال له : أبا وهب
أما تدعوني إلى طعامك ؟ تخاف أن نلتهمه ! فقال له : أنه ليس من
الأطعمة التي توافقك ، فقال : بلى ، وإن لم يكن غانا نتبرك بما نصيب
منه ، ومسد هاشم يده إلى لقمة من الخبز يغمسها في البقل ، وجعل
يلوكها ولا يستسيغها ، فلما فرغنا سأل الشيخ عن مسألة فقه جاء لها ،
فأفتاه الشيخ بما عنده ، فأظهر هاشم سروره بجوابه وقام لينصرف ،

(١٢) ابن الفريسي : علماء الأندلس ، ص ٣٦٧ .

القاضي عياض : ترتيب الدارك ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

فتمحرت لأقوم معه ، فضرب الشيخ على يدي ، وأجلسني حتى خرج هاشم ، غلبا مضى قال لي : ما أردت بهذا ، قلت : أردت إكرامك في مجلسك . فقال لي : بغس ما صنعت يا هذا ان كنت تطلب العلم لله تعالى ، فأعزه يعزك الله تعالى . وان كنت تطلبه للدنيا فخذ عنا ، وكن خادما لهؤلاء متصرفا بين أيديهم ، فهو أنفق لك عندهم ، وأؤكد لك عند خالك ، فأجلبني شديدا ، وحافظت على وصيته (١٣) .

وأكثر الأمثلة دلالة على عناية الأستاذ بطلبته ما يصل إلينا ، عن أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري ، من أنه كان فقيها ، متفنا ، كريم النفس ، أخذ عن جماعة من علماء بلده ، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة مع أبيه .

حدث عبد الله بن سعيد بن أبي عون قال : كنت آتي إليه من قلعة رباح وغيرى من المشرق ، وكنا نيفا على أربعين تليذا ، فكنا ندخل في داره في شهر « نونير » و « دجنير » و « وينير » في مجلس قد فرش ببسط من الصوف مبطنات ، والحيطان بالليود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفي وسطه كانون في طول قامة الإنسان ، مملوءا فحما يأخذ بدفئه كل من في المجلس ، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا ، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد فنأكل من تلك الثرائد حتى تشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لونا جديدا ونحن قد رويانا من ذلك الطعام . فكنا ننتقل قرب الظهر مع قصر النهار ولا فتشئ حتى نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة أشهر ، فكان ذلك كرما وفخرا لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة (١٤) .

وأحمد بن محمد بن عبد العزيز التجيبي المتوفى ٨٦٢٩/١٢٣١م

(١٣) ابن الأبار : نكلة الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٢ . و ص ٧٥١ .
طبعة عزت الخطار .
(١٤) ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤١ .

كان منزله « مأوفا لطلبة العلم ، يأوون اليه ويحتكمون فيه احتكامهم في أمأكتهم » (١٥) .

وأحمد بن أبى عبد الله محمد ، المعروف بابن الغشاي ، المتوفى ٥٦٣٧ / ١٢٣٩ م ، « كان كثير الكتب في كل فن من العلم على تفريقها سمحا لطلبة العلم بها ، وربما وهب منها للتمسك الأصل النفيس الذى يمز وجوده ، ويعظم جدواه ، وترتفع قيمته احتسابا به وحسا على التعلم » (١٦) .

ولقد كان للأندلسيين إحسان بقصمه العلم بمقام الزاسع ، فقد حرصوا على التعلم ، وساعدوا الغير على ذلك ، وقد ضرب لنا داود بن عيسى بن جوية الكلاعى ، من أهل قرطبة ، مثالا رائعا على التعاون من أجل مساعدة الآخرين على التعلم ، حتى ولو فاقوه في ميدان العلم ، فيقال أنه « رحل الى الشرق ، واجتمع مع بقى بن مخلد ، وكان بقى لا مال له ، وكان داود واسع المال ، فسأله بقى أن يتيح له من ماله ما يشتري به الكتب ، ويجمع الدواوين ويكون سماعهما واجدا ، وقال له : أرجو أن ينفعك الله بذلك ، فأجابه داود الى ذلك ، فكان بسبب اكثار بقى من الرواية والجمع ، ولما انصرف الى الأندلس ، كتب بقى الكتب لنفسه » (١٧) .

أما بالنسبة للمرتبات الثابتة المخصصة للأساتذة والطلبة ، فقد تناولت هذا تفصيليا ، في الفصل الخاص بالأجور ، ولكن يجب التأكيد هنا بأن مسألة الأجور في العالم الاسلامى في عصوره الوسطى قد أخذت أكثر من شكل واحد وفي الأندلس أيضا وجدت الأجور ، ودفعت لمستحقيها بأكثر من طريقة ، أما عينا أو نقدا ، ونضرب مثالا على ذلك : بأحمد بن خالد ، الذى نقله الخليفة عبد الرحمن الثالث

(١٥) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٤٦٥ .

(١٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٥١٢ .

(١٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ط القاهرة ، ص ٢١٢ .

الى المدينة بقرطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع قربه ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والادام والناسخ (الدراهم والدنانير) ، وله ولثله في بيت المال حظ (١٨) .

ولعل في ذلك ما يبين وجود منازل موقوفة على المسجد تستعمل لاقامة الغرباء والفقهاء وطلبة العلم . فاذا أضفنا الى ذلك كله عناية أهل الأندلس بالغرباء ، وأن قسما كبيرا من الغرباء كان من الطلبة القادمين الى الأندلس للتحصيل والرواية لأمكن لنا أن نؤكد أن أهل الأندلس بكافة مستوياتهم ، شعبا وحكومة ، قد بذلوا الكثير في سبيل العلم والتعليم (١٩) ، وليس ذلك بغريب على شعب عرف قيمة العلم فسمى اليه ، وعرف قيمة العلماء فقدرهم تقديرا عظيما .

واختتم بشهادة أوردتها المقرئ في حق الأندلسيين قائلا :

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم ، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجتهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس ، لأن هذا عندهم في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ، ويحال عليه ، وينبه الى قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياح ، أو ما أشبه ذلك (٢٠) .

(١٨) المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ ، طبعة القاهرة ، و ج ٢ ، ص ١٥٨ ، طبعة دوزي ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، طبعة احسان عباس .

(١٩) أنظر في عناية أهل الأندلس بالغرباء ، كتاب الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٦٨ .

(٢٠) المقرئ : نفع الطبيب ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

خاتمة

أن النظام التعليمي من أهم المسائل التي تميز حركة الشعوب على طريق تطورها وارتقائها ، كما أنه الأمان الذي تبنى عليه حضارات الأمم ، ومن هنا كانت أهمية دراسة الأندلس ، للتعرف على أسس وعمل هذه الفترة الزاهية من تاريخ الأندلس في العصور الوسطى .

ولقد تبين من هذه الدراسة ، أن المسلمين في الأندلس قد وجهوا اهتماما خاصا للتعليم ، ابتداء من السنين الباكرة في حياة الطفل ، واستمرارا إلى سن الكهولة بل وإلى المات .

حاولت الأسرة الأندلسية تعليم طفلها باكرا ما أمكن ذلك ، وتميزوا في هذه المرحلة عن باقي الأقاليم الإسلامية الأخرى ، حين لم يركزوا كل جهودهم ، على تعليم القرآن فحسب ، وإنما خلطوا مع القرآن أشعار العرب ولغتهم ، مما جعل الأندلسيين يتمتعون بقدره لسانية كبيرة ، ومستوى لغوي عال .

أما مدرسو المرحلة الأولية ، فقد تميزوا عن زملائهم في باقي أنحاء العالم الإسلامي بارتفاع ثقافتهم ، على الأقل لم نجد في مجالات الأدب الأندلسي ، ما يشير إلى مثل ما كان يعانيه معلمو هذه المرحلة في بلاد المشرق ، ولقد ساعد على ارتفاع مستواهم الثقافي أن المستوى العام للشعب الأندلسي كان طيبا ، أما المستوى الاقتصادي فكان أيضا لا بأس به مما دفع الناس إلى الانقبال على تسليم أولادهم واجتهادهم في الحصول لهم على معلم ، كفا أن الدولة قامت من جانبها بتوفير التعليم المجاني لأبناء الفقراء ، مثلما قام به الحكم المستنصر من إنشاء ٢٧ مكتبا في قرطبة وحدها ، وأوقف جوانيت المبراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين .

وقد مورس التعليم في المرحلة الأولى في المكاتب بصفة رئيسية ، واتخذت أماكنها بصفة عامة بجوار المساجد أو في منازل المعلمين ، أو في أماكن خاصة قام المعلم باستئجارها ، ولقد لعب المنزل في هذه المرحلة دورا رئيسيا ، حيث قام الآباء أو الأخوات أو الأقارب ، بتعليم أطفال الأسرة ، أما بصفة شخصية ، أو مباشرة تعليمهم على أيدي معلمين محل ثقتهم .

وكانت المرحلة الأولى من التعليم ، تبدأ في المكاتب .

وقد بدأت هذه المكاتب في الظهور في الأندلس ، في فترة مبكرة جدا ، أرجعتها إلى السنوات العشر الأولى من الفتح ، ثم انتشرت بعد ذلك انتشارا كبيرا في مدن وقرى الأندلس ، وكانت هذه المكاتب تتقبل الطفل في سن السادسة تقريبا ، ويستمر فيها مدة تتراوح بين ستة وسبعة أعوام ، يستكمل خلالها حفظ القرآن الكريم ، ويتعلم القراءة والكتابة .

وبعد أن يتمكن التلميذ من استيعاب دروس الأساتذة ، ويعرف جيدا القراءة والكتابة ، كان يترك المكتب ، ويبدأ في التردد على حلقات الشيوخ في المساجد بادئا بذلك المرحلة الثانية من حياته التعليمية .

وتتميز المرحلة التعليمية الثانية بعدم التقيد بوقت دراسي معين ، أو برنامج دراسي محدد ، حيث ارتبطت الدراسة دائما بوقت الأستاذ وظروفه فالأساتذة الذين تخصصوا في حياتهم للتعليم ، أعطوا دروسهم على فترتين خلال اليوم ، أحدهما صباحية والثانية فيما بعد الظهر .

أما الأساتذة غير المتفرغين فنقد تنوعت ساعات دروسهم ، وإن كانت عادة تكون في الصباح .

كما تنوع البرنامج التعليمي تنوعا واسعا ، متخذاً أساسا ثابتا من العلوم الدينية واللسانية ، ثم منطلقا بعد ذلك لدراسة باقي فروع

العلوم الانسانية والتخصص فيها ، والمواد التي درست خلال هذه المرحلة يمكن اجمالها في المجموعات الثلاث التالية :

١ - العلوم الدينية ، وتشترك هذه المجموعة لتشمل كل المواد المتعلقة بدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي .

٢ - العلوم اللسانية ، ويتصد بذلك كل المواد المتعلقة باللغة والنحو والأدب والبيان .

٣ - العلوم العقلية ، وتشتمل بدورها على أربع مجموعات فرعية هي العلوم الطبية والعلوم البحتة والعلوم الفلسفية والعلوم الاجتماعية .

وقد برز الأندلسيون كثيراً في مجال العلوم الدينية ، وخاصة في مجالات دراسات الفقه المالكي ، حيث تصفوا انتاجهم التشريعي والديني على هذا الجانب ، وقارموا بكل شدة المذاهب الدينية الأخرى ، دون أن يعني ذلك عدم ظهورها المطلق على أرض الأندلس .

أما في مجال اللغة والأدب ، فإن مستوى الأندلس قد ارتفع ليضاهي المدن المشرقية كالقاهرة وبغداد ، ويتمكن قرطبة من أن تتحول الى مركز من أهم المراكز الفكرية في العالم في القرن الرابع الهجري / السادس الميلادي .

وقد بدأت الدراسات العقلية متأخرة نسبياً في الأندلس ، ولكنها تطورت بسرعة كبيرة جداً . وفي القرن الرابع الهجري ظهر عدد كبير من الأعلام والمفكرين والمعماريين والفلكيين ، ووصلت الى قممها خلال القرن الخامس والسادس الهجريين .

وتتم تميزت الدراسات الفلسفية ، ضمن هذه المجموعة ، بتميزها للاضطراد والمطاردة ، ولعمل ذلك كان عاملاً مساعداً على تطورها سريعاً ، ويتميز الخاصة ، حتى أن أكبر عدد من فلاسفة المسلمين

قد برز في الأندلس ، كما أن هذه المادة قد وجدت الحماية من الدولة في بعض الفترات مثلما حدث على عهد الموحدين وعلى عهد ثاني ملوك الدولة النصرية .

ويؤكد أبو حيان أثير الدين ، أن واحدا من أسباب هجرته الى المشرق أنه كان لدى السلطان عالم في الطبيعة والمنطق والفلسفة قال له يوما انني أخشى الموت وأريد أن تجعل لي مجموعة من الطلبة أعلمهم هذه العلوم ينفعونك بها بعدى ، ووقع الاختيار على أبي حيان ، وهرب الى المشرق حتى لا يجبر على ذلك على الرغم مما جعل له من الجرايات والكسي والأرزاق (١) .

وكانت المساجد التي انتشرت في كافة المدن والقرى الأندلسية هي المركز الرئيسي للتعليم في هذه المرحلة ، ومن ثم فإن كل مسجد لم يكن الا مركزا تعليميا ، وهناك المساجد الجامعة التي ضمت بين حدرانها أكثر من حلقة تعليمية .

وتتميز هذه المرحلة أيضا بأنها ليست مرحلة متوسطة بين التعليم الأولي والتعليم النهائي ، وإنما بأنها مرحلة متوسطة ونهائية في ذات الوقت ، بمعنى أنها كانت تعد الطالب تماما للحياة العملية ، كما أنها كانت الأساس لمن يرغب في التخصص والتعمق ، ولذلك فإن السن فيها أيضا كان غير محدد ، فما أن كان الطالب ينتهي من المكتب ، ويبدأ في التردد على هذه الحلقات ، هبط يصل الى المستوى الذي يرغب فيه في التوقف عن الدراسة . وأسهمها كان يميز الطالب ، طوال المدة التي كان يقضيها فيها ، هو ارتباطه بأستاذ معين ، حتى لقد عرف بعض الطالاب بأساتذتهم ، وتخصصوا في موادهم .

وقد تمثلت طرق التعليم الرئيسية في الاقراء والاسماع والاملاء ، حيث كان يجلس الأستاذ في حلقة معينة ، اما بالمسجد أو بالمكان الذي

(١) السيوطي : بنية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٥ .

اتخذهُ لتدريسه ، ويقوم بالقراءة من كتاب ، أو أن يتولى طالب من الحاضرين القراءة ويستمتع إليه الآخرون ، بينما يقوم الأستاذ بمهمة التصحيح .

وقد سادت العلاقات الطيبة بين الأستاذ وطلابه ، فالأول مسئول عن تعليمهم وتنويعهم وبل كل الجهد في صالحهم ، أما الثاني فمطالب بأن يعكف على الدراسة ، وأن يحترم أستاذه ، وأن يمضى على قواعد وعادات المجالس العلمية .

كان أستاذ هذه المرحلة ، أسنذا مثقفا ، واسع الاطلاع ، تتجلى فيه معرفته الجيدة بمادة تخصصه ، وعلمه بالمواد المتصلة بها ، ومن السمات البارزة في معلمى هذه المرحلة ، موسوعيتهم العلمية ، بمعنى أن الأستاذ كان يجيد أكثر من مادة ، وأكثر من علم ، وخاصة في مجالات العلوم العقلية فنجد أن كافة الأطباء تقريبا كانوا يعرفون علم الفلك والرياضيات والفلسفة ... الخ .

ومستوى المعلمين الاقتصادى والاجتماعى كان عاليا ، فقد شكلوا من الناحية الاجتماعية طبقة عرفت ببطقة الفقهاء ، احترمتها الشعب لعلمها ودينها ، واحترمتها الحكام لحاجتهم الى تأييدهم ولعلمهم بمكانتهم لدى العامة .

أما من الناحية المالية ، فإن المعلمين كانوا ينقسمون الى فئات : فئة تتلقى أجرها من الدولة ومن بيت مال المسلمين ، وفئة أخرى وهى الغالبية تتلقى أجرها بناء على عقد مع ولى أمر التلميذ ، والفئة الثالثة تتقاضى أجرها من بعض الأعمال التى توكل إليها في المساجد ، مثل الامامة أو الصلاة ، أو الأذان أو الاقراء .

وتبين الدراسة أن دخل المعلمين كان مرتفعا حتى أن بعضهم كان يجنى من المهنة أكثر من ٤ آلاف درهم شهريا .

وعلاوة على ذلك ، وجد بعض المعلمين ممن قاموا بالتدريس مجاناً ولم يكن للمعلمين رى معين ، حتى شرق الأندلس ، لم يلبسوا العمامة التي كانت شائعة في غرب الأندلس عامة ، كما أنهم هؤلاء يلبسهم ومظهرهم اهتماماً كبيراً وخاصة في أوقات التدريس .

أما المرحلة التعليمية الثالثة ، فهي مرحلة تكميلية وتخصصية ، ولذلك فليس لها سن البداية أو النهاية ، فهي مرحلة استكمال للمعلومات وتجديد لها ، وهي تستمر مدى الحياة .

وقد وجدت هذه المرحلة التعليمية في أماكن كثيرة : في المساجد الجامعة وفي المدارس ، وفي المكتبات ، وفي مجالس الأمراء والخاصة ، وفي حوانيت الوراقة ... الخ .

ولكن أهم سميتين تميزت بهما هذه المرحلة ، هما المدرسة والرحلة .

فالمدرسة هي مكان خصص للتعليم ، أشرفت عليه الدولة ، وساهم فيها الأمراء والأغنياء بحيث أمكنها أن تقدم للطالب بالإضافة إلى الناحية العلمية ، أماكن للإقامة وضماناً بالتغذية .

وظهور المدارس في الأندلس يشوبه الغموض الكثير ، والبيانات الموجودة لا تكفي تماماً لإثبات ظهورها ، لكن على الرغم من ذلك أمكن الإشارة إلى امكانية ظهور المدارس في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، كما أنها أصبحت مؤكدة الظهور ، على عهد الموحدين .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، ظهرت مدرسة أخرى في مرسية ، وبعدها مدرسة صوئية في مالقة ، ثم مدرسة غرناطة في القرن الرابع عشر ، ومن المحتمل أن مدينة غرناطة قد شهدت أكثر من مدرسة في ذات الوقت .

أما المرحلة الأخيرة فهي قمة الحياة التعليمية ، وفيها يرحل الطالب من بلده الى أقرب مدينة أو الى عاصمة الاقليم ثم الى عاصمة مصر ، بالإضافة الى الرحلة التي كانت تنتج الى خارج مصر . وقد أوقع الأندلسيون كثيرا بالرحلات وظهرت أسماء الكثيرين منهم في مجالس التعليم في القاهرة وبغداد ومكة والمدينة وغيرها من المدن الإسلامية الكبرى ، وأصبحت الرحلة شيئا أساسيا في التكوين الثقافي للأندلسيين ، وأعطوها عناية كبرى ، ومن ناحية أخرى حينما نما المستوى الثقافي للأندلس ، فاندنا نجد أن كثيرا من الأندلسيين كانوا يصلون الى مكانة علمية ، دون القيام بالرحلة الى المشرق .

ولقد خدمت الرحلات في الاطلاع على تطور الحضارة العلمية في المشرق وفي نقل الكتب والأعمال العلمية من هناك الى الأندلس .

وفي نهاية هذه المراحل الدراسية ، كان لابد من منح شهادة أو إجازة للدارس تبين أو تشهد بقيامه بدراسة كتاب معين أو سماعه من أستاذ ما .

وانتشرت الاجازات بنوعها الشفوي والكتبي ، وتطورت كثيرا في مضمونها ، فظهرت الاجازة الفردية ، واجازات السماع ، والاجازات العامة .

فإن ذلك هو النظام العام للتعليم الذي اتبع في الأندلس ، وتضمن هذا الاطار كانت هناك بعض شرائح المجتمع ، التي تميزت ببعض الخصوصيات - ومن هذه الشرائح أبناء الخلفاء والأمراء والوزراء والخامسة عموما . وتميزت هذه الشريحة في تعليمها بأكال الطفل الى مؤدب من مستوى ثقافي عال يتولى تعليمه .

ولا ينامح الدراسي لهذه الشريحة الاجتماعية لم يختلف كثيرا في تقاد عن البرنامج العام ، فهو يتناول أيضا في الأساس العلوم

الدينية واللغوية . ثم يمضى متطورا مع ميول الطفل وامكانياته في دراسة علوم أخرى . ولكنه اختلف مع هذا البرنامج العام ، تبعا للمستقبل الذي ترغب العائلة في اعداد ابنها له وخاصة بالنسبة لأبناء الخلفاء .

أما الشريحة الثانية : فهي الخاصة بتعليم النساء ، حيث لم تؤكد المصادر بصورة واضحة ذهاب البنت الى المكتب ، ومن المؤكد عدم تردها على حلقات الدرس ، ولكن ذلك لا يعنى عدم تعليم الفتيات ، فلقد تولى الآباء هذه المهمة ، كما أوكل تعليمهن الى معلمين موثوق بهم .

ولم تكن الدولة بمعزل عن هذه الحركة التعليمية ، وانما شاركت فيها وتدخلت في توجيهها بأكثر من أسلوب .

ففى مجال الحياة التشريعية قصرت الدولة الأمور على المذهب المالكي مما صبح الحياة التعليمية كلها بهذا المذهب ، كما أن الدولة قامت بدفع مرتبات للفقهاء في حالات كثيرة وخاصة على عهد المرابطين والموحدين وبنى نصر — كما اهتمت الدولة ببناء أماكن تعليمية ، فشيّدت المساجد ، أكثر المراكز التعليمية في الاسلام عموما ، والمكاتب — وبعد ذلك المدارس .

وقد لعبت المجالس العلمية التى كان يعقدها الأمراء والخلفاء والملوك ، دورا هاما جدا في تطوير الحركة التعليمية ، وفى الارتقاء بالمستوى العلمى لفقهاء الأندلس وفى اثارة الحماسة بين الأدباء والشعراء وغيرهم .

وبعد القيام بهذه الدراسة ، تفتحت أمامى أبواب كثيرة تجب معالجتها وطرحت كثير من الأسئلة التى تحتاج الى دراسات منفصلة متخصصة — منها :

١ - التأثير الذى تركه نظام التعليم الأندلسى على الجاليات اليهودية والمستعربين المسيحيين •

٢ - دور قواعد اللغة العربية فى إعادة بناء قواعد اللغة العبرية وفى قواعد اللغة القشتالية •

٣ - تأثير المؤسسات التعليمية الأندلسية على نظام الجامعات فى أسبانيا المسيحية ، والصلة بينهما •

٤ - الصناعات التعليمية الخاصة بالورق والقلم والدواة والحبر وكذلك المكتبات ، وإعادة الكتب ، والنواحى الأدبية المتعلقة بهذه المجالات •

ولكننى رأيت أن أقصر بحثى على هذا العرض ، فاتمنا بذلك الباب أمام كثير من الدراسات التى يمكن لها أن تستكمل هذا المجال •



فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| الاهداء | ٣ |
| تقديم ، للدكتور عبد الفتى عيود | ٥ |
| تمهيد : المسرح الجغرافى | ١٥ |
| الباب الأول : الدولة والتعليم فى الأندلس | ١٩ |
| الفصل الأول : منذ الفتح الى نهاية الدولة الأموية | ٢١ |
| (أ) مقدمة | ٢١ |
| (ب) التعليم فى عصر الولاة | ٢٧ |
| (ج) عصر الامارة | ٣٢ |
| انتشار المذهب المالكى | ٣٧ |
| (د) عصر الخلافة | ٦٣ |
| (هـ) الدولة العامرية | ٩٩ |
| قرطبة الخلافة | ١٠٩ |
| الفصل الثانى : منذ سقوط الدولة الأموية الى سقوط غرناطة | ١٢٤ |
| (أ) عصر الطوائف | ١٢٤ |
| (ب) المرابطون والموحدون | ١٢٨ |
| (ج) الدولة النصرية | ١٣٦ |
| الفصل الثالث : بعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم فى الأندلس | ١٤٣ |
| أولاً - التدخل فى المنهج التعليمى | ١٥١ |
| ثانياً - التدخل فى شئون المعلمين | ١٥٥ |
| ثالثاً - الاشراف على أماكن التعليم وعلى انتظامه | ١٦٠ |

| | |
|-----|--|
| ١٦٢ | رابعا - استقبال المعلمين الشرقيين في الأندلس |
| ١٦٣ | خامسا - بناء الأماكن التعليمية |
| ١٦٥ | الباب الثاني : المراحل التعليمية في الأندلس |
| ١٦٧ | مقدمة |
| ١٦٩ | المراحل التعليمية حسب المنهج التعليمي |
| ١٧٠ | المراحل التعليمية حسب مكان الدراسة |
| ١٧١ | الفصل الرابع : المرحلة التعليمية الأولى |
| ١٧١ | المكان |
| ١٧١ | دور المنزل |
| ١٧٣ | المكتب |
| ١٧٤ | المكتب في الأندلس |
| ١٧٦ | أماكن وجود المكتب |
| ١٨٠ | سبل الذهاب إلى المكتب |
| ١٨٤ | المنهج التعليمي في المرحلة الأولى |
| ١٩٤ | طريقة أبي بكر بن العربي في التربية |
| ١٩٧ | طريقة التعليم في المكتب |
| ٢٠٢ | بعض النواحي التربوية في المرحلة الأولى |
| ٢٠٥ | المعلمون |
| ٢١٢ | أجرة التعليم |
| ٢١٧ | تعليم البنات في المكتب |
| ٢١٩ | الفصل الخامس : المرحلة التعليمية الثانية |

| | |
|-----|------------------------------|
| ٢١٩ | أماكن التعليم في هذه المرحلة |
| ٢١٩ | (أ) المنزل |
| ٢٢٢ | (ب) المسجد |
| ٢٣٦ | المنهج الدراسي |
| ٢٣٧ | ١ - العلوم الدينية |
| ٢٤٠ | علم التفسير |
| ٢٤١ | علم القراءات القرآنية |
| ٢٥٠ | الفقه |
| ٢٥٦ | علم الحديث |
| ٢٦٢ | علم الكلام |
| ٢٦٥ | ٢ - العلوم اللسانية |
| ٢٦٦ | اللغة |
| ٢٦٩ | النحو |
| ٢٧٤ | علم البيان |
| ٢٧٥ | الأدب |
| ٢٨١ | ٣ - العلوم العقلية |
| ٢٨٢ | (أ) المجموعة الطبية |
| ٢٨٢ | ١ - علم الطب والصيدلة |
| ٢٨٧ | ٢ - علم النبات |
| ٢٨٨ | (ب) العلوم البحتة |
| ٢٩٢ | (ج) العلوم الفلسفية |

| | |
|-----|--|
| ٢٩٣ | (د) العلوم الاجتماعية |
| ٢٠٣ | طرق التعليم في المرحلة الثانية |
| ٢٠٣ | ١ - الأقرء |
| ٢٠٤ | ٢ - الأملاء |
| ٢٠٥ | ٣ - المناظرة والحوار |
| ٢٠٨ | أوقات التعليم |
| ٢١٠ | حلقات التعليم |
| ٢١٥ | المطعمون في المرحلة الثانية |
| ٢١٨ | أجر المعلمين في المرحلة الثانية |
| ٢٢٠ | ملابس المعلمين |
| ٢٢١ | العلاقة بين المعلم والطالب |
| ٢٢٤ | تعليم النساء في المرحلة الثانية |
| ٢٢٦ | الفصل السادس : المرحلة التعليمية الثالثة |
| ٢٢٩ | نظام المدرسة في الإسلام |
| ٢٣٤ | المدرسة في الأندلس |
| ٢٤١ | المدارس المؤكدة |
| ٢٤١ | ١ - مدرسة مرسية |
| ٢٤٢ | ٢ - مدرسة مالقة |
| ٢٤٤ | ٣ - بدايات المدارس في غرناطة |
| ٢٤٦ | (أ) المدرسة النصرية |
| ٢٤٦ | مؤسس المدرسة النصرية |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| بعض أساتذة المدرسة النصرية | ٣٥٧ |
| (ب) مدارس غرناطية أخرى غير النصرية | ٣٦٤ |
| الرحلات | ٣٦٥ |
| الاجازات العلمية | ٣٧٠ |
| الباب الثالث : التعليم الخاص | ٣٧٥ |
| مقدمة | ٣٧٧ |
| الفصل السابع : مظاهر الاهتمام بتعليم الخاصة | ٣٨١ |
| أولا اهتمام خاصة الأندلس بتعليم أبنائهم | ٣٨١ |
| (أ) اختيار المودب علميا وخلقيا | ٣٨١ |
| (ب) الاهتمام براحة المعلمين وكرامتهم | ٣٨٦ |
| (ج) الاحتفال ببدايات جلوس أبنائهم الى العلم، ومتابعة تعليمهم | ٣٨٧ |
| (د) المساهمة في وضع المنهج التعليمي لأبنائهم | ٣٩٢ |
| ثانيا : أماكن تعليم الخاصة | ٣٩٣ |
| تعليم الرصفاء | ٣٩٩ |
| تعليم الرهاكن | ٣٩٩ |
| ثالثا : المنهج التعليمي لتلك الفئة | ٤٠١ |
| دور النساء | ٤٠٥ |
| بعض الجوانب الأخرى | ٤٠٨ |
| الفصل الثامن : اهتمام الخاصة بالتعليم | ٤١١ |
| خاتمة | ٤١٩ |



